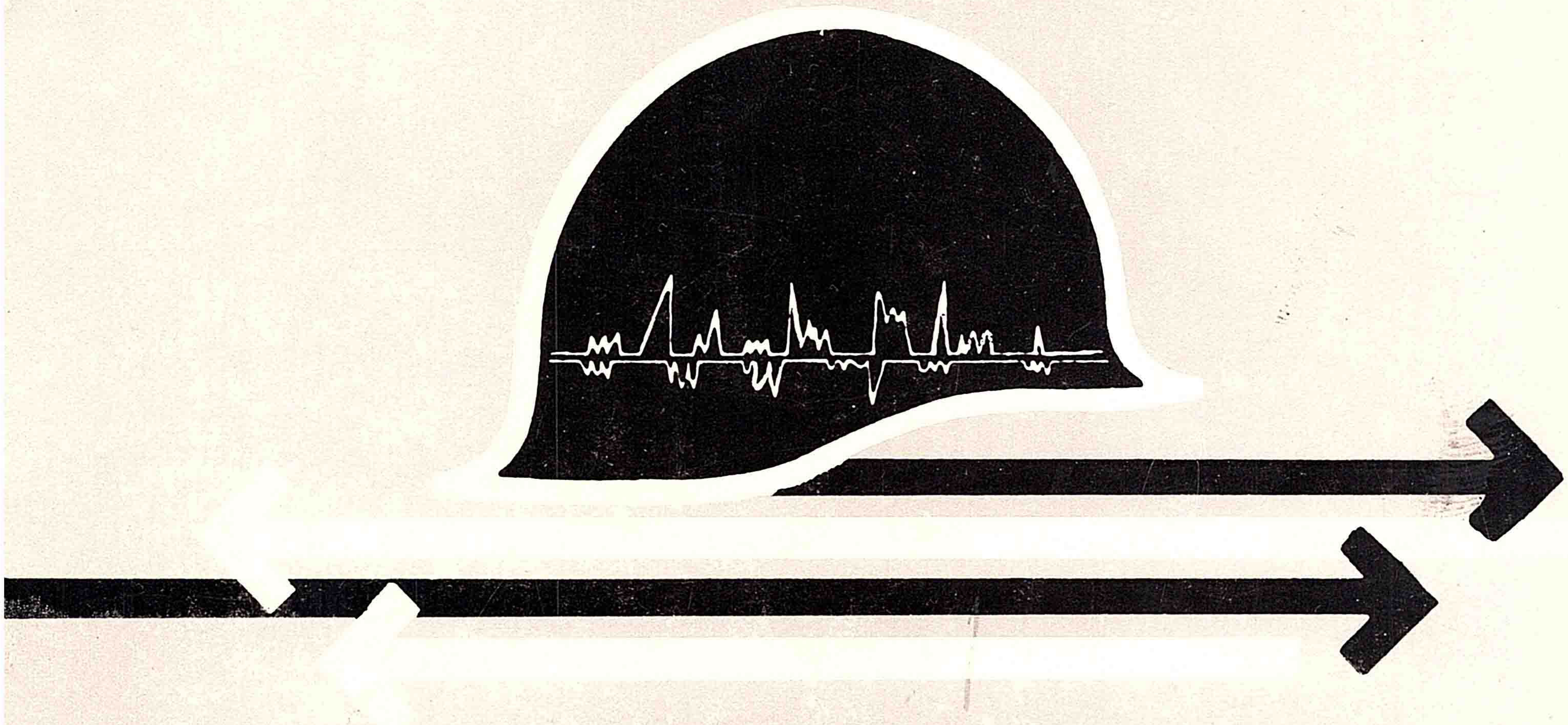
القائد

پاتون

درس في القيادة



بقلم : ه. اسام

ترجمة : نديم خوري

تدقيق : عبد الكريم ناصيف

القائد

باتون

صدر هذا الكتاب بالانكليزية تحت عنوان:

PATTON

A STUDY IN COMMAND

by

H. Essame

Printed in the United States of America

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٤

القائد

باتون

درس في القيادة

بقلم : هـ . اسام

ترجمة : نديم خوري

تدقيق : عبد الكريم ناصيف

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تمهيــــد

هذا البحث، كما أرى، سجل رجل كرس نفسه للحرب، رجل كان باستطاعته ان يعيش بأمن وسلام دون ان يتعرض لأي لوم أو أذى، ولكنه اختار خوض الحروب. كان باستطاعته ان يعيش حياة الدعة والراحة ولكنه فضل حياة المشقة والتعب: حياة الحرب، وكان باستطاعته ان يحصل على المال والأمان، ولكنه اختار على المال الكثير التفرغ للحرب والقتال. كل هذا يبين كم كان الرجل مكرساً نفسه للحرب. أما فيما يختص بصفاته البارزة كجندي فتظهر بكل جلاء عندما نعلم انه كان مولعاً بالمغامرات، دائم الاستعداد للقيام بقيادة هجوم على العدو سواء كان ذلك ليلاً أو نهاراً، وانه عندما كان يجد نفسه في موقف حرج يظل متمالكاً أعصابه، محتفظاً بهدوئه ورباطة جأشه، يشهد له بذلك كل من كان معه في أي مكان. عرف عنه انه كان يتحلى بجميع صفات القائد التي يمكن ان يتمتع بها انسان من طرازه. كان يتمتع أيضاً بمقدرة فائقة على التخطيط للوسائل التي يمكن بوساطتها تموين جيشه وعلى التأكد من نجاح هذا التخطيط، وكان باستطاعته ان يجعل كل من حوله يعترفون بان «كلياركس Clearcus» يجب ان يطاع. وجدير بالذكر انه حقق هذه النتيجة بقسوته وصلابته، فقد كانت له طلعة صارمة وصوت أجش، أما عقوباته فقد كانت قاسية وكثيراً ما كانت تحدث وهو في حالة غضب... بالنسبة له كان العقاب مسألة مبدأ، وذلك لأنه كان يعتقد ان جيشاً بغير نظام لا يرجى منه خير أبداً. وقد اشتهر عنه قوله ان على الجندي ان يخاف رئيسه أكثر من خوفه من عدوه إذا أراد أن يصبح جندياً

يصلح للقيام بمهام الحراسة أو يكف عن فعل شيء يضر بفريقه أو يذهب إلى ساحة النزال دون ان يكون في ذهنه أية أفكار أخرى. وهكذا حدث انه عندما كانت تتأزم المواقف كان الجنود يمنحونه ثقة عمياء ولا يرغبون ان يكون على رأسهم سواه. وقد قالوا عنه ان نظرته الصارمة كانت تتحول في تلك المناسبات القاسية إلى نظرة مرحة وإن قسوته كانت تتجلى على شكل ثقة في مواجهة العدو، فلا تعود بالنسبة لمرؤوسيه قسوة وصرامة.. بل شيئاً آخر يجعلهم يشعرون بالأمان.. وما ان بدأ جيشه باحراز الانتصارات حتى غدا بامكان المرء ان يدرك أهمية تلك العوامل التي جعلت من رجاله جنوداً بارعين.

الفصل الأول

انطلاقه سريعة

«المحاباة سر الكفاءة»
اميرال الاسطول اللورد فيشر

في وقت مبكر من ٢٠ تموز ١٩١٧ غادر الجنرال جون بيرشينغ، القائد العام للقوة الأمريكية العاملة خارج أمريكا، باريس وانطلق في سيارته إلى الشمال على الطريق الدولي الذي يؤدي إلى بوفيز ومونترويل والقناة الانكليزية، يرافقه معاونه العقيد هاربورد ورئيس أركانه العقيد «الفورد» ومرافقه النقيب «جـ. اس باتون» الابن. كان ذلك في موسم الحصاد. وعلى جانبي الطريق شبه الخالية كانت تمتد حقول ذرة استزرعها الانسان منذ أكثر من ألفي عام كما كانت ترتفع أشجار الحور وكأنها تناطح السحاب. وكان بامكان الناظر أن يشاهد هنا وهناك قرى قديمة العهد ومزارع وغابات صغيرة كانت تزيد المنظر جاذبية وفتنة، حتى بدا وكأن تلك الأراضي أجمل ما في العالم، إضافة إلى كونها أكثرها أماناً واطمئناناً. بيد أن ذلك المشهد ما لبث ان تغير: لقد بلغوا المواقع الخلفية لمنطقة الجيوش البريطانية. ارتال طويلة من المشاة باللباس الكاكي أخذت تمر بخطوات متثاقلة نتيجة الأحمال الثقيلة التي كان الجنود يحملونها على ظهورهم والعرق يتصبب من جباههم، ولكن الخطوات كانت منسجمة متناسقة أثناء السير على الحصى، كما ارتفع غبار كثيف أثارته السيارات الشاحنة ذات الإطارات الحديدية، والمدافع التي كانت تجرها الخيول إضافة إلى عربات الذخيرة.

عند الظهيرة وصل الموكب بلدة «مونترويل» الصغيرة ذات الأسوار، حيث أقيم

مقر القيادة العامة . هنا رحب بهم الجنرال «فاوك« مساعد القائد العام البريطاني صديق «بيرشينغ« مذ كانا كلاهما مـراقباً لـدى القوات اليـابانيـة في «منشوريـا» وقد وقف حارس شرف بالغ الأناقة من وحدة هي أقدم وحدة عسكرية في الجيش البريطاني ألا وهي سرية مدفعية الشرف على أهبة الاستعداد لتحية «بيرشينغ». بعد الغداء تجول بصحبة جماعته في المقر العام منقباً عن المعلومات الخاصة بالتنظيم البريطاني فأدهشه ان يكتشف انه لا يختلف إلا قليلاً عن تنظيمهم وكانت الشمس على وشك المغيب عندما وصل الموكب في النهاية إلى قصر يكاد يكون مخفياً بين شجيرات الكستناء في «بلنديك». هنا رحب بهم القائد البريطاني العام، السير دوغلاس هيغ «الذي اعتاد ان ينزل في هذا المكان عندما لا يكون في الجبهة حيث مركز قيادته. لم يشوش هدوء واطمئنان ذلك المساء الصيفي الرائع إلا دوي المدافع الذي كانت تحمله نسائم المساء، دوي ضعيف من الجهة الشرقية، ولم يأل المضيف جهداً في جعل ضيوفه يشعرون بأنهم في بيوتهم لكونهم من أعز الأصدقاء. في ذلك المساء سجل المارشال في مفكرته ما يلي:

يوم الجمعة ٢٠ تموز... تحادثت مع الجنرال «بيرشينغ» قبل العشاء وبعده أيضاً. لقد أعجبت كل الإعجاب بمظهره الذي يدل على التهذيب والهدوء - وهذا غير اعتيادي بصفته أمريكياً. كان تواقاً لأن يتكلم وكان يدرك كل الادراك عظمة الواجب الملقى على كاهله. وقد بدأ يدرك ان الفرنسيين أصبحوا في حالة شديدة من الوهن وكأنهم قشة حطمتها الرياح.

أما مساعده ورئيس أركانه فهما أدنى نوعية منه ويجهلان، كل الجهل، مشاكل الحرب العصرية انما يمكنني أن أقول إن رئيس أركانه شخص لطيف رقيق المظهر له وجه كوجه مهرج أحدب وبما أن مساعده خدم مدة طويلة في مانيلا وأماكن أخرى شديدة الحرارة فانه يبدو أقل ذكاء وفطنة من الآخرين. أما النقيب المرافق فهو رجل محب للخصام يتعطش شوقاً للعراك». وهكذا استطاع جنرال من جنرالات الفرسان، وبنظرة سريعة، ان يجمل صفات «باتون» - كما سبق لـ «بيرشينغ» ان فعل من قبل - بوصفه ضابطاً شاباً وافق هوى من نفسه وسوف يكون له شأن عظيم. ولعله سيدغدغ المشاعر العامة المعاصرة والسائدة في كل من العالم الغربي والاتحاد السوفييتي والصين ان نسجل هنا، ان قائد المستقبل لأعظم الجيوش الأمريكية فتنة ولد لاسرة من حثالة المجتمع وتمكن بجهوده الخاصة وجدارته الخالصة ان يصل إلى القيادة العليا لكن هذا ليس ممكناً، فالواقع ان «جورج سميث باتون» الأصغر ولد يوم الأربعاء في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ١٨٨٥ في ظروف رخية لوالد ثري من كاليفورنيا هو محام وصاحب مزرعة تبلغ مساحتها

١,٠٠٠ فدان انكليزي هي مزرعة ويلسون ـ باتون في «سان ـ مارينو» في ضواحي باسادنا. كانت عائلة باتون قد جاءت بالأصل من اسكتلندا مع اللاجئين اليعاقبة، كما انه لم يحرم، مثل «ولينغتون» و«مونتغومري» من محبة الأم ومن عطف النساء في فترة صباه، بل ربما كانت عمته قد أسبغت عليه من هذه العاطفة الأخيرة أكثر من نصيبه. إذن ينبغي ان نستبعد كل تعليق على صعيد الأفكار السايكولوجية الراهنة وعلل الأطفال وما كانوا قد حرموا منه. كما انه لم يكن مثل «تشرشل» الذي حكم عليه بالعيش في مجتمع كله خدم. يقيناً كان ذلك الفتى مولعاً بأبيه إلى درجة العبادة كما ان والده، من ناحيته، لم يوفر جهداً في تلقين ابنه كل ما يفيده كشاب وخاصة الممارسات الرئيسية الخاصة بالذكور: ركوب الخيل، السباحة، اطلاق النار، صيد الحيوانات والطيور وصيد السمك. ومع ان باتون «الأب» كان يعيش في «كاليفورنيا» فانه ما برح في صميم قلبه ملاكاً فرجينيا. وجدير بالذكر ان والد هذا الأب كان قد قتل وهو برتبة عقيد في معركة «سيدار كريك» كما ان سبعة من أعمامه كانوا ضباطاً في جيش الاتحاد.

لقد زار باتون الأب بصحبة ابنه ميادين قتال الحرب الأهلية وكانا فخورين بسلالتهما وتقاليدها العسكرية. وجدير بالذكر ان هذا الفتى لم يشكّ منذ نعومة أظفاره بأن مصيره لن يكون إلا قيادة جيوش بلاده، وان أعظم امتياز يمكن ان يتمتع به المواطن هو ان يستطيع، بكل حرية، حمل السلاح للدفاع عن علم بلاده، كما تعلم ان الشجاعة أسمى نوع من أنواع الفضيلة، وقد كان والده رجلاً مثقفاً ومنفتحاً كما كانت له نظرة مغايرة للعرف والتقليد في ما يتعلق بالتربية والتعليم وهي ان يتعرف الصبي منذ سنواته الأولى إلى أفضل ما قيل أو نسجته الأفكار في العالم، وكان على من هم أكبر منه ان يقرؤوا له كل ذلك دون اهتمام كبير بالقراءة الشكلية أو الكتابة. ومن الجلي ان الكثير من هذا الفيض الثقافي قد مر في ذهن جورج الشاب، أما ما ثبت منه في رأسه فهو الأساطير والخرافات، وشعر الملاحم البطولي والألياذة «ترجمة بوب» ثم «أناشيد من روما القديمة» لـ «ماكولي» وأشعار «كيبلينغ» وفوق هذا كله «الكتاب المقدس» وخاصة منه العهد القديم الذي يعتبر مرشداً رائعاً على صعيد تطوير الروح الهجومية في المعارك والحفاظ على المعنويات. ظل باتون طيلة حياته يحتفظ بمحبته للشعر وكان يستطيع ان يتلو عن ظهر قلب قطعاً شعرية طويلة. وغني عن البيان ان هذه الانطباعات كان لها تأثير بالغ في تكوين شخصيته في المستقبل. فعندما ذهب إلى المدرسة وهو في الحادية عشرة من عمره لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة كما كان جاهلاً بالحساب بالطبع. وبديهي ان هذا الجهل شكل عقبة كأداة في وجهه تعذر عليه تجاوزها خلال دراساته الأكاديمية وقد بقيت ملازمة

له طيلة عهد الرجولة. ومع انه تعلم كيف يعبر عن آرائه كتابة أحسن تعبير إلا أنه لم يتعلم الاملاء مطلقاً لذا كثرت أخطاؤه الاملائية، وبالاضافة إلى ذلك كان ضعيفاً في الرياضيات، وعندما حان الوقت احتذى حذو أبيه وجده فانتسب إلى معهد «فيرجينيا» العسكري حيث كان أحد أبطاله هو أستاذ المدفعية - «ستونوول جاكسون». تبع ذلك بشكل آلي تعيينه في «وست بوينت»، وكان ذلك سنة ١٩٠٤.

منذ انخرط باتون في سلك الجندية كان قد عقد العزم على ان يصل إلى أعلى درجة يصلها طالب في مدرسة حربية أي مرشح ضابط، لكن بسبب ضعفه في الرياضيات استغرق تحقيق هذا الهدف خمس سنوات بدلاً من الأربع سنوات الاعتيادية. ومما يجدر ذكره هنا انه كان دائماً الأول في ما يتعلق بالنظم العسكرية والسلوك. يميل المؤرخون العسكريون، لكونهم طلاباً بطبيعتهم، إلى رسم صورة عن أبطالهم هي صورة الموهوبين الذين يتمتعون بالملكة الذهنية التي يعتقدون انهم هم أنفسهم يتمتعون بها. لكن لسوء الحظ، لا تنطبق النظرية التي تقول إنه ينبغي ان يكون القادة العظام مثقفين ثقافة عالية، على سجلات «باتون» في «وست بوينت» ولا على سجلات «مونتغومري» والكساندر في «ساندهرست»، إذ لم ترتفع انجازاتهم الأكاديمية عن مستوى «المتوسط». إذن، يبدو لنا ان سر النجاح الذي حققه هؤلاء في القيادة العليا أثناء الحرب العالمية الثانية يكمن في مكان آخر. على أنهم جميعاً يشتركون بأنهم كانوا يمارسون الألعاب التي تلهب الحماس، وأخص بالذكر هنا «باتون» الذي كان يندفع بكل غيرة وحماس لكي يتفوق في المباريات الفردية: السباحة، ركوب الخيل، اطلاق المسدس سباق الضاحية ومسابقات الجري في المباريات العامة، بينما كانت اهتماماته ضئيلة في مباريات الفرق: حتى لنكاد نشك فيما إذا كان قد اعتبر نفسه يوماً من الأيام عضواً متعاوناً مع فريق بنسبة ١٠٠٪، في عام ١٩٠٩ قلد رتبة ملازم ثان في فرقة الخيالة. كان طوله يتجاوز الست أقدام، وكان حسن البنية جميل المنظر، واثقاً بنفسه إلى حد الاعتداد. بعد سنة واحدة تزوج «بياتريس آير» ابنة رجل صناعي غني وخبير باستثمار الأموال إضافة إلى كونه ذا نفوذ كبير.

وقد أسفر ذلك الزواج عن حياة كلها سعادة وهناء، إذ كانت الزوجة على درجة عالية من الذكاء والثقافة كما أظهرت استعداداً رائعاً لمصاحبة زوجها حيثما كان مركزه، بالرغم من انها كانت قد اعتادت على حياة كلها رفاهية ورغد. بذلك رضيت ان تتحمل العناء والسأم الناتجين عن السكن في المراكز النائية التي كانت ما تزال بدائية وفي أولى مراحل التطور كما أنها لم تأل جهداً في القيام بواجبها كزوجة جندي. كانت بياتريس تتمتع بشجاعة شخصية بارزة. وبالرغم من انها دأبت على الصيد طيلة حياتها وفي النهاية

ماتت بسبب حادثة في حقول الصيد فمن المحتمل انها لم تمارس هذا العمل إلا إرضاءً لرغبة زوجها. كانت تهوى اليخوت والابحار بها وكانت تجيد اللغة الفرنسية ومنذ اليوم الأول لزواجها وضعت نصب عينيها هدفاً أساسياً في الحياة ألا وهو تشجيع ومساندة زوجها في السير قدماً على الطريق التي رسمها لنفسه. كانا في منتهى السعادة وقد باركهما الله كما بارك «مانغين» ومتع أعينهم بأولاد سعداء أذكياء. كانت «بياتريس» تتحلى بمواهب اجتماعية عظيمة وما لبثت ان أصبحت خبيرة في أساليب وقاية زوجها من التعقيدات الاجتماعية التي كان يتورط فيها بسبب مزاجه الحماسي المفعم بالحيوية والنشاط. وقد كان هناك شبه مدهش إلى حد يلفت الأنظار بين هذين الزوجين السعيدين وبين «ماونتباتن» وزوجته «ادوينا». ولم يكن بمستطاع أية امرأة ان تؤثر على «باتون» إلا زوجته ـ لقد استطاع الاثنان بفضل ثروتهما وعلاقاتهما بذوي النفوذ ان يتنقلا في الأوساط الاجتماعية الثرية المدركة لشؤون الحياة، أكثر من معظم معاصريهم في جيش الولايات المتحدة. وكانا يكرمان الضيف بكل سخاء ويحتفظان باسطبل فيه أروع جياد السباق والخيول الخاصة بلعبة «البولو». في سنة ١٩١٢ عين باتون مرافقاً للجنرال ليونارد وود، رئيس الأركان، وبهذا تمكن من ان يلقي نظرة مبكرة على الأعمال الداخلية لذوي النفوذ والسلطة في الجيش، وفي غضون ذلك عقد باتون أواصر الصداقة مع وزير الحربية «ستيمسون» الذي احتاج إلى عونه عندما عاد لهذا المنصب مرة ثانية في الحرب العالمية الثانية وأثناء إدارة «فرانكلين روزفلت».

كانت هذه السنوات المبكرة شبيهة إلى حد ما بالسنوات التي كان يقضيها الضباط الشبان الأثرياء في لواء الحرس البريطاني والخيالة قبل سنة ١٩٣٠ إذ كان كلا المكانين متنفساً مفيداً لطاقاتهم كما كان يخفض من مصروفات الخزينة إلى أدنى حد ليزيد تكديس الأموال لدى طبقات المجتمع الأكثر ثراء.

كانت تلك الأيام كلها بهجة وسعادة، بيد ان «باتون» لم يسمح لتلك الحياة الاجتماعية الصاخبة بأن تتدخل في ما عقد عليه العزم وهو ان يبز جميع أقرانه في مجال الرياضة البدنية والمهارة في استخدام السلاح. عام ١٩١٢ وقع الاختيار عليه كي يمثل الولايات المتحدة في مباريات الخماسي العسكري في دورة الألعاب الأولمبية المنعقدة في ستوكهولم ـ وذلك على حسابه الخاص بالطبع.

يتألف الخماسي العسكري من: سباق حواجز لمسافة طويلة، رمي بالمسدس، سباق سباحة قاس، مبارزة بالسيف وأخيراً سباق ضاحية لمسافة ٥,٠٠٠ متر. كانت

النتيجة التي أحرزها باتون طيبة إذ انه نال المرتبة الخامسة بين ٤٣ من الرياضيين العسكريين من كل أنحاء العالم. في طريقه إلى الوطن توقف في مدرسة الخيالة الفرنسية في سومر كي يشترك في دورة للمبارزة بالسيف تحت إشراف خبير الجيش الفرنسي المساعد «كليري». ومالبث ان تصاحب الاثنان. التحق باتون لدى عودته إلى الولايات المتحدة، بمدرسة الخيالة في «فورت رايلي» وسرعان ما وقع عليه الاختيار للالتحاق بدورة متقدمة في فن الفروسية لسنة ثانية. لقد أثار اهتمام باتون «تاريخ الجيش الفرنسي الطويل وتعلق به خياله، لذلك، وبصحبة زوجته، عاد إلى فرنسا في السنة التالية والتحق بمدرسة الخيالة الفرنسية في سومر كي يتعمق في دراساته أكثر وأكثر وعلى حسابه الخاص. وبدءاً من هذا التاريخ بدأت صداقته الوثيقة مع (الملازم الأول) «هاودمون» (في ما بعد الجنرال هاودمون) أحد المدرسين في فن الفروسية. في ذلك الوقت كانت مذكرات «البارون الجنرال دي ماربو» أحد مرافقي نابليون «قد وصلت إلى ذروة انتشارها في الجيشين الفرنسي والانكليزي. ورغم ان هذه المذكرات كانت أحياناً مضللة إلا أن «ماربو» استطاع أن يعيد رسم صورة عن روح حملات الامبراطور بالاضافة إلى شرح الحياة الداخلية في مقرات الامبراطور: وحري بالذكر انه استطاع ان يسيطر على خيال «باتون» الذي أخذ بمساعدة زوجته، يجهد نفسه للاطلاع عليها باللغة الفرنسية. لقد صرف العديد من الساعات كي يناقش هذه الحملات مع صديقه «هاودمون» مع التركيز على فهم الكيفية التي استطاع بها «نابليون» ان يسيطر على جيشه وعلى جيوش العدو بشكل كامل ولمدة طويلة ـ وقد تمكن «هاودمون» من اقناع «باتون» بأن الحرب مع المانيا وشيكة. لم يبق عند «باتون» أي شك فيما يتعلق بتعاطفه بل إنه فكر جدياً في ان يحارب مع فرنسا إذا رفضت بلاده التورط في ذلك القتال.

أثناء اقامته في «سومر» سنحت لباتون الفرصة في أن يتجول في مقاطعة «النورماندي وبريتاني» بصحبة زوجته، ولدى عودته إلى الوطن رفع تقريراً إلى «واشنطن» ضمنّه استطلاعاته التي بقيت دون ان يهتم بها أحد حتى ١٩٤٤ وقد تنبأت تلك الاستطلاعات على نحو جازم بسهولة تحرك القوات هناك وإمكانية تنقلها عبر المرتفعات.

خلال وجوده في «فورت رايلي» أحرز، بما تمتع به من مهارة في استعمال السلاح، لقب الشرف «رب السيف» بالاضافة إلى صفة «مدرب سلاح». وفي تلك السنة قبل تصميمه لسيف جديد يحل محل سيف الفرسان المعقوف المستخدم في ذلك الوقت. من ميزات هذا السيف ان له أقنية ضيقة تسهل سيلان الدم بكل حرية. لا يحتوي الدليل الرسمي لأصول استخدام هذا السيف التي نقحها «باتون» نفسه في ذلك الوقت، على

أية اشارة تدل على حصول جدال بشأنها. لقد كان شعاره أبداً: الهجوم، الهجوم دائماً وقد تسنى له الوقت أيضاً لتنقيح تعليمات استخدام المسدس.

في خريف ١٩١٥ نقل «باتون» إلى «سييريا بلانكا، تكساس» ذات الجو الأقل رقياً وثقافة، وذلك للقيام بمهمة دوريات خيالة الحدود. هنا كان خطر العصابات المكسيكية ماثلاً دائماً وأما الحياة فلم يكن بالامكان ان يعيشها الانسان إلا وفق الطريقة التي ألفناها في السينما: رجال بوجوه صارمة ينتعلون أحذية غليظة ذات مهاميز ويتمنطقون بمسدسات طويلة، وهناك أيضاً راعيات البقر الجسورات ذوات القلوب الذهبية ثم الحانات البراقة المبهرجة. أما العدالة فكانت تطبق بكل عنف. لم يجد آل «باتون» أية صعوبة في ان يكيفوا حياتهم طبقاً لظروف هذا المجتمع النشيط المفعم بالحيوية، بل الواقع أن الزوج والزوجة وجداه مثيراً ومساعداً لعقد أواصر الصداقة مع الكثيرين كما انهما نالا استحسان وصداقة قدماء المستوطنين في تلك الأرجاء.

هل كان «بانشوفيلا» مجرد قاطع طريق أم بطلاً من المدافعين عن الفقراء والمظلومين؟ سؤال يحتاج إلى الأخذ والرد، أما حكومة الرئيس «وودرو ويلسون» فقد اعتبرته مصدر ضيق وازعاج. إذ قام «فيلا» هذا في أوائل ١٩١٦، آملاً ان يربك حكومة الرئيس «كارانزا»، بغارة ليلية على كولمبس في نيومكسيكو وعلى المعسكر النظامي المتمركز هناك. فاضطر «ويلسون» لأن يجهز حملة تأديبية تحت قيادة اللواء «جون بيرشينغ» قوامها ١٥,٠٠٠ رجل وكادت في النهاية، ان تورط الولايات المتحدة بحرب شاملة مع المكسيك، في الوقت الذي كان فيه ويلسون يعلن للعالم وخاصة للحلفاء بأن هناك ما يسمى بالترفع عن القتال. حالما علم «باتون» بحشد هذه القوة سارع بالمثول أمام «بيرشينغ» في مقر رئاسته مصراً على الاشتراك في الحملة. وبعد عدة مرات من الرفض استجاب «بيرشينغ» ووافق ان يأخذ «باتون» معه بصفة آمر مقر ومعاون ينوب منابه.

توغلت الحملة حوالى ٤٠٠ ميل داخل المكسيك، كان «فيلا» خلالها ينسحب كلما تقدم «بيرشينغ» وكما هو الأمر في جميع الحروب المضادة للعصابات كانت نتائج العمليات تافهة، أشبه بتسمير الهلام على الحائط. مع ذلك فقد اجبر الأمريكان «فيلا» ان يقسم قواته إلى مجموعات صغيرة اشتبك «باتون» مع إحداها وكانت تحت قيادة «كاردناس» وهو «جنرال» من قطاع الطرق ومن أركان «فيلا». أما رجال الدورية التي كان يرأسها «باتون» فكانت تتألف من ستة جنود وترجمان ومعهم بعض سيارات الجيش. كان قطاع الطرق متمركزين في مسكن من المساكن وما أن وزع «باتون» رجاله حتى ظهر على

المسرح ثلاثة رجال يمتطون الجياد، وبدأوا باطلاق النار وعلى الفور أطلق «باتون» النار على احدهما فرماه عن سرجه وبطلقة ثانية صرع حصان رجل ثان وبينما كان هذا يحاول رفع مسدسه رماه «باتون» برصاصة أصابت منه مقتلاً. في هذا الوقت استعاد الرجل الأول وعيه ورفع يده اليسرى إشارة الاستسلام ثم فجأة أطلق النار ولكنه أخطأ الهدف فأرداه «باتون» قتيلاً على الفور: كان هذا القتيل هو الجنرال «كاردناس» وبعد قتل قاطع الطريق الآخر عاد «باتون» إلى المعسكر الأمريكي وقد ربط القتلى على سلم الصعود إلى السيارة كي يعرضهم أمام «بيرشينغ». منذ ذلك الوقت وصاعداً توثقت عرى الصداقة بينه وبين «بيرشينغ» ولم تنته إلا بالموت في الحرب العالمية الثانية.

عندما توغلت الحملة حوالى ٤٠٠ ميل في عمق بلاد المكسيك قررت حكومة «ويلسون» انها قد لقنت قطاع الطرق درساً مناسباً، ونظراً لعدم موافقة الحكومة المكسيكية على هذه الاجراءات رأت ان تأمر «بيرشينغ» بالانسحاب إلى مسافة ١٥٠ ميلاً عن الحدود. فامتثل «بيرشينغ» للأمر فوراً.

كان لهذه الحملة البسيطة نتائج بعيدة المدى، فقد صنعت الشهرة لرجلين: أولهما «بيرشينغ» الذي تمكن بحسن معالجته لوضع معقد نتيجة عوامل سياسية بالغة الصعوبة أن يتيح الفرصة لويلسون في تجنب حرب شاملة مع المكسيك في لحظة شديدة الحرج، وان يعلن في الوقت ذاته ان الحملة قد حققت أهدافها. وأما الثاني فهو النقيب «باتون» معاون «بيرشينغ» الذي أثبت جدارته كجندي مقاتل في معركة قاسية اشتبك فيها مع العدو عن قرب، لذلك عندما اختير «بيرشينغ» عام ١٩١٧ قائداً للحملة الأمريكية في الخارج كان أحد قراراته الأولى طلب «باتون» كمرافق له وآمر لمقره.

منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدام «بيرشينغ» وأركانه «ليفربول» بعد أن هبطوا من الباخرة الانكليزية «البلطيق» في ١٠ حزيران، كان قد عقد العزم على أمرين: ان يكون تحت إمرته جيش أمريكي صرف وقطاع خاص في الجبهة، وألا يسمح بتوزيع جيشه غير المدرب والعديم الخبرة ليكون حشوة مدافع تسد الثغرات الناشئة في جبهة الحلفاء أو ترفع معنويات الحلفاء. هذا الإجراء، من وجهة النظر الامريكية، يعتبر الموضوع الرئيسي الذي تركزت عليه حملتهم في الحرب العالمية الأولى.

في ١٧ أيلول اتفق نهائياً على ان يكون القطاع الامريكي في «لورين»، وعلى ذلك نقل «بيرشينغ» مقره العام إلى ثكنة «شومون» المؤلفة من أربعة طوابق، وشومون هذه بلدة صغيرة في «المارن» الأعلى. هنا انكب «بيرشينغ» مع أركانه عاملين بأقصى جهد وأعظم

سرعة لرسم خطة لتنظيم جيش عرمرم (يتألف من مليوني رجل) وترتيب نظام للنقل لتموينه جيداً من قاعدتين في موانىءالمحيط الأطلسي : «بوردو» و«سان نازير» ومن هناك بواسطة السكك الحديدية إلى شرقي فرنسا. لقد واجه أركان «بيرشينغ» واجباً ضخماً للغاية ـ ساعات طويلة من العمل في المكاتب علاوة على مثبطات العزائم والمربكات والعمل المضني الذي لا بد وان يواجه أية قيادة جديدة فيما وراء البحار. في هذه الظروف أصبحت العلاقات الوثيقة التي تربط بين «باتون» و«بيرشينغ» عبئاً على كاهله. فقرر في الحال انه لم يأت إلى فرنسا كي يرتدي بنطلون الفرسان ويجلس على مقعد في مكتبه الصغير عند بوابة الثكنة. إنه لا ينسجم مطلقا مع شعوذات الأعمال الاحصائية وعمليات الاقناع والمداهنات والتملق وتسجيل الدعوات وحضور المؤتمرات المملة الطويلة ثم تحمل الأغبياء وسماجتهم بصبر جميل وبهجة ظاهرة بالاضافة إلى التغلب على مكائد الحلفاء ومؤامراتهم التي تترافق مع هذا النوع من الأعمال. إن هذه الناحية من التخطيط الاداري لا تنسجم مطلقاً مع ميدان تخصصه. ولذلك، ذهب في شهر أيلول إلى «بيرشينغ» وطلب منه ان يلحقه بوحدةمقاتلة. فهم «بيرشينغ» ووافق على طلبه : إذ لو كان محله لقام بتقديم نفس الطلب. منح خيارين: قيادة كتيبة مشاة أو الالتحاق بفوج دبابات كان العميد «صامول د. روكنباش» يقوم بتشكيله. في ذلك الوقت كان الكثيرون في جميع الجيوش ينظرون إلى الدبابات وكأنها دمى باهظة الثمن لم تظهر قيمتها الحقيقية بعد. وحين لم يكن هناك أية دبابة من تصميم أمريكي وصناعة أمريكية رأى «باتون» أن يخاطر بمستقبل حياته بالخدمة في فوج دبابات كان ما يزال في دورالتكوين فعلاً. لقد تصرف «روكنباش» بشكل ممتاز في تدبير أمور الفوج الجديد وإعداد كل ما يلزم له. أما «باتون» وقد رقي الآن إلى مرتبة رائد فقد أنيطت به قيادة وتدريب أول كتيبتين ستشكلان أول فوج. لم تقف أية مشكلة في وجه الانضمام إلى هاتين الكتيبتين: لقد مال كثير من خيرة الجنود للخدمة في هذا الفوج الجديد. وكان كل الضباط والجنود الذي التحقوا بشكل طوعي يتمتعون بخصال رفيعة. لم يكن «باتون» يعرف إلا القليل في مايتعلق بالدبابات ولم يكن أمامه أية قاعدة يمكنه الاسترشاد بها. ولذلك التحق بمدرسة المدرعات البريطانية في «بوفينغتون» من منطقة «دورست» ثم المدرسة الفرنسية في «شابليو» ليكتسب ما يستطيع من معلومات هناك. وحيثما كانت توجد عمليات دبابات ذات شأن على طول الجبهة كان «باتون» يسارع للمراقبة والتعلم.

تعتبر معركة «كامبري» في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ بصورة عامة تاريخ ميلاد فن الحرب المدرعة حسب مفهوم النصف الأول من القرن العشرين. فهجوم «هيغ» الكبير

الذي كان قد بدأ في ٣١ تموز منطلقاً من شرقي «أيبرز» واستمر من أواخر الصيف حتى نهاية الخريف كان قد توقف في ذلك الحين في أوحال «الفلاندرز» بشكل لا يمكن معالجته، لذلك فقد جاءت معركة «كامبري» في المنطقة المناسبة للدبابات في المرتفعات الحوارية المتموجة من الـ «سوم» فكرة مناسبة بعد طول تفكير. اشترك في هذه المعركة ثلاثة أفواج من الدبابات ـ عددها الاجمالي ٤٧٦ دبابة ـ بمساندة ١,٠٠٠ مدفع وست فرق من المشاة وقد بدأت هجومها دون التمهيد بالقصف المدفعي وقد حقق الهجوم مباغتة كاملة. تمكنت طلائع الجنود من التقدم سبعة أميال ونصف الميل خلال أربع ساعات ونصف وتمكن البريطانيون من الاستيلاء على جميع دفاعات هندنبرغ القائمة على جبهة الهجوم الأمامية. في تلك اللحظة بدا وكأن الفجوة التي كان يسعى الحلفاء إلى سدها منذ ١٩١٤ قد تحقق سدها فقرعت الأجراس في لندن تحية لذلك النصر. لكن ما لبث ان تلاشى كل أمل. فقد كانت الاعدادات غير مناسبة لاستثمار ذلك النجاح وبذلك فقد عنصر قوة الدفع وتمكن الألمان من الاستفادة من الوقت لاسترداد قواهم وبعد اسبوع قام الألمان بهجوم مضـاد عنيف ارجعوا فيه الانكليز القهقرى إلى خط انطلاقهم الأصلي.

حصل «باتون» في هذه المعركة على ما يمكن القول عنه بأنه معرفة دقيقة بما جرى، خاصة وقد عهد إليه القيام بجـولة في أماكن متعددة لاداء عدة مهمات، ونتيجة مشاهداته اقتنع تماماً بأهمية مساندة الأسلحة بعضها بعضاً وبأنه يمكن حتى للدبابات البدائية المتوافرة حينذاك إذا ما عملت بالتعاون مع الأسلحة الجوية والمدفعية وأسلحة المشاة أن تستعيد قدرتها الحركية والقتالية بسهولة وان الأفضلية الآن هي للانسان لا للمدفع. وما لبث «بيرشينغ» ان شاركه في هذا الاقتناع إلى درجة جعلته يلح في طلب ٥٠٠ دبابة إضافية، لكن لسوء الحظ لم يكن هنالك أية دبابة وشيكة الوصول من المصادر الامريكية. أما الانكليز والفرنسيون، وبسبب خسائرهم الفادحة، فقد كان من البديهي ان يضعوا احتياجاتهم من الدبابات في الدرجة الأولى. كان قد عرض على الفيلق الأمريكي الدبابات البريطانية طراز «مارك» وهي دبابات ثقيلة تزن الواحدة ٣٠ طناً وسرعتها خمسة أميال في الساعة وتحمل مدفعين من عيار ٥٧ ميلمتراً وأربعة مدافع رشاشة كما عرضت عليه الدبابة الفرنسية طراز «رينو» وهي دبابة خفيفة طاقمها رجلان تحمل اما مدفعاً من عيار ٣٧ ملمتراً أو رشاشين من نوع هوتشكيس انما قدرتها على المناورة والحركة أفضل من الدبابة البريطانية، فاختار «باتون» النوع الفرنسي. وطبقاً لذلك خصصت ٢٢ دبابة تدريب للوائه الذي كان حينذاك متمركزاً في مركز للتدريب على مسافة بضعة كيلومترات جنوبي «لانغرس»، أما البيوت المخصصة للجنود فكانت في القريتين الصغيرتين «بورغ»

و«برنز»، وعندما وصلت الدبابات كان «باتون» هو الوحيد الذي يعرف كيف يسوقها. وعلى الفور بدىء بتشكيل سرايا ولكل سرية ٢٤ دبابة أي دبابة واحدة لقائد السرية وثلاثة فصائل في كل منها خمس دبابات أما الثماني الباقية فتبقى تحت تصرف اللواء بصفة احتياطية. وهكذا بدأت كل سرية بدورها تستخدم الدبابات الاثنتين والعشرين المتوافرة بغرض التدريب، كما أرسل «باتون» بعض ضباطه إلى مدرسة مدرعات فرنسية كي يتعلموا تكتيك حرب المدرعات، أما الآخرون فقد قدم لهم تجربة قتالية فعلية وذلك في عمليات صغيرة أجراها مع فيلق الدبابات الفرنسي. وما لبث أولئك الضباط ان قدروا هذا الفيلق حق قدره واحترموا مهارة رجاله. وقد انصب التركيز بصورة حصرية تقريباً على التعاون الوثيق مع المشاة إثر قصف مدفعي يشكل سداً نارياً متحركاً.

كان باتون منذ البداية يصر على ان يتمتع لواؤه بأعلى المستويات سواء من حيث اللباس أو السير أو التحية حتى ولو كان ذلك بين أكداس القمامة المحيطة بمساكن الجنود.

وما لبث هذا النوع المتميز من التحية التي يستخدمها جنوده جميعاً أن أصبح معروفاً في كل الجيش الامريكي باسم تحية «جورج باتون». كان كل تهاون يلقى العقاب على الفور وان يكن هذا العقاب انسانياً دائماً ودون تحيز أو محاباة. لقد أضفى «باتون» على التدريب العملي الكثير من النشاط والحيوية والحماسة التي ميزت كل وحدة من الوحدات التي قادها، ولم يحل منتصف تموز ١٩٨١ حتى كان اللواء قد اكتسب شهرة ذائعة الصيت بوصفه أنشط ألوية الحملة الأمريكية في الخارج وأشدها حماساً. ولم يأل «باتون» جهداً، في ان يشارك هو شخصياً وجميع رجاله، لنشر دعاية واسعة على هذا الصعيد وإثباتاً لهذه الحقيقة.

ومن الجدير بالذكر هنا ان انهيار روسيا وانسحابها من الحرب في أواخر خريف ١٩١٧ كان قد جعل ميزان القوة الاستراتيجية تميل ضد الحلفاء بصورة مؤقتة. ولم يكن أحد يدرك بوضوح مثل «لودندورف» انه، إذا ما أرادت المانيا ان تربح الحرب، فعليها ان تهزم البريطانيين والفرنسيين قبل وصول فرق أمريكية على نطاق واسع من الولايات المتحدة، مما قدم للحلفاء مرة أخرى خدمة جلى. لقد قدر «لودندورف» ان ذلك سيحصل في تموز، وكان على صواب، وعلى كل حال فقد أوشك بفضل فن «برخمولر» ومهارته في القصف المدفعي المبيد وبفضل عناصر أركانه اللامعين وبفضل التدريب المتفوق لفرقه المهاجمة، ان يصل إلى النجاح الكامل في المعارك المرعبة الباهظة الثمن

التي وقعت في شهري آذار ونيسان على«السوم»وإلى الجنوب من «الايبرز» وعلى «الإيسن» و«المارن» في شهر أيار وعلى «الماتز» في أوائل حزيران لكنه في النهاية وبتاريخ ١٥ تموز، فشل في آخر ضربة سددها للحلفاء، حين واجه التكتيكات الدفاعية الماهرة لغورو وأخيراً تمكن«بانجان» في ١٨ تموز وبعد ان استخدم جميع الدبابات الفرنسية المتوافرة والفرقتين الامريكيتين الأولى والثانية بالاضافة إلى أفضل جنود المستعمرات الفرنسية وبأثمان باهظة للغاية ـ إذ دمر ما لا يقل عن ٨٠٪ من الدبابات ـ تمكن من اجبار الألمان على الشروع في انسحاب بطيء من منطقة شرقي «فيلركوتر»والتراجع إلى مواقعهم الهجومية على «المارن».

بعد اسبوع، وعندما اجتمع قادة جيوش الحلفاء في رئاسة مقر «فوش» في بومبون جنوبي شرقي باريس وعلى مسافة ٢٥ كيلومتراً منها شعر «بيرشينغ»لأول مرة في تلك السنة بأن هناك جواً من التفاؤل. قال فوش، وكان يطرب لكل كلام تافه مبتذل، انه ينبغي عدم فقدان زمام المبادرة، ثم اردف بأن الأمريكان يصلون الآن بمعدل ربع مليون جندي شهرياً. وبعد انتظار طويل بدا وكأن شعاره القائل «الهجوم دائمًا» هو الحل الصحيح لكل المشكلات صحيح كل الصحة. كان الانكليز والفرنسيون بأمس الحاجة لتعديل «نتوءات الخرق» الهائل الذي اسفر عنه الهجوم الألماني في فصل الربيع، أما الأمريكان فكان عليهم ان يهاجموا «سان ـ ميهيل»، وهنا طلب «فوش» من «بيرشينغ» ان يقضي على النتوء كي يغدو بالامكان إعادة استخدام خط سكة حديد باريس ـ نانسي ولهذه الغاية وضع تحت قيادته فيلق المستعمرات الثاني ووعد بأن يمده بعدد كاف من دبابات «رينو» بحيث تصبح كتيبتا «باتون» بكامل قوتها. وقبيل أواخر شهر آب تمكن «فوش» من إصدار ما يمكن اعتباره آخر أمر استراتيجي له خلال الحرب وذلك بعد النجاح غير المتوقع الذي أحرزه الانكليز في الشمال.

كان على «هيغ» ان يهاجم من الشمال نحو الاتجاه العام لتجمّع الخطوط الحديدية عند «أولنوى» حيث يلتقي هناك بقوات«بيرشينغ» المندفعة نحو«مرزير» من جبهته التي تمتد مسافة ٩٠ ميلاً ما بين «موز» و«ارغون» وبذلك تتزعزع جبهة العدو وتتحطم، وقد أصر «فوش»، بالرغم من معارضات «بيرشينغ» على ألا تبتعد عملية «سان ميهيل» كثيراً خلف المركز الرئيسي للنتوء وعلى ذلك فقد توجب غض النظر عن الخطط الأمريكية فيما يتعلق باستغلال «اللورين». باختصار كان على الجهود الأمريكية الرئيسية ان تتركز على الجانب الجنوبي تحت غطاء من قصف مدفعي يقوم به ٣,٠٠٠ مدفع و٢,٠٠٠ من الطائرات الحليفة ويتمركز فيلق من على اليمين تحت قيادة «ليفيت» وأربعة فيالق من على اليسار

تحت قيادة «ديكمان» وفي نفس الوقت تقوم خمسة فيالق بالهجوم على الجانب الغربي في حين يحتل فيلقان من فيالق المستعمرات البلدة نفسها ويتمركزان فيها. أما لواء دبابات «باتون» رقم ٣٤٥ الذي كان يتألف من كتيبتين هما ٣٤٤ و٣٤٥ ـ بعدد دبابات اجمالي قدره ١٧٤ ـ فقد أنيطت به مهمة مساندة فرقة «ديكمان« الأولى على ميسرة الجهود الرئيسية على الجانب الجنوبي. ابتدأ الهجوم في تمام الساعة الخامسة من صباح ١٢ أيلول تحت المطر الغزير والضباب. وكان قد سبق المشاة عدد كبير من فرق الطليعة المدربة والمختصة بتمهيد الطرق وإخلائها من العراقيل بالإضافة إلى المهندسين الذين كانوا يحملون طوربيد «بنكلور»، مخترقين غابة كثيفة من الاسلاك الشائكة، كما زحفت دبابات الفوج ٣٤٤ ببطء قاطعة الاسلاك ممهدة طرق المشاة بينما سارت دبابات الفوج ٣٤٥ في أعقابهم أما «باتون» فقدواجهته بصفته قائد لواء دبابات يخوض أول معركة له ورطة لم تحل بشكل مرض إلى ان استخدم اللاسلكي في الحرب العالمية الثانية، إذ كان يتقدم إلى الأمام معرضاً نفسه لخطر عظيم، موجهاً وموزعاً دباباته بأوامر يصدرها شخصياً، وهذا يعني تشكيل عائق خطير أمام هذه الطريقة من طرق القيادة والسيطرة ألا وهي فقدان الاتصال برؤسائه واحتياطيه ومدفعيته المساندة. وكان أمامه بديل آخر هو ان يقيم مركزاً ثابتاً للقيادة له اتصالات جيدة مع المؤخرة. انه في هذه الحالة يستطيع ان يبقى على اتصال برؤسائه وبذلك يمكنهم من زيارته في أقل الحالات سوءاً وأخفها تعرضاً للأخطار الشخصية، انما في هذا الحالة يكون تأثيره الشخصي على المعركة في أدنى حدوده. لكن خصائص «باتون» البارزة جعلته يختار مواجهة ملامة وتوبيخ رؤسائه وان يقاتل العدو وهو في المقدمة.

كان يوماً دراماتيكياً، انتشرت الدبابات على شكل مروحة وهي تتغلب على خط دفاع الألمان الأول وتمهد الطريق أمام الفرقة الأولى المشتركة في وطيس المعركة. لقد تحطم عدد كبير من الدبابات بينما غاص عدد آخر منها في الوحول. وفي المقدمة كان «باتون» يحث رجاله من برج دبابته على الاندفاع قدماً، أما الضباط فكانوا يقودون دباباتهم سيراً على الأقدام. ظل باتون طيلة النهار في الخط الأمامي متعرضاً لمئات القذائف ولنيران الرشاشات المنهمرة كالسيل، وفي قرية «أسي» الصغيرة التقى مع الضابط الوحيد الذي كانت مرتبته أعلى من مرتبة رائد وهو العميد «دوغلاس ماك آرثر» من فرقة قوس قزح. وفي وقت مبكر من بعد الظهر كان الأمريكان قد حققوا معظم أهداف ذلك اليوم وأسروا ١٥,٠٠٠ جندي وغنموا ٤٥٠ مدفعاً، أما خسائرهم من الدبابات الناجمة عن عمليات العدو فلم تكن كبيرة، لكن في وقت متأخر من بعد الظهر أصبح اللواء في حالة سكون.

فعلي بسبب الافتقار إلى الوقود والأعطال الآلية. لذلك كان على «باتون» ان يعود إلى الوراء لتنظيم تعبئة الوقود من جديد وتصليح الأعطال واستعادة دباباته إضافة إلى مواجهة تقريع رئيسه الجنرال «روكنباش» الذي لم يترك أي أثر. ولقد عبر «روكنباش» بكل وضوح، عن عدم موافقته عما سوف يدعى في الحرب العالمية الثانية بعملية النهاية في المنطقة المتقدمة. ولكن كل هذا لم يردع «باتون» إذ إنه قاد في اليوم الرابع عشر حملة استطلاع كاملة الأجهزة والعتاد منحدراً من المرتفع الذي يمتد من قرية «نوسار» الصغيرة ويخترق خط «هندنبرغ». فأمره «روكنباش»، بشكل غير قابل للنقاش، ان يعود فوراً. في هذا اليوم كان «ماك آرثر» قد قام بحملة استطلاع جريئة أيضاً زاحفاً نحو «متز» وعندها اشترك «باتون» مع «ماك آرثر» في التوكيد على انه لو سمح «فوش» «لبيرشينغ» بأن يستغل انتصاره لاسفرت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية. ومما يجدر ذكره ان تذكر هذه الفرصة التي لم تغتنم كان له تأثير عميق على تصورات وخطط «برادلي» و«باتون» في نفس هذه البقعة من فرنسا بعد ربع قرن.

حوّل «بيرشينغ» بعدئذ ثقله غرباً وعلى بعد ٦٠ ميلاً، نحو جبهة الأرغون. فهنا كان الألمان قد تمكنوا، لعدم وجود أية عوائق من قبل الفرنسيين، من بناء نظام دفاعي في منتهى الدقة والمهارة شأنه شأن أية دفاعات قوية في فرنسا. لقد كان متاهة حقيقية عمقها ١٢ ميلاً تحيطها الأسلاك الشائكة ومواقع الرشاشات المبنية بالأسمنت المسلح وذات الأعماق الكبيرة وقد كان من الصعب، حسب مفهوم الحرب العالمية الأولى، ان توجد مواقع أكثر من هذه المواقع فائدة للمدافع وأكثر عوائق في وجه استخدام المدرعات. كذلك فقد منحت مرتفعات مونتفوكون وكنل وزوماغن - سوس - مونتفوكون وباريكورت، التي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١٠٠٠ قدم، الألمان مراكز طبيعية قوية تسهل المراقبة في كافة الاتجاهات ومن فوق غابات بالغة العمق وغياض كثيفة ووهاد سحيقة. لقد تصور «بيرشينغ» خطة لفتح ممرين عبر حديقة الشيطان هذه في كلا جانبي تضاريس مونتفوكون وكان لواء «باتون» المدرع قد كلف بمهمة الاندفاع يساراً مع الفيلق الأول وباتجاه قرية فارن نزولاً إلى وادي آير عندما فتحت على نحو لا يصدق وبفضل عمل رئيس الأركان الرائع المقدم «مارشال» الذي أصبح في الحرب العالمية الثانية رئيساً للأركان العامة، مدافع دعم الهجوم، وعددها ٤,٧٠٠ مدفع، النار في تمام الساعة ٢,٣٠ صباحاً من يوم ٢٦ أيلول، وكان كل شيء على اتم الاستعداد. تمكن «باتون،»، بطريقة ما وبعد ان بذل كل جهد ممكن واستخدم كل براعته وذكائه في الطلب، ان يحشد ١٨٩ دبابة رينو انما بسبب العجلة المطلوبة لبدء العملية لم يسمح له الوقت بأن يرتب

لمشاة الفيلق الأول وطواقم دباباته ان يتعارف بعضهم إلى بعض وان يقوموا بتجارب مشتركة. لذلك كان عليهم ان يدخلوا فيها يشبه المعارك المستقلة. بعد ثلاث ساعات من القصف المدفعي الكثيف اندفعت قدماً ثلاثة فيالق مع دبابات «باتون» عبر فوضى الضباب والدخان. وما حدث حينذاك على جبهة الجيش الأمريكي الأول أمر يتعذر وصفه لكن هذا، على الأقل، كان واضحاً: تمكن «باتون» ودباباته قبيل الساعة التاسعة صباحاً من التقدم مسافة خمسة أميال واحتلال بلدة «فارن» الصغيرة أما المشاة الذين كان يفترض فيه انه يساندهم فلم يكن أحد يعرف مكانهم. والواقع انهم لم يظهروا في تلك الساحة إلا بعد أربع ساعات. لذلك شرع «باتون» بجمع كل المشاة الضائعين الذين صدف أنهم كانوا موجودين في جواره في تلك اللحظة وأمرهم بالتقدم خلف دباباته دافعاً إياهم للذهاب إلى قرية «شيبي» الصغيرة، وبلغة واضحة المعنى - اشتهر بها فيما بعد - افهمهم بأن عليهم ان يلتحموا مع الألمان وان يهاجموا رشاشاتهم، وان عليهم، كما اعتاد ان يقول فردريك الكبير في مثل هذه المناسبات، ان يعرفوا بأنه ما من أحد يعيش إلى الأبد. بعد وقت قصير وجد «باتون» نفسه مع ساعيه الخاص يهجمان وحدهما، أما المشاة فقد اختفوا. حينئذ أصابته رصاصة رشاش في رجله ثم سقط في حفرة قذيفة ومن هناك نقل في حملة محفّة إلى المعسكر لكنه قبل ان يفقد وعيه تمكن من إصدار أوامره بالاستمرار في المعركة إضافة إلى إملاء تقرير مقتضب عن الوضع. بعد ذلك حمل إلى مستشفى مؤقت في قطار ثم نقل من هناك إلى مستشفى القاعدة على بعد ١٤ ميلاً جنوبي «ديجون». كان الجرح مؤلماً وقد ترك ثقباً في وركه بحجم فنجان الشاي.

استغرقت معركة «الموز - أرغون» ٤٧ يوماً وكلفت الأمريكان ٢٦,٢٢٧ قتيلاً و٩٥,٧٨٨ جريحاً أي بزيادة ٦,٠٠٠ قتيل وجريح عن معركة «هيجروز» ١٩٤٤. أما في مستنقعات غابة الأرغون الموحلة العميقة فقد ألم بالجيش الأول أقسى وأعمق المصائب والتعاسة وذلك أثناء انهمار أمطار متتالية وبغير هوادة مسببة شقاء لا نظير له إلا في معركة غابة «هروتجن» في تشرين الثاني من عام ١٩٤٤، تلك المعركة المريرة المؤلمة. في اليوم الأول من تشرين الثاني تمكن «ليفيت» وقد أصبح الآن قائداً للجيش الأول، من اجتياح مرتفعات «باريكور» الشاقة واندفع قدماً نحو «سيدان». هنا تريث قليلاً على الروابي فوق المدينة كي يستعد للزحف من جديد نحو «مونتميدي» أما في منطقة الـ «ووفر» فكان الجيش الثاني يزحف نحو حوض الحديد في «بريي» وبذلك أصبحت جبهة الحلفاء بأسرها في حالة اندفاع إلى الأمام.

وبالرغم من ان جراح باتون لم تكن قد التأمت بعد، فانه لم يحتمل الانتظار في

المستشفى كي يشفى تماماً، إذ كان الجيش مستمراً بالزحف: وكان عليه ان يلتحق به في الحال لذا قام مع الملازم الأول «هاري هـ. سيمز» بالفرار من المستشفى واستوليا على سيارة عسكرية ثم انطلقا بحركة تحدٍ واضحة للسلطات المسؤولة متوجهين نحو «مونتميدي». كانت الطرق غاصة بالقوات الامريكية التي أصبح عددها يزيد على المليونين، واندفعا قدماً نحو ساحات القتال، لكنهما حين وصلا فردان في ١١ تشرين الثاني كانت الحرب قد انتهت.

إذا كان هناك من أحد منذ التحاقه بالجيش قد ملأ «الدقيقة الصارمة بثوانيها الستين بما تستحق من العمل المستمر فانما هو دون شك «جورج باتون». كان باستطاعته قبل الحرب ان يعيش حياة كلها رغد ورفاهية وكلها استرخاء وتبذير، ولكنه فضل ان يصرف أمواله ووقته في خدمة وطنه دون ان تفسده الثروة التي ورثها. لقد قلد الأعمال اليونانية السامية ومثلهم العليا في جميع الأعمال التي تعهد القيام بها، سواء كانت مبارزات سيف أو رمي أو فروسية أو ألعاباً رياضية. لقد مكنه غناه ونفوذ عائلته من الإندماج في الأوساط الاجتماعية في «واشنطن» حيث اجتمع مع أكثرية معاصريه في الجيش الأمريكي، ولم يتردد مطلقاً في استخدام هذه المزايا لرفع مستواه وتحقيق ما يصبو إليه سواء حين كان مرافقاً للجنرال «ليونارد وود» رئيس الأركان العامة، أو للجنرال «بيرشينغ»، لقد سافر متجولاً في أوروبا وزاد معرفته بالاتصال مع بعض أفضل عناصر الجيش الفرنسي. وقد حقق كل ذلك دون ان يقوم بأية تضحية بامكانية التمتع بمسرات الحياة ومباهجها، أثناء ذلك تمكن من مصادقة رفقاء نافعين. في المكسيك أظهر بكل وضوح انه يتمتع بكل السمات التي يتحلى بها ضابط صغير في ميدان النزال، وفي فرنسا مثل شخصياً جميع خصائص التوق للهجوم والحماس له والاندفاع، ذاك الذي جاء به الامريكيون إلى فرنسا المنهوكة القوى بالاضافة إلى التشجيع الذي منحوه للبريطانيين على صعيد القتال والاستمرار به وحدهم دون معين تقريباً لمدة تقارب السنة. ويجدر بنا ان نذكر هنا انه ما من ضابط من ضباط الحملة الأمريكية استطاع ان يرى من ضروب الحرب أكثر من «باتون»: أولاً من خلال صلته الوثيقة بالقائد العام نفسه وفي ما بعد بصفته قائد أول لواء دبابات أمريكي اضافة إلى انه كان يملك الحق في ان يذهب حيثما يشاء من أرجاء الجبهة كي يجمع ما يستطيع من أفكار جديدة لتطوير هذا السلاح الجديد. لقد أظهر خلال القتال بدباباته - ولنستخدم هنا نفس كلماته: «بسالة واضحة، ورباطة جأش ونشاطاً وذكاءً» ولم يكن هناك من هو أكثر جدارة منه بصليب الخدمة الممتاز. ثم تبع ذلك وسام الخدمة الممتاز الذي ناله بكل استحقاق وجدارة - لقد اكتسب حس

المعركة وشاهد رد فعل الانسان وهو معرض لاطلاق النار. كما كان باستطاعته ان يتحدث عن المسائل التكتيكية بصفته مارسها شخصياً، ولكونه مرجعاً يتمتع بمعرفة تامة بجميع تعقيداتها وملابساتها على صعيد الحياة البشرية: حينذاك كان في سن الثالثة والثلاثين وبرتبة عقيد مؤقت أما وقد انتهت الحرب فقد كان عليه ان يعود إلى رتبته الدائمة أي رتبة النقيب وكان لا بد من مضي ثماني عشرة سنة قبل ان يستعيد رتبته الأعلى التي توصل إليها أثناء الحرب.

الفصل الثاني

«مهنة عُطَيل ضاعت...»

بالنسبة لأكثرية الجنود نجم عن انتهاء الحرب شعور بالدهشة لكونهم ما فتئوا أحياء، وشعور بالراحة من متاعب العمليات التي جمعت في وطيسها أعظم المتاعب والارهاق البدني بالاضافة إلى ضجر عميق ومخاطرات شخصية دون أية مكافأة. أما «باتون» فلم يكن بين أولئك الجنود. في تموز ١٩١٩ عاد إلى لواء دباباته الأول في الولايات المتحدة في «فورت ميد ماريلاند» وبالرغم من انه هو وجميع الضباط الآخرين النظاميين في الجيش قد أعيدوا إلى مراتبهم الدائمة فانه لم يفقد شيئاً من حماسه على صعيد تطور الحرب الآلية. فالدبابات التي اشتركت في حملة ١٩١٨ كانت آلات بدائية بطيئة الحركة مصممة لقضاء حاجات وقتية وكان «باتون» مقتنعاً كل الاقتناع، بما كان يتحلى به من خيال واضح المعالم، انه اذا تم تلافي العيوب الآلية للدبابات فان امكانياتها تصبح عظيمة، ولذلك انهمك في «فورت ميد». بحماس ونشاط عظيمين باحثاً عن خطط جديدة لتطوير واختبار السلاح الجديد والتدرب عليه. لكن ان نقول إن الجنرال «روكنباش» استقبل اقتراحات باتون ببرود نكون قد قلنا أقل مما تقتضيه الحقيقة كذلك لم يكن الكونغرس في حالة مناسبة للموافقة على منح الأموال اللازمة، والواقع انه طوال السنين العشر التالية وفي كل مرة كان أعضاء الكونغرس يناقشون فيها مخصصات الجيش المالية كان بالامكان التعبير عن موقفهم بالتعبير التالي:

الدبابات هي الدبابات والدبابات غالية
لذا ليس هناك دبابات هذا العام

أما«باتون»فلم يرتدع وضمم على اكمال الحملة بمفرده مع انه حينذاك لم يكن إلا مجرد رائد.

في هذا الوقت تعرف «باتون» على مهندس ميكانيكي بارز من «نيوجرسي» اسمه «وولتر كريستي» وكان قد اخترع هيكل دبابة له عجلات مسننة وقد سجل هذا الاختراع باسمه. كان «كريستي» رجلاً كما يتمنى قلب «باتون» وكان اختراعه مع المحرك الخلفي والجنزير الذي يمكن نزعه، هو نفس طراز الآلة الذي كان يبحث عنه «باتون»: ولم يكتف بمجرد عقد صداقة معه بل أقرض «كريستي» نقوداً. أضف إلى ذلك انه استطاع ان يقنع سبعة جنرالات بان يحضروا إلى «فورت ميد» لمراقبة تجربة توضح كيفية الاستعمال.

عندما حان يوم التجربة رافقت السيدة «باتون» زوجها، وقد ارتدت أفضل حللها، إذ إنها ستكون مضيفة الجنرالات على الغداء بعد إجراء التجربة، وقد جلست مع زوجها على منصة المتفرجين افتتح «باتون» التجربة باعلانه أن الآلة الغريبة المنظر أصبحت الآن أمام الجمهور، ولم تكن تلك الآلة أكثر من منصة مركبة على عجلات مسننة، سرعتها ٣٠ كيلومتراً في الساعة على طريق جيد ويمكنها ان تقلع شجرة أو تحطمها (إذا كانت صغيرة) بالاضافة إلى هدم الأبنية كما تستطيع ان تنحدر من على مرتفعات رملية شديدة الانحدار ثم اقترح «باتون» ان يقوم أحد الجنرالات بتجربتها بنفسه لكن لم يتقدم أحد منهم. حينذاك التفت «باتون» إلى زوجته وطلب منها ان تقوم بالتجربة. وقد فعلت ذلك بشكل من الأشكال وبنجاح تام لكنها ألحقت ضرراً بالغاً بملابسها الصيفية الجميلة. بعدئذ اقترح باتون ان يقوم أحد الجنرالات باعادة التجربة، لكنهم كانوا قد رأوا ما فيه الكفاية وقالوا إنهم سوف يقدمون توصية لاستعمال وتبني دبابة «كريستي» انما ويا للأسف رفضت إدارة المدفعية في النهاية هذا النموذج الخاص.

الواقع ان المزاج العام في البلاد كان قد تغير تغيراً كلياً، ففي مؤتمر السلام الذي انتهى بمعاهدة فرساي الفظيعة في شهر تموز من ١٩١٩ اجبر «وودرو ويلسون»، الذي كان يأمل بانقاذ خطته في ما يتعلق بعصبة الأمم، ومهما كلفه ذلك من ثمن على ان يشاهد احلامه بـ «سلام عادل وشريف» تذهب ادراج الرياح. لقد اهمل الجميع مبادئه الأربعة عشر الشهيرة، وهو نفسه بعد ان استقبلته الحشود في أوروبا بابتهاج منقطع النظير، نسي الحقائق السياسية ليس فقط بين السياسيين الحلفاء بل في مجلس الشيوخ الأمريكي أيضاً

فقد عاد إلى الوطن ليجد انه لم تعد لديه السلطة للتحدث باسم الشعب الامريكي وان مجلس الشيوخ قد لا يصدق على المعاهدة، التي اشتملت على ميثاق العصبة، وفي أيلول حل الانهيار العقلي والبدني. أما أكثرية الشعب الأمريكي فقد باتوا ينظرون إلى الحرب باعتبارها مجرد انقطاع في الحياة الاعتيادية، إذ لم يعد لديهم أي اهتمام بجعل العالم معهد سلام «للديموقراطية» فمن الأنسب لهم ان يعالجوا مشاكلهم الخاصة الداخلية منها والاجتماعية وان يغتنموا الفرص الرائعة المتاحة لهم كي يصبحوا أغنياء. وعلى ذلك باتوا يعتقدون انه لا جدوى من اعداد جيش ضخم لكي يقوم بعمليات ضد جيش من الدرجة الأولى خارج القارة الأمريكية. وطبقاً لذلك أقر سنة ١٩٢٠ قانون الدفاع القومي القاضي باعداد جيش تعداده ٢٨٠,٠٠٠ رجل على ان يخفض بعد سنتين لـ /١٢٥,٠٠٠/ رجل. لقد أظهرت تجربة الحرب ان الدبابات نجحت كل النجاح في مساندة المشاة وذلك لأنها كانت تحطم الأسلاك الشائكة وتدمر الرشاشات. أما ان نستخدم الدبابات في مجالات أخرى فأمر صرف النظر عنه كلياً، واعتبر ذلك اضغاث أحلام وقصوراً في الهواء يحلم بها بعض غريبي الأطوار أمثال «باتون». وغني عن البيان ان هذا الاستنتاج كان غريباً جداً بالنسبة لأمة تملكت أذهانها فكرة الإبداع الميكانيكي أكثر من أية أمة أخرى. وهكذا فان ما بقي من فيلق الدبابات الذي خاض الحرب العالمية الأولى وزع إلى سرايا مستقلة بحيث ألحقت بكل فرقة سرية واحدة تابعة لقائد المشاة على ان تبقى مدرسة المدرعات لمدة ١٢ سنة أخرى، في «فورت ميد» وتحت اشراف قائد المشاة. إذن من الجلي انه لم يبق مكان لـ «باتون» الخيّال ضمن هذه الترتيبات وبعد ان فشلت آخر محاولة قام بها لتأمين مساندة «بيرشينغ» لأفكاره توصل إلى الاستنتاج بأن الأمور لم تعد تسير في مجراها الطبيعي بل عكس ما يريد. لقد عمل جهده ولم يرَ أمامه إلا العودة إلى الخيول التي كان يحبها. لكنه مع ذلك ظل يحتفظ بمقعده في «هيئة الدبابات» - إلى ان نقل إلى «هاواي» سنة ١٩٢٥ - كما حافظ على اهتمامه البالغ بالمجادلات المتعلقة بحروب المستقبل الممكنة.

ونتيجة لذلك ارتبط تطوير السلاح المدرع في جيش الولايات المتحدة بين الحربين باسم اللواء «أدنا ر. تشافي» وليس باسم «باتون». فالعقيدة الرسمية القائلة بأن مهمة الدبابة الرئيسية هي مساندة المشاة تركت تأثيراً بالغاً على تطورها، وجعلت من الدبابة آلة بطيئة الحركة ذات قوة تدميرية هائلة تتوافر لها القدرة التامة على الصمود أمام أسلحة ذلك الزمن. إذن لم يوجد شيء جديد يحل محل الخيالة التي كانت في الماضي، وبفضل سرعتها وقوتها على المناورة وإحداث الصدمات الهائلة، تتيح للقادة إمكانية تحقيق

الانتصارات السريعة. على ان الرشاشات جعلت الخيالة طرازاً قديماً يفضل عدم استخدامها وذلك كما أوضحه تماماً وبالحجج الدامغة كل من «فولر» و«مارتن» والصحافي اللامع «ليدل هارت» لكن من المؤسف ان نقول إنه كان في كل من الجيشين الانكليزي والامريكي، في ذلك الوقت، ضباط ذوو نفوذ ما برحوا يرون مستقبلاً طيباً للحصان الأصيل في ميذان المعركة. أما أول من تحرك لملء الثغرة فكان الانكليز الذين على الرغم من شدة الأوامر المالية والشعور بمحبة السلام الواسع الانتشار لديهم حشدوا سنة ١٩٢٧، القوة الاختبارية في سهل «ساليسبري» وقد كان ذلك بالحقيقة الأنموذج الأولي للفرق المدرعة التي اشتركت في الحرب العالمية الثانية. لقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً على وزير الحربية، «داويت ف. ديفز» عندما رأى الدبابات لدى زيارته لانكلترا، ولذلك جرت بعض التجارب في «فورت يوستيس» ولكنها لم تتقدم أبداً لأن قانون الدفاع القومي لسنة ١٩٢٠ قد نص على ان الدبابات جزء من المشاة. في عام ١٩٣٣ سمح للعقيد «دانيال فان فورهيس» وضابطه التنفيذي المقدم «أدناتشافي» أن يشرعا بالقيام بتجارب مع كتيبة الخيالة الأولى في «فورت نوكس» على مستويات مستقلة عن المشاة، وفي أواسط وأواخر الثلاثينات نمت، تدريجياً، هذه القوة الصغيرة وأصبحت «لواء الخيالة السابع الميكانيكي» وقد أنيط به دور القيام بتحركات التفافية واسعة تستهدف الضرب في عمق العدو والمناطق الخلفية. والواقع ان هذا يذكرنا بالمهمة التاريخية لحشود خيالة نابليون العظيمة. لقد حسب حساب لجميع العناصر التي تحتاجها الحرب العصرية ـ من دبابات ومشاة ومدفعية وطائرات ومهندسين وإشارة ـ باعتبار انها ستلعب دورها في عمليات المستقبل التي ستتسم بالمباغتة والصدمة بالاضافة إلى السرعة.

وكما هو الشأن بالنسبة للأوساط العسكرية البريطانية فانه لم يكن هناك أي افتقار للأفكار ولا سيما بين الضباط الصغار الطموحين: بل كان الافتقار للأموال اللازمة لتنفيذ هذه الأفكار. ومما يدعو للسخرية ان كل ما استطاع الانكليز انتاجه ـ علماً أنهم هم الذين اخترعوا الدبابة وفكروا بتعقيداتها وتحدثوا عنها أكثر من أية جهة أخرى ـ كي يجهزوا قواتهم عام ١٩٣٩ لم يكن يتعدى لواء ضعيف القوة من نوع «ماتيلدا» تبعه بعد تسعة أشهر كتيبة مدرعة غير كاملة. وحتى شهر تموز ١٩٤١ لم يكن في الولايات المتحدة إلا ٦٦ دبابة من نوع متوسط مع العلم انه في ذلك الوقت كانت كتائب بانزر «غودريان» التي شكلت وفق خطوط نادى بها «فولر» و«ليدل هارت» و«تشافي»، قد تمكنت من تحطيم بولندا وفرنسا وإخراجهما من ساحة القتال كما تمكنت من التوغل في عمق روسيا.

إذن علينا ان نحكم على حياة «باتون» المهنية بين الحربين من خلال خلفية الاحباط.

هذه التي بلغ فيها التيار الانتهازي المنافق ذروته، غير ان ثقته بنفسه لم تتزعزع أبداً فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه سيصل إلى ذروة العظمة. لقد وجد ان نظام الجيش أثناء السلام غير مشجع بالإضافة إلى كونه تافهاً ومربكاً. هنا يمكن ان نرى إلى حد ما تفسير، لغتـه الفظة البشعة ومشاكسته غير اللائقة في مناسبات عدة يشبهه في ذلك الجنرال الروسي العظيم «سوفورف» الذي كان يتصرف عادة على هذا النحو. ومن الجدير بالذكر ان نقول إن «باتون» حصل على الشهادة بدرجة امتياز من مدرسة الأركان والقيادة العامة في «فورت ليفنوورث» وكذلك من الكلية الحربية، أي المعهد الذي لا بد من دخوله لمن يحتمل ان يصبح قائداً من المراتب العليا، أما وقد نال من التجارب الحربية ما لم يتمتع به غيره في الجيش الأمريكي بالاضافة إلى شخصيته القوية وعلاقاته مع ذوي النفوذ فليس من الغريب ان يكون عمله ناجحاً. فعلاوة على رحلتين قام بهما إلى «هاواي» تمكن «باتون» من الاشتراك بثلاث جولات مع لواء الخيالة الثالث في «فورت ماير» على مسافة ليست بعيدة عن واشنطن اضافة إلى فترة قضاها في منصب رئيس الخيالة.

تختلف الصفات التي ينبغي ان يتحلى بها القائد عن الصفات التي ينبغي ان يتحلى بها ضابط الأركان كل الاختلاف. فأول واجبات ضابط الأركان ان يعالج جميع التفاصيل الصغيرة علاوة على ما يمكنه من الأعمال الأخرى كي يخفف من أعباء قائده ويتيح له الوقت الكافي للتفكير والتخطيط، كما ينتظر منه ان يكون لبقاً، صبوراً كتوماً ودبلوماسياً، كذلك عليه ان يكون مجداً غير أناني وفوق كل هذا ان يكون سعيداً لتبعيته لشخص معينّ. على ان «باتون»، وسواء كان ذلك حسناً أم سيئاً، لم يكن «بيرذير» ولا «بدل» ولا «غويغاند» ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول إن الضباط الكبار الذين خدم تحت إمرتهم في «هاواي» يستحقون بعض التعاطف، إذ كان من الصعب بالواقع ايجاد ضابط في جيش الولايات المتحدة أقل تأهيلاً منهم على الصعيد المزاجي وأقل جدارة بممارسة هذه الوظائف الحساسة. إذن ليس من المستغرب ان تكون جولتاه في «هاواي» ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٨ وسنة ١٩٣٥ و١٩٣٨ قد أخفقتا في الحصول على القبول الرسمي.

بل لقد انتهت جولته الأولى بتقرير سيىء قدمه بحقه قائد فرقته، اللواء «و. رسميث» وكما هو الشأن في الجيش البريطاني، فان مثل هذه التقارير تعرض عادة على صاحب العلاقة قبل ارسالها إلى السلطات العليا وهكذا قرأ «باتون» «إن هذا الضابط لا مثيل له في وقت الحرب ولكنه يشكل عنصراً مزعجاً في وقت السلام»، غير انه لم يصل إلى الحد الذي وصله التقرير السنوي الأسطوري الذي كتب عن ضابط في الجيش الهندي، والذي، نتيجة لذلك، نال مرتبة عالية، ففي تلك الحالة أضاف

الضابط كاتب التقرير بعد ان تنبأ بأنه سيكون له شأن في الحرب قوله: «ففي السلم يعتبر عنصر ازعاج كبير بسبب محاولاته الملحة، التي لا تفشل دائماً، في إغواء زوجات رؤسائه». لو كان الرجل أصغر من «باتون» اذن لاعتبر هذا التقرير مضاداً وسيئاً له: أما «باتون»فقد اعتبره إطراء. فهو لم يعط فكرة عن شخصيته الحقيقية إنما كان بالحقيقة يحتوي على عنصر من عناصر الصدق إذ كانت لـ«باتون» أفكاره الخاصة غير المستقيمة بالنسبة لأمور تافهة كاللباس الذي يعطى أهمية كبيرة في المجتمعات العسكرية عندما لا يكون لديهم شيء أكثر أهمية يشتغلون به.

أما رحلته الثانية إلى«هاواي»فكانت لاستلام عمل مكتبي بصفته جنرالاً ثانياً تحت إمرة الجنرال «دروم» وذلك ما بين سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٨ وكانت رحلة غير مجزية أيضاً إذ كان عمله يتعلق بجمع المعلومات والأخبار ومقارنتها بعضها ببعض. وكما جرت العادة في تلك الأيام فقد كانت الأموال المخصصة لهذه الأهداف ضئيلة للغاية، وطبقاً لما يقوله صهر«باتون» فقد أخذ الرجل يدير العمل على حسابه الخاص لكي يقال في النهاية وبعد كل ما عاناه أن من الغباء ان يفعل ذلك ومما يدعو للسخرية ان أحد تقاريره الذي لم يهتم به أحد حينذاك كان يتنبأ بامكانية شن اليابانيين هجوماً على «بيرل هاربور» مؤكداً انها عملية سهلة التنفيذ وينبغي التصدي لها إذا حدثت. ومما يجدر ذكره هنا أيضاً انه غالباً ما كان يشتبك في شجارات صاخبة مكشوفة في ساحة البولو مع الجنرال الرئيس، وذلك بسبب لغته البذيئة التي كان يستخدمها أثناء اللعب.

وهكذا نرى انه قد اضطر ان يعيش بين الحربين حياة مضجرة، حياة روتينية غير جديرة بمواهبه ومؤهلاته وأخذ يبحث عن الخلاص من هذه القيود بانخراطه بالأنشطة الرياضية والفروسية إلى حد مفرط، فقلما كانت تفوته فرصة سباق خيل أو معرض جياد أو سباق حواجز أو صيد ثعالب، ونتيجة لذلك استطاع ان يحرز ٤٠٠ وسام و٢٠٠ كأس. أما بالنسبة لتخفيض وزنه فقد كان يجري عدة أميال عادة وهو يرتدي ملابسه الثقيلة كما كان يلجأ إلى تناول جرعات كبيرة من نترات المغنيزيوم ويذهب إلى الحمامات التركية، لكن من المستغرب انه لم يكن لهذه الاجراءات القاسية اي تأثير مضر على قلبه أو على عمليات الهضم لديه، بل كان باستطاعته ان يدعي، وهو على حق، انه يتمتع ببنية حصان، وفي أواخر الثلاثينات كان هو وزوجته، رئيسين بصورة مشتركة لجمعية صيد كوبلر التي تضم جزءاً من أعسر أراضي فرجينيا. كذلك كان يكرس معظم أوقات فراغه للعبة البولو وقد وصل إلى درجة رئيس فريق عسكري لهذه اللعبة. إذ كان«باتون» يعتقد، ويشاركه الكثير من الجنرالات في هذا الاعتقاد، بان البولو هي لعبة التسلية المثالية التي

تبث الالهام والوحي في قلوب القادة. إنها تتطلب السرعة في اتخاذ قرار تكتيكي يكاد لا يستغرق جزءاً من الثانية بالاضافة إلى المشاركة مع الفريق بشكل كامل، كما انها تمكن الرجال من الاستمرار في اللعب بشكل عنيف بعد عمر محدد هو سن الخامسة والثلاثين في نظر الأكثرية وفوق كل هذا تتطلب هذه اللعبة تركيزاً مكثفاً ومهارة في الأحكام بالاضافة إلى كفاءة وأهلية بدنيتين عاليتين رغم ان لهذه اللعبة مخاطرها الكثيرة وتكلف الكثير. لقد بذل فيها «باتون» نشاطاً واندفاعاً جنونيين وكان في نظر الكثيرين مثالاً للفارس التقليدي البارع وخيالاً بذيء اللسان ولاعب سيف ممتازاً له سجل رائع في الألعاب والحروب وميادين أخرى أيضاً.

في هذه الفترة قام «باتون» برحلة عبر المحيط الهادي من الساحل الغربي للولايات المتحدة وحتى جزر الهاواي على متن المركب «آركتشري» وهو مركب شراعي طوله ٤٠ قدماً. ورغم انه اضطر بسبب ضعفه في الرياضيات، إلى البقاء سنة إضافية في «وست بوينت» فقد كان توجيهه للمركب ممتازاً ومحكماً. وعلى ما يبدو فقد كان «باتون» في عمله هذا كما في كل عمل آخر يتوخى البحث عن المهمات الشاقة بدنياً وعقلياً لأن التغلب على الصعاب بحد ذاته يعود عليه بالبهجة الخالصة. في هذه السنوات كتب «باتون» أيضاً كثيراً من الشعر لكن من سوء الحظ انه لم يختر، كما فعل «تشرشل» و«الكساندر» و«ايزنهاور» هواية الرسم بدلاً من الشعر كمتنفس لاندفاعه الخلاق الاضافي. ولا بد ان «باتون» قرأ القول المأثور للسيد «ولر» الأب في ما يتعلق بهذا الموضوع: «الشعر شيء غير طبيعي، وليس هناك من يقول الشعر إلا شماس في اليوم التالي لعيد الميلاد أو شخص في مصبغة «وارن» أو مشحمة «زولاند» أو أمثال أولئك الحقيرين. ولم يكن من العسير عليه ان يخرج بنتائج مشابهة في جودتها لما أنتجه «ايزنهاور» في هذا الفرع من فروع الفن.

حقاً كان لحياته جانب داخلي قلما عرفه الناس، تمثله مكتبة تحتوي على أكثر من ٥٠٠ كتاب قرأها كلها. وطبقاً لما يقوله صهره، طالع «باتون» ما يتعلق بعلم التاريخ أكثر من أي انسان عرفه قط، فضعاف العقول لا يعيشون إلا للحاضر، أما كبار الرجال مثل «باتون» «وتشرشل»، فان عقولهم ذات التخيلات التاريخية لا تمتد للمستقبل وحسب وانما تشمل الماضي أيضاً. يبين اختيار «باتون» للكتب ثم تعليقاته داخلها مهارة فائقة على صعيد المطالعة وأحياناً على صعيد التعليق الرائع العميق الغور. فقد كان باستطاعته ان يتخيل نفسه وهو يسير على الطرق الشهيرة في التاريخ ويقف أمام الأبنية الرائعة ويختلط مع حشود الناس في الامبراطورية الرومانية، كما كان باستطاعته ان يتخيل نفسه وهو

يقوم بحملة في بلاد الغال مع «يوليوس قيصر» والفيلق العاشر. درس الفرنسية كي يستطيع ان يرى حملات «نابليون» بعين«ماربو»واستطاع روحياً ان يركب مع «موران» عربة القتال وهو يخوض معاركه الهائلة في ايطاليا ومصر والمانيا. كما كان على معرفة تامة بطوبوغرافية أوروبا بما فيها من مجاري أنهار وسلاسل جبال وممرات وشعاب. وكان يعلم تماماً لماذا اتبعت الغزوات الطرق التي سارت عليها بالفعل ولماذا وقفت الجيوش وصمدت وحاربت حيث كانت بالفعل. أما في بلاده فقد كان يرافق «جـ. أي. ب. ستوارت» وآخرين من زعماء الخيالة في الحرب الأهلية. وفي بعض الأوقات كان يربك سامعيه عندما يدعي انه كان حاضراً فعلاً معركة من المعارك وقعت قبل مئات السنين. هذا النموذج من الانفصال عن السلوك الاعتيادي يدعى بنموذج «رأيت من قبل» وأحياناً يعبر عنه بالقول: «كنت هنا من قبل» ورغم ان هناك تفسيرات سايكولوجية مختلفة لهذا الموضوع إلا أن أياً منها لا يعتبر مرضياً تماماً. والواقع ان بعض الأفراد الذي يتمتعون بمستوى عال من الذكاء بالاضافة إلى خيال تاريخي استثنائي يمكن ان يقنعوا أنفسهم بأنهم عاشوا حقاً في عهد آخر. إن نظرة واحدة لطلاب أحد الصفوف العليا في أية جامعة، أو داخل مؤتمر سياسي أو اجتماع ثقافي، يمكن ان تقنع حتى أشد الناس تشككاً وريبة، بأنه باستطاعة الانسان حين يشاء، ان يجعل نفسه تؤمن بأي شيء تقريباً ـ تلكم هي الفكرة الرئيسية لملهاة الجنس البشري.

تميزت أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات بحملة من المجادلات اللاذعة العنيفة في انكلترا وبين صغار الضباط في الولايات المتحدة. فقد أعلن «فولر» و«ليدل» و«هوبارت» بأن عهداً جديداً من عهود الحرب قد بزغ، وان معارك المستقبل ستكون أشبه بالاشتباكات البحرية: دروع تقاتل دروعاً، أما المشاة فسوف تنخفض قيمتهم ويصبحون جنود بحر على البر. ومن الجدير بالذكر انه ما من أحد من هؤلاء الثلاثة كان لبقاً أو رحب الصدر. والواقع انهم قد أضروا بقضيتهم الخاصة بسبب سوء سلوكهم وحبهم للتآمر، فـ «فولر» ترك الجيش في حالة غضب واستياء عظيمين، أما «ليدل هارت» فقد كان يحرك الصحافة والسياسيين ضد ذوي النفوذ والسلطة في الجيش، في حين كان «باتون» يتابع هذه المناقشات وكذلك تلك المجادلات التي بدأها «ديغول» في فرنسا دون ان يلتزم بالجانب الخاطىء الذي كانت تقف فيه السلطات العليا في زمنه. وفي برلين، أبقى الملحق العسكري الأمريكي واشنطون وجيش الولايات المتحدة، على علم تام بالتطورات المتعلقة باسم «غودريان».

أما مساهمات «باتون» في «مجلة الخيالة» التي أصبحت تسمى بـ «الدروع» في ذلك

الوقت فلم تكن إلا محاولات لتوضيح رأيه الخاص في خضم المعركة التي ثارت بين الدعاة المتطرفين للحرب الميكانيكية مهما تكن تكاليفها وبين الرجعيين المتمسكين بالخيول حتى درجة العبادة. لكن علينا ان نذكر هنا انه كان يسير أحياناً جاراً معه الآخرين إلى طريق الضلال، مثال على ذلك عندما حاول ان يبرر عمليات الدمج بين الخيالة والمدرعات في مقالة نشرها في «مجلة الخيالة» سنة ١٩٣٣ ولكن التجارب سرعان ما أظهرت أن المشاة المحمولة يمكنها انجاز معظم مهمات الخيالة التقليدية في نصف الوقت اللازم لهذه الأخيرة كما أكد «تشافي» في بدء الجدال. بيد أنه جدير بالذكر ان الزاوية التي عالج منها «باتون» مشاكل حرب المستقبل تختلف كل الاختلاف عن الزاوية التي كان ينظر منها معظم أنبياء الحروب فبينما كان الآخرون يغرقون أنفسهم في بحث التفاصيل التقنية، كان «باتون» يرى ان المشكلة الجوهرية ليست مشكلة الأسلحة والآليات والالكترونيات فحسب بل هي مشكلة الرجال أيضاً: فالسيف الروماني لم يكن يتجاوز الـ /١٨/ انشاً ومع ذلك فقد قهر الدنيا. كتب «باتون» مقالتين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣١ تكشفان لنا عن الخط الفكري الذي سيوضح في مستقبل الأيام، مساهمته الخاصة في فن الحرب وفي تاريخ بلاده.

ففي مقالته الأولى كان يتساءل عن السبب الذي منح إنسان الماضي الشجاعة كي يحارب ويعرض نفسه للموت أو التشويه أثناء القتال. وكان من خبراته الشخصية أثناء العمليات القتالية يعرف طبيعة الخوف كما كان يدرك تمام الادراك ان أساس ذلك الخوف هو وعي الانسان للخطر. وقد اعتبر ذلك دليل سلامة وصحة لأن الرجل الذي يدرك الخطر يحاول اتخاذ استعدادات ضده. هذا الأمر قاده إلى تفحص العوامل التي مكنت المحاربين في الماضي من دحر الخوف بالشجاعة، وان يتقدموا ويصمدوا وألا يركنوا إلى الهزيمة وقد أصابهم الذعر والهلع.

ومن دراساته لما كتبه «ماربو» وكتاب آخرون عن الحروب النابليونية، استنتج «باتون» ان الجندي الفرنسي كان يحركه على الغالب ايحاء عاطفي مكثف. فايمانه بأفكار مجردة مثل الوطن و«الحرية» و«سيادة الشعب» و«المجد» كان من أهم الدوافع التي حققت انجازاته الرائعة في القتال. وعلى النقيض من ذلك، فان هذه الأفكار لم تكن تروق الانكليز وأحفادهم في كندا واستراليا ونيوزيلاندا. هنا وجد «باتون» نفسه أمام أحجية ـ العناد الفطري الذي يتعذر فهمه لشعب تمكن في الماضي من إنقاذ العالم من نابليون وسوف يقوم بنفس الانجاز وهو إنقاذه من «هتلر» سنة ١٩٤٠. ومن الغريب انه لم يمعن النظر في حالة الايرلنديين الخاصة، تلك الحالة التي قال «مونتغومري» بكل صراحة عنها

(ومونتغومري واحد من ستة مارشالات في الحرب العالمية الثانية أنجبتهم ألستر): «الايرلنديون يحبون القتال، وعندما لا يجدون من يقاتلونه فانهم يقاتلون بعضهم بعضاً. إن سجل قومه في ميدان القتال وخاصة في الحرب الأهلية هو سجل للبطولة ليس له نظير وقد انغمس «باتون» في تاريخ بلاده وكان يعلـم ان الروح المعنوية لا يمكن ان تكون مستقرة أبداً بل ترتفع أحياناً إلى قمم سامية وتنخفض أحياناً إلى الحضيض. إذن، هناك عامل واضح تماماً، فلكي توجد روح معنوية عالية ينبغي ان يؤمن الجندي الأمريكي بالقضية التي يحارب من أجلها. وفي النهاية خلص «باتون» إلى القول بأن كل شيء يتوقف على مقدرة القادة في السيطرة على خيال رجالهم وانه في السنة التالية، ينبغي بكل تأكيد ألا تضم الجيوش الأمريكية جنوداً نظاميين ذوي خبرة حربية فقط، بل شباناً آتين مباشرة من الحياة المدنية ـ ربما ليسوا أكثر من فتيان بالفعل. فالحياة في الجيش يغلب عليها بأية حال، ان تكون امتداداً لعهد الصبا: أي ان كثيراً من الرجال يبقون، عقلياً، مراهقين طيلة حياتهم: ولذلك خلص «باتون» إلى القول، إن على القائد ان يلجأ إلى غرور الذكر الشاب ـ ولعه بالملابس الشاذة وقصات الشعر الغريبة والشوارب الساحرة التي هي دون ريب، ما يقابل المظاهر الجنسية لدى الطاووس ولدى القرد ذي المؤخرة الزرقاء والقرد ذي المؤخرة الحمراء. فالأردية الملونة الساحرة والقبعات المنمقة والمبهرجة والأشياء الأخرى التافهة البراقة كلها تروق للجندي بسبب سحرها وجمال مظهرها: لذا وافق بشدة على التنويعات الكثيرة لصناعة القبعات التي كان الجيش البريطاني يهتم بها كثيراً وفي هذا المجال لن يجد باتون نفسه في المستقبل بأنه مبتكر مبتذل، كما قال إنه ينبغي ان يكون هناك مختلف أنواع الزخارف والزركشات الجاهزة فوراً لكي تمنح كمكافآت سريعة. لقد قرر «باتون» أنه يتوجب على القائد أن يلجأ إلى نقاط الضعف الصبيانية هذه. ومهما تنوعت قوميات الجنود فلا ريب بأن انجازاتهم القتالية تتوقف في النهاية على نوع القيادة التي تقودهم.

هنا، شعر «باتون» بأن المؤرخين، بصفتهم باحثين، يميلون للتركيز كثيراً على أهمية القدرة الذكائية الكبيرة في ميدان المعركة. وهنا وجد نفسه على أرض صلبة، فالقاعدة العامة هي أن خريجي الجامعات أو الرجال الصناعيين الكبار أو قادة الأحزاب السياسية الكبيرة، ليسوا عادة من يضع الجنود ثقتهم بهم ويتخذون منهم قادة عندما يقعون في مأزق حرج، لذلك قرر «باتون» أن سر المهارة القيادية يكمن حتماً في مكان آخر.

وقد وجد ذلك في التاريخ. فطَبيعة الانسان لم تتغير إلا قليلاً مع مرور الزمن، وسواء أمعن الانسان النظر في حملات «سيبيو» و«هانيبال» في شمالي أفريقيا أو حملات

«أللنبي» في فلسطين، كما يصفها «ويفل»، فان حقيقة واحدة تبدو واضحة أمامه وضوح الشمس في رأد الضحى، لقد كان جميع القادة العظام في الزمن الماضي، على معرفة تامة بفن القتال كما كانوا يتحلون بالشجاعة البارزة والموهبة الفطرية التي تجعلهم موجودين في المكان المناسب والوقت المناسب وكانوا جميعاً يتمتعون بمقدرة فائقة في رسم خطط بسيطة سليمة يستطيع الجميع تفهمها، بل كانوا يتمتعون أيضاً بمقدرة على اقناع جنودهم بانهم إذا لعبوا دورهم كما ينبغي فالنجاح يصبح حتمياً. هذا هو سر نجاح «يوليوس قيصر» عندما سيّر حشود فيلقه العاشر في بلاد الغال، ونجاح «جان دارك» في «أورليان» عندما قادت الجيوش الفرنسية إلى الظفر بعد أن بدا وكأن كل شيء قد ضاع، وكذلك نجاح «نابليون» عندما أهلك خمسة جياد حتى وصل إلى «ريفولي». لقد استنتج «باتون» من هذا كله ومن خبرته الخاصة في أوار المعركة: ان على القيادة قبل كل شيء أن تكونَ ذات صفة ذاتية وان تكونُ ديناميكية مباشرة بحيث يؤثر «الوجود الحي» للقائد على كل من يعملون تحت إمرته. وعلى ما يبدو، فان «نابليون» و«ستونوول جاكسون» كانا يتمتعان وإلى درجة فائقة بهذه الصفة الفريدة أي: المقدرة على جعل الرجال يقطعون شوطاً يتجاوز حدود تحملهم وان يقوموا بمغامرات عظيمة وان يواجهوا بكل رصانة ورباطة جأش احتمال التشويه أو حتى الموت. هذه هي كلمة مختصرة عن الفكرة التي دبجها يراع «باتون» في المقالة التي كتبها سنة ١٩٣١ بعنوان «سر الظفر» قال فيها ان القائد نفسه ينبغي ان يكون نموذجاً تاماً للثقة بالنفس والحماسة والترفع وانكار الذات والشجاعة، وعليه ان يسحر رجاله بحيث يصبحون ودون اي استثناء تجسيداً تاماً تقريباً لرغبة القائد الشخصية واندفاعه. ولا شك ان هذا يتطلب بعض فنون الممثل وقد أدرك نابليون نفسه هذا الأمر، ولم يجد غضاضة في أخذ دروس من «تالما» معبود المسرح الباريسي، ومن هنا جاءت وقفته الشهيرة والمعطف الكبير الفضفاض الذي كان يختلف كل الاختلاف عن البدلات الرسمية البراقة التي كان يرتديها أركانه وجواده الأبيض «مارينغو» وتابعه المملوكي الملون «رستم» وبقية الزمرة الامبراطورية، ومن هنا أيضاً ظهرت ألبسة «مورا» المفرطة في زخرفتها وزركشتها والقبعات المزينة بالريش الملون الرائع. عقد «باتون» العزم على ان يبني لنفسه شخصية تاريخية تظهر صفته الحقيقية، وقرر ان يقوم بهذه المغامرة، ولذلك ابتكر ما يسمى بوقفة التأهب الباتونية التي توصل إليها بعد كثير من التمرن أمام المرآة كما ضخم من صوته الرفيع الحاد بالتمرين المستمر أيضاً، وهذه هي نفس الطريقة التي استخدمها «ديموسثنيس» قبل آلاف السنين وهو يسير على شاطىء البحر أو يقف هناك أثناء هبوب الرياح - إنما وبدون شك مع نتائج مختلفة نوعاً ما. فهي في الوقت المناسب

ستصبح عملاً عظيمًا، وستكون ذات تأثير كبير لما يتمثل فيها من الصداقة والاخلاص، كما انها ستكون مقنعة تماماً حتى انه هو نفسه، شأنه شأن بعض عمالقة المسرح، لم يعد بامكانه التخلص منها. فهو بعد ان نال الاستحسان وتداولت اسمه الألسن لشهرته، وجد نفسه تماماً كما وجد «مونتغومري» و«ماونتباتن» و«ماك آرثر» أن عليهم ان يعيدوا تكراراً وإلى ما لا نهاية ما كان أساساً عملهم التمثيلي الأول والوحيد.

وهذا العمل سيمد، ولا بد، الصحافة التي تبحث عن الإثارة، بذلك النوع من الأخبار الذي تتوق إليه بما يسفر عنه غيرة منافسيه الذين لا يتمكنون، لكونهم عاديين ولا يتمتعون بأية ميزة، من ان يروا السمة الحقيقية للرجل الذي يستتر خلف تلك الشرائط المنمقة والأثواب الزاهية. ولغته الفظة الشنيعة التي كانت تتخللها كلمات خشنة جافة جاءت بتأثير هواة الخيل وكلاب الصيد في جميع أنحاء المعمورة، فقد كانت إلى حد ما جزءاً من ذلك العمل التمثيلي، وأما القول المأثور عنه: «لا تكن بذيئاً بداً ولا تستخدم السباب والشتائم ما لم تكن الكلمات بذيئة في غاية الروعة أو ان تكون الشتائم بارزة إلى حد يثير اهتمام الشخص فينسى الصدمة التي حصلت له بسبب الشتائم» هذا القول يوضح الدافع الحقيقي الكامن خلف ذلك السيل المتدفق من الكلام الذي سيتناول به العالم في الوقت المناسب.

في تلك الأيام كانت الترقيات في جيش الولايات المتحدة تجري ببطء شديد كحركة طواحين الإله، وكان على «باتون» ان ينتظر حتى يبلغ التاسعة والأربعين كي يصل إلى رتبة مقدم. وعلى ما يبدو فقد واجه عام ١٩٣٧ احتمال الإحالة إلى التقاعد ذلك لأنه أثناء الخدمة في «هاواي» قرر أنه قد حان الوقت لتأسيس بيت ثابت دائم، ولذلك اشترى مزرعة قديمة العهد في جنوبي هاميلتون وعلى مقربة من بوستون، عمر منزلها ذاته يزيد على المائة سنة وفيه الكثير من السحر والفتنة، فهو يقوم بين أشجار رائعة وفي وسط منظر خلاب يمتد حتى نهر «ايبويتش» كما كانت هناك أبنية إضافية كثيرة، وكان هذا المنزل هو الطراز الذي حلم الكثيرون من الجنود المحترفين، منذ عهد «زينوفون» بأن يعيشوا فيها بعد اعتزالهم الخدمة. أطلق «باتون» على البيت اسم «المروج الخضراء» لكن مرور الزمن ومجيء الأول من شهر تموز سنة ١٩٣٨ أوصل «باتون» وبشكل آلي تقريباً إلى رتبة عقيد وإلى مركز جيد في فيلق الخيالة الخامس في «فورت كلارك» في منطقة «تكساس بانهادل»، وهي منطقة عسكرية نائية كانت تعتبر عادة بأنها الذروة الرائعة التي يمكن ان تبلغها حياة مهنية كريمة بانتظار الرحيل إلى ذلك العالم الذي يؤكد الجميع ان لا أحد يستطيع العودة منه، في هذه الفترة بدأ الكلام يدور في الجيش عن الحاجة الماسة لوجود جنرالات شبان.

ففي انكلترا، وبنصيحة من «ليدل هارت»، خفض «هور بليشا» متوسط عمر «هيئة قيادة الجيش» بمقدار ١١ سنة وذلك بعد ان صرف من الخدمة جميع أعضائها. وكان قد أصبح جزءاً من إيمان راسخ ان سن الخمسين هي السقف الذي يجب ألا يتجاوزه أصحاب رتبة اللواء في الحرب الميكانيكية. أما «باتون» فقد كان حينذاك في الثالثة والخمسين: فبدا له وكأنه لم يعد أمامه سوى المتع التي تتيحها له حياة ريفية تعززها وسائط وافرة. بيد ان التغيرات التي حصلت في قيادة الجيش العليا سارت بالحقيقة وبعد طول انتظار، في صالح «باتون».

ففي سنة ١٩٣٧ وبعد سنوات من خمول الذكر أصبح «مارشال» وهو صديق حميم لـ «باتون» وكثيراً ما قدر صفاته الفريدة نائباً لرئيس الأركان. وفي أوروبا كانت الأحداث تترى بعضها إثر بعض، إلى حد أصبح واضحاً تماماً ان على الولايات المتحدة عاجلاً أو آجلاً ان تعود للتسلح. فقرر «مارشال» بسرعة أنهم سيحتاجون لـ «باتون» وعلى ذلك رتب أمر تعيينه في «فورت مير» كي يصبح قريباً منه. في اليوم الأول من شهر أيلول اجتاح الألمان بولندا بقوات قوامها عشر فرق مدرعة تساندها ١,٦٠٠ طائرة، وخلال ١٧ يوماً كان الجيش البولندي رغم شجاعته الفائقة قد امحى عن وجه الأرض. لقد بزغ فجر مرحلة جديدة هي مرحلة ازدهار القوات المدرعة وعزها. وفي أيار سنة ١٩٤٠ حدث الاختراق الألماني الكبير في «سيدان» حيث تمكنت مجموعة الجيوش «آ» تحت قيادة «رندستيدت» من عبور المانش والاندفاع عبر المرتفعات الكلسية شمالي «السوم» بسبع فرق مدرعة وثلاث فرق آلية تساندها ثلاثة أساطيل جوية إلى ان وصلت البحر عند «أبفيل» وبهذا أجبرت قوات الحملة الانكليزية على الجلاء عن طريق «دنكرك» وخلقت وضعاً عجّل بسقوط فرنسا الذي تم بعد ثلاثة أسابيع. في نفس اللحظة التي كانت فيها فرق البانزر تتوجه نحو باريس، امر «مارشال» وقد أصبح الآن رئيساً للأركان، الجنرال، «فرانك اندروز» من هيئة الأركان العامة، بأن يقوم فوراً بوضع الخطط لتشكيل فرقتين مدرعتين وتزويدهما بكل ما يلزم من عتاد وأجهزة وتموين وكذلك وضع خطط للتوسع بهما في المستقبل.

وهكذا صدر أمر وزارة الحربية في ١٠ تموز بانشاء قوة مدرعة تحت قيادة الجنرال «أدنا رومانزا تشافي» وبعد يومين صدر أمر بتعيين «جورج س. باتون» الابن قائداً للواء المدرع الثاني في «فورت بننغ» اذ كما ذكرت جرائد ذلك الأحد، بات من الواجب ان تكون للولايات المتحدة «دبابات بانزر» أيضاً.

الفصل الثالث

الأسس

أيها الإله العظيم، يا منْ عبر العصور
قوِّى اليد الملطخة بالدماء، مثلما ساتيرن[1] وجوبيتر وودان
قادوا فريقِ محاربينا،
نحن نبحث ثانية عن نصحك
إنما بغير تذلل.
لا نشتكي نشداناً لرحمتك ـ
كي نذبح: هبنا اللهم الحكمة

ج.س. باتون الابن
من «رفيق المرأة في البيت»

اشتملت خطط «تشافي» في ما يتعلق بالقوة المدرعة، كخطوة أولى، على تشكيل الفيلق المدرع الأول الذي يتألف من الفرقة المدرعة الأولى في «فورت توكس» تحت قيادة «ماغرودر» والفرقة المدرعة الثانية بقيادة «سكوت» في «فورت بننغ» ثم كتيبة الدبابات الاحتياطية السبعين. في آخر اسبوع من شهر حزيران، طلب «باتون»، وقد أدرك ما يجري وراء الستار، مقابلة «تشافي» فلم ينجح في ذلك، لكنه تمكن من رؤية «سكوت» وأسفر عن هذه المقابلة كتاب وجهه إلى «تشافي» بتاريخ ٢٤ حزيران كشف فيه «باتون» عن مخاوفه من ان تكون القيادة العليا قد أغفلت اسمه لتجاوزه السن القانونية أو ان

(١) ساتيرن: إله الزراعة عند اليونان.

يكون من المغضوب عليهم فلا يمنح أي مركز قيادي وفيما يلي نص تلك الرسالة لأهميتها وقوة تعبيرها:

عزيزي الجنرال «أدنا»

لسوء حظي لم استطع الاتصال بك لنتناول وجبة طعام معاً حينما كنت هنا، على انني رأيت «سكوت» الذي أخبرني انك تكرمت بذكر اسمي في ما يتعلق بقيادة في التشكيلات الآلية، واني مع كل الامتنان أقدر لك هذا التلطف، وأود ان أؤكد لك بأنني إن لزم الأمر وانت تعرفني حق المعرفة، على أتم الاستعداد والرغبة دائماً لخوض معارك القتال كما أنني سأكون شديد الحماس لأي عمل تسندونه إلي ولسوف أبذل جهدي كي أقوم بكل ما هو مرض إن أسعدني الحظ ووقع علي اختياركم».

فأجابه «تشافي»

«لقد سجلت اسمك في لائحة الأفضلية لدي بصفتك قائد لواء مدرع. وأعتقد انه منصب يمكنك أداء مهماته على أفضل نحو آمل ان تكون الأمور في صالحك. ويسعدني ان أعلم انك ستكون على أهبة الاستعداد حيثما يتوجب علينا خوض القتال».

لقد قام «تشافي» بأعمال جلى في خدمة وطنه ولكن من أبرز هذه الأعمال انه في تلك اللحظة الحرجة من حياة «باتون» وحين بدأت الأصوات تعلو وهي تطالبه بتعيين قادة تقل أعمارهم عن الخمسين، لاعتقاد الجميع بأن الحرب الآلية في المستقبل ستكون مرهقة بدنياً وعقلياً، أقول في تلك اللحظة عمل«تشافي» لانقاذ«باتون» ولم يسمح بصرفه من الخدمة لتجاوزه سن الخمسين فوفر بذلك قائداً فذاً سيستلم قيادة القوة المدرعة التي ستكون أسرع وأكثر توغلاً من أية قوة أخرى في الحرب العالمية الثانية. فلولا هذه المساعدة التي قدمها «تشافي» لـ «باتون» حين أسند إليه في ذلك الوقت، قيادة أحد ألوية الدبابات في «فورت بيننغ»، «جورجيا»، متيحاً له فرصة الحصول على ترقية في الوقت المناسب، ليصبح قائداً للفرقة المدرعة الثانية، أقول لولا ذلك لكانت حياة «باتون» لا تزيد عن كونها قصة «صوت وغضب لا يعنيان شيئاً وقد اعترف «باتون» بجميل «تشافي» عرفاناً قلبياً يكشف مقدار ما كان يتمتع به الرجل من حرارة وإخلاص في الصميم. بالاضافة إلى كل ذلك أثارت تلك الحادثة كثيراً من الشكوك في ما يتعلق بعمر الانسان ونشاطاته، سواء في الحرب، أو على صعد أخرى من الانجازات، شكوكاً تضع موضع الريبة مسألة الاعمار في ما يتعلق بالنشاطات، شكوكاً أظهرت أن نسبة البلاهة والمهارة متساوية تقريباً في ما بين الشباب والمتقدمين في السن، وقد يصدق القول بأنه «ليس هناك

أحمق مثل العجوز الأحمق» ولكن السجلات التاريخية تظهر بأن الشباب أيضاً لا يقلون عن ذلك أبداً.

لم يبق أمام «تشافي» من سنوات عمره إلا سنة واحدة ولكنه تمكن في ذلك الوقت من أن يضع ليس فقط أسس قوة مدرعة أمريكية وصلت بعد ذلك إلى ١٦ فرقة بل أيضاً أثر تأثيراً عميقاً على تصميمات وانتاج الدبابات التي سيحتاجها الجيش الامريكي وحلفاؤه أيضاً انطلاقاً من مبدأ الإعارة والتأجير، وجدير بالذكر ان الصعوبات التي واجهته كانت كبيرة إلى حد يجعل أي رجل لا يتمتع بمستوى رفيع من القدرات ينوء بحملها. لم يبدأ وصول المجندين الأوائل إلى التشكيلات الجديدة قبل سنة ١٩٤٠ ومما لا شك فيه ان مشكلة إعداد الضباط على هذا النطاق الواسع لم تكن مسألة سهلة، فالأسلحة الأخرى لم تكن تقبل عن طيبة خاطر بأن يلتحق أفضل ضباطها بالقوات المدرعة، بل كانوا يميلون لارسال الأدنى مستوى ممن لا يفتقدهم سلاحهم حين يتركونه وهكذا كان هناك الكثير ممن هم بحاجة لاعادة تدريب لمدة ملموسة. وكان مجرد اعداد مأوى «لهذا السيل المتدفق» يتطلب انشاءات عاجلة وعلى نطاق يكاد يكون خيالياً.

أما أعظم الصعوبات، فكانت النقص في الدبابات المتوسطة لكن لحسن الحظ ان الخبرة التي اكتسبها الانكليز في شمالي أفريقيا قد ساعدت في هذا المجال ثم ما لبث «تشافي» ان أدرك الحاجة لقوة اطلاق نيران متفوقة بالاضافة إلى دروع أشد سماكة دون ان يكون ذلك على حساب السرعة والقدرة على اجتياز الأراضي الوعرة وقد تمكن أخيراً، بسبب شدة إصراره، من سد هذا النقص بواسطة الدبابة م ٣ وفيما بعد الدبابة م ٤، وقد كان لهذا النوع من الدبابات الفائدة الجلى للانكليز وقد أطلقوا على م ٣ «الجنرال غرانت» وعلى م ٤ «شيرمان» وعلى م ٧ «بريست» وكانت هذه الأخيرة ذاتية التحرك ومجهزة بمدفع «هاوتزر» من عيار ١٠٥مم، وقد شكلت هذه الدبابات، عندما حان الوقت، نسبة عالية من المدرعات التي كانت تضمها جيوش «مونتغومري» عند نهاية الحرب. وبهذه المناسبة فان النوع الخفيف من أنواع م ٣ الذي دعي «ستوارت» باسم قائد الخيالة الاتحادي العظيم «ستوارت»، لعبت فيما بعد دوراً بارزاً في حملة شمالي أفريقيا. وقد أطلق عليها الانكليز، بكثير من التحبب، اسم «الحبيبة». ومع توجه الصناعات الآلية الأمريكية باتجاه الصناعات الحربية والانتاج الحربي أخذ «تشافي» يندفع بسرعة البرق من مصنع إلى مصنع كي يتعرف مباشرة على مشاكل الانتاج واستطاع في الوقت المناسب، من خلال اتصالاته المباشرة والضغط على المسؤولين في إدارة العتاد والذخيرة في واشنطن، ان يضمن حصول المحاربين على الدبابات والمركبات الأخرى التي كانوا بحاجة لها. وفي

هذه الأثناء أنشأ مدرسة الحرب المدرعة لتدريب أكبر عدد من الاختصاصيين اللازمين وكذلك انشأ مركزاً للاستبدال (شعاره: اقتل أو تُقتل) كي يستوعب الاحتياطي الذي لا بد منه لسد النقص في الخسائر مستقبلاً وأيضاً للتوسع. وقد توفى «تشافي» في ١٨ آب سنة ١٩٤١ بسبب الارهاق الذي حل به إذ إن الجهود التي بذلها كانت تتجاوز حدود الطاقات البشرية فعلاً، وكانت وفاته قبل أربعة شهور من عملية «بيرل هاربور» إلا أنه ترك وراءه أسساً ثابتة الأركان. ويمكننا أن نشبه علاقة «تشافي»، على صعيد التسلح، بجيوش «ايزنهاور» و«ماك آرثر» بعلاقة«كارنو»منظم الانتصارات، بجيوش «نابليون». بيد أن تذليل الصعوبات المادية ما كان ليقاس بتذليل المشكلة المعنوية إذ لم يكن الأمريكان في وضع نفسي يهيئهم للحرب كما انـه لم يكن من المنتظر دخولهم الحرب لولا ان اليابانيين قاموا بعملية «بيرل هاربور» في ٦ كانون أول سنة ١٩٤١. لم يبق أمامهم أي خيار آخر فأعلنوا الحرب وكان ذلك بعد سنتين وأربعة أشهر من دخول الانكليز ساحة القتال، لم يكن المجندون الذين التحقوا بالجيش يتمتعون بحماس أسلافهم الذين تدفقوا للالتحاق بالجيوش سنة ١٩١٧ إذ لم يكونوا جنوداً محترفين كما انهم لم يكونوا يرغبون قطعاً بهذه المهنة، ولم يكونوا يرون ان هناك معنى واضحاً يشجعهم على تكريس أنفسهم لهذا العمل، لكونهم يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم مدينون لما يطالعونه في الجرائد والمجلات حيث كانت الاعلانات الصناعية تلفت أنظارهم حاثة إياهم على البحث عن حياة رخية طرية ونحو الانقياد للذات ومتع الحياة بجميع أشكالها فهم لم يكونوا يقرؤون من الأخبار إلا عناوينها والسينما فقد أثرا تأثيراً عميقاً في نظرتهم للحياة: وكانت هذه المؤثرات تميل للتركيز على ما كانوا يسمونه حقوقاً ديموقراطية أكثر بكثير من تركيزها على التزاماتهم نحو بلادهم أي: كان موقفهم تجاه السلطة موقفاً حرجاً ودقيقاً. أما البعض، الذين لم يكونوا يدركون معنى التفاؤل ذي التوجه الهجومي أو الرغبة في القتال التي تنشأ عن التمرن والطعام البسيط، مذ كانوا ضعافاً بدنياً ومعنوياً، فقد غضب الكثيرون لأنهم حرموا من بعض الملاذ والمتع التي كانوا يعتبرونها حقاً من حقوقهم الديموقراطية. أما النظاميون فقد كانوا قليلي العدد هناك وما استطاعوا ان يؤثروا عليهم كثيراً. كان الوقت يمر بسرعة وقد عرف «باتون» ان على أولئك المجندين غير المتمرسين ان يواجهوا في المستقبل القريب جنوداً محترفين متشوقين لسفك الدماء، جنوداً عركتهم التجارب بشكل لم يعرفه العالم من قبل، جنوداً يبدون وكأنهم اسبرطيون يوحدهم نظام فولاذي بالاضافة إلى كونهم يؤمنون إلى حد الجنون بعقيدة نازية يقاتلون في سبيلها حتى الموت إذا لزم الأمر.

في هذا الوقت، وفي جنوبي شرقي انكلترا، كان «مونتغومري» قائداً، أول

الآمر، للفرقة الخامسة، ثم الفرقة الثانية عشرة ثم الجيش الجنوبي الشرقي، وكان يواجه مشكلة لا تختلف كثيراً عن المشكلة الامريكية، لذا فان إجراء مقارنة بين ما قام به لمعالجة المشكلة وما قام به «باتون» على نفس الصعيد لأمر مثير للاهتمام.

فالمجندون البريطانيون قبل دنكرك، وبغض النظر عن روح اللامبالاة الاعتيادية التي يتمتع بها الانكليز والتي مكنت ذلك الشعب من مواجهة الاحتمال في ان يكونوا أقل حيوية دون مبالغة لا مبرر لها، كانوا في حالة من الحماس لا تزيد كثيراً عن حالة نظائرهم الأمريكان، وحتى بعد «دنكرك» وعلى الرغم من خطابات «تشرشل» كان هناك البعض الذين لم يدركوا إلا ببطء شديد الخطر الذي يحيق بهم.

عندما استلم «مونتغومري» قيادة الفرقة الخامسة في «هامبشاير وسيكس» في أواخر فصل الصيف كان قد شخص المرض وأصبح مستعداً لمعالجته. لقد واجه الحقيقة التي أدركها تماماً وهي ان جنوده ليسوا أكثر من مدنيين يرتدون الملابس العسكرية ويجيدون القراءة والاصغاء ويستطيعون إلى حد ما وإذا ما حرضوا بالأسلوب المناسب، ان يفكروا بأنفسهم. وكما قال «مونتغومري» نفسه في ما بعد: ما كان يحتاج إليه أولئك الرجال ليس عقلاً يرشدهم وحسب بل هدفاً يوجهون أنظارهم نحـوه ، وبعبارة أخرى، لم يكن أولئك الجنود بحاجة لرئيس فقط بل أيضاً لتميمة تجلب الحظ. حينئذ شرع بكل تؤدة وروية يحاول ايجاد التميمة ولسوف يستغل جميع معتقداته البرتستانتية الصارمة وحياته الشخصية الاسبارطية ـ فهو لا يدخن ولا يشرب الخمر ـ وسيستغل فوق هذا كله مقدرته الخاصة في الهيمنة على الجماهير، وهو ينظر مباشرة إلى وجوههم ويكرر ويعبر مستهدفاً غاية معينة ومستخدماً كلمات بسيطة واضحة ولاذعة يدرك الجميع معناها، وسيكون «مونتغومري» أول جنرال انكليزي يرتدي ملابس الميدان، ويعيش على جراية الجنود مع التأكد بأن الجميع يرون ما يفعله. لقد كان على الجميع ان يروه وان يسمعوا ما يقوله. كان عليه بالحقيقة ان يخلق لنفسه اسطورة خاصة، لذا ينبغي ان تتحدث عنه الألسن وقبل كل شيء ينبغي ان يقيم تحالفاً مع الصحافة، وهنا سرعان ما أدرك ما يرغب المراسلون بالحصول عليه وسرعان ما بات يدرك وجهة نظرهم، رغم انه قلما يقدم الجنرالات، أياً كانت قوميتهم، حديثاً يصلح للصحف. فجميعهم يبدون وكأنهم خارجون من صندوق واحد ويستعملون نفس الكليشيهات. لقد تعلموا من خبراتهم المريرة انه من غير الحكمة ان يبوح الجنرال بسريرته لصحافي. كما أدركوا جميعاً ان من المستحيل ان يكون الانسان صحافياً جيداً ورجلاً طيباً في نفس الوقت. ولذلك كانوا يميلون لكشف أقل ما يمكن عما تكنه ضمائرهم. لقد أدرك «مونتغومري» ان الصحافي

يريد مصلحته فقط على حساب أسرار الناس وأن يتبين الأخبار التي كلما كانت أكثر غرابة كلما كانت أفضل، لذا عمل «مونتغومري» على ان ينال الصحافيون ما يريدون وبهذا يكسبهم إلى جانبه ويفتح شهيتهم لزيادة الاهتمام بحملته فيرفعون من معنويات الجنود إلى أعلى حد كما يقومون أيضاً، إذا أمكن، بالتغني بسماته العظيمة ويرفعون سمعته إلى السماء.

بالنسبة للبنية والمظهر والقد المهيب كان «باتون» يتفوق كثيراً على «مونتغومري» وقد تمكن من استغلال هذه السمات استغلالاً كاملاً. ففي عهد كله ملل ورتابة يعتبر «باتون» مرجعاً كاملاً في ما يختص باللباس الرسمي إذ كانت سراويله الخاصة بركوب الخيل المفصلة أحسن تفصيل وأحذية الركوب المصنوعة في انكلترا تتفوق من حيث لمعانها وجمالها على جميع ما ارتدى واحتذى جنرالات الجيش بأسرهم. أما خوذته، وقد زينها في ما بعد، بشارات مناصبه السابقة، فكانت تتلألأ في ضوء الشمس وقد طلاها بالبرنق (الورنيش) بشكل كثيف جداً. وحينما كان يذهب كان يأخذ معه مجموعة من الملابس المختلفة التي كان يقوم باعدادها وصيفه الزنجي، الرقيب «بانكس» وهنا يجدر بنا ان نذكر أكثر هذه الملابس روعة ألا وهي البـزة التي قام هو شخصياً بتصميمها وأطلق عليها اسم «الدبور الذهبي». كانت تلك االبـزة تتألف من جاكيت من الجلد الأخضر الناعم (تشبه جاكيتات الطلاب) وعليها صفان طويلان من الأزرار الذهبية يميلان وهما متجهان إلى الاسفل نحو أبزيم من الذهب الخالص، ثم سروال ركوب ضيق وحذاء طري قصير الساق كما كان يتقلد مسدساً عقبه من العاج عيار ٤٥ طراز كولت ١٨٧٣ في غلاف معلق تحت ابط ذراعه اليسرى. ولدى وصوله إلى وحدة ما وهو بهذه الهيئة وفي سيارته المكشوفة كانت آلة الترمبون الموسيقية تضج وهو على بعد ثمانية أميال معلنة عن هذا الوصول، وإذا كان النهار ساكناً يغدو هذا الاعلان مرهقاً للأعصاب تماماً، كان ضباط الأركان يهرعون متدفقين من واشنطن ليشاهدوا هذا المنظر: كما كانت الصحافة تتجاوب تماماً مع رغبة المصمم وتقوم بتحقيق ما يرضيه. لم يحدث مطلقاً، منذ أيام الوصي على العرش البريطاني (أي جورج الرابع قبل ان يصبح ملكاً) الذي كان يستمتع بتصميم الملابس الرسمية العسكرية المدهشة الغريبة الطراز، ان تجرأ أي انسان على الانغماس بمثل هذا الهزل الرائع من أعمال الخياطة، أما أثناء التدريب وفي قلب المعركة فكانت ملابسه، على أناقتها، عملية أكثر.

ليس من المستغرب ان كان «باتون» يكنّ للمارشال «الكساندر»، وهو المثل الأعلى للواء الحرس، كل مشاعر التقدير والتبجيل والعكس بالعكس. ففي الأمور الحيوية

النظامية وفي فن السير والتحية، كانت أساليبهما رغم اختلاف الظروف تتشابه كل التشابه. أما إصرار «باتون» على حلاقة الوجه والنظافة وارتداء أربطة العنق في جميع الأوقات فكان يبلغ الذروة وهكذا وطيلة سنة كاملة بدءاً من نيسان ١٩٤١ تحملت الفرقة المدرعة الثانية قسوة «باتون» المطلقة، لكنه من خلال هذه الإجراءات استطاع ان يجعل من كل رجل صورة عن نفسه تقريباً إذ لم يكن باستطاعة أي رجل ان ينسى توبيخ «باتون» إذا ما حدث وأخفق في أداء التحية. ولقد قال مرة وهو على صواب، بكلمات تنضح عنفاً بأن الضابط الذي لا يستطيع ان يجعل رجاله يؤدون التحية عندما ينبغي عليهم ان يفعلوا ذلك لا يمكنه ان يؤثر كثيراً عليهم عندما يتوجب عليه ان يأمرهم بأن يضعوا أرواحهم بين يديه. كان الجميع يشعرون بأنه موجود في كل مكان. بل إنه كان ينقض بطائرته الخفيفة في أي مكان يتعطل فيه المرور أو يزدحم ليصيح بصوته الثاقب القوي موبخاً كل من هناك لخرقه النظام، وكان يتمتع بموهبة فطرية غريبة تجعله حاضراً حيثما يقع خطأ أو تقصير في أداء الواجب أثناء القيام بالتمارين: فعندما تتعطل دبابة نتيجة لسوء الصيانة أو سوء القيادة وعندما تتأخر وحدة عن موعد محدد في المكان والزمان أو عندما يضيع أمر من الأوامر كنت تجد «باتون» يمثل أمامك. لقد شيد مدرجاً في «فورت بننيغ» حيث ألقى بعض خطاباته الطنانة الصاخبة التي أصبحت في ما بعد جزءاً من أسطورة (باتون) وقد ازداد التأثير المذهل لهذه الخطابات لسبب واحد ربما هو ان معظم مفرداتها كانت مما لا يتوقع المرء ان تكون ضمن مفردات يتلفظ بها ضابط كبير. بيد ان من الخطأ ان نذمه كي نتزلف لجيل أكثر عقلانية جاء فيما بعد. لقد كان يجمع ضباطه مرة أو حتى مرتين كل اسبوع كي يستمعوا إلى محاضرات عن التكتيك العسكري والمواضيع الأخرى المتعلقة به وفي إحدى هذه المناسبات قال إن الحرب لا تكتسب إلا «بالدم والشجاعة» وكان لهذه الكلمات تأثير الكهرباء على مستمعيه فتداولوها وأصبحت كلمات مأثورة.

ودون ان يتلقى «باتون» أية إرشادات من المقامات العليا أو من البريطانيين في الصحراء الغربية العاملين في هذا المجال قام «باتون» بتدريب فرقته حسب أساليبه الخاصة بضغط شديد ودونما أية راحة، والواقع أنه كان يجري تدريباته وفق مبدأ التجربة والخطأ وكان يطبق أساليب التجميع وإعادة التجميع والتوزيع التي ستجعل من الجيش الثالث عندما يحين الأوان أسرع قوة عسكرية على صعيد الاستجابة للأوامر وأعظم القوات مرونة بين جميع الجيوش الحليفة. كان شعار «باتون» مشابهاً تماماً لشعار الجنرال «سوفوروف» غير التقليدي في عهد القيصرة «كاترين العظيمة»: «عنف في التدريب،

سهولة في القتال». وقد أحرزت الفرقة المدرعة الثانية بعد آلام ومعاناة، لقب «جهنم ذات العجلات» وهو لقب أحرزته عن جدارة واستحقاق ونتيجة لذلك أظهرت هذه الفرقة عندما حانت الفرصة أثناء مناورات «تنيسي» في أيلول سنة ١٩٤١ بأن في تكتيكاتها كثيراً من المبادهة كما كانت قبضة آمرها عليها قوية تماماً فاستطاعت إنجاز العديد من التمارين قبل الوقت الذي توقعه ضباط الأركان المشرفون على المناورة بـ ١٢ ـ ٢٤ ساعة. في الشهر التالي، وفي «لويزيانا»، قرر ضباط الأركان ألا يسمحوا لـ «باتون» بأن يجوب كل أرجاء الريف كما فعل في «تنيسي» بل حددوا له بقعة لا خيار له فيها، فلم يبق أمامه إلا هجوم جبهي فوق أرض يصعب عبورها بسبب الأمطار الغزيرة التي ظلت تنهمر ثلاثة أيام متوالية. احتج «باتون» و«سكوت» فسمح لهما في النهاية، بأن يقوما بحركة التفاف. وخلال ساعتين تمكن «باتون» من إعادة التجميع، ثم أصدر أوامر جديدة واندفع في عملية اجتياح على مسافة ١٠٠ ميل نحو تكساس، ولو لم يصدر الحكم قراره بشكل تعسفي لاستطاعت الفرقة انجاز المناورة قبل الوقت المحدد. في الشهر التالي وأثناء تمارين أخرى في «كارولينا الشمالية» تمكن «باتون» مع فرقته المدرعة الثانية من التفوق على الجميع، وعندما انتهى كل شيء، وكمظهر نهائي لتفوقهم في تدريباتهم العالية، قام جنود الفرقة مع آلياتهم بالاندفاع نحو «فورت بيننغ» التي كانت تبعد عنهم حوالى ٣٠٠ ميل فبلغوا المكان دون ان يتوقفوا سوى مرة واحدة ولمدة ساعتين ونصف ـ ومما لا شك فيه ان ما حققوه كان عملاً باهراً عظيماً لم يسبق ان فعل أحد مثله في الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت. كان «باتون» يعرف تماماً متى ينبغي عليه ان يتفوه بكلمة ثناء. فأخبر جنوده حينئذ أنهم قد «اجتازوا بنجاح تام كل الاختبارات ما عدا الحرب» وكان ذلك كل ما يريدون سماعه منه إذ إنه كان قد تمكن من ان ينقل إليهم كل نشاطه وحيويته وقدرته علاوة على التعطش الشديد للقتال.

في نيسان سنة ١٩٤٢ وبعد ان نال «باتون» ترقية إذ أصبح قائداً للفرقة المدرعة الأولى انطلق من «فورت بننغ» في طائرته الخاصة من طراز «سيتمسون فوياجر» مستهدفاً اختيار مركز تدريب صحراوي قرب «اينديو» في كاليفورنيا وما لبث ان وجد مكاناً أرضى رغباته بطول ١٨٠ ميلاً وعرض ٩٠ ميلاً ومساحة حوالى ١٦٢,٠٠٠ ميل مربع في الصحراء الأمريكية الكبرى التي تغطي جزءاً من كاليفورنيا ونيفادا واريزونا.

كانت بقعة تدريب ممتازة تبهج قلب جندي متحمس، إذ لم يكن فيها أي مدني يمكنه ان يثير اعتراضاً على التدريب أو يقف حجر عثرة أثناء التمرين بالذخيرة الحية: كما لم يكن هناك أي مخلوق حي إلا الذئاب، والأفاعي ذات الأجراس، وكان في هذه

الأرض كثير من المجاهل كما كانت تذخر بالعراقيل مما يمكن التغلب عليها وما لا يمكن، كذلك كان هناك العديد من المخاريط البركانية والجبال الجرداء والبحيرات الجافة الغبراء، وكانت درجة الحرارة ترتفع صيفاً إلى ١٢٠ درجة فهرنهايت أما الماء فكان مفقوداً بشكل مطلق. استغرق استطلاع «باتون» للمنطقة أربعة أيام ضمن شروط قتالية كاملة تماماً ولم يسمح فيها لنفسه ولا لمرافقه المقدم «انيس» إلا بغالون واحد من الماء في اليوم، وجدير بالذكر انه لم يكن في كل الولايات المتحدة مكان أفضل من تلك البقعة لتدريب القوات المدرعة الأمريكية. وعندما بدأ الجنود يصلون للتدريب لم يسمح «باتون» لواحدهم إلا بجراية ماء واحدة في اليوم كما أصر على كل ضابط وجندي بما في ذلك هو نفسه، أن يجري مسافة ميل خلال عشر دقائق كل ٢٤ ساعة ثم أمر الجنود بأن يسيروا ثمانية أميال كل ساعتين، ضارباً عرض الحائط بالعذر الذي كان يقدمه البعض بأنهم ينتمون إلى وحدات آلية ولا حاجة بهم للسير قائلاً بأن ذلك لا يعني ان ينسوا كيف يستخدمون أقدامهم. كانت الحرارة داخل الدبابات ترتفع أحياناً إلى ١٥٠ درجة فهرنهايت وكان الرجال يغمى عليهم وأما الآلات فتتعطل بينما يكون «باتون» منطلقاً بهم. وهكذا تعلموا أن يناموا ليلاً بجانب دباباتهم أو تحت سيارات الشحن كما تعلموا أيضاً المسير مدة ٣٦ ساعة دون نوم. وقد نجحت الاختبارات المتعلقة بمكافحة الارهاق الناجمة عن الحرارة وذلك بإعطاء حبوب من الملح: أما المحركات التي كانت تتعطل بسبب ارتفاع الحرارة فقد كانت تطرح جانباً. لقد تعلم الجميع كيفية السير والتوجه باستخدام النجوم والشمس ولم يحقق «باتون» ذلك لأنه كان سادياً، فالواقع أنه كان يحب متع الحياة ولذائذها شأنه شأن أي رجل - وإنما لأنه كان يعرف من خبراته الخاصة مقدار هول الصدمة التي ستواجههم والتي كان عليهم ان يذللوها عندما يلتحمون مع جنود هتلر «القساة المؤهلين للحرب إلى أقصى درجة والمتعصبين حتى درجة الجنون». فعلى الأقل تمكن في «انيديو» من خلق كثير من مواقف الرعب القتالية دون ان يحدث قتل وبذلك كان بامكانهم عندما يأتي الوقت المناسب ان يخوضوا المعركة بقلوب كالصخر.

لقد تشابه تماماً هدفا «باتون» و«مونتغومري». فكل منهما كان يحاول ان يقنع رجاله أن أمامهم هدفاً عظيماً نبيلاً ألا وهو إطاحة النازية الشريرة والطغيان الياباني بوصفهما خطراً على الحريات التي هي حق من حقوق كل انسان وان ذلك لا يمكن إنجازه إلا بالهجوم الباسل والأعمال المفاجئة السريعة أثناء المعارك. ولقد بذلا كل جهد لاقناع كل جندي بأنه إذا قام بأفضل مجهود فان الانتصار مؤكد. كما عمل كل منهما في محاولة اثبات للجميع بأنهم جزء من منظمة فعالة ١٠٠٪ وان قادتهم يعرفون عملهم تمام المعرفة وان

حياتهم لن تذهب سدى. وفوق كل ذلك أكدا على الحقيقة بأن كل واحد منهم سيعامل معاملة عادلة وأن أعظم الجهود تبذل في سبيل انتاج أفضل الأسلحة والعتاد. من بين هذين القائدين ربما كان «مونتغومري» وهو في انكلترا التي تعيش حالة حرب وتعاني من الغارات الجوية ليلاً ونهاراً على المدن، وسكانها يعيشون على أربع أونسات من اللحم وبيضة واحدة في الأسبوع اضافة إلى أردأ أنواع لحم بطن الخنزير المستورد من «شيكاغو»، في هذه الظروف يمكننا ان نقول إن عمل «مونتغومري» كان أسهل. أما «باتون» فقد كان عليه ان يعود جنوده، على احتمال المشاق استعداداً للمعركة في بلاد نائية عن مسرح القتال الفعلي حيث لا توجد إلا فكرة ضئيلة عن واقع الحرب وحيث يتوافر للجندي الكثير من مرفهات السلم، علاوة على ذلك فانه كان مضطراً ان يفعل ذلك كله تحت سياط النقد الحقود اللاذع. إذن، الفرق بين هدفي الجنرالين كان في الأسلوب أكثر منه في النية.

وهناك أيضاً تشابه في طراز حياتهما في ساحة القتال. عاش «مونتغومري» مع قوافله مصحوباً بمجموعة ضباطه المرافقين المختارين لشجاعتهم ومقدرتهم، على مسافة ما من مقر قيادته الرئيسي، وبهذا تجنب الانهماك في التفاصيل التي كان يعتبرها منوطة برئيس أركانه. وقد اتسع له الوقت للتفكير والتركيز على الضروريات والتخطيط. وكان «باتون» يعيش أيضاً بمعزل عن اركانه في حالة معقولة من الراحة والانفراد الرزين وكأنه قبطان سفينة بريطانية حربية وعلى هذا الصعيد عاش عكس عقيدة البساطة المتناهية المألوفة لبعض القادة الأمريكان مما حير حلفاءهم البريطانيين. إن منظر لواء أو عقيد وهو يحمل فراشه أو يصطف مع الجنود منتظراً دوره لأخذ الطعام أو يقوم بحفر خندقه الخاص، يخفض من مكانته في أعين ضباط الصف البريطانيين وفي أعين الجنود البريطانيين أيضاً. فيقولون كيف يستطيع ضابط كبير ان يركز على عمله الحقيقي بينما هو يقوم باضاعة وقته الثمين وطاقته الكبيرة في أعمال يمكن ان يقوم بها أي شخص بليد ضعيف العقل؟

بالنسبة للحلفاء يعتبر شهر تموز سنة ١٩٤٢ الدرك الأسفل في الحرب ففي هذا الشهر تمكن اليابانيون من طرد الأمريكان من «الفيليبين» كما طردوا البريطانيين من «هونغ كونغ» و«المالايو» و«سنغافوره» و«بورما» أما على الجبهة الشرقية فيبدو ان جيوش «هتلر» لم تعد بعيدة عن احراز انتصار مدوٍّ رائع على قوات «ستالين» الذي كان يلح، حتى وبعبارات محقرة، على ضرورة افتتاح جبهة ثانية كي تخفف الضغط عن جيوشه التي أصبحت مفككة متزعزعة. في ٢١ حزيران كان «رومل» قد احتل «طبرق»، وقبيل أواخر

الشهر تمكن مع الفرقة الأفريقية من ان يصل إلى «العلمين» على بعد لا يزيد عن ٨٠ ميلاً من القاهرة. منذ الغارة على «بيرل هاربور» كان «تشرشل» يلح مطالباً بعملية انزال انكلو امريكية في شمالي أفريقيا. آملاً من ذلك إعادة فتح البحر المتوسط أمام سفن الحلفاء وكذلك ارغام القوات الفرنسية الموجودة في الجزائر ومراكش على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء وما لبث روزفلت ان أدرك الفوائد التي يمكن ان تجنى سياسياً واستراتيجياً إذا نفذت اقتراحات «تشرشل» ، أما مستشاراه الاستراتيجيان، «مارشال» و«كنغ» فكانا أقل منه حماساً إذ رأيا في هذا الاقتراح توزيعاً للقوات في بقاع بعيدة عن النقطة الاستراتيجيةَ الحاسمة، أي شمالي غربي أوروبا. ولذلك أخذا يحثان على عملية إنزال في شبه جزيرة «كوتنتين».

في ذلك الصيف بالذات لم يكن البريطانيون مستعدين لهذه العملية بعد ملاحظين بأن فتح جبهة ثانية قبل ان يحين الأوان في شمالي غربي أوروبا لمجرد ارضاء «ستالين» سيسفر عنه، في أفضل الحالات، اكتساب مواطىء قدم في ساحل قد لا يكون بالامكان الدفاع عنه أو الاحتفاظ به بالاضافة إلى تحميل الأسطول البحري الملكي وسلاح الجو الملكي عبئاً ثقيلاً لا يمكن تحمله. استمر الجدال طيلة ذلك الصيف مما زاد في سخط كل المعنيين بالأمر. ولكن تهديد «رومل» للقاهرة في تموز حسم الموقف أخيراً. إلا أن «تشرشل» رفض بشكل قاطع ان يقوم بحملة عبر القناة سنة ١٩٤٢. إذن لم يبق هناك إلا عمليتان انكلو امريكيتان قابلتان للانجاز سنة ١٩٤٢ أولاهما ارسال جنود امريكيين للخدمة تحت قيادة انكليزية في مصر وهي العملية التي كان يسميها «تشرشل» «المشعل» أو عملية انزال في الجزائر والمغرب تحت القيادة الأمريكية العليا، وجدير بالذكر ان عملية الانزال كانت هي الأفضل أو أهون الشرين من وجهة النظر الامريكية.

في ٢٥ تموز، وقد تلقى رؤساء الأركان أمراً باقرار إحدى العمليتين، وافقوا على عملية المشعل على ان تكون بامرة «ايزنهاور». في هذه المرحلة كان الشكل الذي ستتخذه الحملة ما يزال غامضاً تماماً: فالانكليز يحثون على ان يتم الانزال داخل منطقة البحر المتوسط على ان يتبع ذلك تقدم سريع في «تونس» أما الامريكان فكانوا يحبذون عملية إنزال على الساحل الاطلنطي في المغرب قرب الدار البيضاء وحجتهم أنه ينبغي ان تكون لهم قاعدة على الأطلسي يلجؤون إليها في حال قيام الألمان بعملية مضادة. بعدئذ يمكنهم الاندفاع عبر اسبانيا عن طريق جبل طارق مستهدفين عزل القوات في البحر المتوسط وهكذا تم الاتفاق على انه حيثما ينزل الحلفاء على الشاطىء الأفريقي ينبغي ان يضاف إليه إنزال في المغرب. لقد أدرك الجميع بأن تلك العملية ستكون مغامرة من الدرجة

الأولى أكثر منها عملية حربية واضحة وصريحة. وعلى كل حال كان هنالك قائد على اتم الاستعداد لقيادة أية عملية خشية اسناد القيادة لغيره حتى وان كانت العملية ترمي إلى اقتحام بوابات جهنم.

رغب «ايزنهاور» في وجود «باتون» معه عند القيام بعملية الانزال في مراكش ولكنه تردد في طلب ذلك لأنه كان أدنى مرتبة منه بخمس سنوات. حينذاك تدخل «مارشال» وفي ٣٠ تموز استدعي «باتون» إلى واشنطن وبعد تسعة أيام طار إلى انكلترا ليتباحث مع «آيزنهاور» في «كلاريدجر» وفي «نورفولك هاوس»، ساحة «سان جيمس» في هذه المرحلة كان كل شيء في حالة تغير وتقلب مستمرّ، وكانت الحالة ما برحت على حالها عندما طار «باتون» راجعاً إلى الولايات المتحدة في ٢٠ آب متمتعاً بأحسن صحة وعافية بعد أن أكد لـ «آيزنهاور» أنه، في ما يتعلق به، موافق تماماً ومطمئن خاصة بعد دراسة المشكلة في رسالة بعثها «ايزنهاور» إلى «مارشال» في ذلك الوقت أكد فيها ان «باتون» قد أظهر مقدرة كاملة تمكّنه من القيام بالمهمة وانه كان شديد الحماس لها.

في غضون ذلك كان الحوار الداخلي ما يزال مستمراً بين الحلفاء لكن في ٥ أيلول تمكن «تشرشل» من وضع حد لما كان يدعى، عن جدارة مباراة أطروحة عبر الأطلسي وذلك بارسال برقية إلى «روزفلت» قال فيها: «اننا نوافق على الخطة العسكرية التي تقترحونها» فاجابه «روزفلت»: «عظيم» ولقد أحسن في ذلك إذ لم يكن هناك على صعيد التخطيط الداخلي للحلفاء خطة أحاقت بها تعقيدات وأمور غير حسية وتقلبات وشكوك وسوء تفاهم وتثبيط عزائم وتعديلات وتغييرات وحلول وسيطية وعرقلات وعقبات أكثر مما أحاق بعملية المشعل (أي عملية الانزال في شمالي أفريقيا) لقد سقط أحد المخططين الكبار، وهو عميد من أقدر العاملين في هذا المجال صريعاً وهو يخرج من «نورفولك هاوس» أثناء الاجراءات التخطيطية وذلك لاصابته بنزيف في الدماغ كما برزت حقيقة هامة هي ان الجيش الامريكي والبحرية الامريكية على غير وفاق. وفي هذه المرحلة توترت العلاقات بين «باتون» والاميرال «هويت» لدرجة جعلت «كنغ» رئيس اركان البحرية يقول إنه ما لم يطرد «باتون» من الجيش فانه سيضطر إلى التوصية بأن ينسحب الأسطول البحري من ذلك الصراع غير المتكافىء. لقد كان من الخير لفرعي القوات المسلحة كليهما ان يكون أركان «باتون» المسؤولين عن التخطيط مع البحرية في «هامبتون رودز» بدلاً من «واشنطن» وهذا ما حدث فيما بعد فسار كل شيء على ما يرام واتفق الجيش مع البحرية:

شملت الخطة النهائية ثلاث قوات متحدة (برية بحرية جوية). الأولى قوامها

٢٤٠٠٠٠ رجل بامرة «باتون» تهبط على الساحل الأطلسي وتتألف من قوات أمريكية صرفة تهدف إلى الاستيلاء على الدار البيضاء وتبحر مباشرة من أمريكا على متن مائة وسفينتين منها ٢٩ سفينة نقل من القوة البحرية الغربية بإمرة معاون اميرال البحر «هـ. كنت هويت». أما القوة الثانية فتشمل قوة الوحدة الوسطى وقوامها ١٨,٥٠٠ من الجنود الأمريكان القادمين من سكوتلندا وشمالي ايرلندا تحت قيادة «فريد نهول» تبحر من ميناء كلايد بمرافقة قوة بحرية انكليزية وتهبط في «وهران» وأما القوة الثالثة فهي قوة الوحدة الشرقية التي خطط لها ان تكون تحت قيادة انكليزية وأنيط بها النزول في الجزائر وقوام القوات الأمريكية فيها تسعة آلاف جندي. في الانزال الأول كانت الآمال قوية في ان يحظى الجنود الامريكان باستقبال ودي أكثر من الانكليز، وعلى ذلك يهبطون هم أولاً، وذلك لأن ذكريات ما حدث للأسطول الفرنسي سنة ١٩٤٠ ما زالت حاضرة في الأذهان وهكذا انهمك المندوب الدبلوماسي الامريكي روبرت مورفي في شمالي أفريقيا بمفاوضات سرية في غاية التعقيد محاولاً تمهيد الطريق وتسهيلها أمام الغزاة.

اقترح «باتون» ان يكون إنزاله الرئيسي في «فدالا» على بعد ١٥ ميلاً شمالي الدار البيضاء مع قوتين مساعدتين واحدة في المهدية على بعد ٥٠ ميلاً إلى الشمال مستهدفة احتلال مطار «بورت ليوتي» وهو المطار الوحيد في المغرب حيث يوجد مدرج للطائرات مصنوع من الباطون والثانية في صافي على بعد ١٥٠ ميلاً جنوبي الدار البيضاء لتجنب الأذى من الحامية الفرنسية القوية المتمركزة في العاصمة مراكش. وكانت المياه هنا صالحة أيضاً لانزال دبابات من حجم متوسط، غير انه لم يكن هناك من يستطيع البت بكيفية رد الفعل الفرنسي، وعلماً أنه كان هناك ٦٠,٠٠٠ جندي على الأقل من جنود المستعمرات الممتازين في المغرب، أما دفاعات الساحل فكانت جيدة ومتطورة وأما الأسطول فكان ما يزال يشعر بالمرارة بسبب ذكريات حوادث «داكار وفيرز الكبير» كما لم يكن أحد يعرف كيف سيكون موقف الثمانية ملايين من العرب والبربر.

في ٢٤ أيلول أقلعت الطرادة «أوغسطا» وعلى متنها «هويت» و«باتون» من «هامبتون رودز» قرب «نورفولك»، «فرجينيا»، للانضمام إلى باقي قوة الوحدة المحتشدة في البحر ومع اشراقة شمس الخريف كان مشهد الأسطول الغازي مؤثراً رائعاً.

كان على سطح البحر ثلاثون سفينة نقل وبضائع يحميها ستار من أربعين إلى خمسين مدمرة ماخرة حولها وكأنها جياد صغيرة في لعبة البولو، منها الطرادات «أوغستا» و«كليفلاند» و«بروكلين» تسير جنباً إلى جنب وعلى مقربة منها توجد سفينتا الحرب الكبيرتان «تكساس ونيويورك» وأخيراً السفينة الجديدة «مساشوستس». أما على سطوح ناقلات نفط

«أسو» التي حلّت إلى سفن حربية فقد احتشد الجنود متشوقين لساعة النزال وفوق سطح «رينجر» الصالح للطائرات كانت طائرات الانقضاض البحرية والطائرات المقاتلة (القطط البرية) تزأر وتهدر ثم تنطلق وتحلق فوق قافلة السفن المحمية.

في تلك اللحظة كان الوقت قد حان لإخبار الجنود، دون اضرار بالأمن، عن وجهة انطلاقهم وعن ماهية العملية التي سوف يقومون بها وفي ما يلي الرسالة التي وجهها «باتون» إلى الجنود وفيها ستلاحظون ولا بد تلك المسحة النابليونية:

«أيها الجنود، إننا الآن في طريقنا للقيام بعملية انزال في شمالي غربي أفريقيا، وينبغي ان نهنىء أنفسنا (لوقوع الاختيار علينا من بين الوحدات الكثيرة في جيش الولايات المتحدة كي نشترك في هذا المجهود الأمريكي الضخم.

تتألف مهمتنا من ثلاث نقاط: أولاً احتلال رأس ساحلي، ثانياً الاستيلاء على الدار البيضاء وثالثاً أن نزحف باتجاه الألمان حيثما كانوا وندمرهم.

قد يقاومنا عدد محدود من الألمان، كما أننا لا نعرف فيما إذا كان الجيش الفرنسي سيقاوم عملية انزالنا أم لا.. عندما يحين يوم المعركة العظيم تذكروا جميعاً تدريباتكم كما عليكم ان تتذكروا أيضاً ان سرعة الهجوم وعنفه هو الطريقة السليمة الأكيدة التي تؤدي إلى النجاح والفلاح... خلال الأيام والليالي الأولى من نزولنا على الشاطىء عليكم ان تعملوا دون هوادة، دون الاهتمام بالنوم وبغض النظر عن الطعام. وأعلموا ان كل مكيال من العرق سيوفر علينا المكاييل من الدماء الزكية. عيون العالم كلها ترقبنا والله معنا.. ولسوف نحقق النصر تأكيداً.

لم يكن أحد يعلم ان العملية ليست أكثر من مغامرة، فالفرنسيون، إذا ما قاوموا، قد يرون ان هناك فرصة لاستعادة سمعة فرنسا الحربية بعد ان تلطخت بالعار.

كانت الحسابات التقديرية تعارض النزول في أوائل تشرين الثاني على شاطىء المغرب المكشوف لأن المد سيكون شديداً في المحيط الأطلسي. وكان هناك احتمال جلي بأن تتسبب الأمواج المتكسرة على الشاطىء بقلب قوارب الانزال فيغرق كل من عليها بل حتى لو كان بالامكان انزال الجنود بأمان فقد يتوجب عليهم الانتظار عدة أيام قبل ان تصل إليهم الامدادات والتعزيزات. والواقع ان «باتون» كان أثناء المؤتمر النهائي لتوزيع المهمات الذي عقد قبل اعتلاء متن السفن قد اخبر بكل مرارة، ضباط الأسطول بأن خططهم المتقنة للانزال قد تنهار في أول خمس دقائق ثم أضاف قائلاً: «لم يحدث في

التاريخ ان تمكن الأسطول البحري من انجاز عملية انزال في الوقت المعين والمكان المرسوم . . . بيد انكم اذا استطعتم انزالنا في مكان ما على بعد حوالى ٥٠ ميلاً من فدالا وخلال اسبوع من اليوم المعين فانني سأنطلق قدماً ولسوف انتصر».

من الجدير بالذكر هنا ان «باتون» وجد من المناسب خلال الأسبوعين اللذين قضاهما في البحر، ان يطالع القرآن ـ الذي ينص على ان كل ما يحدث فانما هو بمشئية الله وان القلق والتفكير بالمستقبل ليسا إلا اضاعة للوقت وكما يقول الرسول ما معناه فإن الموت في المعركة شهادة ومن نالها كتب له مقعد في الجنة، وغني عن البيان ان مثل هذه الأقوال تروق كثيراً لشبان أمريكا. لكن الشيء الوحيد الذي لم يستطع «باتون» ادراكه هو انه أثناء زيارته إلى مقر قيادة العمليات المشتركة البريطانية في لندن في شهر آب الماضي لم يكن قد أدرك مغزى القصة التي أخبره بها «ماونتباتن» عما حدث للجنرال البريطاني «ايروين» في الحملة السيئة المصير التي كانت متوجهة إلى دكار سنة ١٩٤٠. والآن، مثله مثل «ايروين» كان «باتون» ماضياً إلى معركة حافلة بالمخاطر التي لا يمكن التكهن بها وفي سفينة أميرال البحر.

الفصل الرابع

المغـــرب

الحرب عمل قذر قليلاً
أما السياسة ـ فيالله!!
المارشال الفيكونت مونتغومري

قال نابليون وهو في إحدى لحظات صفائه: «القيادة في الحرب مهنة رائعة لكن حتى بالنسبة لأعظم المحترفين فإن فيها هذا العيب وهو ان النجاح الشخصي مرتبط بالقضاء على أرواح الزملاء والاتباع». وما من أحد أكثر من «باتون» شعر بهذا الصراع المعنوي ـ صراع اخترق صميم فؤاده وقد شاركه «مونتغومري» في هذا الشعور، ذلك لأنه مثل «باتون» كان يؤمن بالله. حين كانت سفينة أوغسطا وبقية الأسطول العظيم تقترب من ساحل المغرب، حضر «باتون» آخر قداس عام قبل يوم الانزال (يوم د) بصحبة أركانه وقد أدرك الجميع إدراكاً تاماً انه قد يكون الأخير.

أثناء الرحلة تطورت إحساسات من التفاهم التام والتعاطف بين «باتـون» و«هويت». في تلك اللحظات كان «هويت» يتولى القيادة المطلقة الشاملة على قوة الوحدة الغربية.. ولم يكن هناك من يدرك مثله المغامرة العظيمة الناتجة عن انزال الجنود على سواحل رملية معرضة لجميع أنواع المفاجآت التي تحدث في المحيط الأطلسي في شهر تشرين الثاني: فإذا جرت محاولة الانزال أثناء طقس رديء فمما لا شك فيه انه سينجم عن ذلك كارثة مروعة حتمية. في ٦ تشرين الثاني أي قبل يوم الانزال الموعود بـ ٤٨ ساعة كانت التنبؤات الجوية من كل من واشنطن ولندن تنذر بالشر والشؤم: «الأمواج على الشاطىء بعلو خمس عشرة قدم والانزال مستحيل «أما خبير الأرصاد الجوية المرافق

لـ «هويت» فقد قرر بأن العاصفة تهب بشكل أسرع من ان تؤثر الأمواج العارمة على الشواطىء الرملية وتنبأ بأن الطقس، سوف يتحسن: اذن فأمام عملية الانزال فرصة طيبة من النجاح. وبذلك أصبح «هويت» في حيرة عظيمة من أمره لا يدري ماذا يفعل. إذا تجاهل التوقعات التي بثتها لندن وواشنطن وقرر ان يتمسك بتنفيذ عملية الانزال في الدار البيضاء حسب الخطة المرسومة فعليه ان يحشد قواته في ٧ تشرين الثاني أي عشية يوم الانزال. وإذا غرق أثناء ذلك عدد كبير من الجنود فانه سيكون، حتى في أفضل الحالات، قد ألحق ضرراً كبيراً لا يمكن اصلاحه بقواته وبمكانته البحرية لدى رجال البحرية. وعلى العكس من ذلك إذا اتبع الخطة الأخرى الموافق عليها أي دخول البحر المتوسط وانزال الجنود على القطاع الصغير من المغرب الفرنسي ما بين وهران والمغرب الاسباني فهناك احتمال قوي بأنه سيواجه عدداً كبيراً من الغواصات بالاضافة إلى كون السواحل هناك لم تدرس دراسة جيدة، وعلاوة على ذلك فانه إذا ما قام بعملية الانزال هنا فانه سيترك جزءاً كبيراً من الجيش الفرنسي والبحرية الفرنسية في شمالي أفريقيا وهي ما تزال بكامل حريتها للعمل، إذا شاءت ذلك، ضد قوتي المهمة الوسطى والشرقية في وهران والجزائر. وطبقاً لما هو معروف عن أميرالات البحر في التاريخ سلك هويت السبيل الآخر، ففي منتصف ليلة ٦ تشرين الثاني أقلع نحو الدار البيضاء. ولحسن الحظ هدأت الرياح فوراً وفي ٧ تشرين الثاني راح الأسطول الضخم يقترب من ساحل المغرب في أحوال جوية حسنة فالجو معتدل والنسيم شرقي خفيف والبحر هادىء.

خلال ذلك، كان بالامكان وصف الوضع العسكري داخل المغرب بأنه «بيزنطي» - أي ذلك التسلسل من الظروف التي أتيحت فيها الفرصة للسياسات والمؤامرات بانهاك معنويات الجيش كما حطت الهزيمة من ولاء الأمة واحترامها لنفسها. بعد ان اقنع «تشرشل» «روزفلت» بالتدخل في الجزائر والمغرب، وبالرغم من انه كان يفضل ديغول «على المرشح الأمريكي جيرو»، كي يلعب دور المحرر، فانه اكتفى بترك تهدئة الفرنسيين من الداخل «لروبرت مورفي» الدبلوماسي الامريكي الأول في شمالي أفريقيا، وقد كان «روبرت» على اتصال بثلاثة تجمعات على الأقل من الضباط الفرنسيين الذين عرف عنهم التعاطف مع قضية الحلفاء. كان لمؤامراته معهم ومؤامرات «مارك كلارك» قصص طريفة أشبه بالأساطير. اعتمد «مورفي» في الدرجة الأولى على الجنرال «ماس»، القائد العسكري لمنطقة الجزائر وعلى الجنرال «بيتو وار» قائد فرقة الدار البيضاء أما داخل المغرب فكانت السلطة متمركزة في يد الجنرال «توغوين» الذي كان يقيم في الرباط وقد عرف عنه بأنه سيبقى مخلصاً لحكومة «بيتان». كانت خطط الفرنسيين للدفاع

عن المغرب متقنة وعميقة، ومفهومة تماماً وكانت، من عهد حديث، قد أصبحت عصرية تماماً. فقد قسمت مسؤولية الدفاع عن الساحل إلى ثلاثة قطاعات: أقصى الشمال حول «بورت ليوتي» بقيادة الجنرال «دودي» وقطاع الدار البيضاء بقيادة أمير البحر «ميشليه» وأقصى الجنوب للدفاع عن ميناء «صافي» تحت قيادة الجنرال «مارتين» الذي كان مقر قيادته في مراكش أما الجنرال «لاسكروا» فكان يقوم بأعباء القيادة العليا تحت امرة الحاكم العام.

كان «بيثووار» جندياً باسلاً ويتمتع بذكاء خارق، وهو الجنرال الوحيد الذي تمكن خلال العمليات المنحوسة في النرويج سنة ١٩٤٠ من إحراز بعض الهيبة والمكانة. لكن لسوء الحظ، وعلى الرغم من انه كان قائد منطقة الدار البيضاء فقد كان «الاميرال ميشليه» رئيسه المباشر متمركزاً هناك أيضاً، وهذه الحقيقة لم يكن يعرفها الأمريكان لذلك عندما اقتربت الوحدة الغربية من الساحل المغربي في ٧ تشرين الثاني لم يكن أصدقاؤهم هناك مستعدين لاستقبالهم أبداً. ومن المصادفات التي يصعب تصديقها ان الطيران الفرنسي لم يكتشف أسطول «هويت» الهائل إلا في وقت متأخر من ذلك المساء وقد دهش «بيثووار» عندما تسلم برقية تقول بأن عملية الانزال ستبدأ في تمام الساعة الثانية صباحاً وعندها استنتج بأن الانزال سيكون على ساحل مدينة الرباط غير المحمي أي على بعد ٥٠ ميلاً شمالي الدار البيضاء. وبناء على ذلك وضع جنوداً على الشاطىء هناك كي يرحبوا بالقادمين. بعد ذلك طوق مقر قيادة الجيش في الرباط بكتيبة من المشاة وألقى القبض على «لاسكرو» ثم اخبر «نوغوين» و«ميشليه» بأن الأمريكان على وشك النزول في المغرب والجزائر، وان «جيرو» سيستلم زمام القيادة في شمالي أفريقيا وانه هو شخصياً «بيثووار» أصبح المسؤول في المغرب لكن، لسوء الحظ غرب عن باله انه كان لـ «نوغوين» خط سري متصل بباقي القادة في المغرب. وفي تلك اللحظة لعب دوره كما ينبغي. بيد ان ميشليه بدأ في الدار البيضاء يتحرك بسرعة، لقد فشلت دورياته الجوية والبحرية في المساء السابق في اكتشاف قوات الوحدة الغربية التي كانت على مقربة من الشاطىء واستنتج من ذلك ان «بيثووار» كان يخادع إذ حتى عندما وصلت إليه أخبار عن عملية الانزال حوالى الساعة الخامسة لم يهتم بها معتقداً انها مجرد عملية فدائية فأصدر ميشليه أوامره إلى جميع القوات البرية والبحرية والجوية بمقاومة الانزال ثم ألقى القبض على «بيثووار» متهماً إياه بالخيانة.

في «صافي»، على بعد ١٤٠ ميلاً إلى الجنوب من مقر قيادة ميشليه في الدار البيضاء، وصلت الأوامر إلى الرائد «دوف» قائد الحامية، بأن يعد رجاله لحماية الدفاعات في وقت

مبكر أي في الساعة ٣,٢٠ صباحاً وكان معه حوالى ٤٠٠ جندي في مراكز دفاعية تغطي الميناء كله وهكذا تمركزت بطارية مدافع من عيار ١٣٠مم في«بوينت دولاتور»للدفاع عن الشاطىء وكانت تشرف على جميع المداخل. في تلك اللحظة وعلى بعد ثمانية أميال في البحر كان جنود الانزال من فرقة المشاة / ٤٧/ قد بدؤوا بالهبوط من سفن النقل إلى قوارب الانزال، ونظراً لافتقارهم للتدريب وشدة الظلام وارتفاع الأمواج الهائلة على الشاطىء واجه الجنود صعوبات جمة فتأخروا بذلك عن الوقت المحدد. وبما أن«صافي» مدينة صغيرة لها ميناء اصطناعية بناها الفرنسيون لتصدير الفوسفات فقد أصدر «باتون» الأوامر لـ «هارمون» قائد الفرقة المدرعة الثانية بأن ينزل بدباباته هنا، ثم يستولي على الأحواض ويقيم رأس جسر، ثم ينزل جنوده ويصد القوات الفرنسية التي يحتمل قدومها من مراكش وبأسرع ما يمكن يندفع على الطريق الساحلية كي ينضم إلى الجنود الذين سينزلون في فدالا ويشترك معهم في الهجوم على الدار البيضاء، عندما أخذت قوارب الانزال تقترب من الشاطىء عند الساعة ٤,٣٨ صباحاً بدأت السفن الحربية تقذف قنابلها. وبالرغم من نيران العدو تمكنت ثلاث من فئات الرجال الخمس تعداد كل واحدة ٢٠٠ رجل من فرقة المشاة /٤٧/١ من الوصول إلى المكان الصحيح، وقد اندفع الجنود الذين دربهم «باتون» بحمية هائلة وحققوا الوصول إلى أهدافهم. تبع ذلك موجتان وصلتا عند الفجر وفي غضون ساعة أصبحت جميع مرافق الميناء بالاضافة إلى الجزء الجنوبي من المدينة تحت السيطرة الامريكية. وبعد محاولة فاشلة للهبوط في الظلام تمكنت فرقة المشاة ٤٧/٢ من ان تصل بنجاح إلى الشاطىء بعد بزوغ النهار. وحوالى الساعة التاسعة قبل الظهر وبالرغم من النيران المتقطعة التي كان يطلقها الجنود الفرنسيون المتمركزون في الأبنية الواقعة في جبهة الميناء وفي سفوح التلال وفي الثكنات، بالرغم من كل هذا كان انزال الدبابات يسير بسرعة ونجاح.

لكن على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال من الدار البيضاء أي قرب «المهدية» و«بورت ليوتي» واجه «ترسكوت» مع القوة مهمة أعسر وأشد تعقيداً ـ ألا وهي الاستيلاء في اليوم المحدد على مطار المغرب الوحيد المجهز بمدارج من الباطون وذلك كي تستخدمه طائرات «ب ٤٠» الموجودة على متن حاملة الطائرات «تشينانغو» والطائرات الأخرى التي ستأتي من جبل طارق لمساندة الجهد الرئيس الموجه ضد الدار البيضاء. وكان ذلك المطار يقع على بعد خمسة أميال داخل البر تشرف عليه مرتفعات من جهة الجنوب الغربي وتقطعه من الشمال والشرق والشمال الغربي أحد روافد نهر «سيبو»، كانت خطة ترسكوت هي ان يتم الانزال ليلاً في خمس نقاط منفصلة: نقطتين إلى الشمال من النهر

وثلاث نقاط إلى الجنوب منه ثم يقيم رؤوساً على الساحل وبعد ذلك يندفع إلى داخل البر باتجاه المطار: وقد نوى عند الانزال ان يرسل جماعة لاجراء مفاوضات مع القائد الفرنسي: فاذا كان جوابه غير مناسب يستولي على المطار بشن هجوم من ثلاثة جوانب تسانده مدافع سفن الدعم والطائرات من على متن «سانغامان».

لكن مع اقتراب السفن من الساحل في الساعات المبكرة فقدت تشكيلاتها المنظمة مما أسفر عن ذلك تأخر في نقل موجات الجنود المقتحمة إلى قوارب الانزال وبذلك تمكنت البواخر الفرنسية الصغيرة، التي كانت تجوب تلك المنطقة، من الاسراع بارسال تقرير باللاسلكي إلى قوات الشاطىء عن وجود اسطول غاز. في تمام الرابعة والنصف بدأ القصف من مدافع حامية الشاطىء: فكان معنى ذلك ان الترتيبات التي اتخذت مع بعض العملاء على الشاطىء من أجل التخريب قد باءت بالفشل وهكذا ضاعت فرصة المباغتة لكن مع ذلك قرر «ترسكوت» ان يستمر قدماً بعملية الانزال. لكن توجب القيام ببعض التغييرات في آخر لحظة ونتيجة لذلك تمكنت مجموعتان فقط من أصل المجموعات الخمس من الوصول إلى الشاطىء بصورة ناجحة وحسب الخطة الموضوعة. كان الجميع متأخرين وقد بللتهم المياه حتى الجلد وكان عليهم الكفاح للوصول إلى الشاطىء بالرغم من شدة اطلاق النار من الأسلحة الصغيرة. وقد غرق الكثير من قوارب الانزال بسبب أمواج الأطلسي الهائلة المتكسرة على الشاطىء. أخذت جماعات قليلة العدد تجوب الشواطىء الرملية وهي في أشد حالات الارتباك والحيرة. ومما أدى إلى زيادة الحيرة والتشويش والتأخر الهجمات التي قامت بها الطائرات الفرنسية من علو منخفض وعندما لاح ضوء النهار اضطرت سفن النقل لأن تبتعد حوالى ١٥ ميلاً عن الشاطىء بسبب دقة تسديد مدفعية السواحل. في هذه الأثناء وبينما كان العقيد «كروو» بصحبة مبعوث «ترسكوت» الرائد «هاميلتون»، خلف راية بيضاء متوجهين إلى مقر القيادة الفرنسية في «بورت ليوتي» أصيب برصاصة فخر صريعاً. أما هاميلتون فقد سقط في الأسر لدى وصوله. وفي الساعة الثامنة صباحاً عندما كان «باتون» متوجهاً إلى الشاطىء على متن «الأوغسطا» بالقرب من «فدالا» لم يكن يعرف إلا القليل عما حدث لقوة «ترسكوت» لكن حتى ذلك القليل كان مقلقاً.

أما جهود «باتون» الرئيسية هنا بالنسبة للفرقة الثالثة فقد واجهها حظ أفضل انما كثير التقلب. كانت المهمة الملقاة عليهم هي النزول مباشرة شرقي ميناء «فدالا» الصغير كي يقيموا هناك رأس جسر حول الميناء ثم يندفعوا جنوباً للاستيلاء على الدار البيضاء على بعد ١٢ ميلاً. كان هناك أربع بطاريات من المدافع اثنتان في رأس «فدالا» واثنتان في

«الشرقي» للدفاع عن الشاطىء وبامكانها تغطية نقاط الشاطىء الأربعة المختارة، يضاف إلى هذه المدافع مدافع عيار ١٥ انشاً في السفينة الحربية «جان بارت» وسفن أخرى بما في ذلك خمس غواصات. كان في «فدالا» حوالى ٢,٥٠٠ جندي مع بعض مدافع الميدان: أما في الدار البيضاء فكان هناك خمسة أفواج أخرى من المشاة وفوجان من مدفعية الميدان. كما كان هناك ١٤ مدفعاً للدفاع عن الشاطىء متمركزة داخل مواقع قوية من الباطون بالاضافة إلى عدد من المدافع المضادة للطائرات، وفي مكناس كانت توجد خمسة أفواج أخرى وبعض الدبابات.

بعد منتصف الليل بقليل اقتربت السفن الحربية وسفن النقل من «فدالا» تحت أمطار متقطعة. وكان بالامكان رؤية أنوار الدار البيضاء و«فدالا» بكل وضوح. فجأة أطفئت الأنوار، وبدأت عملية نقل الجنود من سفن النقل إلى قوارب الانزال، وعند ذلك اكتشف ان تياراً غير متوقع قد حمل السفن بأسرها نحو ١٠,٠٠٠ ياردة بعيداً عن المكان المخطط. وعلى ذلك كان لا بد من التأخر غير ان عملية الانزال استؤنفت في الساعة ٤,٤٥ صباحاً أي قبل ساعة من بزوغ الفجر وقبل بلوغ البر غرق بعض الجنود بسبب ثقل ما كانوا يحملون، لأن التيار المضاد (الذي تسببه الأمواج المتكسرة على الشاطىء) والجاري تحت الماء كان يحملهم إلى آخرتهم. لقد فقد على أحد الشواطىء ١٨ قارب انزال من أصل ٢٥ قارباً. وقد هبط الكثيرون في أماكن غير صحيحة وكانت زخات الرصاص المنهمر من الرشاشات تغطي الشواطى. مع ذلك فان موجات الجنود المتقدمة تمكنت عند بزوغ الفجر من إعادة تنظيم نفسها وتوجهها واندفع الجنود قدماً لتحقيق الأهداف المنوطة بهم. بدأت مدافع «جان بارت» وبطاريات دفاع الشواطىء تصب نيرانها على الأسطول، وردت على ذلك «المساشوستس» بنيران صبتها في كل الاتجاهات وشاركتها في هذا القصف الطرادات الثقيلة والمدمرات وتمكنت من اسكاتها موقتاً. حوالى الساعة السابعة تمكن الفوج الأول من فرقة المشاة السابعة من الاستيلاء على «فدالا» واستمر مندفعاً في الهجوم على بطاريات دفاع الشواطىء في رأس «فدالا» وبشجاعة وبسالة منقطعتي النظير اقتحمت المجموعات التي هبطت إلى الشاطىء من فرقة المشاة الخامسة عشرة، بطاريات من مدفعية السواحل المتمركزة في الشاطىء الشرقي واستولت عليها في الساعة ٧,٣٠ صباحاً. حينئذ كانت طلائع الفرقة الخامسة عشرة من المشاة قد بدأت بالهبوط على الشاطىء. وبالرغم من الفوضى التي ضربت أطنابها على الشواطىء وبالرغم من الخسائر الفادحة التي حلت بقوارب الانزال راحت الكتائب الثلاث تقترب من الأهداف المحددة في اليوم المضروب أما في الجو فإن المقاتلات وقاذفات

القنابل التي كانت تنطلق من على متن «الرينجر والسواني» قد سيطرت على جميع الأجواء من «بورت ليوتي» حتى «الدار البيضاء».

في الساعة الثامنة صباحاً كان قارب الانزال الذي يحتوي على امتعة «باتون» يتأرجح نازلاً من «الأوغسطا» إلى البحر. أما هو شخصياً فكان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يتوجه فيها نحو الشاطىء. لكن على حين غرة ومن وراء ستار من الدخان اندفعت سبع مدمرات فرنسية من ميناء الدار البيضاء وأخذت تصب نيرانها على سفن النقل الامريكية وعلى قوارب الانزال، فزادت «الأوغسطا» سرعتها في الحال إلى ٢٠ عقدة وردت على النيران. أصبحت المعركة الآن معركة بحرية معقدة كل التعقيد، أثناءها نسفت قوة انفجار مدفع مؤخرة الأوغسطا الموجود في برجها الخلفي الصغير قارب الانزال الذي يحتوي على أمتعة وألبسة «باتون» وطيرته بما فيه أشلاء في الهواء. ظل «باتون» طيلة ذلك الصباح سجيناً في «الأوغسطا» ومن هناك شاهد معركة التحام بحرية قلما تمتع برؤيتها أحد الجنود. إذ قامت جميع سفن «هويت» بهجوم موحد على الفرنسيين واضطرتهم إلى التقهقر إلى الدار البيضاء لكن بعد حوالى الساعة خرجت السفن الفرنسية ثانية تساندها الطـرادة «بريماغي» ونجحت في إغراء السفن النفطية بالاقتراب إلى مدى نار بطاريات الشواطىء في الدار البيضاء. وفي «الأوغسطا» وجد «باتون» نفسه وسط قصف مدفعي مركز من المدافع الفرنسية المتمركزة في «الهانك» بالاضافة إلى الطوربيدات التي كانت تطلقها الغواصات الفرنسية. عندها انضمت الطائرات منطلقة من على حاملات الطائرات الأمريكية إلى وطيس المعركة أما الطرادة «بريماغي» فقد بقيت صامدة تطلق نيرانها حتى النهاية: ومن المؤسف ان قبطانها، وهو متعاطف مع قضية الحلفاء قتل وهو في برج قيادته. ومما لا شك فيه ان الشجاعة التي أظهرها رجال البحرية الأمريكية والافرنسية لا يمكن ان تنسى لروعتها. وما كان لأحد ان يتمتع بمثل تلك المعارك أكثر من «باتون» لو حدث ذلك في أوقات أخرى، إذ أنه في ذلك الصباح كان مشغول البال في أمور أخرى. ولم يستطع «هويت» ان ينزل «باتون» مع بعض أركانه إلى الشاطىء في «فدالا» حتى الساعة ١٣,٢٠، وقد اقتنع الجميع كل الاقتناع بأنه ينبغي ان يكون لقائد الجيش في أية عمليات «بحرية برية» في المستقبل سفينة قيادة خاصة طبقاً لنصيحة «ماونتباتن».

عندما وطئت قدما «باتون» الشاطىء وجد نفسه وقد ألم به شعور غريب بالهدوء وبطء العمل الذي ينتاب حتى أفضل الجنود عندما يهبطون فجأة من الأسطول في أرض معادية، ففيما عدا بعض النيران المتقطعة التي كانت تنطلق من الدار البيضاء كان كل

شيء هادئاً وطبقاً لما يقوله الرائد «هنريكس» ضابط ارتباط «ماونتباتن»، لدى «باتون»:
قامت موجات الجنود الأولى والموجات التي تلتها مباشرة بأعمال باسلة تدل على صدق العزيمة، وكان «هنريكس» هذا وهو الضابط البريطاني الوحيد الذي رافق الوحدة الغربية وتنكر باللباس الامريكي مراعاة للمشاعر الفرنسية قد هبط إلى البر مع الموجات الأولى من الجنود وأرسل الأخبار إلى «ماونتباتن» من على الساحل. نزل أيضاً إلى الشاطىء ما يسميه الانكليز «مجموعات الشاطىء» وما يطلق عليه الأمريكان اسم «كتائب الشاطىء» لكن بدلاً من البدء بالعمل بتنظيمات استعادة العافية وإقامة مراكز الاسعاف ومراكز المعلومات ومؤسسات الاشارة المنوطة بها بدأ كل جندي يعمل على حفر خندقه الخاص أي انهم بسبب جهلهم المحض وضعوا سلامتهم الخاصة فوق واجبهم الحقيقي. أثناء ذلك ارتفع المد وبينما كان الجنود مستمرين بالنزول انقلب الكثير من قوارب الانزال على جوانبها في خضمّ الأمواج الهائلة فتخلى عنها من فيها، وهكذا ساد الشاطىء جو من الحيرة والارتباك والخمول. قدر «باتون» الوضع بسرعة وأخذ ينطلق من مجموعة إلى أخرى يحمس الجميع ليعودوا إلى أعمالهم الحقيقية ثم أمر بأن تتوقف عملية الانزال على الشواطىء وحول جميع القوارب القادمة نحو ميناء «فدالا» الصغير. مع ذلك، عندما أرخى الليل سدوله، ومع ان جميع الأفواج المقتحمة حققت أهدافها لذلك اليوم، فانه لم يكن قد نزل إلى البر إلا أقل من خمس الحمولات الضرورية والمدافع، وأما المؤن فلم ينزل منها شيء عملياً وباقتراح من القائد الفرنسي في «فدالا» ارسل العقيد «غي» إلى الدار البيضاء يحمل راية الهدنة في محاولة لاقناع الإميرال «ميشليه» بأن يوقف القتال، ولكنه قوبل برفض وغضب. كانت الأخبار من «هارمون» عن بلدة «صافي» جيدة إذ تمكنت الفرقة الثانية المدرعة من إقامة رأس جسر على عمق ٥٠٠ ياردة وقد أخذت الدبابات تهبط بسرعة أما في «بروت ليوتي» فما برح التشويش سائداً بالرغم من تدخل «ترسكوت» شخصياً. لم يكن اطلاق البحرية لنيرانها يجري على مدى قصير. كما بقيَ البحارة، الذين ارتطمت قوآربهم بالشواطىء وكذلك الجنود الذين أضاعوا وحداتهم يجوبون الشواطىء، وقد اضطرت سفن الشحن للابتعاد ١٥ ميلاً عن الشاطىء بسبب نيران مدفعية السواحل، وكانت الأمواج ترتفع عند الشواطىء أكثر من ١٥ قدماً. ولم يكن قد نزل إلى الشاطىء أي مدفع ثقيل. كذلك انقطع الاتصال اللاسلكي مع مقر قيادة «ايزنهاور» في جبل طارق ولم تصل إليه أخبار غن عمليات الانزال في «الجزائر» و«وهران». عقد «باتون» العزم على العودة إلى السواحل الرملية لدى أول خيط من خيوط النور لينقد الكسالي نقداً مريراً ويوبخ العاجزين ويدفع ويشجع الجبناء، وقد

قضى ليلته ضيفاً، غير عزيز، في فندق«ميرامار» وفي نفس الغرف التي كان قد أخلاها المندوبون الألمان على جناح السرعة في الصباح. بدا الآن انه لم يعد هناك من خيار سوى اقتحام الدار البيضاء. ولكن بدا ان ذلك الهجوم لن يكون عملياً في وجه المقاومة الفرنسية العنيفة لذا كان لا بد من انتظار انزال التجهيزات والمدافع والذخيرة أي انه لا يمكن شن الهجوم في الصباح.

عند بزوغ الفجر انحدر «باتون» إلى السواحل الرملية وكأنما هوغضب ارسله الرب، وبقي هناك إلى ما بعد الظهر، وجدير بالذكر انه ما من أحد قابله ذلك الصباح نسي طيلة حياته ذلك اللقاء. إن الكثير مما كتب عن تصرفه حينذاك يمكن ان يسجل وكأنه اسطورة. أما الحقيقة فهي انه كان ساخطاً وكان على حق، بسبب التراخي الذي أظهره بعض ضباطه وضباط صفه، ولكننا نحاول تبرير سلوكهم إذا تذكرنا أن أكثر من ثلثيهم كانوا مدنيين قبل أقل من سنة وما برحوا مدنيين في قلوبهم، أما العمليات البرمائية فكانت ما فتئت في مهدها بالنسبة لهم. أظهر «باتون» سخطه وهو يتولى بنفسه مسؤولية مجموعة بعد أخرى كما لو كان رقيباً يؤدي عمله. ومن الجلي انه بعمله هذا خرج عن كونه القائد الأعلى. أدرك «باتون» ذلك ولكنه عندما تذكر أعماله هذه في تاريخ لاحق كان ما برح يعتقد ان لها ما يبررها. على كل حال، كان تفريغ السفن في الميناء يجري بعد الظهر على قدم وساق، إذا خرجت قوارب الانزال الغارقة ووضعت اليد على وسائل النقل المحلية كما نظفت الشواطىء وبدأ بناء مخازن منظمة بكل سرعة. اعتقد هنريكس في ذلك الوقت ان«باتون» كان يتمتع«بلمسة ساحرة». أما في ما بعد وعندما زادت خبرته مع الأمريكان فقد عرف بأن «جميع الأمريكان يتمتعون بنفس الصفة، وانهم ككل الناس قد يفسدون بعض الأمور، لكنهم يختلفون عن بقية الناس في السرعة التي يصلحون بها الأمور عندما يؤمرون أو يقنعون أو يقادون لانجاز ذلك»، وهكذا كانت الحال في هذه المناسبة المضطربة وهنا يجدر بنا القول إن هذه الانطباعات هي نفس الانطباعات التي تركها الأمريكان لدى الكثير من الضباط البريطانيين طيلة أيام الحرب إثر مشاهداتهم للجنود الأمريكان وهم يحققون العلمليات المنوطة بهم.

طيلة يوم ٩ تشرين الثاني كانت الاتصالات اللاسلكية مع جبل طارق ما تزال جزئية ومشوشة، والفرقة الثالثة ما تزال تفتقر إلى وسائل النقل بالاضافة إلى افتقارها إلى المدافع الثقيلة والأجهزة اللاسلكية إلا أنها تقدمت مسافة أربعة أميال نحو الدار البيضاء أمام مقاومة ضعيفة على الأرض وهجمات جوية على ارتفاعات منخفضة. من «صافي» ارسل «هارمون» تقريراً قال فيه انه واجه هجوماً جوياً فرنسياً شرساً خلال الصباح

وأضاف بأن رتلاً من الجنود على طريق مراكش لم يبد إلا قليلاً من التحمس للقتال، فاعتقد انه يستطيع ايقافهم وصدهم بسرية دبابات فقط ثم يزحف مع من تبقى من فرقته إلى الدار البيضاء سالكاً طريق الساحل بأقصى سرعة ممكنة عند الصباح. وجاءت أخبار أخرى مطمئنة من «ترسكوت» في الشمال، مفادها أنه ما ان بزغ النور حتى تقدم خارجاً من الرباط ومعه فوجا مشاة مع قوات مدفعية و١٨ دبابة «رينو»، ثم زحف باتجاه الجناح الجنوبي الذي يهيمن عليه «سيمز» ومعه سبع دبابات خفيفة، وبهذا العمل بدأت أول مواجهة قتالية ما بين الدبابات الأمريكية والدبابات الفرنسية. لقد فشلت النيران الفرنسية في اختراق الدروع الأمامية للدبابات الأمريكية، وعلى العكس من ذلك تمكنت دبابات «سيمز» من اشعال النار في أربع دبابات فرنسية وبعدها استمرت باطلاق النار على المشاة موقعة الكثير من الاصابات بهم بينما استمرت المقاومة طيلة النهار بعنف وعناد وخاصة في «القصبة» قرب «المهدية» لكن عندما خيم الظلام استطاع «ترسكوت» ان يبلغ بأنه أصبح يسيطر على الوضع بشكل كامل.

أما بالنسبة للتأثير الذي استطاع أن يمارسه «ايزنهاور» على العمليات في المغرب فقد كان هزيلاً إذ إنه وهو في أنفاق جبل طارق الرطبة بدا وكأنه في «ابيلين» وذلك بسبب سوء اتصالاته مع قوات الوحدة الغربية. والواقع ان الجيش كان قد أغرق رموز الاتصالات الخاصة بالأسطول ونتيجة لذلك أعطيت للرسائل بينهما مرتبة دنيا في سلم الأولوية وقد اكتشف حينذاك بأن لكل من القوتين البرية والبحرية أفكاراً متباينة كل التباين في ما يختص بالاجراءات.

لكن لحسن الحظ اتخذ مجرى الحوادث في الجزائر بالنسبة لقوات الوحدة الوسطى اتجاهاً أقل صعوبة منه في الدار البيضاء ويعود الفضل في ذلك إلى الموقف المؤيد الذي وقفه القائد الفرنسي المحلي الجنرال «ماسن» ويمكننا ان نقول إنه في أسوأ الأحوال كانت المقاومة الفرنسية متقطعة. ففي «وهران» وفي مساء اليوم التاسع من تشرين كانت العمليات قد أوشكت على الانتهاء وغدت المقاومة الفرنسية فاترة ومتقطعة. بيد انه ثبت ان «جيرو» شخص لا يمكن الاعتماد عليه. وبالصدفة كان الاميرال «دارلان» في الجزائر يزور ابنه المريض في المستشفى، فوجد «ايزنهاور» انه يستطيع الحصول على ولاء أكثرية الضباط والموظفين الفرنسيين ولذلك فقد قرر، بمساعدة الاميرال «كنينغهام» (قائد جميع القوات البحرية المتحالفة) وبموافقة من «روزفلت» و«تشرشل» ان يشرع بالتعامل مع «دارلان». لقد اتخذ هذا القرار لدواع عسكرية فالبريطانيون الذين يساندون بصورة أساسية مرشحهم «ديغول» وتلك العناصر الموجودة في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا

العظمى التي تصادق كل بلد باستثناء وطنها، ولكونها لا تتحمل أية مسؤولية شخصية تتوقع من حكومتها ان تكون القدوة المعنوية، مهما كانت التكاليف باهظة الثمن، وان تتحمل ذلك. لقد رسمت الخطة بكاملها لضمان الاستيلاء على «بنزرت» و«تونس» بأقصى سرعة ممكنة قبل ان يقوم «هتلر» بتعزيز القوات هناك. وكانت الحاجة الملحة مباشرة هي الاندفاع بالسرعة القصوى نحو تونس. غير انه كانت هناك صعوبات جمة. فالمسافة بين الجزائر وتونس ٥٦٠ ميلاً على طريقين وسكة حديد ليست كما يـرام. ولم يكن متوافراً حينذاك إلا فرقة واحدة للقيام بهذا الاندفاع الحيوي.

في اليوم العاشر من تشرين وجد «ايزنهاور» متسعاً من الوقت كي يرسل رسالة مؤثرة إلى «باتون» ختمها بهذه الكلمات: «لم يبق إلا عقبة كؤود واحدة هي الآن وقف عليك سوف تسقط الجزائر خلال يومين. «وهران» أمامك. افتحها فوراً ثم أطلب كل ما تريد، والواقع ان هذا بالضبط ما كان «باتون» مهتمًا بتحقيقه.

في اليوم العاشر اندفعت الفرقة الثالثة نحو الضواحي الجنوبية الغربية من الدار البيضاء. وبالرغم من انه لم يكن هناك أمل واضح المعالم بقدوم مساعدة من قيادة الدعم الجوي الثانية عشرة كما لم يكن هناك أمل في أن تصل دبابات «هارمون» قبل وقت متأخر من بعد ظهر الحادي عشر من تشرين، بالرغم من كل هذا قرر «باتون» في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم ان يشن هجوماً واسع النطاق على المدينة في الصباح التالي، أي صباح ١١ تشرين الثاني. كان عدد القوات الفرنسية البرية يفوق عدد جنود «باتون» وقد اشتمل هذا العدد على جنود أشداء مثل «الغومير والفيلق الأجنبي». مع ذلك، شعر بأنه يستطيع الاعتماد على نيران المدفعية البحرية والدعم الجوي كل الاعتماد لكي يحقق التوازن. وحين وصلت أوامره إلى الوحدات كان ما يزال هناك وقت كاف للقيام بأعمال الاستطلاع الضرورية في النهار وكذلك لأن تصل هذه الأوامر إلى جميع جنوده الذين كانوا يفتقرون للخبرة وفيها يأمرهم بالاستعداد للمعركة ويبين لهم تماماً ما عليهم ان يفعلوا وان كل أنواع النيران الممكنة ستساندهم. وقبيل الغروب جاء من «برسكوت» ان وحدة المجندين الستين قد استولت على مطار «ليوتي» وان بعض طائرات «تشبنانغو» قد شرعت في استخدامه. وهكذا، بخسارة لم تزد على ٧٩ قتيلاً تمكنت القوات الأمريكية من تأمين قاعدة جوية أساسية للحلفاء لمساندة الأسطول البحري في معركة الأطلسي وفي نفس الوقت سيطر «باتون» على الجو في المغرب. عند حلول الظلام كانت دبابات «هارمون» تقترب من «مازاغان» على بعد ٥٠ ميلاً جنوباً. ومع ان «باتون» كان يكره ان يعرض المدنيين لمخاوف قصف القنابل إلا أنه كان يعتمد على تحقيق النجاح المؤكد في الصباح.

وهكذا لم يكد الليل ينتصف حتى كان كل شيء جاهزاً لعملية الاقتحام في الساعة ٧,٣٠ صباحا ـ وليس عند الفجر إذ لم يشأ «باتون» ان يحصل أي خطأ بسبب الظلام. ان من الصعب علينا بعد ثلاثين سنة ان نتصور كيف استطاع «باتون» ان يقوم بهجوم كامل متقن وناجح تماماً على مدينة الدار البيضاء كما يصعب التصديق بأن مثل ذلك الهجوم كان من الممكن تحقيقه في مدة أقصر إذا تذكرنا ان الجيش والبحرية كانا يجهلان امكانيات بعضهما البعض بالاضافة إلى التعطل الكامل في وسائط اتصالات الجيش والسلوك المتردي لبعض الجنود مع افتقار البعض للتدريب الكامل والارتباك الاداري الذي حصل يوم الانزال وعلاوة على كل هذا موقف الفرنسيين القائم على الشك والريبة، ذلك الموقف الذي لم يكن يتوقعه الامريكيون.

في تمام الساعة الثانية من صباح ١١ تشرين الثاني ـ وهو عيد ميلاد «باتون» إضافة إلى كونه يوم الهدنة نفخ البوق إعلاناً عن قدوم سيارة نحو رأس الجسر وهي مضاءة الأنوار وتحمل ضابطين فرنسيين وترفرف عليها أعلام بيضاء. توجهت السيارة إلى مقر قيادة «باتون» في «الميرامار» وهنا قال الضابطان بأنهما يحملان أوامر من الجنرال «لاسكروا» موجهة إلى الفرقة المتمركزة في الدار البيضاء بأن تتوقف عن اطلاق النار. ارسلهما العقيد «غي» في الحال إلى الدار البيضاء وطلب منهما الرجوع بسرعة للتفاوض من أجل عقد هدنة. وبأوامر من «باتون» تم الايضاح لهما بأن هجوماً على نطاق واسع سيقع عند بزوغ الفجر فإذا لم يستطيعا العودة قبل ذلك الحين فان الهجوم سيتم حسب الخطة المقررة وسوف تسانده جميع مدافع الأسطول بالإضافة إلى كل طائرة موجودة في المغرب. عندما اقتربت ساعة الصفر راحت السفن تتحرك نحو مراكزها القتالية وأخذت الطائرات تستعد ودارت آلاتها استعداداً للانطلاق كما تربص المدفعيون قرب مدافعهم وهم ينظرون إلى ساعاتهم بانتظار اللحظة الأخيرة. غير ان المجموعة التي ذهبت من أجل التفاوض ووقف القتال عادت قبل ساعة الصفر بقليل وإستطاع «باتون» ان يتصل لاسلكياً بـ «هويت» وكل المعنيين بالأمر طالبا منهم ان «يوقفوا اطلاق النار»، الأمر الذي كان على وشك الوقوع ولكن بضع دقائق انقذت الموقف. حينئذ أمر «باتون» «اندرسون» قائد الفرقة الثالثة بأن يزحف إلى المدينة وإذا حاول أحد إيقافه عليه ان يهاجمه. في ذلك اليوم كتب «باتون» في مفكرته: «لم يقف في وجهه أحد ولكني أصرح هنا ان الساعات ما بين ٧,٣٠ ـ ١١ كانت من أطول الساعات في حياتي». استسلمت حامية الدار البيضاء لـ «اندرسون» بعد الظهر بوقت قليل وذلك في مقر قيادتها في المدينة وقد تم الاتفاق على ان يحتل الأمريكان مراكز هامة في المنطقة وان يبقى الجنود الفرنسيون في ثكناتهم مع

الاحتفاظ بأسلحتهم. ويقول «باتون» في مفكرته: «لقد كلفت المقاومة الفرنسية الجيش والبحرية الأمريكية ٣٣٧ قتيلاً و٦٣٧ جريحاً و١٢٢ مفقوداً و٧١ أسيراً. أما الاصابات الفرنسية فكانت أكثر بكثير.

تم إيقاف الأعمال العدائية بشكل رسمي في تمام الساعة الثالثةبعدالظهر، وبعد ذلك وصل، وبطلب من «باتون» «نوغوي» وهو رجل أنيق اسباني المظهر، من الرباط إلى فندق «ميرامار» ممتطياً سيارة صالون فاخرة (ليموزين) مع راكبي دراجات حوله، حيث استقبله الجنرال «كيز» وحرس شرف. وبعد عرض حرس الشرف قاده «كيز» إلى غرفة الاستراحة حيث استقبله «باتون» بالاكرام والتبجيل. كان «ميشليه» قائد الأسطول الأعلى، قد حضر من قبل ولذلك فقد نزل «هويت» إلى الشاطىء كي ينضم إلى المؤتمر. كان مع «نوغوي» «لاسكرو» آمر القوات البرية، وهو شخص قوي البنية، وكذلك «لاهول» آمر القوات الجوية. افتتح «باتون» المؤتمر بتهنئة الفرنسيين على الشجاعة التي أبدوها خلال أيام القتال الثلاثة الماضية. بعدئذ أمر بتلاوة مسودة شروط الهدنة التي كان قد وافق عليها رؤساء الأركان. وكان هناك نسختان، إحداهما افترضت مقاومة رمزية فقط: ومن الواضح انها لا تتناسب مع الواقع والحقيقة والثانية افترضت مسبقاً مقاومة فرنسية طويلة إلا أنها تنتهي إلى هزيمة تامة: وفي هذه النسخة يطلب نزع السلاح التام وكذلك حل جميع القوات المسلحة الفرنسية. عندما سمع «نوغوي» بذلك أشار بكل برود وعدم رضا إلى ان ذلك يعني انتهاء الحماية الفرنسية على المغرب، ثم أردف بسخرية، وفي هذه الحالة من سيتولى حفظ النظام بين ثمانية ملايين من العرب والبربر واليهود ومن سيحمي الحدود من الاسبانيين وكذلك من يحمي خطوط مواصلات الحلفاء الطويلة مع الجزائر وتونس، وبذلك أثار قضايا سياسية شديدة التعقيد لم يكن «باتون» قد أطلع عليها أو أعطي تعليمات بشأنها. لقد كان عاجزاً فعلاً عن تفهم أو تتبع الموضوع وشعر وكأنه في مياه أعمق من ان يستطيع الغوص فيها. كان عليه وبصورة لا مناص منها ان يتصرف كجندي طيب كريم لكنه كسياسي كان رجلاً ساذجاً.. لقد أحب فرنسا - فرنسا الرومانسية «فرنسا أيام شبابه» التي لم تعد موجودة وربما لم توجد قط. وقد اتخذ قراراً عاجلاً سرعان ما اكتشف انه ورطه في شراكة مريبة. لقد عقدوا كجنود يتعاملون وجنود «اتفاقية السادة النبلاء» (جنتلمين) وهي ذلك النوع من الاتفاقيات الغامضة التي دعاها الانكليز بهذا الاسم لانها لا تعقد مطلقاً بين جنتلمين (سادة نبلاء). وفيها يسمح للأمريكان بأن يضعوا أيديهم على كل ما يريدونه من أجل عملياتهم ضد المحور وان يتم تبادل السجناء وان يبقى الجنود الفرنسيون في ثكناتهم مع احتفاظهم

بأسلحتهم، وأخيراً عدم إنزال العقاب بأي شخص مد يد العون للأمريكان، دون موافقة «آيزنهاور». والواقع ان كافة القرارات كانت ستترك لـ «آيزنهاور» و«دارلان» في الجزائر من أجل إقرارها بصورة نهائية. بعدئذ دعا «باتون» الضباط الفرنسيين للاحتفاء بهذه المناسبة وتناول كأس من الشمبانيا. وليس من المستغرب ان ينتهي المؤتمر بالنسبة للفرنسيين بمثل هذا الجو من الراحة والطمأنينة، إذ علاوة على الشعور المشترك بالمودة والتقدير فان الاتفاقية لم تكن أكثر من استعراض مسرحي للشهامة العسكرية شأنها شأن الاستعراضات النابليونية الفخمة، وفي هذا المجال كانت بالفعل رائعة ساحرة فخمة: لكن ان نَصفها بأنها انجاز رديء على الصعيد السياسي فان ذلك سيكون حطاً من قدرها.

وعلى العكس من القادة البريطانيين في الحرب العالمية الثانية الذين كانوا، عادة، يتلقون توجيهات سياسية دقيقة ومحكمة، عانى «باتون» ـ مثلما عانى «آيزنهاور» سنة ١٩٤٤ من شدة الافتقار لمثل تلك التوجيهات. كان «باتون» يدركِ بصورة عامة ان علاقاته مع الفرنسيين يجب ان تقوم على مبدأ «سامح وانس» وان علم النجوم والشرائط (الامريكي) وعلم الألوان الثلاثة (الفرنسي) يجب ان يرفرفا جنباً إلى جنب وان كل ما يستطيع المغرب ان يقدمه في ما يتعلق بالعمليات وتدعيمها ضد المحور يجب ان يجري تحت تصرفه.. لقد حلت الآن مجموعة جديدة تماماً من الأمريكان الموجودين في مقر القيادة محل الدبلوماسيين الذين كانوا سابقاً مسؤولين عن مصالح الولايات المتحدة في المغرب. وجدير بالذكر ان هذا التحول كان خطوة نحو الأسوأ: فقد فشلوا لا محالة في حماية بعض أصدقاء الحلفاء قبل الحملة كما فشلوا في منع قائدهم من التصرفات المحرجة. وعلى ما يبدو كان «باتون» يعتقد ان «نوغوي» رجل شريف وجد نفسه في حالة صراع بين ولاءات متعددة الأطراف مثلما حصل لـ «روبرت أي. لي» عند اندلاع الحرب الأهلية. والواقع انه لم يكن من هذا النوع فهناك ما يبرر الاعتقاد بأنه كان ما يزال على صلات سرية مع «بيتان» بل وحتى مع الألمان في الوقت ذاته الذي كان يغدق على «باتون» كل عبارات التملق والكلام المنمق، وعندما قام «باتون» بزيارة للمقر الرسمي في الرباط في ١٦ تشرين الثاني قام باستقباله فوج من الخيالة المغاربة اضافة إلى حرس الحاكم العام وهم بلباسهم الرسمي الأبيض ومعداتهم الجلدية الحمراء. في تلك الأثناء كانت جوقتان موسيقيتان تعزفان الألحان الموسيقية المناسبة. وبعد أسبوع حضر مع «نوغوي» في كاتدرائية الدار البيضاء قداساً دينياً فرانكو أمريكياً ترأسه مطران المغرب وهو يرتدي أبهى حلله الكهنوتية. كان هناك نعشان احدهما أمريكي والآخر فرنسي وقد لف كل منهما

برايته الوطنية وحول كل نعش حرس يتألف من ستة جنود. ثم سار «باتون» و«نوغوي» إلى المقبرة وبحضور فوج أمريكي وآخر فرنسي، وضعا بمظهر رسمي أكاليل الزهور على لوحة تخلد ذكرى الموتى الأبطال. في الوقت ذاته كان «نوغوي» يحاول جهده أن يلصق تهمة الخيانة بـ «بيثوار» وان ينزل به عقوبة الموت رمياً بالرصاص. لحسن الحظ وصلت الأخبار إلى مسامع «باتون» و«آيزنهاور» وعلى الفور أطلق سراح «بيثوار» وكذلك أطلق سراح العقيد «بييرماغنان» قائد الجنود الذين قاموا بالانقلاب الفاشل في الرباط ليلة الغزو، ونقلا في طائرة أمريكية إلى الجزائر. على الرغم من هذه الحادثة الكريهة ظل «باتون» يثق بـ «نوغوي» وكانت وجهة نظره أنه ليس هناك بديل لحكومة «نوغوي» - «دارلان» إذ لا يمكن الاعتماد على أحد سواهما من أجل الاستمرار في تحقيق السيطرة على المواطنين وقد شدد «باتون» على حجته هذه مبسطاً جميع القضايا أكثر من اللازم، وقال ان هدف الحلفاء الأهم هو تدمير قوات المحور في شمالي أفريقيا، وأن هناك خطراً بأن يقوم الاسبان بغارة على الأقاليم الفرنسية، بالاضافة إلى خطر سماح «فرانكو» للمحور باستخدام المطارات في المغرب الاسباني ولم يكن هناك قوات حليفة كافية لمواجهة هذه التهديدات المحتملة. كان «باتون» على بعد ٤,٠٠٠ ميل من الولايات المتحدة وكذلك ٤٠٠ ميل من «وهران»، واستنتج من كل ذلك انه لا بد له من التعاون مع «نوغوي» كما ان عليه ان يدعم حكومته تلك الحكومة التي لم يتمكن «ديغول» والآخرون من ان يقدموا بديلاً مقنعاً يحل محلها. أسفر عن وجهة النظر هذه بقاء عدد مرموق من الشبان المساندين لـ «لافال» بالاضافة إلى كثير من الموظفين المدنيين متربعين في مناصبهم أما الكثير ممن خدم قضية الحلفاء قبل الاستسلام فقد ذبلت زهرة شبابهم وهم في السجون حتى بعد ان قام أحد الخصوم السياسيين باغتيال «دارلان» في كانون الأول. وغني عن البيان ان الوضع في المغرب أثار احتجاجات شديدة ليس فقط في الولايات المتحدة والأوساط اليسارية وبريطانيا، بل أيضاً لدى الجهات الرصينة والحسنة الاطلاع. لقد أصيب «ماكميلان» ممثل «تشرشل» السياسي في شمالي أفريقيا بصدمة قاسية عندما وصل في أواسط كانون الثاني لحضور مؤتمر الدار البيضاء. وهاكم ما قاله عن «نوغومي»:

«لقد جعل القائد الامريكي الجنرال «باتون» تحت سيطرته تماماً، لقد أثبت هذا الضباط الغريب الأطوار والعنيد والمتشبث برأيه انه مزعج تماماً بالنسبة لـ «آيزنهاور» و«مورفي» حتى ولي أنا شخصياً. وانه لمن المرعب على ما أرى ان يتأثر الجنرال «باتون» بمثل هذه السهولة بسبب حفلات الصيد المرحة والحفلات الأخرى الرائعة التي كان يقيمها «نوغوي» على شرفه دون ان يبدي أقل اهتمام بالطريقة التي كان «نوغوي» يعامل بها أصدقاء بريطانيا وأمريكا».

أما بالنسبة لمؤتمر الحلفاء البالغ الخطورة والأهمية فقد كان «باتون» هو المضيف، كما جرت العادة في مثل هذه المناسبات، وكانت ترتيباته في منتهى البذخ وجديرة تماماً بضيوفه الأجلاء. فـ «تشرشل» مثلاً، وهو خبير تماماً بالحكم على الضيافات علاوة على معالجة الحوادث التاريخية، يصف هذه الترتيبات بقوله إنها «جميلة». لقد حجز «باتون» فندقاً ضخماً في ضاحية «أنفه» الوافرة الخضرة، وهذا الفندق فيه وفرة من الغرف الضخمة تكفي لجميع ضباط الأركان الأمريكان والبريطانيين بالاضافة إلى قاعات ضخمة تصلح للمؤتمرات. وحول هذا الفندق كان ثمة دارات حجزت واحدة منها لكل من الضيوف العظام أي واحدة لرئيس الولايات المتحدة وأخرى لـ «تشرشل» وثالثة للجنرال «جيرو» والرابعة للجنرال «ديغول» وقد أحيطت المنطقة بكاملها بالاسلاك وقام على حراستها جنود «باتون اليقظون. أما «تشرشل» وقد تخلص من كآبة جو الحرب في بريطانيا فقد أخذ يتنزه على الساحل الرملي تحت أشعة الشمس الساطعة يراقب «الأمواج الرائعة وهي تتسابق متكسرة على الشاطىء ثائرة سحب الزبد الضخمة» وهو يتساءل كيف استطاع أي انسان ان يهبط على الشاطىء هنـاك. كانت الأمواج المرتفعة أكثر من ١٥ متراً تهدر وهي تتحطم على الصخور المرعبة. إذن لا عجب ان انقلب الكثير من قوارب الانزال وزوارق السفن بمن كان عليها من الرجال.

عندما وصل رئيس الولايات المتحدة، كان الجنود قد اصطفوا علي جانبي الطريق مسافة عدة أميال. وقد ظهر الجنود في هذه ا لمناسبة في غاية النظافة والنشاط. ذقون حليقة وأحذية لامعة لا غبار عليها علاوة على الملابس الأنيقة والقامة المنتصبة التي تجسد النظام والاحترام للنفس. كانت المرة الأولى، منذ الحرب الأهلية، التي يقوم فيها رئيس أمريكي باستعراض ٤٠,٠٠٠ جندي نشيطين بعد المعركة ولقد تأثر تأثراً واضحاً تماماً.

تجدر الإشارة هنا أنه بالرغم من كون «باتون» هو الذي لعب دور المضيف إلا أنه لم تكن له أية علاقة بالعمل الفعلي لمؤتمر الحلفاء الثاني هذا، انما يهمنا ان نلخص القرارات التي توصل إليها المؤتمر. لقد حصل نوع من التسوية للخلاف القائم بين «جيرو» و«ديغول»، وقد واجه المؤتمرون الحقيقة البارزة بأنه لا يمكن للقوات الانكلو أمريكية أن تقوم سنة ١٩٤٣ بالحملة التي يلح عليها «ستالين» وعلى نطاق كامل في شمالي غربي أوروبا. بدلاً من ذلك قرر «روزفلت» و«تشرشل» فتح البحر الأبيض المتوسط وذلك بالشروع في غزو صقلية عند انتهاء العملية في شمالي افريقيا وقد توقعا ان يحررا قسماً كبيراً من سفن النقل البحري الحليفة وأن يحصلا على قواعد جوية تستخدم في العمليات الهجومية لقاذفات القنابل ضد المانيا وبذلك يتم جذب القوات الألمانية إلى الجبهة

الأنكلو امريكية فيخف الضغط على الجبهة الروسية ويرضى «ستالين»، كما يمكن إطاحة حكومة «موسوليني» أيضاً. في هذا المؤتمر، ولأول مرة خلال الحرب، استخدمت العبارة الشنيعة «الاستسلام غير المشروط» أما ما سوف يجري بعد ذلك، أي بعد احتلال صقلية فقد ترك أمره إلى وقت لاحق. في هذا المؤتمر لم يبد «كنغ» أو «مارشال» أية ميول فيما يتعلق بعمليات أخرى في البحر المتوسط. أما «تشرشل» فقد احتفظ برأيه حينذاك. أما وقد كان الجيش الثامن يقترب من تونس فقد حان الوقت لتعيين قائد بإمرة «آيزنهاور» كي يقود القوات البرية، وقد وقع اختيار «تشرشل» والأمريكان على «الكساندر» باعتباره شخصية مرغوباً فيها. أما على صعيد «هسكي» (أي عملية الانزال في صقلية) فقد تقرر أن تعد قوتان كاملتان إحداهما أمريكية بقيادة «باتون» والثانية انكليزية بقيادة «مونتغومري» وقد اعتبرت ترتيبات «باتون» المتناهي في الأبهة والفخامة والتي اقتضت تكريس يومين بعد انتهاء المؤتمر لنزهة في مراكش، زيادة في تكريم الرئيس الامريكي و«تشرشل» وقد كانت نهاية بهيجة وعظيمة صرح الجميع على أثرها بأنها أبرز حدث اجتماعي في الحرب، وحري بنا أن نقول إنه لم يحصل مثل تلك الحفلات في شمالي أفريقيا منذ احتفال «كليوباترا» بـ «مارك انطونيو».

بيد انه من الخطأ أن نستنتج ان «باتون» كرس كل وقته في المغرب لزيارات رائعة للسلطان وللاستعراضات ووسائل اللهو والتسلية الأخرى. لقد سارع إلى فتح مقر لقيادته من أجل القيام بالأعمال التي تدل على المهارة وكان ذلك المقر في المباني الحديثة التي كانت شركة نفط «شل» تستخدمها كمكاتب لها في الدار البيضاء، وهناك بات بامكان ضباط أركانه ان يعملوا بما لديهم من الكفاءات على أعلى مستوى. هنا قام ضباط الأركان بأعمال جبارة لتحويل الدار البيضاء إلى قاعدة من المرتبة الأولى. وقد ظهر بان تنظيف الميناء يتطلب جهوداً جسيمة: إذ يتوجب انتشال السفن الغارقة وينبغي اصلاح الرافعات المتضررة وكذلك العمل على اصلاح قطارات السكة الحديدية ثم عليهم ان يبدؤوا العمل في المطارات كي تصبح عصرية وتستعيد مجدها، بالاضافة إلى تطوير الطرق والخطوط الحديدية وكذلك الامدادات والخدمات الأخرى الضرورية لتجهيز وتموين جيش ضخم. حشد الجنود المقاتلون على جناح السرعة لزيادة التدريب فخلال حرب الأيام الثلاثة حدثت أخطاء جمة كما ظهرت حاجات ملحة أخرى، فصدرت الأوامر للقيام بالتمارين والتدريبات على نفس المبادىء الأسبرطية التي كانت تميز استعدادات الفرقة المدرعة الثانية ونفذت هذه الأوامر فوراً من قبل كافة عناصر القوة فقد كان على الجنود ان يقضوا في الأسبوع يوماً كاملاً على الأقل أي ٢٤ ساعة دون نوم وقد

نفذ النظام تنفيذاً لا هوادة فيه. ولم يبق من شك في ذهن أي جندي بأنه سفير لبلاده وان عليه ان يكون أنيقاً دائمًا، يرتدي ربطة عنق وطماقاً وحذاء نظيفاً لامعاً وخوذة، كما شدد «باتون» كثيراً على تبادل التحية مهما تكن الظروف وقد أوضح للجميع بأنهم سيواجهون قريباً عدواً أصلب بكثير من الفرنسيين. أما بالنسبة لـ«باتون» شخصياً فقد حانت اللحظة سريعاً. إذ شن «رومل» المروع المهيب هجوماً مضاداً في الشمال. وقد أوقع بالجنود الأمريكان على مرأى ومسمع من الفرنسيين نكسة مهينة فاستدعى «آيزنهاور» «باتون» في شهر شباط كي يتسلم قيادة الفيلق الثاني في تونس - وهو دور يناسب موهبته أكثر بكثير من قائد قوات محتلة لبلاد مهزومة، ومما لا شك فيه انه كان تعييناً مناسباً سيسجل لرؤسائه في ما بعد. ففي تلك الفترة كان قد وقع خطأ فظيع وكان على «باتون» ان يصلح ذلك الخطأ بالسرعة الممكنة.

الفصل الخامس

ربيع تونس

إذا كان اشتهاء الشرف خطيئة
فإنني أكبر روح خاطئة على قيد الحياة
الملك هنري الخامس

إن مكانة الأمريكان التي بلغت عنان السماء في أعين البريطانيين والفرنسيين أثناء عمليات الانزال في الجزائر والمغرب في شهر تشرين الثاني كانت في أواخر شباط من عام ١٩٤٣ قد تدنت كثيراً. فخلال السباق للوصول إلى «تونس وبنزرت» تمكنت تعزيزات المانية بقيادة «نهرينغ» من الوصول إلى تونس بالطائرات متغلبة على رأس الحربة البريطاني، وفي شهر كانون الأول توقفت الجبهة على طول سلسلة الجبال العظيمة التي تغطي الحدود مع الجزائر. في عيد الميلاد، كان «اندرسون» قائد ما يسمى بالجيش الأول، و«آيزنهاور» يواجهان حالة جمود تام. أما أسباب ذلك فعديدة: مسافات طويلة وطرق رديئة وافتقار إلى المطارات قرب الجبهة والبطء في وصول الاحتياطي وفوق كل هذا حلول فصل الشتاء القاسي في تلك الآونة.

وفي تارخ الحروب قلما واجه قائد من قادة الحلفاء موقفاً سياسياً وعسكرياً أشد ارباكاً مما واجهه «آيزنهاور» في تلك الفترة. فقد كان الفرنسيون يفتقرون لكل ما هو ضروري في الحرب تقريباً وذلك بسبب تمزقهم وخلافاتهم السياسية: إذن كان انخفاض المعنويات بين جنودهم أمراً لا مناص منه وكانوا يصرخون ويلحون في طلب الأسلحة لكن «آيزنهاور» كان يجد صعوبة كبيرة في تلبية طلباتهم. كما انهم لم يكونوا يوافقون في أي حال من الأحوال بأن يقاتلوا تحت قيادة بريطانية، وقد ثبت أخيراً بأن «جيرو»، وهو

من وقع عليه الاختيار الامريكي، ليس على الصعيد السياسي إلا جندياً محترفاً أبله ينتمي إلى المدرسة القديمة. بينما كان «اندرسون» اسكتلندياً عنيداً صارماً لم يتلق في حياته أي ارشاد عن كيفية كسب الأصدقاء أو كيفية التأثير على الناس كما انـه لم يكن راغباً في ذلك بالتأكيد. أما «فريد نهول» قائد الفرقة الأمريكية الثانية فقد كره «اندرسون» كرهاً شديداً ولم يقم بأية محاولة لاخفاء هذه الكراهية: كما اعتقد «هارمون» بأنه بغيض إذ مما لا شك فيه انه كان متحفظاً كتوماً. أما ما كان يدور في خلده بالنسبة لحلفائه الامريكان فما زال مجهولاً حتى الآن. ورغم ان الانسجام كان تاماً في مقر قيادة «آيزنهاور» إلا أن الأمر كان على النقيض من ذلك في مستويات القيادات الدنيا. وهناك أمر آخر زاد الطين بلة ألا وهو ان سلسلة الامداد والتموين كانت انكليزية وليست أمريكية ومما لا شك فيه ان مشاجرات الفرنسيين بسبب أمور تافهة جعلت «آيزنهاور» مقيداً معظم الوقت وعلى بعد ٦٠٠ ميل خلف الخطوط الأمامية في الجزائر. لذلك وبغية تنسيق الجبهة المهلهلة أقام مقر تنسيق متقدم في قسّـنطية بقيـادة «ترسكوت» لكن هذا المقر ذاته كان يبعد ٢٠٠ ميل عن الجبهة، بالاضافة إلى ذلك كانت وظائف ذلك المقر وسلطته غير محددة تماماً مما نتج عن ذلك ان قراراته كانت غامضة في أغلب الأحيان.

في ٢٢ شباط، وبعد ان تقدم «مونتغومري» مسافة ١,٤٠٠ ميل في أعقاب «رومل» والفيلق الأفريقي وصل إلى «طرابلس» ووجد الميناءمدمراً كل التدمير. وأسوة بـ «مارلبورو» الذي لم يقاتل قط في معركة إلا وربحها ولم يحاصر أيةمدينة إلا وفتحها فانه لم يفكر في اندفاع آخر إلى الأمام كي يقيم اتصالاً مع «اندرسون» ويؤمن الدعم التمويني الضروري لجعل الانتصار يتحقق بأرخص ثمن على صعيد الخسائر في الأرواح وان يكون مؤكداً تماماً. لذلك أعلن انه سوف يكون مستعداً للزحف في الأسبوع الأول من آذار على الأغلب وبما ان أسعد أوقات «ونتغومري» هي الأوقات التي يقضيها بجانب اللوح الأسود وفي جو المحاضرات فقد نظم سلسلة من المحاضرات والبيانات والمناقشات للضباط الكبار في طرابلس كي يضمن فهم تكتيكه في المعركة وخاصة تنظيماته على صعيد الدعم الجوي القريب المدى. طار «باتون» من المغرب لحضور واحدة من تلك الدورات الاطلاعية فسأله «هوروكس» وهما في طريق العودة من محاضرة الافتتاح التي كانت بعنوان «كيف نقاتل» عن رأيه في تلك المحاضرة، فأجاب «باتون» وهو يغمز بعينه «قد أكون كبير السن وقد أكون بطيء الفهم وقد أكون بليداً، لكنني أؤكد انها لم تعن شيئاً بالنسبة لي «لكن سرعان ما سيرى العالم ان «باتون» لم يكن بطيء الفهم ولا بليداً. أما ما كان يدهش «هوروكس» فهوالسهولة التي كان «باتون» يستطيع بها الانتقال بين حالتين

مختلفتين كل الاختلاف: إحداهما حالة السيد النبيل المسن الظريف ابن الجنوب وضابط الخيالة الرائع، والثانية حالة الرجل العنيف الصلب ذي الخوذة الفولاذية والمسدسات. ومما لا ريب فيه ان «هورروكس» أعجب بشخصية «باتون» القوية (التي أصبحت مألوفة في ما بعد على شاشة التلفزة كما كانت في ميدان القتال). من تلك اللحظة بدأ الناس يروون القصص عن «باتون» وكانت هذه القصص تنتشر حتى خارج أوساط الجيش الأمريكي. فالانكليز طيلة تاريخهم المليء برجال غريبي الأطوار وغير تقليديين كانوا دائماً يطربون لوجود أشخاص غريبي الأطوار. وفي تلك الآونة كان لهم من «مونتغومري» ومن «تشرشل» على وجه الخصوص، تشرشل بمفرداته المنمقة المزخرفة التي تعود للقرن الثامن عشر وعاداته المبهجة وبذلته الخاصة الشبيهة ببزات العمال أثناء العمل وقبعته المضحكة، نموذجان فريدان طبقاً لما كانوا يرغبون. أما «باتون» بمسدساته وخوذته المزينة بالريش الملون وكأنه خارج لتوه من العالم الميثولوجي لهوليوود وهي غذاؤهم الثقافي الرئيسي، فقد راق لهم كثيراً. لقد أحبوا القصة التي رواها لهم عن وحدة من الوحدات أثارت غضبه فوصفها قائلاً: «انها كتلة من الموز بعضه أخضر وبعضه أصفر والبعض رديء عفن» رغم انه قلما يوجد جيش لا يحوي مثل هذه الوحدة التي ينطبق عليها هذا الوصف تماماً. في هذه الأثناء كانت قوات المحور بقيادة «فون آرنيم» قد بدأت بشن هجوم شرس في تونس وكان تحقيق الاتصال بين هذه القوات وقوات «رومل» الذي كان يحاول التملص بمهارة من قوات «مونتغومري»، قد بات وشيكاً. لقد وصفت ساحة القتال التي ستجري فيها آخر عمليات شمالي أفريقيا، وكان وصفاً مناسباً، بأنها مثلث ضخم. ففي أقصى الشمال هناك طريق طولها ٢٥٠ ميلاً تمتد من قسنطنية إلى بنزرت: على الجانب الشرقي طريق أخرى تتبع الشاطىء حوالى ٢٥٠ ميلاً إلى «تونس» و«سوسه» و«صفاقس» و«قابس»، أما الجانب الجنوبي الغربي من المثلث فهو الطريق من «قابس» مروراً بالجانب الخلفي الداخلي من السلسلة الجبلية حتى قسطنينة وبطول ٣٠٠ ميل. داخل هذا المثلث تمتد سلسلة جبال تعرف باسم سلسلة «دورسيل» الشرقية التي تمتد جنوباً من «بونتس - دي فاهس حتى تصل إلى واحة قفصه وهناك سلسلة أخرى تسم «دورسيل» الغربية وهي السلسلة التي تمتد باتجاه جنوبي غربي نحو «فريانا» ومما لا شك فيه ان مواضع الممرات في هذه الحواجز الجبلية والطرق التي تمر خلالها هي التي تملي شكل العمليات الحربية. فالممرات في «دورسيل» الشرقية هي: بيشون، فندق، فايد ومكناس. أما في «دورسيل» الغربية فهي: سبيبة وقصرين. وهناك سهل سبيلة القاحل الذي يفصل ما بين «فايد» و«قصرين» بمسافة ٥٠ ميلاً. في

أوائل شباط سيطر الجيش البريطاني الأول، وهو عبارة عن فيلق واحد يتشكل من فرقتين من المشاة اضافة إلى لواء من المظليين، على الجناح الشمالي الواقع ما بين بوعراضة والبحر. وهكذا باتت هذا الخط يمتد جنوباً على طول الدورسيل الشرقية حيث تمركز الفيلق الفرنسي التاسع عشر وتمتد منطقة سيطرته حتى فندق، ثم الفيلق الأمريكي الثاني بقيادة «فريدنهول» ويسيطر على قطاع طوله ١٠٠ ميل وفيه الفرقة المدرعة الأولى بقيادة «وارد» ثم فرقة «ويلفرت» الفرنسية حتى «الغوتار»، كانت الفرقة المدرعة الأولى هائلة القوة. فقوامها أكثر من ١٥,٠٠٠ رجل، و١٥٨ دبابة خفيفة و٢٣٢ دبابة متوسطة و١٠٠ مصفحة و٧٣٠ مدرعة نصف مجنزرة و٢,١٠٠ شاحنة علاوة على سيارات عديدة أخرى. كانت خطتها تقضي بأن تقاتل بقوتين متوازنتين تشترك فيها جميع الأسلحة: القيادة القتالية (أ) والقيادة القتالية (ب) ولسوف يبدو من المستغرب جداً في نظر الأجيال المقبلة ان يختار «فريدنهول»، وقد حظي بقوة متحركة كهذه، ان يكون مقر قيادته في ملاجىء تحت الأرض قرب «تبسه» أي على بعد حوالى ٦٠ ميلاً خلف مواقع جنوده المتقدمة وان يكون هذا المقر في واد ضيق عميق كئيب معتم يكاد يتعذر الوصول إليه لغير مصفحة مجنزرة قوية. كانت الفرقتان الأمريكيتان الأولى والرابعة والثلاثون قد شرعتا في أوائل شباط بالتحرك داخل قطاع الفيلق كما أن فوج المشاة / ١٦٨ /كان قد حل محل الفرنسيين في منطقة «سيدي بوزيد» إلى الغرب من فايد تماماً.

لكن تجدر الإشارة هنا ان «فريدنهول» الذي كان حينذاك في الثامنة والخمسين من عمره هو نموذج ممتاز لضابط كبير ناضج أكثر مما يجب سرعان ما ينفجر سخطاً وغضباً وقد أصبح «فريدنهول» متعة لرسامي الكاريكاتور الذين أولعوا كثيراً برسم شخصيته. لم يكن «فريدنهول» يبذل أي جهد لاخفاء مشاعره المضادة للانكليز أو رغبته الجلية في اظهار الاحتقار للافرنسيين والاستخفاف بهم. بالاضافة إلى كل ذلك قلما كان يستفيد من «وارد» قائد الفرقة الأولى. أما الكلمات التي كان يتلفظ بها فكانت غامضة غير جذابة لا يفهمها إلا من أتقنها واعتاد عليها وانما مربكة لكل انسان آخر. على سبيل المثال اذكر هنا أوامره الشفهية بواسطة الهاتف موجهة إلى ضابط من ضباط أركان «القيادة القتالية (ب)» قال: (حرك قيادتك، أي، الأولاد الذين يمشون (المشاة) حاملي البنادق الصغيرة لابسي بدلات الخبازين وأيضاً القوي المرافقة الكبيرة نحو «م» الواقعة إلى الشمال من مكانك الآن، بأسرع ما يمكن. دع رئيسك يرسل تقريراً إلى السيد الفرنسي الذي يبدأ اسمه بحرف «جـ» والموجود في مكان يبدأ اسمه بحرف «د» وهو لا يبعد أكثر من أربع شبكات مربعة إلى اليسار من «م»).

وفي كانون الثاني عندما ظهرت على الفرنسيين الذين كانوا على جناحه الشمالي علامات الانهيار وضع القيادة القتالية «ب» بامرة «روبينت» نازعاً إياها من «وارد» كي يوازن الوضع على جبهتهم. وقد انجزوا ذلك العمل بشكل حسن تماماً. ثم تحمل شخصياً مسؤولية الفرقة المدرعة الأولى بغير علم «وارد» ـ كل فصيلة من فصائلها ـ وبذلك خفض قيمة قيادة المقر إلى مستوى مكتب بريد. وبعبارة أخرى جرد «وارد» من جميع مسؤولياته، إذا صح التعبير. وطبقاً لأوامره الشخصية تمركزت الفرقة ١٦٨ في مراكز دفاعية على تضاريس منعزلة: جبل «ليسودة» وجبل «كسيرة» على كلا جانبي الطريق من «فايد» إلى سبيتله قرب سيدي بوزيد رغم ان تلك المراكز كانت خارج نطاق دعم القوى بعضها لبعض ولذلك عندما قام «فون أرنيم» بهجومه الكبير بفرقتي البانزر العاشرة والحادية والعشرين على سيدي بوزيد و«رومل» بشن هجومه الصاعق على مطاري «فريانا» و«ثلبت»، كانت جميع مؤشرات الكارثة جاهزة ـ احتكاك وتصادم بين الحلفاء وشخصيات متناقضة في الآراء وأخلاق منحطة وقيادة مفرطة المركزية تتم بالتحكم من بعيد اضافة إلى انتشار واسع المدى وجنود مختلفي الأصول والجنسيات.

لا جدوى من الوصف التفصيلي للكوارث التي حلت في الأيام السبعة التالية. فخلالها تقهقر الفيلق الثاني منهزماً مسافة ٥٠ ميلاً إلى «الدورسيل» الغربية ووصلت الكارثة إلى ذروتها في ٢٠ شباط بخسارة ممر «قصرين» أما عدم حدوث اختراق في مناطق الجيش الأول في الشمال أو في «تبسه» أو «بون» فيعود السبب بصورة رئيسية إلى مقاومة الفرقة «٣٤» ومقاومة اللواء المدرع البريطاني «٢٦» في «ثالا» بالاضافة إلى المقاومة التي أبدتها الفرقة الأمريكية الأولى وما تبقى من الفرقة المدرعة الأولى شرقي «تبسه». ومما لا شك فيه ان التعاون الوثيق ما بين «هارمون» و«روبينت» و«نيكولسون» و«دنفي» ساهم كثيراً في الاحتفاظ بالتوازن في الجبهة. ومما ساعد في هذا التوازن أيضاً قرار «رومل» في ٢٢ شباط، عندما منح السلطة التامة على صعيد العمليات، بأن لا يستمر في أية عمليات هجومية هنا وإنما بان يتقهقر إلى «الدورسيل» الشرقية ويركز عملياته ضد «مونتغومري» وكانت حصيلة هذه العمليات في الجانب الأمريكي هي الخسائر التالية تقريباً: ٣,٠٠٠ قتيل وجريح. كذلك تمكن السكان العرب المحليون من نهب كميات كبيرة من المؤن والعتاد وقد قاموا أيضاً بسلب الموتى، وحري بنا أن نقول إن الذعر كان منتشراً بين الجنود يشهد على ذلك «هارمون» الذي أرسله «ايزنهاور» في ٢٠ شباط لمساندة «فريدنهول» وهذا ما كتبه هارمون:

«إنها المرة الأولى ـ والوحيدة ـ التي أرى فيها جيشاً أمريكياً في حالة هزيمة شنعاء.

اندفعت سيارات الجيب وسيارات الشحن وباقي المركبات من كل نوع يمكن تصوره صاعدة الطريق متجهة نحونا. كان المرور يتعطل أحياناً بسبب سيارتين أو حتى ثلاث في المقدمة. ومن الواضح انه لم يكن في ذهن أي من السائقين المذعورين إلى أقصى حدود الذعر إلا الفرار من الجبهة والنجاة نحو مكان لا اطلاق نار فيه. مرتين أو ثلاث مرات اضطررت أنا و«روني» ان نبتعد عن الطريق وننزلق في خندق وصرت أخشى ان تتحطم سيارتنا أو ان نقع صريعين».

لم يحدث مثل هذا في التاريخ الامريكي منذ معركة «بول رن الأولى» ولأسباب أخرى مشابهة. تجول «الكساندر» في مختلف مقرات قيادة الحلفاء مع «ماك كريري» رئيس أركانه، وكان قد وصل في الأيام الأخيرة تمهيداً لاستلام مجموعة الجيوش التي كانت ستتشكل من الجيشين الأول والثامن في ٢٠ شباط فلم يحظ الوضع باعجابه وقد لخص انطباعاته حينذاك في رسالة بعث بها إلى «ألانبروك»:

«الحالة العامة غير مرضية مطلقاً. لقد اختلطت الوحدات البريطانية والأمريكية والفرنسية بعضها مع بعض في الجبهة وخاصة في الجنوب، كما تمزقت التشكيلات وليس هناك سياسة ولا خطة للحملة. يعود هذا إلى عدم وجود تعليمات صارمة ثابتة من المراجع العليا. لقد فقد زمام المبادرة دون شك».

بعد ثلاثة أيام أرسل برقية إلى «ألانبروك» بهدف اطلاع «تشرشل» عليها قال فيها: «ان الوضع حرج جداً في جبهة القتال. وبعد يوم أو يومين سنرى ما يتمخض عنه الموقف. يتركز قلقي الرئيسي على الصفة القتالية الضعيفة للامريكان». كانت تعليقات «رومل» في ذلك الوقت على نفس النمط ولكنه اضاف بأنهم استعادوا عافيتهم بسرعة بعد الصدمة الأولى وان تفوقهم في السلاح والعتاد كان هائلاً.

أثارت أخبار الكارثة موجة عارمة من السخط والذعر في الولايات المتحدة. فالصحافة والاذاعات كانت قد شجعت الاعتقاد بأنه ليس على الشبان الأمريكيين الرائعين إلا أن يظهروا في ساحة القتال حتى ينالوا الظفر العظيم وذلك لأنهم يحاربون في سبيل قضية كلها نبل وشرف وقد غاب عن أعين الجماهير ان الجنود والضباط والقادة كانوا يفتقرون إلى الخبرات القتالية. لقد بالغوا في تهويل الكارثة ولم يدركوا بأن الجنود، شأنهم شأن الأطفال، يعانون من مشاكل خبراتهم القتالية وينبغي ان يتخلصوا من وضع الراحة الذي اعتادوا عليه في حياتهم المدنية كي يستطيعوا هضم الحياة القاسية وكي يستسيغوا الأطعمة الحربية العسيرة ـ الهضم والجو الحربي القاسي لكنهم في أسوأ الحالات

لم يكونوا قد فقدوا إلا نسبة ضئيلة من العنصر المقاتل وبضعة أيام من الانتاج الصناعي الحربي. كان الانكليز قبل حوالى تسعة أشهر قد خسروا في معارك «الغزالة» التي أدت إلى سقوط «طبرق» ثلاثة أضعاف ما خسره الأمريكان من الرجال بالاضافة إلى كميات هائلة من المؤن والعتاد. وفي نفس ذلك الشهر هلك أو استسلم في ستالينغراد أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ الماني. لحسن الحظ وجد «آيزنهاور» في «الكساندر» جنرال «تشرشل» المفضل، قائداً يتمتع بخبرات واسعة النطاق خاصة في معالجة الهزيمة والنصر على حد سواء. فعندما كان ضابطاً صغيراً عام ١٩١٤ حارب خلال عمليات التقهقر من مونز. وكان آخر من خرج من «دنكرك» وآخر من خرج من «رانغون» و«بورما» تقريباً. لذلك ما لبث ان شخّص نقاط الضعف في نظام القيادة بالاضافة إلى عيوب المحاربين الآتية من بلدان مختلفة (أمريكا وانكلترا وفرنسا) وأخذ يقوم باصلاحها. وكما كان «مارلبورو» ذلك الجندي الآخر من جنود الحرس الذي عاش قبل قرنين، كان «الكسندر» دائمًا بارد الأعصاب ولم يتمكن أي انسان من ملاحظة اي تغيير في ملامحه. وكان باستطاعته ان يرفض على نحو اسهل بكثير من استطاعة غيره على العطاء، والجدير بالذكر ان من كان ينصرف من حضرته غير راض بسبب العمل فانه كان يظل مسحوراً بأخلاقه وبذلك ينال العزاء والراحة. كانت نزاهته مطلقة وكذلك نقاوة يده، ومنذ البداية كانت الثقة المتبادلة بينه وبين آيزنهاور وكذلك التفاهم كاملين وعلى أسس ودية تماماً.

لقد توضح لكليهما أنه ينبغي اعادة تنظيم الجبهة بحيث يستطيع الجنود، قدر الامكان ان يقاتلوا بامرة قادتهم بالذات كما أدركا انه يجب التوقف عن القتال بزمر صغيرة أو بشكل مجموعات ارتجالية وانه ينبغي عدم قطع تسلسل الأوامر الاعتيادية كما فعل «فريدنهول». وان تقاتل الفرق كفرق: أي يجب ان يناط بكل فرقة مهمة محددة ضمن حدود استطاعتها بحيث يغدو بالامكان استعادة الثقة. ولقد كان التعاون مع القوات الجوية رديئاً: لذا كان على «تدر» و«سباتز» ان يصلحا ذلك. كما ينبغي وضع حد للاحتكاكات والمشاجرات الداخلية: وعلى الفرنسيين ان يكبتوا مشاعرهم المضطربة المشوشة وان يعملوا مع البريطانيين. كذلك ينبغي ان تسود مشاركة حقيقية ما بين الانكليز والأمريكان على جميع المستويات. أما في ما يختص برئيس قسم المخابرات التابع لـ «آيزنهاور» فيجب ان ينحى عن عمله لأنه اخطأ في تقدير نوايا المحور وينبغي ان يحل محله العميد «كنث سترونغ» وهومعلق عسكري سابق في برلين يعتقد ان باستطاعته تقدير الأمور بشكل صحيح وقد ثبتت صحة ذلك الاعتقاد. أما مصير «اندرسون» فقد ظل مؤقتاً معلقاً في الميزان ولكن تقرر في النهاية ابقاؤه، ويقال ان «مونتغومري» وصفه بأنه «طباخ

بسيط انما طيب» بينما نقل «فريدنهول» الجلف الغليظ الطبع إلى الولايات المتحدة ورقي إلى رتبة فريق بل واسندت إليه قيادة الجيش الثاني إذ يمكن الاستفادة من مقدرته على تدريب الجنود في الوطن تلك المقدرة التي اكتسبها من خبراته في معاركه الحديثة العهد، وبهذا خرج على نحو لطيف ومقبول من مسرح لم يكن قد أضفى عليه رونقاً طيباً، ولم تجر اية ترتيبات بشأن تسلم «باتون» الفيلق الثاني بشكل رسمي بل استدعي من الرباط في ٥ آذار كي يحل محل «فريدنهول»: وكان الجميع على علم بالنفور المتبادل بينهما.

وطبقاً لما يقوله هارمون لم يكن «باتون» الاختيار الأول لـ «آيزنهاور»، إذ من الواضح انه كان يفضل «هارمون» ولكن هذا الأخير رفض عن حكمة وتعقل عرض «آيزنهاور» عندما قدمه إليه. والحقيقة لو ان «هارمون» قبل العرض في ذلك الوقت لأصبح لديه انطباع بانه هو الذي تحايل من أجل الحصول على منصب «فريدنهول» وإبعاده عن وظيفته وقد ثبت بأن القرار كان حكيمًا دون ريب.

في اليوم الخامس من شهر آذار استقل كل من آيزنهاور وباتون طائرة ليلتقيا في مطار البيت الأبيض قرب الجزائر وقد جاء احدهما من الشرق والآخر من الغرب: ودون اي تأخير شرح آيزنهاور بالتأكيد لباتون ان مكانة أمريكا يجب ان تستعاد بأسرع ما يمكن وان على باتون ان يثبت ان جنود الفيلق الثاني قادرون على مواجهة جنود الفيلق الأفريقي المتمرسين بالحرب وعلى الوقوف موقف الند للند أمام الجيش الثامن، ذلك الجيش الذي يعتبر فيلق نخبة في عيني قائده وفي نظر الصحافة البريطانية والشعب الأمريكي. كذلك عليه ان يعيد تجهيزه وإعداده ويستعيد احترامه لنفسه وثقته بها. لقد تلقى جنوده، دون شك، دروساً اخترقت صميم قلوبهم أثناء المعركة التي خسروها انما ينبغي ان لا يغرب عن بالهم انه يوجد، غالباً، ما يمكن ان نتعلمه من الهزيمة أكثر مما نتعلمه من الظفر. وهكذا عليهم جميعاً وليس المهندسين فقط، ان يتعلموا ويتدربوا تدريباً كاملاً على اكتشاف وإزالة ومعالجة الألغام في حالة الدفاع، كما عليهم ان يعلموا ان مدفعهم من عيار ٣٧مم المضاد للدبابات يعتبر مدفعاً ممتازاً إذا عومل بشكل صحيح لا سيما وقد توافرت الآن ذخيرة جديدة: إذن، ينبغي استعادة الثقة بهذا المدفع. بينما كان آيزنهاور يلقن باتون تعليماته، قام «بدل سميث» وكان قريباً منهما، بالتداول مع العميد «هيو جـ. غافي» رئيس الأركان الجديد للفيلق الثاني، وبذلك ضمن اتفاق وجهة النظر بشكل كامل على مستوى الأركان بالاضافة إلى القيادة. أما آيزنهاور الذي كان يدرك كل الادراك عدم مبالاة «باتون» بالخطر فقد أنهى حديثه بالتحذير التالي: «أريدك ان تبقى قائداً للفيلق لا ان تصبح أحد المصابين». وأضاف:

«عليك ألا تحتفظ بأي رجل في مركز مسؤولية عندما تشك في مقدرته على القيام بتلك المسؤولية. . وانني على ثقة بأن مثل هذا الأمر يتطلب شجاعة أكثر من أي شيء آخر يطلب منك انجازه بيد انني انتظر منك ان تحقق ذلك وانت في حالة هدوء تام دون ان يثور غضبك. سوف أمنحك أفضل بديل متوافر وسوف أساندك في أي ترتيب ترتئيه». وكان عليه ألا يتلقى أية أوامر بصفته قائداً لتشكيلة أمريكية إلا من قائد مجموعة الجيوش أي «الكساندر» وبعد ان تلقى التعليمات بهذه الطريقة الصريحة الواضحة أصبح باتون يعرف اين يضع قدمه وأن عليه ان يوقف الفيلق الثاني على قدميه ثانية وبمنتهى السرعة.

لقد قدم رومل للفيلق الثاني شكلاً واحداً من أشكال المعالجة بالصدمات، لكنه الآن سيتعرض لنوع مختلف إنما أقل دراماتيكية وفي هذه المرة ستكون الصدمة من أحد مواطنيه. في الصباح وفي تمام الساعة العاشرة وصل «باتون» إلى مقر قيادة «فريدنهول» القديم في جبل كويف».

وفي وقت مبكر كثير الضباب من ذلك الصباح بالذات وعلى بعد حوالى مئة ميل نحو الجنوب، شن «رومل» هجوماً بثلاث فرق مجهزة أحسن تجهيز من البانزر وهي الفرقة الخامسة عشرة والعاشرة والحادية والعشرون ضد القوات التي كانت قد خاضت العلمين حيث كانت تقف على قدم الاستعداد فرقة الجبليين الحادية والخمسون والفرقة المدرعة السابعة (جرذان الصحراء) وفرقة زيلندا الجديدة. ولا شك ان العلي القدير قد سلمهم إلى يدي خادمه «مونتغومري». فقد كان لدى «مونتغومري» أكثر من ٤٠٠ دبابة و٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات وضعت كلها لتدمير الدبابات وليس لحماية المشاة، وكما حدث في علم حلفا فقد كانت أوامر مونتغومري لجنوده هي الصمود في «مدنين» وإذا لم يكن باستطاعتهم الصمود هناك أحياء فعليهم البقاء أمواتاً. لقد قامت فرق البانزر بأربع هجمات خلال النهار ردت فيها جميعاً على أعقابها. لم يتراجع أي جندي انكليزي عن مركزه حتى ولا مسافة انش واحد. وفي آخر النهار كان هناك ٥٢ دبابة المانية تركها جنودها في ميدان المعركة. أما الخسائر البريطانية فكانت تافهة وغير جديرة بالذكر.

كان الوقت قصيراً بالنسبة لباتون فقد كان «الكساندر» يتوقع منه الشروع بالهجوم باتجاه «قفصة» في ١٧ آذار أي لم يكن أمامه سوى ١١ يوماً كي يوقف فيلقه على قدميه ويعيد له حيويته ونشاطه وقد تعلم من خبرته الخاصة التي أكدتها سنوات طويلة من الدرس والتمحيص انه وبغض النظر عن القيمة الذاتية للضباط ورتبهم العالية، لا فائدة أبداً من جيش لا يسوده نظام صارم ولا يثق جنوده ثقة مطلقة بقادتهم.

وهكذا بدأ باتون في الأسبوع التالي وهو يتوشح بكل ميدالية ووسام حصل عليه، حاملاً كل ما يستطيع حمله من أسلحة، تواكبه سيارات الاستطلاع والمدرعات نصف المجنزرة بما عليها من الرشاشات البراقة وتستقبله أصوات النفير العالية، بدأ بالاندفاع كالصاعقة نحو كل كتيبة من كتائب فرقه الأربع وكأنه موسى وقد انحدر من جبل الطور في سيناء حاملاً معه الوصايا العشر، أما باتون فقد جلب معه أوامر الجيش التقليدية للمحافظة على النظام: يجب ارتداء الخوذ طيلة الوقت. يجب العناية بربط ربطات العنق على نحو أنيق وان تكون أغطية السيقان الجلدية متينة ومثبتة جيداً. يجب فحص وإصلاح أخطاء اللباس مهما كانت طفيفة. على الضباط وصف الضباط ان يؤكدوا سلطتهم باليقظة المستمرة وضرب القدوة الحسنة كما ينبغي ان يكون مظهرهم خالياً من كل عيب أو نقيصة. ينبغي تنفيذ الأوامر المتعلقة بالتحية والمحافظة على الوقت دون أية رحمة. أما عقوبة التباطؤ في تنفيذ ذلك فيجب ان تكون سريعة وصارمة ففي هذه المسائل كان باتون يشترك بالرأي مع ابن لندن ضابط الصف ذلك الرأي الذي نجده في شعر «كيبلينغ».

«الوثني في عماه ينحني للخشب والحجارة
ولا يطيع أية أوامر ان لم تكن صادرة عنه. يبقي أسلحته الجنبية مرعبة
ويتخلى عنها كلها ثم يأتي الفوج ليطرد الوثني خارجاً،
دائماً على القذارة، دائماً في الفوضى، ودائماً في فعل أشياء كهذه تقريباً».

فغالباً جداً ما ينم الشعر القذر والملابس الوسخة عن ذهن قذر وهذه حقيقة واضحة إلى حد مؤلم في بعض الدوائر المدنية في عامنا هذا ١٩٧٣ ولكي يعاقب باتون أي خرق لهذه التعليمات فقد وضع نظاماً لدفع غرامات نقدية: تصل إلى الـ ٥٠ دولاراً بالنسبة للضباط و٢٥ دولاراً بالنسبة للجنود وقد قال مرة: «عندما توجه الضربة إلى ما في الجيب تحصل على استجابة سريعة». كان أحياناً يندفع بنفسه ليفاجىء شرذمة من المخالفين، ومما لا شك فيه ان الجميع كانوا يخشونه لكن ان كان هناك من يحبه فأمر مشكوك فيه ولا دليل عليه إذ لم تبق دقيقة واحدة من الفراغ لدى الفيلق الثاني: ولم تبق ذرة شك واحدة فيمن هو القائد فحيثما كان يذهب كان صوته العالي القوي يهدر بتعاليمه وبكلمات بذيئة سمجة يفهمها حتى أبلد الجنود وأقلهم تعلماً. وبشكل ينسجم مع هذه الإجراءات الاستعراضية حرك عملية الادارة في أركانه كي تقوم بأقصى الجهود إضافة إلى التأكد من اكمال جميع الخدمات اللازمة إلى أقصى حد ممكن. ولحسن الحظ كان ضباط أركان «آيزنهاور» قد أعدوا كميات كبيرة من المؤن في «تبسة»، كميات مناسبة لأية عملية قد يقوم بها الفيلق. فأخذت الأعتدة والملابس الجديدة تصل وكأنما يتم ذلك بفعل

ساحر: وراح العمال يشتغلون في الورش ٢٤ ساعة كل يوم كي يعيدوا جميع المركبات إلى وضعها السابق ويعيدوا إليها قدرتها على عبور الطرقات وبدأ الجنود يتناولون كلما كان ذلك ممكناً على الصعيد البشري طعاماً مطبوخاً بطريقة صحيحة بدلاً من الجراية الاعتيادية التي تطبخ حسب الطرق الكشفية. كما سرّع الخدمات البريدية ولم يهمل الحاجة إلى الاستجمام والترويح عن النفس، فأقيمت الحفلات الموسيقية وبثت البرامج الاذاعية العامة. لقد أدرك «باتون» انه ينبغي عدم السماح للجنود، وخاصة بعد هزيمة من الهزائم بأية لحظة من الكسل والفراغ لأن ذلك يفسح المجال أمامهم للتفكير بخسائرهم ومشاريعهم المستقبلية، لذلك فقد حث على التدريب بلا هوادة تمهيداً للمعركة المقبلة التي أصبحت وشيكة. ولم يأل جهداً في التأكيد لهم بأنهم سيقاتلون وينتصرون. أما الضغط الذي مارسه على أركانه، فقد أوصل الضعاف منهم كما يقال إلى حافة العصيان والتمرد. ففي أيام «فريدنهول»، وبطلب من الضباط الذين يظلون إلى ساعة متأخرة من الليل في مركز قيادة الفيلق، كان الفطور يبقى جاهزاً حتى الساعة ٨,٣٠ صباحاً وقد اعتبر «باتون» هذا الإجراء مهيناً وجارحاً للكرامة: فحسب رأيه ينبغي على جميع الجنود العاملين في الخدمة الفعلية بما في ذلك ضباط الأركان ان يكونوا في حالة تأهب تام قبل شروق الشمس استعداداً لمعركة ذلك اليوم، وهكذا أصدر أوامره بألا يقدم الفطور في المستقبل بعد الساعة السادسة والنصف صباحاً. وصلت إلى مسامع آيزنهاور بعض همهمات الغضب والاستياء من بعض ضباط الأركان الذين شعروا بالاهانة من هذه اللدغة وأحسوا بأنهم خدم وليسوا قادة لجنود الجبهة. وعلى ذلك فقد قام بزيارة مقر قيادة (باتون) في ١٥ آذار وقد أعجب بما رأى: كان ضباط الأركان يعملون بطريقة نشيطة مثالية وبمعرفة تامة لما يهدفون إليه. لقد رأى في ذلك اليوم روحاً جديدة انعشت كل ضابط وجندي.

عندما وصل «باتون» إلى مقر قيادة الفيلق الثاني وجد «برادلي» مقيماً هناك باعتباره ممثلاً لآيزنهاور. اعتبر «باتون» هذا العمل الشاذ انتهاكاً لأول مبادىء القيادة وأهمها «إذ لا يستطيع أي قائد أن يعمل برصانة ورباطة جأش بوجود جاسوس ذي امكانيات كبيرة آت من قيادة أعلى كي يرى ويسمع وينتقد كل ما أمامه». إذن يجب ان يكون برادلي، تحت إمرته وإلا فعليه ان يذهب. قبل آيزنهاور وجهة النظر هذه وسارع إلى تعيين برادلي نائباً لقائد الفيلق وباتون فريقاً موقتاً. وبسرعة مذهلة جلب المساعدون شارات المنصب الجديد وأوسمته. وهكذا، وإلى فترة من الزمن عمل معاً جنرالان من أبرز جنرالات الحرب العالمية الثانية. وقد دهش الكساندر وتحير لبه من هذا الوضع فكتب في سيرته

يقول:

«هناك شخصيتان عسكريتان متباينتان كل التباين، إحداهما ينفد صبرها ان لم تعمل والأخرى لا ترغب في التورط بأية عمليات نشيطة ما لم تر الهدف منها بكل وضوح، في إحدى زياراتي إلى مقر القيادة الأمريكية سحرت وأنا أصغي إلى هذا الحوار:

- باتون: لماذا نجلس هنا دون ان نعمل شيئاً، يجب ان نقوم بعمل ما».
- برادلي: تريث برهة يا جورج ماذا تقترح ان نعمل؟
- باتون: أي شيء أفضل من الجلوس على مؤخراتنا.

كان كل منهما جندياً عظيماً. باتون يقحم نفسه بأي شيء وهو على استعداد للقيام بأية مغامرة أما «برادلي» فكان كما سبق وذكرت أكثر حذراً. اعتقد انه كان على «باتون» ان يوجد خلال الحروب النابليونية - اذن لأصبح دون شك أكبر مارشال يعمل تحت قيادة نابليون».

كان لدى «هارمون» نفس الفكرة أيضاً: «لباتون شحنة كهربائية يمكنها ان تنفذ إلى جماهير الناس». وقد لاحظ «الكساندر» ان «باتون» يتحرّق شوقاً للانقضاض على العدو، مع ذلك فقد عقد الكساندر العزم، على ان يكبح جماحه في المستقبل القريب يملؤه شعور شديد بالمسؤولية أمام «آيزنهاور» وهو ان يضمن عدم تورط الفيلق الثاني في كارثة أخرى. لم يكن الكساندر قد رأى من أعمال مساعدي «باتون» حتى ذلك التاريخ ما يدل على انهم يتمتعون بالمهارة التكتيكية والخبرة الكافية التي تؤهلهم لمهاجمة الفيلق الأفريقي ذي القدرات الممتازة على اكتشاف الخطأ التكتيكي وتصحيحه في الحال. لكن كان من الواجب ومهما كلف الأمر ان يزول كل سوء تفاهم بين الانكليز والأمريكان بصورة نهائية، كان يجب ان ينجح الأمريكان وان يعلن نجاحهم على رؤوس الاشهاد ومن منبر الصحافة البريطانية والصحافة الأمريكية. والواقع انه كان في ذهنه، وفي ذهن تشرشل ومن حوله، فكرة خفية ألا وهي الخوف الشديد من ان تفقد حليفتهم الكبرى أمريكا اهتمامها بالحرب في أوروبا لصالح العمليات ضد اليابان. ولذلك خصص لباتون مؤقتاً دوراً ثانوياً في المعركة التي كان حينذاك قد أصدر الأوامر بصددها: فالجهد الأساسي ضد خط مارث سوف يعهد به إلى مونتغومري والجيش الثامن.

باختصار كان على الجيش الثامن ان يحطم موقع «مارث» الدفاعي الهائل القوة ثم يخترق بعد ذاك ثغرة قابس ويصل إلى السهل الساحلي. وكان على «باتون» ان يساند مونتغومري وذلك بأن يجبر العدو على سحب احتياطيه من جبهته. وبشكل أكثر تفصيلاً

كان عليه ان يحتل مطارات «ثلبت» من جديد ثم يندفع نحو «قفصة» حيث يقيم مركزاً أمامياً للصيانة يستطيع الجيش الانكليزي الثامن ان يستمد منه الامدادات في الوقت المناسب. وكي يحتفظ بقوة اندفاعه إلى الأمام شدد الكساندر «على باتون» بأن يكون يقظاً تماماً وان ينتبه إلى هجمات العدو العنيفة المضادة التي يقوم بها بكل تأكيد عندما يصبح جناحه ومؤخرته مهددين ثم أمره بعدم الاندفاع ومهما تكن الأسباب، بقوات كبيرة خلف الدورسيل الشرقية.

لا بد ان مثل ذلك الضبط المحكم، مهما تكن مبرراته في ذلك الحين، قد شكل عبئاً ثقيلاً على باتون وضباطه وقدرة تحملهم، فهو لم يكن يحب القيود كما انه كان أقل حباً أيضاً لنظام القيادة البريطاني. لقد عاد بذهنه إلى تلك الأيام التي قضاها مع «بيرشينغ» في الحرب العالمية الأولى ورفضه بالحاح ان يخدم الجنود الأمريكان تحت قيادة جنرالات الحلفاء. كان تصميمه على تسديد ضربة صاعقة وتحقيق ظفر كبير يمحو نكسة قصرين وآثارها هو كل ما يشغل تفكيره. هنا وفي هذا الوضع الحرج ظهرت لباقة «برادلي» العظيمة وحسن ادراكه فانقذا الموقف فقد طالب وهو يعمل بالتنسيق مع «ماك كريري» رئيس أركان الكساندر، بانه على الأوامر الصادرة من مجموعة الجيوش ألا تسبب أي حرج لمشاعر الامريكان أو لاعتداد «باتون» بنفسه وعندما حان يوم «د» (أي يوم بدء العملية في ١٧ آذار) بدأ «باتون» يرى معركة مجموعة الجيوش وكأنها معركة «بول رن» ثانية، هو فيها بمثابة «ستونوول جاكسون» وهو ينحدر كما كان واقع الحال من فجوة ماناساس ثم ينقض على المواقع الحيوية للعدو ويخوض معركة دامية ظافرة قرب ريف صخري. في مكان ما من سهل تونس هنا كان ينبغي ان يعطى لمونتغومري دور «لونفستريت» وان يكن ذلك غير معقول أما الكساندر فقد كانت له على أي حال بعض فضائل وسحر «روبرت أي. لي». وكان على برادلي، في حال إعطاء باتون للأوامر، ان يقوم بتعديل هذه الأوامر ما لا يقل عن الست مرات كي تتلاءم مع متطلبات مونتغومري السريعة التغير.

كان الفيلق الثاني يتشكل من فرق المشاة الأولى والتاسعة والرابعة والثلاثين ومن الفرقة المدرعة الأولى ومن لواء مدفعية الميدان الثالث عشر. في ١٧ آذار ومع انهمار المطر الغزير بدأ «باتون» المعركة قبل ان يبدأها مونتغومري بثلاثة أيام، إذ بعد مسيرة ٤٥ ميلاً تقريباً خلال الليل تمكنت فرقة المشاة الأولى من اكتساح قفصه بقليل من العناء إذا ما استثنينا الألغام. في اليوم التالي اندفع فوج «رينجر» الأول إلى «الغوتار» حيث كان العدو قد انسحب. كان المطر الغزير مستمراً، وكانت مجاري المياه والأنهار تكاد تفيض بما فيها وهكذا كان عبور الضواحي مستحيلاً على المركبات ذات العجلات لذا لم يستطع «وارد»

ان يقوم بالاندفاع الذي أمر به «باتون» نحو محطة «السـند» إلا في ٢٠ آذاروفي اليوم التالي أي ٢١ آذار سقطت هذه المحطة دون صعوبة كبيرة.

في هذه الأثناء بدأ «مونتغومري» هجومه الكاسح قرب الشاطىء بعد تمهيد مدفعي شديد قام به الفيلق الثلاثون من المدافع الملكية التي وصلت بقوتها ومتانتها إلى أعلى مستوى فني وكانت الأرض صعبة والتحرك عسيراً. لذلك قرر مونتغومري ان يحول جهده الرئيسي باتجاه الجناح الغربي مستخدماً الفيلق «النيوزيلاندي» والفيلق العاشر على شكل اكتساح واسع النطاق وبمساندة جوية على نطاق لم يسبق له مثيل ولقد أطلق على هذه العملية اسم «الهجوم الخارق» وبما ان الأمر سيستغرق عدة أيام اقترح مونتغومري على الكساندر بان يبادر باتون إلى تقديم المساعدة بالاندفاع نحو البحر كي يقطع شريان العدو الرئيسي على طول الطريق الواقع بين غدامس و«صفاقس» - وهي مهمة تروق تماماً لباتون ويشتهيها فؤاده، بيد انُ الكساندر، وكان ما يزال قلقاً وغير راغب بتعريض الأمريكان إلى مغامرة في غير أوانها، عدل من الفكرة حين نقل الأوامر إلى باتون طالباً منه احتلال ممر الدورسيل الشرقية الواقع شرقي«مكنـاس»وان يرسل فريقاً من المغاوير مؤلفاً من مركبات خفيفة مدرعة كي يضرب مطارات العدو على بعد عشرة أميال شرقاً. كاد «باتون» ان يطير مسروراً لهذه الفرصة السانحة ورغم ان الطقس كان مرعباً ومخيفاً فقد تمكنت الفرقة المدرعة /٢٢/ من احتلال ماكناسي في ٢٢ آذار ولو قام حينذاك بهجوم سريع مفاجىء فربما كان سيتمكن من احتلال الممر أيضاً لكن بدلاً من ذلك اختار «وارد» ان يشن هجوماً أمعن التفكير به على ان يكون التنسيق كاملاً وان يجري بعد استطلاع كاف وأخيراً عندما بدأ الهجوم كان الوقت قد تأخر كثيراً وكانوا قد أضاعوا فرصتهم الثمينة فقد وصلت مجموعة قوات من جيش البانزر الخامس.

في غضون ذلك كان «باتون» قد دفع فرقة المشاة الأولى إلى طريق غدامس إلى الشرق من «غوتار» وكما توقع «الكساندر» فقد انقضت فرقة البانزر العاشرة بكامل عدتها وعتادها عليها تواقة لتكرار الانتصار الذي كانت قد أحرزته في «قصرين» وكانت ملحمة من ملاحم القتال. ففي الصباح الباكر تمكنت الدبابات والمدافع الذاتية الحركة ترافقها مشاة محمولة من اجتياح كل ما كان أمامها. لقد اكتسحت كتيبتين من مدفعية الميدان اضافة إلى بعض المشاة. بعدئذ تحول مجرى المعركة فقد صمدت باقي المدفعية الأمريكية كما صمد أيضاً فوجا المدفعية المضادة للدبابات: الفوج /٦٠١/ والفوج /٨٩٩/ ورد الجميع على الهجوم بقوة، فما لبثت فرقة البانـزر العاشـرة ان تعثرت وارتبكت، ثم تقهقرت متراجعة وقد تركت وراءها ٣٠ دبابة اشتعلت فيها النيران. لكن في وقت متأخر

من بعد الظهر عادت البانزر إلى الهجوم إلا أنها اضطرت للفرارا من الميدان. لقد وقفت الفرقة الأولى من المشاة صامدة على قدميها شامخة الرأس: فهي لن تنظر إلى الوراء. إنها أول معركة من مجموعة المعارك التالية التي توجت جبينها بأكاليل الظفر.

إلى الشرق من «مكنـاس» ظلت الفرقة المدرعة الأولى في مكانها دون اية حركة وفي وقت متأخر من ٢٤ آذار عاد«باتون» من جبهة فرقة المشاة الأولى فجن جنونه حين وجد أن دبابات «وارد» قدحطت جنازيرها على الأرض الصخرية وان المشاة قد تعطلوا عن العمل. وبكل تشديد ممكن طلب من وارد ان يقود الهجوم شخصياً في الصباح التالي فقام «وارد» بهذا العمل إلا ن حماس الفرقة المدرعة الأولى كان قد خبا ويا للأسف فاضطر عند ظهيرة ٢٤ آذار لايقاف العمليات في ماكناسي. لقد أصبح زمام المبادرة في يد العدو.

ورغم انه بدا لباتون وجنوده انهم، حتى ذلك الوقت لم يحققوا إلا نجاحاً جزئياً فالواقع انهم كانوا قد انجزوا تماماً ما أراد «الكساندر» منهم ان ينجزوه ـ لقد جذبوا لجبهتهم فرقة البانزر العاشرة إضافة إلى قوات أخرى وذلك في اللحظة ذاتها التي كان مونتغومري وعلى بعد ٨٠ ميلاً إلى الجنوب، على وشك شن هجوم كاسح وحاسم تسانده قوات جوية هائلة باتجاه «الحما» وبشكل يجبر العدو على التخلي عن خط مارث. كانت هناك ضرورة ملحة في ذلك الحين لابقاء فرقة البانزر العاشرة بعيدة عن مونتغومري وفي ٢٦ آذار عندما بدأ هجوم «مونتغومري» الكاسح، أمر الكساندر باتون بايقاف العمليات في جبهة ماكناسي على ان يشن هجوماً بفرقتي المشاة الأولى والتاسعة والفرقة المدرعة الأولى من غوتار باتجاه قابس وفي نفس الوقت كان على الفرقة ٣٤ ان تستولي على ثغرة فندق في الدورسيل الشرقية بحيث تتمكن الفرقة المدرعة السادسة البريطانية من خرق ثغرة في السهل الساحلي وقد تضمنت أوامر «الكساندر» تفاصيل أكثر مما كان باتون يعتقد انه ضروري، مع ذلك كظم غيظه وأطاع بكل اخلاص.

كانت فرقة البانزر العاشرة وما يساندها من قوات في موقف قوي للغاية: فان تنهزم يعني ان تنهار جبهة المحور بكاملها. لذلك كانت المقاومة التي أبدتها هذه الفرقة في وجه فرقتي المشاة الأولى والتاسعة عنيدة وبارعة للغاية ولقد نالت الفرقة التاسعة ما تستحق من جزاءلعدم خبرتها فلم تحرز أي تقدم. لذا اضطر «باتون» لأن يعلق عملياتها في ٣٠ آذار كي يعيد تنظيمها وبدلاً منها جاء بقوة «بنسون» من الفرقة المدرعة الأولى كي ينيط بها مهمة القيام بمحاولة أخرى لاختراق ثغرة على طريق «قابس». استمر القتال

طوال ثلاثة أيام دون جدوى. فالواقع ان دفاعات المحور كانت بمنتهى القوة، وهناك ما يجعلنا نعتقد بأن التغييرات المستمرة لخطط مجموعة الجيوش الثامنة عشرة قد زادت الصعوبات إلى حد كبير ولم يجيء اليوم الأول من نيسان حتى كان المهاجمون قد أصيبوا بالارهاق.

في هذه الأثناء، ولكي يستطيع «الكساندر» ان يقوم بعملية اختراق عند فندق يقوم بها الفيلق التاسع البريطاني بقيادة «كروكر»، وضع الفرقة ٣٤ تحت قيادته لكن ثبت انها مشاركة غير سعيدة. لقد كان كروكر رجلاً قليل الكلام غير ان ما يقوله أحياناً كان بارداً وجارحاً. وكان جنوده يفهمونه تماماً: أما جنود الفرقة ٣٤ الذين عاملهم وكأنهم جنود بريطانيون فلم يفهموه أبداً. لقد اعتقد ايزنهاور بأن معالجة «كروكر» لهذا الأمر لم تكن على ما يرام وبعد ان فشلت الفرقة ٣٤ بالوصول إلى أهدافها اضطر «كرور» لاستبدالها بالفرقة المدرعة السادسة وفي النهاية تمكنت من تحقيق عملية الاختراق لكن بعد ان تكبدت خسائر فادحة وفي وقت متأخر تماماً فلم تتمكن من قطع خطوط العدو المنسحب بعد الانتصار الذي حققه مونتغومري في وادي العكاريت بواسطة الفيلق الثاني والجيش الثامن ذلك الانتصار الذي أدى للوصول إلى موقع «انفيدا فيل». كانت هنالك أخطاء وحالات من سوء التفاهم ونقص في اللباقة من كلا الجانبين وقد وصلت أصداء ذلك كله إلى الولايات المتحدة حيث كانت الصحف قد صورت للجمهور خطأ بأن الاندفاع الأمريكي نحو البحر سوف يقطع الطريق على جيوش المحور غير ان هذا لم يحدث: لكن رغم كل شيء استطاع الجيشان الأول والثامن من تحقيق الاتصال واحدهما بالآخر عند «القيروان» بينما إستطاعت قوات المحور ان تكمل انسحابها إلى الزاوية الأخيرة في تونس استعداداً لآخر جولة في هذه الحملة. حينذاك كان لا بد من بعض التوقف كي يتمكن الحلفاء من تجميع قواتهم مجدداً قبل تسديد الضربة القاضية.

كانت تلك الفترة مشحونة بالتوتر الشديد وتثبيط العزائم بالنسبة لكل واحد ولا سيما «باتون» إذ لم يكن عليه ان يلقي بكثير من القوات عديمة الخبرة إلى ساح أول معركة لها وان يضمن تجاوزها للصدمة الأولى الحتمية وحسب، بل كانت أمامه مهمة أشد صعوبة ـ هي ان يعيد الثقة إلى نفوس أولئك الذين أصيبوا بهزيمة شنيعة، وخاصة الفرقة المدرعة الأولى. وكما كان «مونتغومري» ميالاً لأن يلاحظ ما ان تخرج وحدة من الوحدات عن المسار الصحيح حتى يغدو من الصعب إعادتها إليه مرة ثانية. فغالباً ما تظل دون ان تجد حلاً للغز مثلها مثل رجل أضاع معالم الطريق الأساسية في طقس رديء على طريق سيارات:
سيارات:

بالنسبة «لباتون» كان هذا يعني ان عليه ان يكـون شخصياً وبصفة مستمرة في المنطقة الأمامية رغم وجود بعض الخطر عليه، ليعمل على اقناع ومداهنة وحتى في بعض الأحيان جرّ الضباط والجنود جرّاً إلى ساحة القتال. كان عمله في ٧ نيسان، والألمان يتقهقرون، عملاً متميزاً فقد توقفت وحدة الواجب «بنسون»، بعد ان خفضت إلى كتيبة دبابات وسرية مدفعية مضادة للدرع وسرية مشاة ميكانيكية، عند حقل الغام. عند ذاك وبعد تشجيع وحث «بنسون» من الجو، اندفع باتون قدماً وبكل تهور شاقاً الطريق عبرحقل الألغام. ثم استمر في الاندفاع جنوباً متقدماً جنوده إلى ان وصل الكيلومتر سبعين عن «قابس». حينذاك التفت باشمئزاز إلى القائد وقال: «تابعوا طريقكم إلى القتال أو الاستحمام». وهكذا درجت وحدة الواجب «بنسون» نحو الشرق بشكل لم يحصل مطلقاً من قبل، وفي ما بعد، عندما واجهت سرية القيادة في هذه الفرقة وهي بقيادة العميد«ماك كويلان» حقل الغام آخر مليئاً بالألغام المضادة للأشخاص وترددت في التقدم عزل قائدها على الفور وأرسله إلى المؤخرة. كانت الفرقة المدرعة الأولى بالواقع قد أفرغت جعبتها: فعلاوة على خسائرها الفادحة في شباط كانت قد تكبدت ١,٥٠٠ إصابة جديدة منذ ١٧ آذار. عند ذاك اقتنع باتون بأن من المحال رفع معنوياتها المتدهورة إلا بتعيين قائد جديد وهكذا اتخذ باتون خطوة حاسمة هي إعفاء «وارد» من القيادة واستبداله بـ«هارمون» وقد ثبت انه كان قراراً فيه الكثير من الالهام فقد كان «وارد» رجلاً سيىء الحظ ولا يمكن للجيش ان يتحمل جنرالات سيئي الحظ: كان في إبقائه قائداً للفرقة نوع من المغامرة ولم يكن «باتون» على استعداد للقيام بمثل هذه المغامرة. وباقتراب موعد العمليات الطويلة الأمد أصبح الجميع بدون ريب سريعي الغضب والتهيج. فعندما شكا باتون في التقرير الذي رفعه عن الموقف لديه في اليوم الأول من شهر نيسان وكان محقاً في شكواه، من ان القوة الجوية للمحور قد قصفت طلائعه طيلة الصباح دون ان تتصدى لها القوة الجوية الأمريكية أو القوة الجوية البريطانية كان رد«كونينغهام» قائد القوة الجوية التكتيكية ساخراً ومفعماً بالاستخفاف مع الاطناب بالحديث عن شجاعة رجاله وكفاءتهم. حينذاك قدم باتون كتاباً إلى آيزنهاور طالباً فيه اعتذاراً من «كونينغهام» وفي النهاية، انما بعد متاعب كثيرة، حصل على اعتذار من «كونينغهام» اعتبره مناسباً. تلك الحادثة أدت إلى مجيء «تدروسباتز» شخصياً إلى قفصة في ٣ نيسان للعمل على تهدئة الحالة وإزالة سوء التفاهم، ولحسن الحظ قامت أربع طائرات من طراز «فوكوولف» في تلك اللحظة بالذات بقصف ذلك المكان. وكان من تأثير الانفجار ان سقط سقف الغرفة التي حدث فيها اللقاء مع «باتون» وسد الباب سداً محكماً بحيث لم يعد باستطاعتهم

الخروج. التفت «سباتز» إلى «باتون» وقال: «كيف بحق الشيطان هيأت هذا المسكن؟ فصاح باتون «اللعنة علي ان كنت أعرف ولكنني لو حدث وعرفت أولاد الكلاب، أولئك الذين يقودون تلك الطائرات فلسوف ارسل لكل منهم وساماً بالبريد» وجدير بالذكر هنا ان «باتون» أرسل رسالة كريمة إلى «كونينغهام» أسفر عنها انهاء المشكلة بشكل كامل. قال في رسالته:

«عزيزي كونينغهام»،

أرجو ان تقبل، بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن ضباط ورجال الفيلق الثاني تقديرنا العظيم الصادق لاشارتك الدالة على منتهى الكرم. أما انا شخصياً فانني اعبر عن أسفي الشديد لسوء التفاهم الذي أعتقد انني كنت مسؤولاً عنه جزئياً، ولا يسعني إلا أن أبدي سروي وإعجابي ورضاي الكامل وذلك لأن الفرصة قد أتيحت لي كي ازداد تعرفاً بك فانت بالنسبة لي أكمل نموذج وأعظم رمز تتجلى فيه كل الصفات الطيبة للنبيل المقاتل». خلال اقل من شهر أعاد باتون الحيوية والنشاط إلى الفيلق الثاني الذي كان قد غرق في بحران الارتباك والاضطراب اضافة إلى انجاز كل ما طلبه الكساندر منه ـ وهو ابقاؤه التهديد الدائم لخط مواصلات العدو، وكذلك جذبه جزءاً كبيراً من القوات المقاومة لمونتغومري بقيامه ببعض الهجمات. ففي الوقت المناسب جذب باتون إليه ما يعادل فرقتين بما في ذلك فرقة البانزر العاشرة المروعة التي لا يستهان بقوتها والتي لو كانت موجودة أثناء الاجتياح الكاسح الذي قام به «فريبرغ» و«هوروكس» لسببت ارباكاً كبيراً لمونتغومري ولكبدت البريطانيين خسائر أخرى لا يستطيعون توفيرها بسهولة. لكن هل كان باستطاعته في أية مرحلة من المراحل ان يحقق، بما لديه من الوسائل، أكثر مما حقق لو سمح له الكساندر؟ هناك شك كبير في ذلك لكن من المؤكد ان الكساندر لم يكن يرغب بزجه في معركة رئيسية في السهل الساحلي ومن الجلي انه لم يكن حتى ذلك الوقت قد أدرك تماماً الامكانيات التي يتحلى بها الجندي الأمريكي كما انه لم يتمكن من ادراك تأثير سياسته على الرأي العام في الولايات المتحدة في ما يختص بالفيلق الثاني. لو كان قد أدرك ذلك لما احتفظ بشد القيود على عمليات «باتون» ولما تركه كل هذه المدة الطويلة وكأنه طفل يقاد بالأحزمة الجلدية.

في هذا الوقت عندما زار «باتون» مقر قيادة «الكساندر» اكتشف بأن هذا الأخير لم يخصص للفيلق الثاني إلا دوراً ثانوياً في المعركة النهائية التي كانت قد أصبحت وشيكة. فالمكانة الأمريكية تتطلب ان يلعب الجنود الأمريكان دوراً يتناسب مع مساهمتهم بالنصر

الذي أصبح مؤكداً فعلاً. لكن الكساندر رفض بكل أدب تغيير خطته. وكان الرجل على حق فيما يتعلق بالحجج التموينية اذ ان تحريك ٣٠,٠٠٠ مركبة و١١٠,٠٠٠رجل إلى الشمال وعلى خطوط المواصلات البريطانية المحدودة لاعادة تجميع القوات بشكل كامل، يضع أمام ضباط الأركان معضلة في منتهى التعقيد. لذلك بعث «باتون» «برالدلي» إلى ايزنهاور الذي ما لبث أن ادرك الهدف ونتيجة لذلك شرح ايزنهاور لالكساندر بأن الرأي العام الامريكي قوة ينبغي ان يحسب لها ألف حساب وينبغي ألا تهمل أبداً. لقد كان الشعب الامريكي يتوقع ان يقوم باتون، وبدون الكثير من التبريرات، بالاندفاع نحو البحر وان يقطع خطوط «رومل» ولكنه لم يفعل ذلك. لذا كان ينبغي ان يناط بالفيلق دورجدير به وبالمكانة الأمريكية بحيث تشترك جميع فرقه في آخر معركة من معارك الحملة مهما تكن العقبات التموينية، ثم تابع ضغطه مؤكداً على الخطر الذي سيحل بالتحالف ان لم يسمح للأمريكيين بأخذ نصيبهم في معارك النصر النهائي الذي ساهمت الفرق الأمريكية في الوصول إليه دون شك، وذلك بغض النظر عن الكميات الهائلة من الذخائر والعتاد التي قدمتها أمريكا للبريطانيين بما في ذلك دبابات شرمان. عند ذاك رأى الكساندر الحقيقة بشكل واضح.

فعندما استلم «باتون» قيادة الفيلق الثاني في ٦ آذار كان على علم تام بأن اقامته ستكون قصيرة وأنه سرعان ما يعود إلى المغرب ليتابع التخطيط لعملية «هسكي» أي غزو «صقلية». ولهذا السبب عين آيزنهاور برادلي كنائب له بحيث يمكن انجاز عملية التسليم والاستلام بأقصى سرعة ويسر. كان الوقت قد حان دون شك لعودة باتون إلى الرباط والانضمام إلى أركانه المخططين وكان قد حدد اليوم العاشر من شهر حزيران موعداً للانزال في صقلية أي لم يكن قد بقي إلا سبعة أسابيع دون ان يكون قد انجز حتى الخطوط الأولى الموقتة لعملية هسكي كما لم يكن قد جرى الاتفاق عليها من قبل مختلف ضباط الأركان ليس في شمالي أفريقيا وحسب بل في لندن وواشنطن والقاهرة أيضاً، وهكذا لم يكن الوضع مستعجلاً فحسب: بل كان منذراً بالخطر.

في طريق العودة قضى باتون ليلة ١٦ نيسان مع آيزنهاور في منزله بالجزائر وفي صباح اليوم التالي جاءت رسالة من مارشال يقول فيها: «لقد قمت بعمل طيب وكنت عند حسن ظننا بك». وكان هذا كل ما يصبو إليه لقد شعر باتون بمنتهى السعادة لتركه برادلي يجني أكاليل النصر الذي أصبح ممكناً بعد كل ما بذله من جهد لاعادة النشاط والحيوية إلى الفيلق الثاني في مدة تقل عن الشهر. كان يحس ببهجة عارمة وهو يفكر بعملية الانزال في صقلية: فهو لن يصبح قائد فيلق وحسب بل قائد جيش بأكمله.

الفصل السادس

صيف صقلية

تختلف قيادة فرقة عن قيادة جيش اختلاف الطباشير عن الجبنة ـ
انهما تتطلبان صفات مختلفة
تماماً رغم ان كبراهما طبعاً، تحتوي الصغرى

«ولينغتون»
مقتبسة من وثائق «كروكر»

كثير من الكتب الشائعة بل وحتى كتب التاريخ الأكاديمية والرسمية المملة التي كتبت في العشرين سنة الماضية تعطي المرء انطباعاً عن التشاحن الدائم واختلاف وجهات النظر الذي لم يتوقف بين الأمريكان والانكليز. والواقع ان العكس هو الصحيح: فقلما وجد في السجلات التاريخية تعاون بين حلفاء أكثر اخلاصاً وأفضل نتائج مما كان بين الانكليز والأمريكان، وذلك بفضل «روزفلت وتشرشل وآيزنهاور» بالدرجة الأولى. مع ذلك ففي تلك الفترة الزمنية كان على كل من الجيشين ان يتعلم الشيء الكثير عن حسنات الجيش الآخر وأهوائه وعيوبه. لكن هناك شكاً كبيراً فيما إذا كان الكثير من الأمريكان قد أدركوا كيف كان الانكليز يقترون ويحاولون جهدهم المحافظة على الطاقة البشرية التي تبقي جيوشهم في ساحة القتال، وكيف اضطروا لاخراج نسائهم إلى العمل في ميدان الجهد الحربي على نحو فاق بكثير الروس والألمان، وكيف عاشت زوجات الجنود وأولادهن تحت أهوال القصف الجوي، على جراية أسبوعية من اللحم تقل عن جراية الجندي العادي في اليوم. ومن جهتهم كان البريطانيون، بوصفهم يشتركون مع الأمريكان بلغة واحدة، يفترضون ان ردود الفعل الأمريكية على جميع الصعد وفي كل الظروف يجب ان تكون مماثلة تماماً لردود فعلهم، وان العبارات الجافة الصريحة المنتقصة

عن عمد والتي يستخدمونها فيما بينهم هي لائقة تماماً حين يتعاملون مع حلفاء تختلف قيمهم ومفرداتهم كثيراً عنهم. فقبل كل شيء، وبدءاً من «الكساندر» ومادون، لم يكن أحد يدرك التأثير الهائل للصحافة الأمريكية والحاجة الدائمة الملحة لأخذ الرأي العام في الولايات المتحدة، والقوة الحقيقية التي يتمتع بها الشعب هناك، بعين الاعتبار. فبعد عملية «بيرل هاربور» كان إعطاء عمليات شمال غربي أوروبا الأولوية على عمليات المحيط الهادىء عملاً فيه الكثير من المخاطر رغم انها الساحة الوحيدة التي يستطيع فيها الجيش ان يلعب دوراً مرموقاً: فقد كانت هناك قوى ذات صلة بالبحرية الأمريكية تعمل على عكس هذه السياسة. إذن فقد كان أمراً جوهرياً بالنسبة للجيش ان يكون له نصيب بارز أو على الأقل نصيب مساوٍ لنصيب البريطانيين في معارك المجد والظفر القريبة. فالشهرة في رأيهم هي إلى حد كبير ما تبثه محطات الاذاعة أو تكتبه الصحف في عناوينها. وحتى ذلك الحين بدا للأمريكان ان العالم لم يسمع إلا ما تكرره الاذاعات عن ان «مونتغومري» والجيش الثامن وبالطبع «رومل» والفيلق الأفريقي، هم وحدهم الذين يعرفون فن الحرب. وكان في الجيش الأمريكي، كما كان في الجيش البريطاني، العديد من الجنرالات ومن سيصبحون جنرالات، تواقين عن حق، لاظهار مواهبهم في المعارك - ولا نعرف جيشاً لا يعاني من العيوب على هذا الصعيد. كان بعضهم يفتقر إلى الخبرة في المعارك، انما كان الجميع يدركون الحاجة الملحة لخوض معركة مع جنودهم فكم كان شوقهم عظيماً لاذاقة جنودهم طعم الدماء. كان النجم المرشد لباتون في حياته، هو حلم طالما رآه حتى أثناء يقظته وهو انه سيصبح ذات يوم قائداً لجيش عظيم يحرز انتصاراً باهراً تلو انتصار باهر وذلك بالمباغتة والسرعة. وبذلك يعزز ويكرس إلى الأبد مجد السلاح الامريكي ومجده هو شخصياً. والآن، وفي أعظم عملية مشتركة في التاريخ بدا ان حلمه سيتحقق قريباً على تربة صقلية الرومنطيقية، العتبة الواقعة ما بين أفريقيا وأوروبا حيث سبق ووطئها «هانيبال» و«سيبيو» و«بليساريوس».

شكلت الجزيرة بالنسبة للغزاة معضلات شديدة التعقيد وتطلبت اعادة التوافق بين متطلبات الأسلحة الثلاثة (البرية، والبحرية، والجوية). كانت العمليات المشتركة، كما فهمت في ما بعد، ما تزال في المهد إذ لم يكن أحد يعرف بعد إلى أي حد يمكن تموين القوات والمحافظة عليها وهي على السواحل بواسطة الطائرات وقوارب الانزال. وعلى ذلك فقد لاح في الجو وعلى نحو واضح انه ينبغي قبل كل شيء، احتلال الموانىء الرئيسية في أبكر وقت ممكن. وأكبر الموانىء «مسينا» وهي أبعد من ان تصلها الطائرات ومحمية جيداً كما ان موانىء الساحل الغربي واقعة على مدى أبعد من ان تصله الطائرات،

وهي موانىء: «باليرموو تراباني ومارسالا»، لكن يمكنها ان تمون نصف القوة تقريباً وأما موانىء «كاتانيا وأوغسطا وسيراكوز» فيمكنها ان تمون النصف الثاني: كما يمكن أيضاً الاستفادة من الموانىء الصغيرة الواقعة إلى الجنوب. وإذا كانت العملية ستصبح مجدية فعلى الغزاة ان يستخدموا المطارات الثلاثين الموجودة في الجزيرة بأقصى سرعة ممكنة. قسمت هذه المطارات إلى ثلاث مجموعات: مجموعة «غيربيني» في سهل كاتانيا ومجموعة «كاستلفترانو» جنوبي غربي «بالرمو» ثم مجموعة «بونت أوليفو وكوزيمو» قرب الموانىء الواقعة على الشاطىء الجنوبي. صقلية في الداخل وعرة، حولها كثير من الجبال ويقع جبل «اتنا»، الذي يبلغ ارتفاعه ١٠,٠٠٠ قدم، في الزاوية الشمالية الشرقية. تمتد الطرق الجيدة على طول السواحل الشرقية والشمالية وأما في الأمكنة الأخرى فهي اما رديئة أو ليست على ما يرام. وعلى ذلك فان الزاوية الشمالية الشرقية تمنح الجيش المدافع فوائد جمة - جناحان مؤمنان، ومداخل محدودة وأرض صعبة ورؤية ممتازة بالنسبة للمدفعية. الملاريا هنا وباء.
وكان على البحرية الأمريكية ان تنقل الفرقة الأمريكية ٤٥ من الولايات المتحدة والكنديين من المملكة المتحدة ومعظم الأمريكان من على طول الساحل من بنزرت حتى الجزائر والبريطانيين من نواح مختلفة وموانىء متعددة ما بين صفاقس في تونس وسوريا وينبغي ان تأتي بهم جميعاً إلى الشاطىء في وجه مقاومة هائلة براً وبحراً وجواً سواء في طريقهم أو عند وصولهم، من هذا ندرك ان مجرد جلب القوات الغازية إلى الجزيرة وتثبيتها على الشاطىء كان يشكل صعوبة هائلة أمام قادة وأركان الحلفاء، صعوبات كثيرة واختيارات ليس لها سوابق، أما ان كان هؤلاء القادة قد فكروا على نحو مناسب بما سيفعلونه عندما يهبطون على الشاطىء، نظراً لانكبابهم على دراسة المشاكل الكثيرة التي تواجههم، فهذا ما سنراه بعد قليل.

حين نتأمل صور جنرالات الحرب العالمية الثانية نخرج بانطباع هو أن كل أمة تفرض نموذجها الخاص على سيماء جنرالاتها فيظهر الايطاليون وكأنهم على وشك الانطلاق بالغناء في جوقة «جنود فاوست»، في كل لحظة. أما الألمان فقد وصفوا وصفاً قاسياً وهو انهم يبدون كمدراء بنوك متجمدي الوجوده اتخذوا من الاجرام مهنة لهم، وأما الروس فيبدون وكأنهم مدراء سجون ذوو مراكز أعلى من اللزوم. ويبدو الانكليز وكأنهم يحاولون تقليد «هيغ» الذي قال عنه أحد المعجبين كلمات خالدة: «لا يبتهج بالنجاح كثيراً كما انه لا ييتئس كثيراً للفشل». بينما يبدو معظم الامريكان ذوي هندام جيّد صامتين في الأمور الرسمية وعليهم سيماء التأهب لمقارعة العدو بقسوة تصل حتى التماسك بالأيدي. وفي معظم ساحات الحرب كان كل جنرال يظهر وكأنه خرج من

صندوقه الوطني الخاص. لكن هذا المخطط لا ينطبق على الحملة الايطالية فقد كانت صراعاً أصيلاً بين جنرالات متباينين أشد التباين ومع ذلك فقد كان فيها تركيز بشري يفوق جميع سيناريوهات الحرب العالمية الثانية.

كان «غزوني» القائد الايطالي في صقلية على الرغم من تقدمه في السن (٦٦ سنة) نشيطاً مقتدراً وجديراً بأن يلعب دوره كقائد أما نظير آيزنهاور «كسلرينغ» القائد الأعلى في البحر المتوسط، فكان جندياً عظيماً، عندما بلغ الأربعين من العمر أصبح طياراً وقائداً قادراً على التصرف بمهارة مرموقة وقيادة ما أسند إليه من قوات جوية وبرية مشتركة. كان من الجنرالات الألمان القلائل الذين يتحلون بشجاعة كافية للوقوف في وجه «هتلر» ومعارضته عندما يأمرهم بعمل يعتقدون انه غير سليم استراتيجياً: وقد تمكن من معايشة الجو الألماني ـ الايطالي المسموم بنوع من الاعتزاز. أما في ما يتعلق بقيمة الجنود الايطاليين العسكرية أو نزاهتهم فلم يكن لديه أي صور خادعة وهمية عنهم. وجدير بالذكر ان مستشار غزوني الألماني «فون سنغر أند اترلين» وهو خيال وارستقراطي بافاري، كان قد حارب بنجاح عظيم كقائد لفيلق من دبابات البانزر في روسيا. وبصفته طالباً سابقاً في رودس وخريجاً في جامعة أكسفورد استطاع ان يختلط اجتماعياً بالمجتمعات البريطانية الرفيعة وبصفته من الأخوان البندكتيين العلمانيين أي راهب غير مرسوم، فقد كان اشتراكه مع النازيين غريباً جداً. أما «باد» قائد مضائق «مسينا» الذي كان يسيطر على مصلحة سفن النقل بالاضافة إلى ٧٠ بطارية مضادة للطائرات تعمل في الحماية فقد كان جنديا قديراً تماماً، كما سنرى، وناجحاً في قتاله وأما «هيوب» قائد فيلق البانزر «١٤» فقد كان قائد قوات مدرعة أفضل مما انتجه الحلفاء حتى ذلك الحين وسوف نرى موهبته بعد قليل تظهر على أفضل نحو في تعامله مع المشاة وقيادتهم أيضاً.

كان «ايزنهاور» محظوظاً في ما يتعلق بقادة قواته البحرية والجوية، فقد استطاع «كنينغهام» و«هويت» ان يفهم احدهما الآخر فهماً تاماً وكان بين «تدر» و«سباتز» احترام متبادل وتضامن تجاوزا مجرد الاهتمامات الوطنية. كما كانت مكانة «الكساندر»، بسبب خبرته القتالية الطويلة وسجل انتصاراته في أفريقيا، عالية في نظر البريطانيين والامريكان، وكان يثق بآيزنهاور ثقة تامة، كما ان ايزنهاور كان يبادله نفس الثقة، بيد انه على الرغم من الانجازات الطيبة التي حققها الفيلق الثاني في العمليات الأخيرة في تونس فقد كان هناك شك كبير فيما إذا كانت ثقة الكساندر قد امتدت لتشمل الجنود الأمريكان. كان تحت رئاسته جيشان: الثامن بقيادة «مونتغومري» والسابع بقيادة باتون وكان كل منهما يتمتع بشخصية مذهلة فهو قوي الارادة طموح يطمع بالدعاية والشعبية

كما ان كلا منهما كان غريب الأطوار عندما يحكم عليه من وجهة النظر العسكرية التقليدية في كلا الجيشين. كان «مونتغومري» حذراً كالنمس ومحبوباً تماماً حتى بالنسبة لأعدائه، انما لم يكن يتحمل أية معارضة. فأثناء المناقشات كان كلامه حاداً كالسيف يقع دونما رحمة: فهو لو درس القانون لأصبح واحداً من أعظم المستشارين القانونيين في بلاده. لم يكن كلامه يقتصر على قول الحقيقة، مهما يكن ذلك مراً وانما كان يشدد على فكرته ويبرزها بكل قوته. لقد تمكن مونتغومري بالنسبة لجيشه من ايصال نفوذه وتأثيره إلى كل الجنود فرداً فرداً وطبقاً لما يقوله القسيس المرافق لجيشه، كان مونتغومري يؤمن بكل اخلاص ان الله قد اختاره كي يوقع الهزيمة بالألمان: اذن فان مشيئة الله هي التي قضت بأن يكتسح كل من يقف في سبيله أو أن يهمله بلا رحمة. في الصحراء كان من دواعي سرور «الكساندر» ان يطلق لـ «مونتغومري» العنان ويمنحه الحرية المطلقة، بيد انه كان على «مونتغومري»، الآن ان يقبل مركزه كعضو في فريق كبير يقف على قدم المساواة مع «باتون» وعلى ذلك فقد كان الصدام بينهما أمراً حتمياً، ولكن النتيجة النهائية ستتوقف إلى حد كبير على الطريقة التي يتمكن بها «الكساندر» من معالجة ما قد يتبلور من المشاكل بينهما.

لقد أنشىء فريق التخطيط التابع لـ«آيزنهاور» من أجل عملية هسكي في المدرسة الحربية في الجزائر منذ شهر شباط. ولم يكن هذا الفريق بمفرده بل كانت هناك هيئات أركان مخططة أخرى في أماكن متعددة متباعدة مثل «بيت نورفولك ولندن والقاهرة والرباط» لكنها كانت هيئات أركان فقط، إذ كان جميع القادة المعنيين منهمكين تماماً في خوض معركة تونس التي لم تنته حتى استسلم «ارنيم» أخيراً في ١٣ أيار. ناقشت هيئات الأركان سبع خطط ممكنة. فقد كان البحريون يرغبون بانزال متفرق بينما أصر الطيارون على إبطال مفعول مطارات الجزيرة الثلاثة أما خبراء الادارة والتموين فقد شددوا على طلب الموانىء - ولم يكن أحد يعرف إلى أي حد يمكن ان تمون القوات بعد انزالها على الشواطىء ومع انتهاء العمليات في أفريقيا وفقدان الاتصال المباشر سيغدو من الصعب الحصول على المعلومات وقد توقع القليلون ان يفضل الايطاليون حالما يبدأ غزو بلادهم العيش في وطنهم بدلاً من الموت وفوق كل هذا كان يلوح تموز بوصفه التاريخ النهائي وذلك عندما يسود طقس جيد نوعاً ما: أما شهر آب فيعتبر شهراً متأخراً بالنسبة للسنة، وهكذا عندما نقل «باتون» هيئة أركانه الخاصة إلى «مستغانم» في ٢٦ نيسان طرح على بساط البحث نسخة عن الخطة السابقة، التي كانت تشتمل على انزال بريطاني في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة على جانبي شبه جزير «باشينو» بحيث تجذب دروع المحور إلى تلك الجهة، وإنزال

أمريكي بعد بضعة أيام قرب «بالرمو». وقد أعطى هذا الاستباق المثير لمفهوم الغزو الكامن خلف خطة مونتغومري الخاصة بغزو النورماندي، أعطى للأمريكان خطهم الخاص بالتموين، وحريتهم الكاملة في تطوير العمليات على جبهتهم الخاصة دون ان تحدها القيود البريطانية. ولعل من غير المجدي هنا سرد الخلافات والمشاحنات التي اتسع نطاقها ما بين الحلفاء على جميع الصعد وخاصة صعيد الخدمات: فقد أصر «تدر» على وجوب تأمين السيطرة على مجموعة مطارات «بونت أوليفو» قبل كل شيء وكان هذا يتطلب عملية انزال على كلا جانبي «غلا» بصورة لا مناص منها. أما «مونتغومري» فقد أصر على فكرة توقع مقاومة عنيفة. لذا ومهما كلف الأمر يجب ألا يقع الحلفاء في خطأ توزيع القوات. وعلى ذلك فيجب ان تقوم القوات البرية والبحرية والجوية الأمريكية والبريطانية بالهجوم جنباً إلى جنب في الزاوية الجنوبية الشرقية مما يعني ان «باتون» سيفقد حتماً بعض الاستقلال الذي يصبو إليه وفوق كل ذلك سيتوجب عليه القيام بعملية انزال أكثر صعوبة وإزاء حجج مونتغومري الدامغة استسلم ايزنهاور والكساندر أخيراً، وهكذا كان على الجيش السابع ان ينزل عند «غلا» في نفس الوقت الذي يتم فيه إنزال الجيش البريطاني وعندما أبلغ الكساندر هذا القرار إلى «باتون» شعر هذا بأنه مضطر لأن يتحمل تلك الضربة القاسية نظراً لأن الأمر سليم على الصعيد العسكري ولا يمكن رفضه. لقد أحرز مونتغومري انتصاراً ثانياً ولكن الثمن في الصحف الأمريكية سيكون غالياً فقد سجل «ألانبروك» في مفكرته حينذاك ما كان يشعر به من التشاؤم قائلاً:

«وصل «مونتغومري» ليلة أمس وجرى بيننا حديث طويل لم ينقطع إلا عندما استدعاه رئيس الوزراء، انه يحتاج إلى مزيد من الثقافة كي يغدو بامكانه رؤية الوضع والحرب ككل وخارج مدار الجيش الثامن. إنه مزيج صعب المعالجة: قائد عظيم أثناء العمليات والتدريب إنما معرض للوقوع في أخطاء جمة بسبب افتقاره للباقة بالاضافة لافتقاره إلى كل ما يتعلق بتقدير وجهة نظر الآخرين. إنه لمن المزعج للغاية كون الأمريكان لا يحبونه وسوف تظل هناك صعوبات جمة تتعلق بقبول القتال قريباً منه. إنه بحاجة دائماً للارشاد والمراقبة ولا أظن ان الكس (الكساندر) قوي كفاية أو يستعمل الخشونة معه كما ينبغي». كانت الخطة النهائية تقضي بان ينزل الجيش الثامن على جبهة طولها ٣٠ ميلاً بفيلقين: الثالث عشر (دمبسي) إلى الجنوب تماماً من «سيراكوز» والفيلق الثلاثين (ليز) على جانبي شبه جزيرة «باشينو» لتأمين احتلال المطار هناك في وقت مبكر. أما «باتون» فقد خطط بأن ينزل الجيش السابع على جبهة طولها ٧٠ ميلاً بثلاثة اقتحامات محمولة بحراً وفي وقت واحد، اثنان منها على الجناح الشرقي ويقوم بها فيلق «برادلي» مع

الفرقة ٤٥ في «سكوغليتي»، أما الفرقة الأولى فتنزل في (غلا) وذلك باصرار من باتون في البداية، وكان قد عهد للفرقة ٣٦ التي لم تكن تتمتع بخبرة قتالية بهذا الدور. وفي اليسار كان على الفرقة الثالثة، تحت قيادة الجيش السابع مباشرة، ان تنزل إلى الشاطىء عند «ليكاتا» وكانت جميع تلك الفرق قد عركتها الحروب باستثناء الفرقة ٤٥ التي كانت قد طارت شهرتها في الولايات المتحدة بصفتها أفضل الفرق تدريباً. أعد «باتون» احتياطياً عائمًا: فرقتين مدرعتين وقسمًا من الفرقة التاسعة كما تقرر ان يسبق كلا من الانزالين البريطاني والأمريكي اقتحامات محمولة جواً بواسطة الفرقة البريطانية الأولى المحمولة جواً على متن طائرات شراعية بالاضافة إلى فرقة المظليين المحمولة جواً ٨٢. كانت الخطط التي رسمت بشأن اقامة رأس جسر ابتدائي من قبل فروع القوات المسلحة الثلاثة دقيقة وجلية: أما كيفية تطور الحملة بعد ان تصبح الجيوش على الشاطىء وكيفية اخضاع الجزيرة في النهاية فأمر لم تتطرق إليه أوامر الكساندر بتاتاً وكانت هنالك أسباب قوية تدفع للاعتقاد بأنه نتيجة فقدان الثقة بالأمريكان وبتأثير من «مونتغومري» قصد الكساندر ان يقوم الجيش الثامن بالجهد الرئيسي وذلك بالاندفاع قدماً على الشاطىء الشرقي «لاحتلال الجزيرة بأسرها» وأما الجيش السابع فلا يعهد إليه إلا بدور ثانوي وهو حماية ميسرة الجيش البريطاني. كان الكساندر يأمل بأن توفر عليه الأحداث شر إبعاد باتون أو أن يجعل مونتغومري يمتثل للأوامر واذا صح ذلك، وهناك احتمال كبير بذلك، يكون موقفه دبلوماسياً أكثر مما هو موقف قائد قوي وسوف يأتي الرد طبقاً لذلك.

عندما وصل «غزوني» إلى «اتنا» لتسلّم قيادة الجيش الايطالي السادس في شهر أيار وجد أن هذا الجيش، حتى بالنسبة للمعايير الايطالية، في حالة يرثى لها. إذ رغم ان أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ رجل كانوا يتسلمون جرايات ومعاشات لم يكن هناك إلا أربع فرق قادرة على الحركة نسبياً: أما البقية فكانت وحدات من درجات أدنى لحماية السواحل تتألف من رجال نجحوا في الزوغان من الخدمة في أفريقيا أو أنهم لم يكونوا صالحين للعمليات الفعلية. كان تدريبهم ضعيفاً وتجهيزاتهم ضئيلة وباستثناء القوات المحيطة بالموانىء الكبيرة كانت الدفاعات الساحلية ميكانيكية بسيطة. وكان هنالك مقر قيادة لفيلق واحد يسيطر على مصائر هؤلاء الجنود التعساء في النصف الغربي من الجزيرة ومقر آخر في الشرق أما حالة السلاح الجوي الايطالي فقد ازدادت سوءاً بوجود الاسطول الايطالي الرئيسي على بعد أميال عديدة في «لاسبيزيا» حيث كان المسؤولون يفضلون البقاء بعيداً عن مواطن الأذى ولم يكن أحد من قوات «آيزنهاور» قد أدرك على ما يبدو الحد الذي تدنت إليه المعنويات الايطالية.

أما بالنسبة للألمان فالحالة على النقيض من ذلك. ففي صقلية وتحت قيادة «غزوني» كان على البر الأصلي فرقة «غرنادير بانزر ١٥» بقيادة «رودت» وفرقة «هرمان غورينغ» بقيادة «كونراث» وكلتاهما فصلت من فيلق «البانزر الرابع عشر» وكان عدد الألمان الاجمالي ٣٠,٠٠٠ تقريباً. كما كانت هناك سرية دبابات من طراز تايغر (١٧ دبابة من طراز مارك ٦) وحوالى ٩٠ دبابة (مارك ٣ ومارك ٤) وكانت معنوياتهم مرتفعة. لقد توقع «غزوني»، لما كان يتمتع به من فراسة وبعد نظر، غزوة مزدوجة الاتجاه كما كان الحلفاء قد خططوا أصلاً وعلى ذلك فقد أعد فرقة«الغرنادير البانزر ١٥» بحيث يمكنها ان تنقض على أي غزوة على الطرف الغربي من الجزيرة وقسم فرقة «هرمان غورينغ» قسمين الأقوى في «كالتانيستا» على بعد حوالى ٢٠ ميلاً عن «غلا»، أما القسم الثاني، المسمى مجموعة قتال«ستمالتز»، فقد ظل على أهبة الاستعداد للتدخل في سهل «كاتانيا». كان أمل غزوني الوحيد في النجاح ينحصر بسرعة الهجوم المضاد الذي ستقوم به هاتان الفرقتان الألمانيتان بالاضافة إلى فرقة «ليفورنو» وسرعة التعزيزات القادمة من فيلق «البانزر ١٤» المتمركز في الداخل. ليس من السهل ان نوضح هنا النطاق الهائل لمشروع الحلفاء. لقد وصف «ماونتباتن» قوافل السفن وهي تمر أمامه إلى وجهتها في جنوب مالطا، قائلاً بأنه منظر فريد بالنسبة له رغم خبرته البحرية طوال ٢٧ سنة: «انه أشبه باستعراض «سبيتهد» انما مضروب بعشرين مرة، فحيثما تنظر تـر أمـامك وعلى مد البصر غابات من السواري. لقد كان منظراً رائعاً مشجعاً مثيراً للحماس ظهر فيه الجنود والبحارة بحللهم الرسمية وعلى نحو واضح تماماً وكنت حيثما يقع بصرك عليهم تسمع هتافاتهم تصل عنان السماء. كان مجموع ما أقلع في عرض البحر سبع فرق ونصف على متن ٢,٧٦٠ سفينة وقارب انزال رئيسي بما في ذلك «المونروفيا» سفينة العلم الخاصة بـ «هويت» حاملة على متنها «باتون» وقيادة جيشه وكان ذلك دليلاً كبيراً على ان «تدر» و«سباتز» قد ربحا المعركة في الجو و«كنينغهام» و«هويت» ربحا المعركة البحرية.

لكن رغم ذلك لم يكن الإبحار سهلاً. فعلى الرغم من ان التاسع من تموز بدأ يوماً حاراً لا تعكر بحره أية موجة إلا أن الرياح بدأت تعصف عند الساعة الثالثة بقوة ٤ وبعد ثلاث ساعات صارت قوتها ٧ وأخذت الأمواج ترتفع عالية مما أسفر عن ذلك اصابة معظم الجنود الذين كانوا في القوارب الصغيرة بالغثيان. عندما أصبح الجيش الثامن محمياً من الريح باقترابه من البر، تحسنت حالة الجنود انما لم تتوافر مثل هذه الحماية للامريكان فكان عليهم ان ينزلوا من على سفنهم وقواربهم وقد ابتلوا بشكل كامل بالاضافة إلى الغثيان الذي سببه لهم دوار البحر. أما الرياح العالية فقد عملت على بعثرة

الجنود المحمولين أثناء إنزالهم: ففي القطاع الانكليزي لم يصل إلى الهدف إلا حوالى ١٢ طائرة شراعية من أصل ١٣٤ وقد ضاع الكثير منها نتيجة اطلاقها بسرعة كبيرة قبل أوانها كما تبعثرت الفرقة المحمولة /٨٢/ بكاملها على طول الزاوية الجنوبية الغربية من صقلية وعند الفجر لم يتمكن إلا حوالى ٢٠٠ رجل من الوصول إلى الهدف أي إلى الأرض المرتفعة المسماة «بيانولوبو» أما البقية الذين لم يعرفوا مكان وجودهم فقد أخذوا يتجولون في المناطق الخلفية لوحدات الدفاع الساحلية قاطعين الاتصالات وعلى وجه العموم تسببوا باثارة اليأس والذعر والقنوط بين صفوف المدافعين الايطاليين.

نزل الجيش الثامن على الشاطىء بسهولة نسبية. أما نيران المقاومة التي كانت تنطلق من البطاريات الساحلية ومدافع الميدان فسرعان ما اسكتتها نيران البحرية. لقد تأخرت الفرقة الأمريكية /٤٥/ مدة ساعة بسبب العاصفة وهيجان البحر لكن باقي الجيش وصل في الوقت المحدد تماماً، وكان أول من نزل إلى الشاطىء عناصر الاقتحام التابعون للفرقة الثالثة عند «ليكاتا»، تبعهم وبسرعة باقي الفرقة. مع أول خيوط الفجر وقبيل الساعة ٦,٣٠ صباحاً شرعت المدافع والدبابات بالهبوط إلى الشاطىء أما عند «غلا» فقد حدث انفجار شديد دمر الرصيف، اقتربت الفرقة الأولى من الشاطىء وكان في طليعتها قوة خاصة من الحرس أطلق عليها اسم القوة / X / كما فتحت مدفعية السواحل نيرانها ولكنها اسكتت بسرعة نتيجة القصف المدمر الذي صبته عليها المدمرة «شبريك» والطرادة «سافانا» وهكذا وصل أفراد الفرقة الجوالة إلى الشاطىء في أوائل الفجر فاتجهوا نحو المدينة وراحوا يطلقون رشاشاتهم وهم يتقدمون. أما باقي الفرقة فقد تجمعوا على الشاطىء دون أية مقاومة ثم اتجهوا نحو هدفهم الأول. في غضون ذلك نزلت الفرقة (٤٥) عند «سكوغليني» (في الجناح الشرقي). وهكذا بدا لـ «باتون» وهو على متن «المونروفيا» في الساعة العاشرة ان كل شيء على ما يرام: سيطرت الفرقة الثالثة على «ليكانا» وعلى ثمانية أميال من الخط الساحلي وكانت تزحف إلى الداخل دون أية مقاومة فعلية. أما عند «غلا» فقد سيطرت الفرقة الأولى على ملتقى الطرق الحيوية في «بيانو لوبو» بالاضافة إلى بلدة «غلا» ومطارها بينما توغلت الفرقة (٤٥) رغم بعض الفوضى التي حلت بها عند الشاطىء مسافة خمسة أميال إلى الداخل وكانت ما تزال مستمرة في زحفها أما بالنسبة للجبهة البريطانية فقد ذكر «مونتغومري» ان هناك مقاومة ضعيفة وان العمليات تنفذ طبقاً للخطة المرسومة.

في هذه الأثناء، وبالرغم من المواصلات المضطربة والفوضى التي كانت قد ضربت اطنابها في المعسكرات، تمكن «غزوني» وهو في مقر قيادته من تشخيص الوضع

ومن الوصول إلى قرار. فالأخبار القليلة التي جاءته من جناح «مونتغومري» كانت سيئة للغاية: لذا كان على «شمالتز» ان يعالج ذلك الوضع بمفرده موقتاً. وقد توضح له انه لم تحصل أية عمليات انزال للحلفاء في الغرب: اذن الخطر الأعظم هو نزول الامريكان في «غلا» لذلك أمر فرقة «غرناديبانزر ١٥» بأن تبدأ الزحف نحو «أنّا» وبهذا ينشىء لنفسه احتياطياً في مركز استراتيجي ملائم في الجزيرة وفي نفس الوقت أمر فرقة «ليفورنو» بالاضافة إلى مجموعتين آليتين وفرقة «هرمان غورينغ» بأن تشن هجوماً منسقاً مشتركاً في غاية السرعة ضد الامريكان عند «غلا». هذه الأوامر لم تصل أبداً إلى «كونراث»: ونتيجة لذلك فقد قام الايطاليون بالهجوم في وقت متأخر من الصباح بقوة من المشاة و٢٠ دبابة لكنهم لم يستمروا في هجومهم طويلاً إذ سرعان ما شتتتهم الكتيبة /١٦/ مستخدمة مدافع البازوكا نظراً لأن مدفعيتها لم تكن قد نزلت إلى الشاطىء بعد، كما تمكنت مدافع الأسطول من تشتيت من بقي منهم حياً في سفوح التلال الواقعة شمالي البلدة. أما الهجوم المضاد الذي قامت به فرقة «هرمان غورينغ» بعد تمهيد مدفعي شديد على السواحل وهجمات جوية على السفن المحتشدة قرب الشاطىء فقد بدأ حوالى الساعة الثانية بعد الظهر. لقد كان عملاً مربكاً إلا انه فشل رغم شجاعة الألمان وبسالتهم وقد فشلت أيضاً محاولة أخرى قامت بها دبابات «تايغر» الألمانية بعد ساعة واضطر الألمان إلى الانسحاب وقد حلت بهم أضرار بالغة. استمر القتال بشكل مشوش في سهل «غلا» وفي وادي «أكيت» حتى أرخى الليل سدوله وكان الألمان ما زالوا يحتفظون بمطار «بونت أوليفو».

حينذاك كان ما يحتاجه الامريكان بشكل ملح هو ان تنزل الدبابات إلى الشاطىء فقد توقع «باتون» ان يقوم الألمان في صباح اليوم التالي بهجوم عنيف يبذلون فيه كل ما لديهم من جهد، ولذلك فقد غير جميع مواعيد الانزال المقررة وأمر الفرقة المدرعة الثانية والكتيبة ١٨ ان تشرع بالهبوط إلى الشاطىء. استمرت عملية الانزال طيلة الليل وكان باتون على صواب في قلقه لأن «غزوني» أمر فعلاً بالهجوم على غلا عند أول خيوط الفجر على ان تقوم بهذا الهجوم فرقة «هرمان غورينغ» من الشرق بثلاثة أرتال وفرقة «ليفورنو» من الشمال الغربي بثلاثة أرتال أيضاً اتخذ باتون قراراً حاسماً هو ان ينزل شخصياً إلى الشاطىء في الصباح التالي كي يتأكد مما سيؤول إليه الصراع في ذلك اليوم الحاسم.

في تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي هبط باتون من «المونروفيا» إلى قارب الأميرال مصحوباً بـ«غي» و«ستيلر» وبعض الجنود وبعد ساعة وصل إلى الشاطىء حيث كان قد تجمهر حشد كبير من مصوري السينما كي يلتقطوا له صوراً وهو ينزل على

الشاطىء. ومما زاد من مسرحية المشهد، النيران التي أطلقها العدو من مدافع عيار ٨٨مم. انتظر باتون بعض الوقت على الرمل ريثما تصبح سيارته جاهزة ثم انطلق نحو غلا في طريقه إلى مقر قيادة الفرقة الأولى على بعد حوالى ثلاثة أميال على الطريق الساحلي. أثناء مروره في المدينة وقع نظره على العلم الذي يشير إلى مقر قيادة العقيد «داربي» وقوات الفرقة الجوالة وعلى الفور قرر ان يزور المقر. كان من حسن الحظ انه قام بهذه الزيارة: فلو تابع سيره على الطريق لالتقى بسبع دبابات المانية. فالواقع ان الفرقة الجوالة كانت قد قطعتها فرقة هرمان غورينغ عن الفرقة الأولى بمسافة ١,٠٠٠ ياردة عن الطريق الشرقي للمدينة وكانت جميع المعارك مشوشة: لكن في هذه المعركة كان الاضطراب والفوضى أكثر من معظم المعارك. خلال الليل وصلت إلى مسامع «غزوني» أخبار سقوط «سيراكوز» بيد الانكليز: لذلك عدل أوامره في ما يختص بفرقتي ليفورنو وهرمان غورينغ اذ بات عليهما بعد طرد الامريكان إلى الشواطىء ان تندفعا شرقاً ضد البريطانيين. وكان هجوم الفرقتين قد بدأ منذ السادسة صباحاً وكان في ذلك الحين على أشده. اذن فقد وصل باتون في آخر لحظة قبل فوات الفرصة وراح يراقب من نقطة تبعد حوالى مئة ياردة خلف خطوط القتال، الحرب في شوارع غلا بين الحرس الجوالين الذين كانوا يستخدمون مدافعهم البازوكا بالاضافة إلى بطارية المانية عيار ٧٧ كانوا قد استولوا عليها من قبل، وبين الألمان والايطاليين وكانت البلدة تهتز من شدة القصف: وقد زادت قنابل الهريكين التي كانت تسقط على الامريكان من شدة الأصوات وهول الضجة كما كان هناك عشر دبابات تركت ليكاتا واندفعت على الطريق الساحلي لتصل في الوقت المناسب إلى غلا للاشتراك في المعركة. لقد أطلقت مدافع السافانا ما مجموعه ٥٠٠ قذيفة من عيار ست بوصات مساندة للجوالين وحوالى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر شعر الايطاليون بأنهم نالوا ما فيه الكفاية اذ لم تعد فرقة «ليفورنو» وحدة فعالة فانسحب ما بقي منها من البلدة. حينذاك استطاع «باتون» ان يوجه انتباهه إلى الفرقة الأولى الموجودة في اليمين وقبل ان يترك مركزه قال للنقيب «ليل» قائد سرية تلك النقطة: «اقتل كل فرد من ابناء الزنا هؤلاء». ولم يبق أي شك في غرضه من الحضور إلى صقلية.

أصبح سهل «غلا» خارج البلدة أشبه بجحيم من القذائف المتفجرة. هنا أناط كونرات بالجزء الرئيسي من فرقته مهمة القيام بمحاولة يائسة للوصول إلى الشواطىء الرملية لكنهم لم يصلوا أبداً إلى هناك، فالفرقة الأولى لم تكن تنوي السماح لهم بهذا العمل كما لم تكن تنوي امتطاء متن السفن مرة ثانية. وقد صمدت كتيبة المشاة ٦ صمود الصخر في «بيانولوبو» على بعد ٣ أميال داخل البر. أما فوج مدفعية الميدان ٣٢ الذي نزل إلى

الشاطىء بطائرات «دوكوز» فقد باشر العمل فوراً والتحم مع الدبابات الألمانية كما اشتركت المجموعة الساحلية في القتال. ثم شرعت دبابات الفرقة المدرعة الثانية تتحرك بصعوبة فوق رمال السواحل الناعمة كي تشترك في معمعة القتال. أخيراً اضطر الألمان إلى التقهقر رغم شدة نيرانهم ونيران الفرقة الأولى تاركين وراءهم في السهل ثلث دباباتهم وقد تعطلت أو اشتعلت فيها النيران. انتهت الأزمة عندما تمكن باتون حوالى الساعة الثالثة، من الوصول إلى «الن»، قائد الفرقة. فعلى مسافة ما إلى الشرق كان المظليون ما زالوا يقاتلون تحت قيادة «غافين» على سلسلة جبال «بيازو» ضد مشاة «كونراث» بشجاعة منقطعة النظير ولكن رأس الشاطىء لم يعد أبداً معرضاً للخطر. عند المساء تقريباً كان جميع الاحتياطي العائم قد أصبح على الشاطىء وتأهبت السفن الحربية كي تقوم بمد يد العون والمساندة الفعالة عندما يطلب منها ذلك. عندها قرر باتون ان الموقف لم يعد يتطلب وجوده بيد انه قبل ان يترك «الن» ذكره بأن المهمة القتالية لم تتحقق بعد، أي لم يتم الاستيلاء على مطار «بونت أوليفو» الواقع على بعد أربعة أميال داخل البر، وانه ينبغي ان يتحقق ذلك بأقصى سرعة وبينما كان باتون ينتظر قدوم قارب ينقله إلى «المونروفيا» قضى الوقت وهو يعلم بعض الجنود متى وأين وكيف يحفرون خندقاً صغيراً عند الحاجة، ومما زاد في حيوية تلك المحاضرة طائرتان من نوع هريكين مرتا للمرة الثانية في ذلك اليوم ومما لا شك فيه ان «باتون» سيجد وقتاً في المستقبل يفكر فيه بتصرف بعض الطيارين الحلفاء وإلى أي جانب كانوا يعتبرون أنفسهم. ومما زاد في أهمية رحلة العودة إلى «المونروفيا» سفينة من سفن البحرية اشتعلت فيها النيران وكانت محملة مؤناً. في ما بعد وبعد ان شكر «كنينغهام» على المساندة التي أسدتها السفينة الحربية الصغيرة (من سلاح البحر البريطاني) «أبركرومبي» باطلاق نيرانهامن مدافع عيار ١٥ انشا، قدم ملخصاً عما قام به في ذلك اليوم شخصياً. قال: «أيها الاميرال، شعرت بأنني لم أعد قائداً لجيش وانما مجرد قائد لوحدة استطلاع». وقد سجل هو نفسه بأن ذلك اليوم هو أول يوم من أيام الحملة يستحق فيه راتبه. فوجوده بلا ريب قد أفهم الكثيرين ممن رأوه في خضم المعركة بأنهم أما ان يتقدموا أو يموتوا في أماكنهم وان مواجهة العدو أفضل بكثير من مواجهة باتون وهو في حالة هياج.

في وقت مبكر من صبيحة ذلك اليوم قرر «باتون» ان يقوي جبهة «غلا» بانزال مجموعة القتال ٥٠٤، التي تتألف من فوجين من المظليين وذلك في تمام الساعة ٢٣,٣٠ من تلك الليلة، في مطار «غلا». كان عليها ان تتبع نفس الطريق التي سلكت في الليلة السابقة، وقد اطمأن بعد ان تأكد من أنه سيتم تنبيه مدفعية الأسطول المضادة للطائرات

بايقاف اطلاق النار، اضافة إلى ذلك وقبل ذهابه إلى الشاطىء أعلم جميع وحداته وخاصة المدافع المضادة للطائرات بعملية الانزال هذه. لكن مما يؤسف له، ودون ان يكون ذلك بسبب خطأ ارتكبه «باتون» أو أحد اركانه، انه عندما دخلت اسراب الطائرات فتحت السفن نيرانها عليها: وعندما هبط المظليون كانوا مبعثرين في منطقة مساحتها ٦٠ ميلاً وكان كل ما أمكن جمعه في الصباح التالي لا يزيد على جزء من سرية وبعض حملة مدافع «الهاوتزر» الخفيفة. لقد كانت تجربة باهظة الثمن.

كان يوم ١٢ يوم تقدم مستمر: عند المساء كان الجيش السابع قد سيطر على مطارات «كوميسو» و«بيسكاري» و«بونت أوليفو» وكان يقترب من الأهداف النهائية المرسومة لذلك اليوم بالنسبة لرأس الجسر. أما الجيش الثامن في الميمنة فقد استولى على «أوغسطا» وكان على وشك الاستمرار في الزحف لاحتلال سهل «كاتانيا» فقد وصلت ميسرته إلى «بالا زولو». اذن فالمرحلة الأولى من الحملة كانت على وشك الانتهاء وفي وقت متأخر من يوم ١٢ تموز (بعد الظهر) نقل «باتون» مقر قيادته إلى منزل فخم جميل على الشاطىء كان صاحبه قد غادره على جناح السرعة، وكان ذلك المنزل يقع في ضواحي «غلا». كان كل شيء على ما يرام وكان على الجيش السابع ان يصل حالاً إلى الخط الأصفر وهو الحد النهائي لرأس الجسر أي على بعد ٢٠ ميلاً تقريباً داخل البر. كان «الكساندر» قد خصص لـ «باتون» الطريق ١٢٤ من «فيزينينيتو كالتاغيرون» فشرع «باتون» ينتظر أوامر جديدة بفارغ الصبر. إن حل المشاكل التكتيكية على خرائط ذات مقياس صغير، وبعد الحادثة بثمان وعشرين ساعة، مع معرفة الموقف في جانبين يرفضان كلاهما في ذلك الحين ان يكونا شريكين فعليين، هذا الحل أمر صعب للغاية. مع ذلك فان مجرد نظرة إلى خريطة صقلية تكفي لاقناع كل انسان بأن السيطرة على شبكة الطرق حول «أنّا» تشكل مفتاح التقدم نحو «مسينا» وذلك بالالتفاف حول الطرف الغربي لجبل «أنّا». إذن كان الجيش السابع حينذاك في وضع أفضل بكثير من الجيش الثامن بالنسبة للاندفاع في ذلك الاتجاه، مع العلم ان الطريق الساحلية الشرقية كانت تحت تصرف الجيش الثامن. ومن الجدير بالذكر ان كلاً من «باتون» و«برادلي» كان يتوقع ان يصدر «الكساندر» أوامره إليهما للقيام بالعملية.

في اليوم الثالث عشر من تموز وصل «الكساندر» شخصياً إلى مقر قيادة «باتون» فألح هذا عليه بأن يسمح له باحتلال «اغريغنتو» الواقعة في الجناح الغربي كي يسهل مشاكله التموينية، ولكن «الكساندر» لم يوافق على الطلب، مؤكداً على ان واجب «باتون» الأول في تلك اللحظة هو حماية ميسرة «مونتغومري». ثم أنطلق لزيارة «مونتغومري»

حيث وصل «آيزنهاور» و«ماونتباتن» في ما بعد. وطبقاً لما يقوله «بتشر» اشتكى «آيزنهاور» من عدم صلاحية تقارير التقدم التي كان يبعثها «باتون» إلى مقر قيادته وعندما ذهب «آيزنهاور» لاحظ «بتشر» جواً من التوتر بين الاثنين. في هذه الأثناء كان فيلق «مونتغومري» الثلاثون يزحف لتحقيق نفس الهدف الذي يصبو إليه «برادلي» ـ الطريق ١٢٤. والواقع أن «مونتغومري» كان قد قرر، دون ان يعود إلى «الكساندر» أو يناقش، الأمر مع «باتون» أن يشكل كماشة يسارية في منطقة الجيش السابع بوساطة الفيلق الثلاثين على طول الطريق ١٢٤ وباتجاه «كالتاغيرون» و«انّا» و«ليونفورت». في ذلك المساء صدرت تعليمات من «الكساندر» أكدت تغير الحدود بين الجيشين انما لصالح «مونتغومري» وغني عن البيان ان كلاً من «باتون» و«برادلي» قد شعر بالسخط لهذا التحقير الفظ إذ لم ينط بهما إلا دور ثانوي: لقد شعرا، وكانا على صواب، بأن ذلك القرار يلقي انعكاساً على مقدرتهما الخاصة وينتقص من جدارة جنودهما في ساحة المعركة. بيد ان «باتون» وبسبب اخلاصه لـ «الكساندر» لم يناقش ذلك الأمر، ولو فعل ذلك لكان قد أوضح بشكل لا لبس فيه عمق السخط الامريكي. وقد أسفر عن الأوامر الجديدة ارجاع الفرقة /٤٥/ إلى الخلف ثم إمرارها حول مؤخرة الفرقة الأولى وهي عملية مرهقة ومضيعة للوقت اسخطت جميع المعنيين. في ذلك اليوم بالذات وافق «هتلر» على تعزيز الجزيرة بارسال بقية فيلق البانزر ١٤ بالاضافة إلى فرقة المظليين الثانية مع القرار بايقاف الحلفاء، مؤقتاً، على خط سان ستفانو ـ جبل اتلا ـ كاتانيا ـ وجدير بالذكر انه يصعب علينا تجنب الاستنتاج بأنه في تلك اللحظة الحرجة كان حس «باتون» التكتيكي هو الصحيح، أما «الكساندر» فقد كان مخطئاً، إذ لو سمح لـ «باتون» حينذاك بالاستيلاء على شبكة الطرق الحيوية، بدلاً من «مونتغومري»، لأمكن تقصير مدة الحملة في صقلية عدة أسابيع، وكذلك فان الفيلق ٣٠ الذي استخدم على الشاطىء الشرقي لتقوية الاندفاع هناك كان من الممكن استخدامه للمساعدة في الحصول على قرار أسرع. في تلك العملية واجهت كماشة «مونتغومري» اليمنى في «كاتانيا» مقاومة أكثر من المتوقع وأما كلابته اليسرى نحو «أنّا» فقد عجزت مؤقتاً عن التقدم.

في ١٦ تموز صدرت تعليمات أخرى من «الكساندر» تؤكد بأن «مسينا» هدف «لمونتغومري» وفي هذه المرة أيضاً أنيط بـ «باتون» عمل ثانوي أثار سخطه، إذ كانت مهمته تقتصر على حماية الميسرة والمؤخرة اللتين ما كانتا تواجهان أية أخطار. ولكن أملاً بتخفيف حدة الضربة سمح «الكساندر» لـ «باتون» باحتلال «اغريغنتو» و«بورتو امبيدوكل» ويقول التأريخ الرسمي الامريكي بهذا الصدد: «سوف يحظى «مونتغومري»

بالجائزة الأولى ـ مسينا. أما الامريكان فقد حرموا حتى من جائزة الترضية ـ بالرمو». ولا غرو بأنه انتقاد عادل وفي محله. إذ لا شك ان الأوساط البريطانية، حتى ذلك الحين، لم تكن تقدر بشكل صحيح مدى السخط الامريكي. أما وقد شعر «باتون» بأنه جُرح جرحاً أليماً فانه استقل طائرة في ١٧ تموز كي يحتج شخصياً لدى «الكساندر» في مقر قيادته في «لا ماريا» في تونس. وعندما ألح بأنه ينبغي ان يقوم جيشه بحملة شاملة يستخدم فيها جميع طاقاته، عندها فقط استطاع «الكساندر» ان يدرك عمق المشاعر الامريكية وبكل تأدب وافق على طلب «باتون» بان يزحف على «بالرمو». منذ ذلك الوقت فصاعداً، كما يقول «مونتغومري» في مذكراته، شرع قادة جيوشه يطورون أفكارهم الخاصة في كيفية تحقيق واجباتهم ومن ثم يبلغون السلطة العليا. لقد ترك «الكساندر» القتال يجري من تلقاء ذاته إذ فشل في تقدير «باتون» والجندي الامريكي حق قدرهما ولم يستطع السيطرة على «مونتغومري». وربما كان من الصعب ان نقول هذا عن رجل مدهش كـ «الكساندر»: لكننا قد نرى له بعض العذر لأنه كان قد فقد رئيس أركانه «ماك كريري» ولم يكن حتى ذلك الوقت قد فاز بـ «هاردينغ» كي يحل محله.

أما وقد تخلص «باتون» أخيراً من القيود التي كانت تحد حريته فانه شن بكل نشاط وحيوية هجومه الشامل على «بالرمو» ولكي يصل إلى هذا الهدف أنشأ فيلقاً مؤقتاً تحت قيادة «كيز» بحيث تندفع الفرقتان ٨٢ و٣ باتجاه «بالرمو» من الجنوب والجنوب الشرقي، وتنطلق الفرقة المدرعة الثانية في إثرهما بحيث تكون متأهبة لتسديد الضربة النهائية للبلدة ـ أثناء ذلك يزحف فيلق «برادلي»، والفرقة الخامسة والأربعون في جناحه الغربي، إلى الشمال لقطع الطريق الساحلية ولمجاراة ميسرة «مونتغومري». استسلمت المدينة على الوجه المطلوب في ٢٢ تموز ودخلها «باتون» ظافراً مع الفرقة المدرعة الثانية ليتخذ مقراً له في القصر الملكي الواقع في بقعة رائعة في البلدة، فأبرق «الكساندر» مهنئاً بهذا الانجاز الرائع وإذا حكمنا على هذه العملية كمظهر من مظاهر المهارة التكتيكية وعملاً من أعمال هيئة الأركان العظيمة ندرك ان الزحف على «بالرمو» كان مناورة ممتازة نفذت بكل براعة، فخلال أربعة أيام، والمشاة راكبون في الدبابات في جو حار للغاية، تمكن الفيلق، بمواجهة بعض المقاومة من قطع مسافة ١٠٠ ميل ولم يكلفه ذلك إلا ٣٠٠ إصابة لكنه أسر ٥٣,٠٠٠ أسير. في ٢٣ تموز قامت فرقة «برادلي ٤٥» بالزحف على الشاطىء الشمالي إلى الشرق تماماً من «ترميني امريس» وهكذا أصبحت الجزيرة مقسومة إلى نصفين فهللت الصحف الامريكية بهجة وحبوراً، لقد أعطيت الحرية أخيراً لجيشهم فأظهر حينذاك ما يستطيع فعله. كان الجيش السابع قد حصل بهذه العملية على ميناء

عميق المياه يمكنه ان يستقبل سفناً آتية مباشرة من الولايات المتحدة، بعدئذ أعيد الجنود الصقليون إلى بيوتهم، أما باقي السجناء فقد حققوا ما كانوا يحلمون به طيلة حياتهم - رحلة مجانية إلى الولايات المتخدة. ومن المؤسف سرد قصة هذه المناورة الرائعة إذا حكمنا عليها استراتيجياً لأن ذلك مضيعة للوقت - وقت قضاه «هيوب» مع الفرق الأربع لفيلق «البانزر ١٤» التي استخدمت بكل مهارة لاستغلال المرافق الدفاعية الممتازة في موقع «اتنا» لايقاف زحف «مونتغومري» والتخطيط للانسحاب من الجزيرة بصورة تدريجية بطيئة فقد جاءت الأوامر من «كسلرينغ» باخلاء الجزيرة. سقط «موسوليني» في ٢٧ تموز وكان الألمان بحاجة إلى بعض الوقت لاعادة السيطرة على الوضع المائع في ايطاليا عسكرياً وسياسياً.

لقد خسر «الكساندر» بسبب تصرفاته حيال الجيشين السابع والثامن غير المشجعة آخر فرصة حقيقية له كي يطوق الحامية الألمانية ويقضي عليها وأخذ بدلاً من ذلك يندد بكل من «باتون» و«مونتغومري» لكونهما قاما بمباراة بطيئة عنيفة تفتقر إلى المهارة، مباراة لعباها ضد ما وصف حقاً بأنه من طراز «مركز توروز فيدراس»، مباراة لعب فيها الألمان إلى حد بعيد دور من يعطي الاشارة. ولم يكن هناك، مجال قليل للمناورة بالنسبة لـ «باتون» أو «مونتغومري». وهكذا بدأ الزحف نحو «كاتانيا» من جديد في مطلع شهر آب ضمن تشكيلة كان الفيلق الامريكي فيها إلى اليسار والفيلق البريطاني الثلاثون في الوسط والفيلق الثامن إلى اليمين وقد أحرز كل من الأمريكان والانكليز تقدماً ثابتاً غير مثير وباهظ الثمن في وجه مقاومة ماهرة مريرة غير ان معركة الفرقة الأولى في «ترينو» كانت بصورة خاصة كئيبة للغاية. أما الجيش السابع فقد كانت فرقتاه الأولى والخامسة والأربعون في الطليعة أولاً ثم حلت محلهما فيها بعد الفرقتان الثالثة والتاسعة. ولتسهيل مهمة «برادلي» قام «باتون» بتشكيل ثلاث كماشات برمائية رغم انه لم يكن يوجد من قوارب الانزال إلا ما يكفي لحمل فوج واحد. أجهضت الكماشتان الأولى والثانية أما الثالثة فقد فشلت فقط في «برولو» في ١١ آب، وبعد تكاليف باهظة، في إيقاع عدد لا بأس به من الألمان في فخها.

لقد أدهش الامريكان الانكليز في مجال واحد. إذ لم تكن هناك قضية أعارها «مونتغومري»، شأنه هنا شأن «ولينغتون»، اهتماماً أقل من قضية الملابس والتفاصيل التافهة المختصة بساحة الثكنة. فقد كانوا يقاتلون براحة كبيرة نسبياً وهم يرتدون ملابس خفيفة عادية بل حتى يقال إن الجيش الثامن بدا أشبه بمخيم غجر كبير على أهبة التحرك أو أشبه بهجرة قبلية. بيد ان «باتون» كان يصر على ارتداء قمصان وبناطيل سميكة

مطابقة للتعليمات وأغطية جلدية للسيقان بل وخوذ أيضاً تحت شمس صقلية المحرقة. وقد اهتم بالامر بنفسه اذ كان يسارع من مكان إلى آخر على صهوة جواده وسط سحابة من الغبار ليتأكد من الانصياع للتعليمات وتطبيقها بحذافيها. كان يطوف كل يوم الجبهة من أقصاها إلى أقصاها بسيارته المزينة بما يسر النظر من الأوسمة والنجوم الكبيرة وبصحبة حاشية تلفت الأنظار وتترك انطباعاً جميلاً في النفوس. كان الجميع وبغض النظر عن رتبة كل واحد منهم، يشعرون بسلاطة لسانه: وكان يبدو، غالباً، في حالة غضب واستياء، وكأنما كان مصمماً ان يجعل كل انسان يتخذ نفس الروح الهجومية التي تلتهب داخل جوانحه. كان يبدو قاسياً لا يرحم. وكان يبدو لبعض نقاده وكأنه يحاول، بلغته العامية الخاصة، ان ينافس فردريك الكبير الذي صاح في لحظة من لحظات القتال وهو في حالة غضب شديد، بجنوده المتعثرين المترددين قائلاً: «أيها الكلاب هل ستعيشون إلى الأبد»؟ هنا لا بد أن اذكر بعض الكلمات التي كان يستخدمها «باتون» مدعياً انه هو نفسه كان: «أفضل حمار لباط في جيش الولايات المتحدة بأسره» ولا ريب ان هذا الوصف صحيح ولا جدال فيه على الاطلاق. إذ حينما كان بعض الجنود الضعاف يمشون بتثاقل نتيجة الوهن والارهاق ويتحرقون شوقاً لرؤية امهاتهم وبيوتهم كان «باتون» يوجه إليهم ملاحظاته القاسية التي تجرح الاحساس، وقد وجهت إليه انتقادات أخرى معادية من أوساط متعددة. وطبقاً لما يقوله «برادلي»، لم يكن «باتون» في صقلية معبود رجاله كما أصبح في ما بعد وهو مع الجيش الثالث في أوروبا. انما هناك حقيقة بارزة وهي انه عندما غادر صقلية آخر الماني في ١٧ آب كان «باتون» قد أنشأ جيشاً على هواه، جيشاً عركته الحروب، بارعاً على الصعيد العسكري، مقداماً، يندفع بالمبادرة ويتحلى بحس غريب بالدعابة والشهامة التي حببته إلى الانكليز، اضافة إلى انه لم يكن لهذا الجيش نظير أبداً فيما يتعلق بتصميمه على نيل الظفر.

في تمام الساعة العاشرة من ذلك اليوم، وصل «باتون» وسط سحابة من الغبار إلى قمة الجبل المشرف على «مسينا» وصاح بالجند: «بحق الشيطان ماذا تفعلون وانتم واقفون هنا؟» ثم وقف في طليعة موكبه واندفعوا جميعاً كالسيل الهادر داخل المدينة، يرافقهم اطلاق نيران المدفعية من البر الداخلي وبذلك سبق «باتون» الانكليز بفترة قصيرة وفي الوقت الذي كان يتقبل، وهو في منتزه كبير، استسلام المدينة، دخل رتل من الجيش البريطاني وهو يطقطق بأحذيته. لقد انتهت الحملة الصقلية.

على الصعيد الاستراتيجي حقق الحلفاء خلال ٣٨ يوماً الأهداف التي اتفقوا عليها. ففي المجال البحري تمت السيطرة الكاملة على البحر الأبيض المتوسط. ورغم

نكران «ستالين» للجميل فقد تم اجتذاب فرق وقوات جوية المانية إلى الغرب فابتعد بذلك عن الجبهة الروسية. أما سياسياً فإن هزيمة الحامية الايطالية المتمركزة في صقلية عجلت بسقوط موسوليني وفي النهاية عجلت بخروج ايطاليا من الحرب. كما أظهر الانزال الاقتحامي انه يمكن، اذا توافرت الأعتدة الحديثة، القيام بهجوم على ساحل حصين للعدو وفي وجه مقاومة عنيفة. إنها عملية ممكنة الانجاز. كذلك تحقق الشروع في تطوير القوات المجوقلة (المحمولة جواً)، رغم سوء الطالع الذي رافقها، إضافة إلى المساندة الوثيقة للجيش من الجو. بيد أن العمليات استغرقت مدة أطول بكثير مما يجب ولذلك تمكن فيلق «البانزر ١٤» من الانسحاب من الجزيرة بجميع أجهزته عملياً ، أما فيما يتعلق بهذا الفشل الجزئي فالواقع انه لا يمكن تحميل «باتون» أية مسؤولية.

بما ان القادة المنوطة بهم عملية الانزال كانوا حتى أواسط شهر أيار ما يزالون منهمكين تماماً بانهاء آخر مراحل معركة تونس فان التخطيط الفعلي قد بدأ متأخراً: وحتى ذلك الوقت كان الكثير من التخطيط في أيد غير خبيرة، الأمر الذي أسفر عنه بعض الخلل على صعيد الادارة والتموين. فحتى ذلك الحين، كان يتخذ القرارات الجوهرية قادة يقيمون في مراكز يبعد بعضها عن البعض الآخر مئات الأميال، إذ ظل مقر قيادة الكساندر نفسه في تونس حتى الأسابيع الأخيرة من شهر تموز قبل ان ينتقل إلى الجزيرة وحتى النهاية كان «تدر» يقوم بمحاولات جبارة للسيطرة على القوات الجوية من شمالي أفريقيا، كما كان مقر قيادة «كنينغهام» في مالطا ومقر قيادة «آيزنهاور» في الجزائر. وهكذا نرى انه لم يكن بالامكان الموافقة على القرارات العاجلة مما أسفر عن ذلك عدم رسم خطة مشتركة لايقاف الجلاء الألماني عن الجزيرة. كانت كل قوة من القوات الثلاث (البرية والبحرية والجوية) تعمل ما تراه مناسباً، مستقلة بعضها عن بعض. وبوجه خاص كانت العمليات الجوية، ومن البداية حتى النهاية، غير منسقة تنسيقاً تاماً مع البحرية والجيش، فنجم عن ذلك ان جهود الطائرات الهادفة لمساعدة الجيش كانت تدل على التهاون وعدم الاكتراث وغالباً ما كانت تخطىء أهدافها. كان «كنينغهام» مقتنعاً انه كان بامكانه استخدام قوات بحرية أكبر بكثير لو طلب منه ذلك. ومنذ اللحظة التي سمح فيها «الكساندر» لـ «مونتغومري» في ١٣ تموز بتغيير الخطة الأصلية وتبني هجوم مزدوج على جانبي جبل «اتنا» واختلاس الطريق (١٢٤) من «باتون»، حكم على الحملة بأن تأخذ مجراها البطيء المتثاقل، فالواقع ان شخصية «مونتغومري» كانت أقوى من شخصية «الكساندر» ـ وكان أصفى ذهناً بالاضافة إلى كونه أكثر قسوة وأقل ضميراً عند التنفيذ. كما أنه كان يتدفق حقداً وضغينة أثناء الحوار، والحقيقة انه لم يكن هناك من

يستطيع اغلاق فمه إلا «ألانبروك» ، و«ألانبروك» لم يكن موجوداً.

أما القوات المحاربة نفسها ـ فيلق «البانزر ١٤» والجيش الثامن والجيش السابع فقد خرجت جميعاً من العمليات بامتيازات متعادلة. فإذا حكمنا على العمليات كمظهر من مظاهر المقدرة المهنية علينا ان نعتبر دفاع «هيوب» عن خط «اتنا» وما تلا ذلك من انسحاب عبر المضيق من روائع العمليات التكتيكية. أما الجيش الثامن فقد احتفظ بالسمعة التي سبق ونالها، بينما أظهر الجيش السابع للعالم ما يستطيع الجندي الامريكي ان ينجزه إذا كانت قيادته جيدة. على انني أرى أن المأساة العسكرية الحقيقية في الحرب هي انه يطلب من جنود يتحلون بفضائل عسكرية جمة مشتركة ان يقاتل بعضهم بعضاً.

في ذلك الحين أصبح الجيش السابع بين جيوش الحلفاء لا نظير له يتمتع بشخصية خاصة ويبلغ تعداده أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ رجل. كانت خسائره في المعارك الأخيرة زهيدة نسبياً: ٧,٤٠٢ (بينما بلغت خسائر الجيش الثامن ١١,٨٤٣). في عملية الانزال الفعلية تحمل الجيش السابع، عملياً، الثقل الكامل للهجمات المضادة وتمكن خلال ٧٢ ساعة من اقامة رأس جسر قوي، ولما حرم هذا الجيش من تطلعاته فيما يتعلق بالاندفاع نحو «مسينا» تحول، بسرعة البرق، نحو «بالرمو» وشطر الجزيرة إلى شطرين ثم استدار شرقاً وهو يقاتل في كل شبر متقدماً في بلاد جبلية وعرة إلى ان وصل «مسينا» قبل الجيش البريطاني ولسوف تبقى اسماء «غلا» و«سكوغليتي» و«فيتوريا» و«اغريغنتو» و«جسر بيازا» و«سان فراتلو» و«تروبينو» و«رانداوزو» و«برولو» إلى الأبد تذكر بالصبر والمهارة والجلد التي تحلى بها المشاة الامريكان بمساندة قوية من المدفعية. ومن الجدير بالذكر ان الأراضي الوعرة لم تسمح للفرقة المدرعة الثانية بالقيام بأعمال على نطاق واسع ولكن اندفاعها نحو «بالرمو» خلال ثلاثة أيام يعتبر انجازاً عظيماً. كما يجب ألا ننسى الجهود التي بذلها المهندسون ورجال الإشارة ورجال الخدمات المتعددة إذ أنهم جميعاً دعموا جهود حملة السلاح. لقد أبعد الكثير ممن لم يكونوا يتمتعون بالكفاءة اللازمة، وعلى جميع المستويات بدأ القادة الحقيقيون في كل من القيادة والأركان يبرزون. كانت المعنويات عالية. والواقع ان «باتون» تمكن من ان يدمغ كل رجل في جيشه تقريباً بدمغة شخصيته الخاصة المحبة للهجوم، شخصيته التي تفيض بهجة وسروراً وإرادته المصممة على الانتصار، أما وأنه كان يعمل أحياناً بأساليب تبدو وكأنها قديمة فلم يكن لذلك أية عواقب: المقاتلون يتوقعون ان يقودهم قادتهم إلى النصر، فاذا استطاعوا ان يحققوا ذلك يمكن ان يغفروا لهم كل شيء آخر. هكذا أصحاب الأسهم في شركة من الشركات، ما داموا يحصلون على أرباح من أسهمهم فإنهم يطلقون الحرية لمدير الشركة عن طيبة خاطر ليغدو وكأنه متراسهم

كذلك كان شأن «باتون» في المنطقة المتقدمة الذي أصبح يبدو للجميع وهو يرتدي حلته الرسمية الأنيقة ومسدساته ذات القبضات العاجية ونجومه الضخمة وحاشيته المسرحية معبود مصوري الصحافة والصحف الشعبية في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، كما أخذت القصص التي تتحدث عن فطنته تدور على الألسن في جميع وحدات الجيوش المتحالفة، ومما لا شك فيه انها كانت عرضة للتضخيم والمبالغة. لقد أصبح «باتون» النجم اللامع وقائد الجيش الظافر، أعظم جنرال مقاتل في الولايات المتحدة كلها. كما أن طلبه بأن يتسلم زمام القيادة، أثناء الجهود الهائلة التي ستبذل في شمالي غربي أوروبا أصبح أمراً مفروغاً منه لكننا سرعان ما سنرى كيف يمكن للشهرة الجوفاء أن تكون سريعة الزوال حين يتعين على المرء أن يبحث عنها في فوهة المدفع.

الفصل السابع

حادث يؤسف له

الشر الذي يفعله الانسان يظل بعده
أما الخير فغالباً ما يوارى معه في التراب.
يوليوس قيصر

كان لهب الحياة والعواطف الجياشة داخل «باتون»، كما هو شأن «تشرشل»، يشتعل بقوة أشد بكثير مما هو لدى الرجل العادي. كان كل منهما يتصف بعفوية ارستقراطي القرن الثامن عشر والافتقار للتحفظ وذلك دون ريب، هو الذي جعلهما على ما هما عليه. بعد سقوط «مسينا» في ١٧ آب جاء ذلك الشعور المضاد أو الهبوط من الذروة التي بلغها الناس: ففي تلك الليلة سجل «باتون» في مفكرته: «حسناً، أشعر بانحطاط عام». ولا غرو في ذلك فرد الفعل الناتج عن نشاط عقلي وبدني شديد تجاه حالة من العطالة هو رد بالغ الصعوبة.

«حصلت على وسام صليب الخدمة الممتاز الثاني ليلة أمس وأنهيت حرباً. أشعر أن الإله كان كريماً للغاية معي، ولو كان علي أن أخوض غمار تلك الحملة مرة أخرى لما أجريت أي تعديل على ما فعلته. . .»، والواقع أن «باتون» رغم انه لم يكن قد أدرك ذلك بعد، كان قد ارتكب ما يمكن ان يوصف، في أفضل الحالات، بأنه خطأ فادح في الحكم على الأمور، خطأ كاد يدمر حياته كعسكري، وكاد بما ألقى من لُطَخ على سمعته، أن يؤدي إلى ضياع فرص استراتيجية في كل من فرنسا وايطاليا ـ فرص لو استغلت جيداً لأمكن انهاء الحرب في أوروبا سنة ١٩٤٤ ـ لقد ضيع تلك الفرص قادة يفتقرون إلى عبقريته التكتيكية ومقدرته على بث النشاط والحيوية في قلب الجندي الأمريكي بحيث يبذل جهوده القصوى.

في صيف صقلية الشديد الحرارة والكثير الغبار صادف «باتون» في مستشفى لاجلاء المرضى مشكلة انسانية لم يحسن فهمها تماماً وكان حله لها خاطئاً. إذ دون أن يدرك خطورة ما في عمله من إساءة بالغة للمشاعر الانسانية، عرض نفسه لفضيحة وملامة قاسية حين استشاط غضباً وقام بالاعتداء على بعض الجنود الذين كانوا جبناء، حسب رأيه. وإننا حين نحكم الآن، على ضوء الخبرة المتعلقة بطبيعة الخوف والاضطراب العصبي الناتج عن المعركة، تلك الخبرة المكتسبة من جميع الجبهات البريطانية والامريكية في الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ندرك بأن إساءته كانت فظيعة.

لقد اتفقت الجهات الطبية في كلا البلدين حين حلت نهاية الحرب على انه بالمقارنة مع الحرب العالمية الأولى فقد كان الرجال «أقل فزعاً من مخاوف الحروب». ففي الجيش الثامن بلغت نسبة المصابين «بالعصاب الناتج عن المعارك» ١١٪ من أصل مجمل الاصابات وعلى ما يبدو فان الاصابات في الجيش السابع كانت مماثلة تقريباً. وقد تراوحت هذه الاصابات ما بين متهرب عمداً من المسؤولية يفضل استبدال خطر القتال بحكم السجن، وضحية حقيقية لما كان يوصف فعلاً «بصدمة القذائف» أو «سعادة القنبلة». وبصورة عامة فان أساس الخوف على ما يبدو هو الشعور بالخطر. هذا الأمر، في حد ذاته، مفيد، إذ أن من يعي وجود خطر يتخذ خطوات لتجنبه بشكل آلي. لكن عندما يسيطر الخوف على الذهن، عند ذلك فقط يصبح مضراً. والحقيقة ان هناك توازناً بين الشجاعة والجبن لدى جميع الناس ومن المحتمل ان يصاب أي انسان بانهيار عصبي عندما يصبح التوتر شديداً إلى حد كاف، لكن من البديهي أن الجندي الجيد التدريب المحافظ على النظام والذي يتمتع بقيادة جيدة ويحترم نفسه، غالباً ما يسيطر على مخاوفه بصورة أفضل بكثير من الجندي غير النظامي أو غير المتوازن سيكولوجياً. فمن المحتمل ان ينهار هذا بسرعة أكبر عندما تظهر على النوع الأول (الجيد التدريب) علامات التوتر والتعب الناجمة عن القتال الذي قد تكفيه إستراحة قصيرة، يعوض فيها ما فاته من النوم، لكي يستعيد فعاليته، مع ان البعض قد يحتاج إلى راحة أطول: أما الأغبياء والعصبيون منذ ولادتهم - وبديهي انهم يشكلون عبئاً ثقيلاً - فيجب صرفهم لئلا يتسببوا في نقل العدوى إلى الآخرين. ولعل الكثير من فن القيادة عند احتدام الصراع مع العدو يكمن في المقدرة على ملاحظة علامات التوتر القتالي في حينه، ورغم ان الموضوع معقد والتعميمات على هذا الصعيد خطرة إلا أننا يمكن ان نقول إنه كلما كانت النصائح الطبية المتوافرة لدى القادة، جيدة، وكلما احسنوا استعمالها، كلما ازداد احتمال المحافظة على الروح المعنوية في القتال بصورة عامة أكثر وازداد الاحتمال باقامة العدالة بين جميع

الأفراد، غير أن هذه لم تكن وجهة نظر «باتون».

فالرجل كان من أبناء الحرب العالمية الأولى، أهواؤه هي نفس أهواء جيله من الجنود الانكليز والامريكان: «كان يعتقد انه لا يجوز لأي انسان ان ينهار في المعركة. ولا ينبغي السماح له بذلك. كان «باتون» يعتقد ان الشجاعة والجبن خياران مفتوحان أمام كل انسان بغض النظر عن ضغوطه العاطفية، وأكثر من هذا فقد كان يؤمن بأن لدى كل انسان القوة الكافية لأن يختار أحدهما. على أن اظهار الجبن أثناء مواجهة العدو هو النذالة بعينها: اذن فكل ما يتم تحقيقه لانقاذ البشرية من هذا التحقير يعتبر عملاً عادلاً، له ما يبرره وبدون أي شك يعتبر انجازاً رحيماً. كما كان يؤمن أيضاً بأن: «أعظم سلاح ضد ما يسمى» بارهاق المعركة «هو الهزء والسخرية. فحين يدرك الجنود ان نسبة كبيرة من الرجال الذين يزعمون انهم يعانون من «ارهاق المعركة» انما يستخدمونه بالحقيقة كذريعة سهلة لترك القتال، فان تعاطفهم معهم سيقل كثيراً. والواقع أن كل من يدعي بأنه مصاب بارهاق المعركة يحاول تجنب الخطر بالاضافة إلى إجباره من يتمتع ببسالة أكثر منه بوجوب الشعور بهذا (الارهاق). لكن إذا بدأ الجنود يسخرون ويستهزئون ممن يشرع في إظهار علامات هذا الارهاق، فانهم، دون ريب، يمنعون انتشار ذلك الوباء بالاضافة إلى انقاذ الرجل الذي يحاول ان يتظاهر بالمرض بهذه الوسيلة، من حياة مستقبلية كلها مهانة وندامة».

ومهما يبد ذلك غريباً بالنسبة للأجيال اللاحقة فان الكثير من الضباط البريطانيين والامريكان اضافة إلى العناصر القاسية من جنود الجيش بل وحتى عامة الشعب كانوا يحملون وجهات نظر مشابهة في ذلك الوقت.

ولعله ما من شيء يوضح تماماً الثغرة العاطفية الواسعة التي تفصل الأوروبيين عن الامريكيين الشماليين أكثر من موقف كل منهم إزاء الاصابات التي تحدث في المعركة وجائزة «القلب الكبير»، ربما باستثناء تشديد الامريكان على التخلص من البقايا المنظورة لمن سقطوا في القتال. كان «باتون» في صميم قلبه رجلاً عطوفاً حنوناً وكريماً: كان يكره المستشفيات إنما كان يجبر نفسه على مواجهة رجال دون أقدام وأذرع أو عميان أو مشوهين، لكن من الجدير بالذكر ان قلة من القادة فقط هم الذين قاموا بما اعتبره هو واجبه، بشكل أكثر جدية أو صرفوا وقتاً أكثر منه في التجوال في أجنحة المرضى وذلك «لأنه كان يشاهد في جراح الجنود المضمدّة وسام الشجاعة الممتاز الذي كان يحمل له أعظم احترام». أولئك هم الرجال الذين كان باستطاعته ان يفهمهم. فقد كان يمازحهم

ويتحدث معهم ويشبك على صدورهم أوسمة (القلوب الكبيرة «الأرجوانية»). وكان يلقي في كل جناح كلمة جماعية مثيرة. بل إنه في إحدى المناسبات قلد أحد الغائبين عن الوعي الوسام وهو راكع بجانبه (شبك الوسام على المخدة) ثم همس في أذنه شيئاً ما ووقف باستعداد بينما كان ذلك الرجل يحتضر وقناع الأكسوجين على وجهه. وغني عن البيان انه ما من عين شاهدت ذلك المنظر إلا وانهمرت منها الدموع. ومن الجدير بالذكر إن «نلسون» في أيامه، تصرف تماماً مثل هذا التصرف. إننا قد نشك بحكمة «باتون» انما ليس في إخلاصه: لا شك ان العبء العاطفي الذي حمله هذا الرجل وقد بلغ من العمر ستين سنة كان ينوء بحمله الكثيرون، خاصة وهو يقاتل في جو شديد الحرارة وفي حالة من التوتر الشديد في الأيام الأخيرة من الحملة الصقلية.

تذكّر أيها القارىء الكريم، ان «الكساندر»، كان قد قرر في ٢٥ تموز ان يعطي للامريكان فرصة القتال على قدم المساواة مع الانكليز كما انـه حدد وقت الهجوم الجديد ألا وهو اليوم الأول من شهر آب. لذلك أمر «باتون» فيلق «برادلي» بأن يندفع شرقاً على طريق «سان ستفانو نيكوسيا» وعلى محورين، الطريق العام الشاطىء رقم «١١٣» والطريق البرية الموازية رقم «ـ ١٢» الممتد من «نيكوسيا» إلى «رانداوزو» كذلك قضت الأوامر بأن يكون «الاندفاع مستمراً ودون هوادة أو رحمة حتى ينهزم العدو هزيمة حاسمة»، لم تكن المهمة تدمير «هيوب» وفيلق «البانزر ١٤» وحسب بل كان ينبغي أيضاً أن يصل الجيش السابع إلى «مسينا» قبل البريطانيين.

كانت الفكرة المثالية بالنسبة لعمليات الحلفاء هي ان المصلحة العامة يجب ان تلغي جميع الاعتبارات الأخرى سواء كانت قومية أو فردية: ويجب ان ترتفع الأمم فوق مستوى نادي مساندي لعبة كرة القدم، والواقع انه خلال الحرب العالمية الثانية، قلما حصل شيء في ما يتعلق بالمنافسات بين الدول، أما في ما يختص بـ «باتون» فقد كانت تمتلك ذهنه فكرة أثارتها أربعة عوامل سيطرت أيضاً على جميع أفكارهالأخرى:

العامل الأول: حب الوطن: مهما تكن النفقات فينبغي ان يربح الجيش الامريكي ويجب ان يرى العالم بأسره ان الجيش الامريكي أفضل وأشجع جيوش العالم، تلك كانت أيضاً مشيئة سيده، شعب الولايات المتحدة، كما كان يعبر عنها الراديو والصحف.

«ثانياً»: وكما سبق أن فعل «نابليون» كان «باتون» يشعر ان واجبه ان يغذي الشعب، صاحب السلطة، بكل أنواع الظفر والنصر.

«ثالثاً»: كان هناك أولئك الذين خدموا سابقاً في الحرب العالمية الأولى وقد قالوا إن

الجنود الذين حاربوا في صقلية كانوا يفتقرون، على الرغم من تدريبهم الأفضل، إلى الحماس القتالي الذي تمتع به أسلافهم، اذن ينبغي ان يقدم لهم الدافع الذي يؤدي إلى النجاح. وأخيراً كان هناك عنصر التنافس المهني مع «مونتغومري». فقد كان كل منهما سيد الجانب المسرحي لمهنته، مع اختلاف كبير في الأسلوب انما ليس في النية والهدف. وبشكل غير جدّي، كان الكثير يقولون ان عمل «مونتغومري» مدين بالكثير لاجتماع المعسكر، أما عمل «باتون» فمدين لميلودراما أوائل القرن العشرين. إننا جميعاً نعرف المنافسات والحساسيات التي تظهر على خشبة المسرح، وضمن الجيش يمكن ان يختل توازن هذه المنافسات والحساسيات أيضاً. إذن يجب ان تصبح صورة «باتون» هدفاً للإطراء المبالغ به أما صورة «مونتغومري» فيجب ان يصغر حجمها. وبهذه الأفكار التي سيطرت على ذهن «باتون» اندفع في هجومه الجديد.

في اليوم الثالث من شهر آب وعلى طريق راندوزو مقابل «ترووينو»، لم يكن كل شيء على ما يرام بالنسبة للفرقة الأولى. ففرقة «غرينادير البانزر ١٥» كانت تحارب بمهارة فائقة اكتسبتها في حربها مع الانكليز منذ سنة ١٩٤١ وقد برعت في استغلال الأرض مما اضطر الامريكان لأن يركزوا جهودهم على التقدم عبر الجبال وصعدا في الأودية الخالية من أي غطاء وعلى مرأى كامل من مراقبي المدفعية الألمانية المتمركزين في المرتفعات. لم يكن التعاون مع السلاح الجوي يسير سيراً حسناً: فقد حصلت حوادث كثيرة قصف فيها الطيارون جنودهم كما ألقوا قنابل على مقر قيادة للفيلق البريطاني يقع إلى يمينهم. وكانت هناك نسبة مقلقة من الرجال لا تبدو عليهم أية علامات جروح بين سيل الرجال المتزايد الذي كان يتدفق إلى المؤخرة. وكان لهذه الفرقة سجل قتالي حافل أطول من سجل أية فرقة أمريكية أخرى، كما كان لها خصائصها وميزاتها الخاصة وكانت في وضع خطر يميل لأن يجعلها جيشاً خاصاً يستخف بالقوات الأخرى إضافة إلى كونها مزاجية لها قانونها الخاص ومصابة إلى حدّ ما بالشفقة ـ على الذات. كان الجنود مرهقين، ومما زاد الطين بلة ان قائدها كان «ألن» ونائب القائد، «روزفلت»، وكلاهما شجاع مبدع، انما كانا على خلاف دائم ولكل منهما أشياع وموالون في الفرقة. ولعل ما أثر عن إرادتيهما في أن يبذلا أقصى الجهود إنما هو إدراكهما بأن الفرقة التاسعة سوف تحل محل فرقتهما بعد وقت قصير. اضطرب «باتون» كثيراً بسبب هذا الفشل والتوقف وشرع يجوب في الجبهة طوال النهار، لقد تأثر كثيراً بسبب الخسائر في الأرواح والمعاناة التي كان يتكبدها الجنود. ولم يرفع من معنوياته بالتأكيد مرأى رجل قطعت قمة رأسه وهو يوشك على الموت.

في اليوم الثالث من شهر آب وبينما كان «باتون» في منطقة الفرقة الأولى وبصحبته

«لوكاس» الذي كان «آيزنهاور» قد أرسله ليحضر له تقارير عن العمليات، صادف ان دخلا خيمة الاستقبال في «مستشفى الاجلاء» رقم «١٥» حيث بدأ الروتين الاعتيادي - حمد وثناء واظهار للتعاطف ثم تعليق أوسمة «القلوب الكبيرة.(الأرجوانية)». بعدئذ وصل في جولته إلى جندي من السرية « ل » من فرقة المشاة «٢٦» كان قد وصل من توّه إلى المستشفى وتم تشخيص مرضه حالاً فتبين أنها «حالة من القلق العصبي النفساني» - متوسطة الشدة. وعندما سأله «باتون» عن علّته أجابه الرجل «أظن أنني لا أستطيع تحمل القتال». ويقول «لوكاس» «كل من يعرف جورج (باتون) يدرك ما يعني هذا الجواب له»، فقد استشاط غضباً وصفع وجه الرجل بقفازيه. وبعد انتهاء الحرب كتب «لوكاس» بأنه لم يكن يعتقد في ذلك الحين ان الأمر خطير. أنهى «باتون» التفتيش ثم تابع طريقه ليقوم بجولة على خط الجبهة، وفي تلك الليلة أرسل مذكرة إلى قادته قال فيها:

«لقد لفت نظري أن بعض الجنود يذهبون إلى المستشفى متذرعين بأنهم، لأسباب عصبيّة، غير قادرين على القتال. مثل أولئك، دون ريب، جبناء ويجلبون العار على جيشهم والشنار على رفقائهم الذين يتركونهم هكذا دون رحمة كي يتحملوا أخطار القتال بينما هم أنفسهم يستخدمون المستشفى كوسيلة لنجاتهم.

أرجو أن تتخذوا جميع الإجراءات لمنع أصحاب مثل تلك الحالات من الذهاب إلى المستشفى والعمل على معالجتهم داخل وحداتهم.

أما من يأبى القتال فيحاكم في محكمة عسكرية بتهمة الجبن أمام العدو. .»

عندما عاد «لوكاس» الى شمالي أفريقيا لم يفكر بأن لهذه الحادثة أهمية تستحق الذكر لدى «آيزنهاور». ويبدو أيضاً أن «باتون» لم يقلق لها لكنه اكتفى بأن سجّل في مفكرته: «وبّخته بعنف وصفعته بقفازيّ وطردته من المستشفى. . . أحياناً يضطر الانسان لصفع طفل كي يربيه» في ٩ آب شخّص مرض ذلك الجندي بأنه زحار مزمن وملاريا ويبدو ان هذين المرضين كادا يشكلان نسباً وبائية في الجيش السابع. لقد زاد عدد الجنود الامريكان الذين أجلوا إلى شمالي أفريقيا من صقلية وهم مصابون بهذين المرضين، على عدد الجرحى بحوالى ١٥٠٠ مريض - ولا شك بأن هذا العدد لا يشرف أولئك المسؤولين عن التخطيط للنواحي الطبية من الحملة.

عندما تخلى الألمان في ١٦ آب عن «ترويينا» المدمرة وخرجوا منها في الوقت المناسب بدقة وسهولة تامة كان على «باتون» ان يواجه الأمر الواقع وهو أن «هيوب» هو الذي يمسك بزمام الموقف وليس «باتون». ومما زاد في شدة سخطه التعليقات غير اللبقة التي

كانت ترتكز على أخبار مغلوطة وقد دأبت هيئة الاذاعة البريطانية على بثها ذاكرة بأن الامريكان كانوا يسمنون أنفسهم بأكل العنب والاستحمام في البحر بينما يتحمل الجيش الثامن جميع أعباء الحرب بالاضافة إلى الحرارة الشديدة في تلك الأيام. شعر «باتون» بأن «ألن» والفرقة الأولى قد خيّبا أمله! اذن ومهما كلف الأمر يتوجب على «ترسكوت» والفرقة الثالثة العاملة على المحور الشمالي أن يسددا ضربة حاسمة. فهو لم يأت إلى صقلية كي يسمح للألمان باغتنام الفرصة لإجراء بيان كلاسيكي عن كيفية تنفيذ الانسحاب بمهارة وحِنكة. نقل «باتون» وهو في هذه الحالة الكئيبة الساخطة مركز قيادته إلى حرج زيتون على الشاطىء يقع ضمن مدى المدافع الألمانية.

ولسوء الحظ، كان الألمان يتمتعون على المحور الساحلي، بفوائد تكتيكية: سلسلة جبال مشرفة، لا تقل عن تلك التي كانوا قد استغلوها بمهارة عظيمـة في «تروينا». اختار «ترسكوت» ان يوجه الجهد الرئيسي باتجاه الجناح الداخلي يساعده وسائط نقل حيواني مرتجل. إذن فالتقدم كان مرهقاً بطيئاً. بيد انه كان هناك خيار واحد لم يسمح لـ «آلن» به وهو انه كان يستطيع استغلال الجناح المكشوف على البحر وهذا ما أصر «باتون» على فعله.

إنه لانعكاس مذهل لبعد نظر المخططين في مقر القيادة العليا ان كل ما كان باستطاعتهم تقديمه لـ «باتون» من أجل عملية إنزال برمائي تهدف لقطع طريق ساحلية في مؤخرة العدو، ليس إلا قوارب إنزال تكفي لحمل كتيبة مشاة واحدة معزّزة لا أكثر. في ٨ آب وبعد تأخر مزعج أنزلت مجموعة كتيبة «برنارد» في «سانت اغاتا» - إنما في وقت متأخر إلى حد لم تستطع قطع الطريق على فرقة «غرناديير بانزر ٢٩» التي كانت تنسحب حسب ميقات محدد إلى جسر «ناسو». ولذلك أمر «باتون» بالقيام بعملية إنزال أخرى عند «برولو» في صباح اليوم العاشر من آب: انما كان حظه سيئاً، فقد تمكنت الطائرات الألمانية في المساء السابق من إغراق قوارب الانزال المخصصة لحمل القوة، واضطر لأن يؤجل العملية مدة ٢٤ ساعة. صباح ١٠ آب، وكان قد تأكد بأن أي تأجيل آخر سوف يؤدي إلى فشل ذريع آخر كما كان قد أدرك تماماً بأن «برادلي» و«ترسكوت» سيحتجان بأن عملية الإنزال سابقة لأوانها وان كتيبة «برنارد» ستدمر قبل ان تستطيع الفرقة الثالثة الاتصال به عند «برولو»، لذلك أصدر أوامره بأن تنفذ العملية في تلك الليلة ذاتها. وفي ذلك الصباح ذاته أيضاً وبموافقة من «باتون» كان على «برادلي» ان يقوم بواجب مؤلم بالنسبة له ألا وهو تسلـم زمام القيادة من «آلن» و«روزفلت» وهي ضربة يعتبرها الجندي الحقيقي أخف من حكم الإعدام بقليل. بهذه الأفكار انطلق «باتون» إلى مقر «برادلي».

حوالى الساعة ١,٣٠ ظهراً وهو في طريقه إلى الجبهة وقع بصر «باتون» على اشارات مستشفى الاجلاء رقم «٩٣» وبوحي هو ابن ساعته أمر السائق بأن يدخل.

ولكي نوفي جميع المعنيين حقهم وجدت ان من الأفضل ان أقص ما حدث طبقاً للسجلات الأمريكية الرسمية تماماً.

زار «باتون» مستشفى الاجلاء رقم «٩٣» (العقيد د. أي كرير) فجأة وعلى غير ميعاد حيث استقبله «الرائد تشارلس بانز»، الضابط المسؤول عن الاستقبال في المستشفى ثم أخذه إلى خيمة الاستقبال حيث كان قد وصل في التو خمسة عشر مريضاً من الجبهة. شرع «باتون» بالمرور على كل مريض منهم، يسأله عن مكان اصابته وكيف أصيب بها دون ان يقصر في المدح والثناء. وصل «باتون» إلى الرجل الرابع وكان جندياً من جنود البطارية « ت » من فرقة المدفعية الميدانية رقم «١٧» وكان هذا الشخص قد سبق وشخّص مرضه في مركز اخلاء بأنه يعاني من حالة شديدة من حالات «صدمة القذائف». كان الجندي منكمشاً على سريره وهو يرتجف، فوقف «باتون» أمام السرير، كعادته ثم سأل المريض عما به. أجاب الرجل «انها أعصابي». وبدأ ينشج باكياً بصوت مرتفع. عندها صاح «باتون» غاضباً: «ماذا قلت؟» فأجابه الرجل ثانية: «استطيع أن اسمع القذائف وهي آتية لكنني لا أستطيع سماع صوتها وهي تنفجر».

التفت «باتون» بفارغ الصبر نحو الرائد «إتر» ثم سأله: «عم يتحدث هذا الرجل ما علته ان كان هناك علة؟» تناول «اتر» لوحة المريض ولكن قبل ان يتمكن الطبيب من الرد على اسئلة «باتون» شرع هذا يهذي صائحاً: «أعصابك؟ يا للشيطان! لست إلا جباناً رعديداً، يا ابن الكلبة «الجبان». في تلك اللحظة دخل العقيد «كرير» مع طبيبين آخرين إلى خيمة الاستقبال وسمعا «باتون» يصيح: «أنت عار على الجيش. عليك ان تعود إلى الجبهة كي تقاتل رغم انك لست جديراً بذلك. بل ينبغي ان تقف إلى جدار كي يطلقوا عليك النار. كان جديراً بي ان أطلق عليك النار الآن. لعنك الله». قال «باتون» هذا وسحب مسدسه من قرابه ولوح به في وجه الجندي. بعدئذ، وبينما كان الرجل جالساً يرتجف في سريره صفعه بشدة بيده الأخرى واستمر يصرخ شاتماً لاعناً. عندما رأى «باتون» العقيد «كرير» صاح: «أريد منك ان تخرج هذا الرجل من هنا فوراً. لا أريد أن يرى أولئك الأبطال الشجعان مثل هذا اللقيط يصيح وكأنه طفل صغير».

أعاد «باتون» المسدس إلى قرابه وشرع في مغادرة الخيمة، لكنه التفت فجأة وشاهد الجندي يبكي. فاندفع نحوه وصفعه مرة أخرى وكانت الضربة شديدة بحيث أطارت

الخوذة التي كانت على رأسه فتدحرجت خارج الخيمة، لم يعد «كرير» يحتمل ذلك فوقف بين الجندي و«باتون» وهنا استدار «باتون» وخرج من الخيمة. بينما كان يغادر المستشفى قال «باتون» للعقيد «كرير» انني أرفض ان يبقى مثل أولئك الأنذال يتسكعون في مستشفياتنا، قد نضطر إلى إطلاق النار عليهم في يوم ما، أونكون قد أنشأنا جيلاً من البلداء ضعاف العقول».

ثم ترك منطقة المستشفى وهو ما زال ساخطاً يتمتم مشمئزاً من جبن الناس الذين يدعون انهم مصابون بصدمات عصبية ثم أردف: «ينبغي ألا يسمح لهم بالبقاء في نفس المستشفى مع شجعان الجنود». لكن في وقت لاحق أكد الطبيب النفساني التشخيص السابق لمرض ذلك الجندي.

بعد ذلك بوقت قصير وصل «باتون» إلى مقر «برادلي»، وقال: «آسف لتأخري يا «برادلي». لقد توقفت في مستشفى على الطريق. كان هناك بعض المتمارضين فصفعت أحدهم كي أجعله يثور ويتولد في داخله نوع من حب القتال. ولم تظهر على تصرفات «باتون» انه أعار أية أهمية لهذه الحادثة. أما ما كان يهتم به القائدان فهو عملية «برولو» إذ أن «باتون» كان مصراً على تنفيذها في تلك الليلة مهما كلفت من ثمن، أما «برادلي»، فقد كان، خشية فشل باهظ النفقات، يفضل التأجيل حتى اليوم التالي. لكن بما أن قوة «برنارد» كانت على وشك الالتحاق بقوات القطاع الشمالي للمركز الألماني الدفاعي، فان التأجيل يوماً آخر سيؤدي بالتأكيد إلى هزيمة شنعاء أخرى. ز لقد كانت عملية باهظة الثمن انما لها ما يبررها. فقد كان «باتون يفهم ما يجري في الناحية الثانية من الربوة أفضل بكثير مما كان كل من «برادلي» و«ترسكوت» يفهمانه.

بعد يومين كان «برادلي» يجلس في عربته المقطورة حين دخل «كين» رئيس أركانه مصحوباً بجرّاح الفيلق وقدم له صفحة مطبوعة، كانت عبارة عن تقرير شامل من العقيد «كرير» عما حدث في مستشفى الاجلاء «٩٣». ذهل «برادلي» لهذه الحادثة وسأل «كين» ان كان هناك آخرون قد شاهدوا ذلك التقرير فكان الجواب بالنفي. فأمره «برادلي» بأن يضعه في خزانة الحديد ويوصد بابها وألا يذكر ما فيه لأحد. أصبح «برادلي» في موقف محير للغاية. من الجلي، طبقاً لقوانين كل من الجيشين الامريكي والانكليزي أن على «برادلي» ان يرفع التقرير إلى رئيس «باتون» ـ وهو في هذه الحالة «آيزنهاور» وبذلك يكون قد تخطى «الكساندر» قائد مجموعة الجيوش الذي لا يتمتع لكونه انكليزياً بأي حق شرعي في مسألة تأديبية نظامية من هذا النوع. لكن اختار «برادلي» بدلاً من ذلك ان

يكون مخلصاً لـ «باتون» وألا يقوم بأي إجراء: صحيح إن البعض سيعتبرون موقفه هذا قبيحاً لكنه أكثر لياقة به كرجل، وقد يتصرف مثل هذا التصرف معظم الضباط الامريكيين والانكليز ان وجدوا في نفس الظروف. عندما سمع «الكساندر» بهذا الحادث اختار، عن تعقل، بأن يعتبره من حيث الجوهر شأناً أمريكياً من غير المناسب أن يبدي رأيه فيه فكيف بالتصرف. على ان فضيحة كهذه يكاد يكون من المستحيل إخفاؤها داخل جيش عامل. خلال يوم أو اثنين عرف جميع من كان في الجزيرة ان «باتون» هاجم جندياً في المستشفى، فحمل الصحفيون هـذه الأخبار معهم إلى شمالي أفريقيا. وقبيل ١٦ آب أصبح بين يدي «آيزنهاور» نفسه تقرير مفصل عن الحادثتين رفعه إليه مكتب أطبائه العام. إذن، في نفس اللحظة التي كانت فيها جيوش «باتون» على وشك دخول «مسينا» منتصرة وعندما كانت القوات الايطالية على وشك الاستسلام وكانت عملية أخرى من حجم كبير في «سالرنو» وشيكة الحدوث كان عليه ان يعالج مشكلة واضحة من مشاكل خرق النظام تتعلق بأشهر جنرالات بلاده المقاتلين. واتخذ «آيزنهاور» الطريقة الممكنة الوحيدة أمامه: فقد جلس وتناول اليراع ثم خط رسالة إلى «باتون» يطلب منه فيها ان يقدم خطياً الأسباب التي دعته للقيام بتلك الأعمال (من المعروف في الأوساط العسكرية، انه لا يطلب ذكر الأسباب كتابة إلا عندما لا تكون هناك أية أسباب). كانت كلمات الرسالة قوية لا لبس فيها ولا ابهام: «انني أدرك تماماً الحاجة للشدة والعنف في ميدان المعركة... أفهم بكل جلاء ان الاجراءات القوية الصارمة لازمة في كل آن لتحقيق الأهداف المرغوب بها. لكن هذا لا يعني الوحشية وتحقير المرضى أو اظهار السخط غير المتوازن أمام المرؤوسين». ورغم انه أظهر في الرسالة تقديره العظيم لخدمات «باتون» الرائعة أثناء الحملة الصقلية، تابع الرسالة قائلاً: «انه إذا كانت معظم الدعاوى المنسوبة له صحيحة فان عليه ان يمعن النظر فيها إذا كان سيصرفه من الخدمة أم لا» ثم أنهى رسالته بأن طلب من «باتون» أن يقدم التعويضات والترضية اللازمة بالاعتذار أو غير ذلك للأفراد المعنيين. وأخيراً وضح في رسالته بأنه: «لا يمكنه ان يتحمل التصرفات التي وصفت له في التقرير من أي انسان مهما سمت رتبتـه». وأخيراً جمع «آيزنهاور» ممثلي الصحافة وأخبرهم القصة المؤسفة كما عرفها وحدثهم عن الإجراءات التي اتخذها ثم أضاف بأنه سيرسل «لوكاس» مساعده الخاص، إلى صقلية، كي يتحدث مع «باتون» وممثلين اخرين لمعرفة ردود فعل مجندي الجيش السابع تجاه هذه الحادثة. لكن علينا هنا ان نعترف بفضل الصحفيين الذين وافقوا عن طيبة خاطر، بسبب الموقف العسكري الحرج وما قد يحدث من أثر عنيف لهذه القصة على شعب الولايات المتحدة، على ان

يكتموا هذه القضية. والواقع أن «آيزنهاور» لم يمارس عليهم أي ضغط مباشر أو أية مراقبة مباشرة: بل عملوا كأناس أحرار يدركون أنه ما من شيء يرفع من معنويات الألمان في هذه اللحظة الحرجة أكثر من معرفتهم بأن «باتون» «أفضل جنرال مظفر في الجيش الامريكي» على الاطلاق، قد صرف من الخدمة.

في ٢٠ آب، وبعد طعام الغداء، سلم «بلس»، رئيسّ جراحي «آيزنهاور» الرسالة إلى «باتون»، في مقر قيادته في القصر الملكي في «بالرمو». وفي تلك الليلة سجل «باتون» في مفكرته.. «من الواضح انني استعجلت في ما قمت به بسبب نقص المعرفة». أما الدافع الذي دعاني إلى ذلك فقد كان صحيحاً لأنني لا أستطيع التغاضي عن التمارض في هذه الظروف. إنه لا يختلف أبداً عن الأمراض المتفشية. إنني اعترف تماماً بأن أسلوبي كان خاطئاً وأنني سأحاول التكفير وتقديم الترضية اللازمة. وانني لآسف أشد الأسف على الحادثة وأكره كل الكره أن أثير سخط «آيك» (آزينهاور) بينما أشعر في صميم قلبي برغبة جامحة في ادخال السرور إلى نفسه». وصل «لوكاس» في ذلك المساء وتحدث مع «باتون» بلهجة لطيفة إنما قوية. وطبقاً لما سجله «لوكاس» في مفكرته «بدا (باتون) وكأنما قد نال عقابه وأصبح متأدباً تماماً راضياً بأن ينفذ كل ما اقترحته عليه بما في ذلك عدم العودة مطلقاً إلى مثل هذا العمل».

كان «آيزنهاور» قد أصر على ان يقدم «باتون» اعتذاراً علنياً. وطبقاً لذلك استدعي جميع أطباء وممرضي ومجندي مستشفى الاجلاء رقم «٩٣»، الذين كانوا شهود عيان على الحادث، إلى القصر الملكي في «بالرمو».

وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً وبعد حضور القداس في الكنيسة الملكية الصغيرة ظهر «باتون» أمام الجميع ليعبر عن أسفه على عمله الطائش. وبينما كان الجنود واقفين باستعداد تام شرع «باتون» يحدثهم عن قصة صديق له أقدم على الانتحار عندما أصابته نوبة من الكآبة والغم العظيم في الحرب العالمية الأولى. وقد شعر «باتون» بأنه «لو وجد حينذاك شخص أقدم على معاملته بعنف وشدة كي يرجع إليه بعض الحكمة والتعقل لأنقذ حياته». بعدئذ انتهى الاستعراض وصرف الجنود. وفي ما بعد تجول «باتون» في جميع فرق الجيش وألقى كلمة أمام كل فرقة تتضمن اعتذاراً آخر، وقد كتب في مذكراته عن كلماته:

«في معاملاتي لكم أخطأت في (مناسبات) كثيرة جداً، ربما أثناء الانتقاد أو التكلم بصوت مرتفع. إنني آسف لذلك وأود أن اؤكد لكم انني عندما انتقد أو ألوم أو أوبخ

أكون موضوعياً وغير ذاتي أبداً. إنني أقوم بذلك لأنني أعرف انه لو سمح لكم بأن تعملوا ما يحلو لكم وان تفشلوا في وقاية أنفسكم أو ان تفشلوا في جعل الطرق خالية فانكم دون ريب تعرضون أنفسكم للجراح وربما للموت. لكن مقابل كل رجل وبخته في الجيش، هناك الألوف ممن اثنيت عليهم غير أن الانسان يميل لتذكر الأخطاء أكثر بكثير من تذكر المدح والثناء. أريد منكم أيها الضباط ان تشرحوا للجنود الآخرين، الذين يعتقدون أنني أعنف مما يجب، الدوافع التي تدعوني إلى ذلك وان تعبروا لهم عن أسفي بكل حب وإخلاص».

وفي أوائل أيلول، في اجتماع عام لتقديم الشكر للسيد «هـ. ديفز» رئيس الصليب الأحمر الامريكي على المجهود الذي كان الصليب الأحمر يقوم به لخدمة الجنود، انتصب «تائب آب» (باتون) واقفاً على المنصة وقال: «لقد وجدت من المناسب ان أقف هنا أيها الأخوان كي تحكموا ان كنت فعلاً ابن الكلب الذي تتخيلونه أم لا». فهتف له الجمهور هتافاً بلغ عنان السماء. ولعل مشاعر الموجودين فيما يتعلق بالتمارض لم تكن تختلف إلا قليلاً عن مشاعره:

فمن خلال مصلحتها الذاتية، يغلب على مجموعة جند عاملة ان تعتبر الرجل الذي لا يستطيع تحمل جو المعركة جندياً غير كفء وتطرده تلقائياً بطريقة يمكن وصفها بأنها اما شفقة أو احتقار ـ وكلتاهما في النهاية تعني الشيء ذاته. ومع ان «باتون» لم يكن بالنسبة للجيش السابع، الذي كان جنوده يتصببون عرقاً وهم يرتدون القمصان الصوفية وأربطة العنق والأكمام الطويلة تحت شمس الصيف المحرقة، ذلك المثال المبجل الرائع الذي سيراه الجيش الثالث إلا أنه كان يبث في نفوسهم روحاً رائعة من الاحترام مع قليل من الوجل. دعنا الآن نقرأ ما كتبه عنه «جون ب. ماركواند»، المشهور بالحكم على السلوك والتصرفات، وبعد أن قابله لأول مرة:

«كان أطول وأكثر مهابة مما كنت أتخيله. والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى مسدسات ذات مقابض لؤلؤية كي تظهر شخصيته. أتذكر بأنني فكرت أن يديه كانتا، وعلى نحو غير عادي، أشبه بيدي فنان وأنهما شديدتا الحساسية وبالتالي فهما أبعد من أن تكونا يدي جنرال مقاتل، يستطيع الانسان ان يعرف بالغريزة وعلى الفور فيما إذا كان الشخص الماثل أمامه يتحلى بمواهب استثنائية أم لا، ومما لا شك فيه أن الجنرال «باتون» كان يتفوق تفوقاً عظيماً على جميع الأشخاص العاديين».

وصل رد «باتون» الرسمي على كتاب «آيزنهاور» الرسمي المؤرخ في ١٦ آب

والذي طلب فيه تفسيراً عن تصرفاته، في ٢٩ آب. وفي هذا الرد ذكر «باتون» أنه لم يكن ينوي مطلقاً «ان يظهر بمظهر التهور أو القسوة» في معاملته للجنديين. لقد كان نصب عينيه هدف فريد أوحد ألا وهو: «محاولة ترسيخ التقدير العادل لالتزاماتها كرجال وجنود». ثم أشار ثانية إلى قصة صديقه ذاك الذي أصيب في الحرب العاملية الأولى بانهيار في ظروف مشابهة والذي أقدم بعد معاناة العذاب والآلام المبرحة على الانتحار «وانني أذكر بهذه المناسبة أن كلاً من صديقي هذا والأطباء الذين ناقشت معهم قضيته أكدوا لي انه لو كبح جماحه بصرامة وشدة حين بدر منه سوء التصرف لأول مرة لكان بالامكان اعادته إلى حالته الطبيعية، حالة الإنسان العادية». ثم انهى رسالته بالقول إن ذكرى هذه الحادثة جعلته يحاول استخدام العلاجات المقترحة لكن بغير مهارة و«بعد كل حادثة كنت أذكر للضباط الذين معي بأنني ربما أنقذت روحاً خالدة».

ورغم أن محاولة التبرير هذه لم تكن مقنعة إنما لم يكن هناك شك بأنها تمثل شعارات أخلص لها صاحبها كل الاخلاص. إذ لم يكن هناك ضابط في الساحة العسكرية حينذاك ذو مرتبة تسمح له بأن يحاكم «فريقاً» في محكمة عسكرية: إذن، إما ان تخفض رتبة «باتون» إلى الرتبة الدائمة أو يعاد إلى الولايات المتحدة كي يحاكم، لكن ربما لا يوجد ما يمكن ان يصور لنا حنكة «آيزنهاور» ومهارته في تصريف القضايا الهامة مثل الأسلوب الذي استخدمه في هذه الحالة فمما لا شك فيه ان تصرف «باتون»، إذا ما حكمنا عليه حسب المقاييس العادية المدنية أو العسكرية، كان تصرفاً قاسياً وغير عادل. فقد تصرف بغير تفكير وفقد السيطرة على نفسه ولم يستطع كبح جماحها فضرب رجلاً مريضاً لكن عندما أعطى «آيزنهاور» قراره ارتفع إلى مكانته كقائد أعلى للحلفاء وقد كان على حق عندما قرر ان مصلحة الحلفاء تتقدم على كل مصلحة أخرى وتلغي جميع الاعتبارات.

كان «باتون» قد مثل باعتباره «أنه أفضل كاسب أرض ظهر حتى ذلك الحين بين الحلفاء» ومن الممكن ان يقال عنه كما قال «لنكولن» عن «غرانت» عندما اختاره «هذا الرجل يحارب». كان الجنرال الوحيد الذي ظهر من بين الجنرالات الامريكيين حنيذاك هو «برادلي» أما ما حققه «مارك كالارك» في «سالرنو» فلم يكن مرضياً في حين كان «ترسكوت» ما يزال يتعلم مهنته ولم يكن «لوكاس» قد قاد معركة واحدة حتى ذلك الحين وهكذا قرر «آيزنهاور» ان يحتفظ بـ«باتون». فاستدعى ممثلي الصحافة وبلغهم قراره، مبيناً لهم الحقائق صراحة، كما ذكر الأسباب التي دعته للاحتفاظ بـ«باتون» كقائد للجيش السابع. وبذلك أسدل الستار على القضية بالنسبة لـ«آيزنهاور»، انما كان الأمر حرجاً

جداً بالنسبة لـ «باتون».

فقد كان من المنتظر ان عاجلاً أو آجلاً ان تتسرب المعلومات عن القصة إلى الولايات المتحدة. والواقع أنه في تشرين الثاني قام «دروَبيرسون» باذاعة كامل التفاصيل من محطة الاذاعة: فكانت الانعكاسات، حتى ان حكمنا عليها حسب المعايير الاخلاقية الامريكية، مذهلة. لكن «آيزنهاور» رفض تغيير قراراه فيما يتعلق بالاحتفاظ بـ «باتون». وفي ٢٤ آب كتب رسالة إلى «مارشال» أوضح فيها بأنه على الرغم من ان «باتون» قد خاض معركة ممتازة في صقلية إلا أنه وقع في أخطاء مسلكية علم بها هو شخصياً وكذلك رئيس أركانه: «زجر بغير تفكير، وتوبيخ لمرؤوسين وصل حد التحقير والشتم الشخصي»، ثم أضاف «لقد اتخذت إجراءات في غاية العنف والصرامة وإذا لم يتخلص من تلك العادة السيئة فلا أمل يرجى منه لكنني شخصياً أعتقد بأنه قد تعافى تماماً ليس فقط بسبب ولائه الشخصي العظيم لك ولي ولكن لأنه، بشكل جوهري، متعطش لكي يعترف به العالم كقائد عسكري رائع ولهذا الهدف سوف يتخلص ودونما أية رحمة، من أية عادة قد تؤدي إلى تعريض هدفه ذلك للأخطار. وبغض النظر عن هذا الأمر فان «باتون» يتمتع بصفات لا يمكننا تحمل خسارتها ما لم يدمر نفسه بنفسه. وهكذا بإمكاننا أن نصنفه كقائد جيش يمكن الاعتماد عليه كلياً كما يمكننا التأكد أيضاً من أن الجنود الذين في عهدته لن تقف في وجوههم أية عقبة».

كان «باتون» قد بلغ لدى «آيزنهاور» قمة الرتبة. وفي وقت لاحق سوف يؤكد «آيزنهاور» هذا الرأي في رسالته إلى مارشال «لا يمكنني بأي وجه من الوجوه أن أدفع «باتون» إلى منصب أعلى من منصب قائد جيش» فبعد قليل ستشغر مناصب قادة مجموعات جيوش في شمالي غربي أوروبا لكن بقدر ما يتعلق الأمر بـ «آيزنهاور» فان «باتون» لن يكون واحداً منهم. ذلك أنه منذئذ فصاعداً سيكون مقياس القيادة العليا الامريكية في «أوروبا» هو الاعتدال المصحوب بالضمير الحي وليس المهارة التكتيكية المشوبة بالانفجارات العصبية المتهورة: أي سيكون قصب السبق للسلحفاة وليس للأرنب. عدا عن ذلك، فحين كان الانكليز يبذلون في وقت متأخر من ذلك الخريف أقصى الجهود لاعادة قوة الزخم للعمليات في ايطاليا لم تفكر السلطات الامريكية في واشنطن باستبدال «مارك كلارك» قائد الجيش الخامس بـ «باتون» رغم انه يمكن القول بأنه لو تسلم «باتون» زمام القيادة لما اكتفى بالزحف في ايطاليا مثل «بقة تزحف داخل ساق بنطلون» حسب قول «تشرشل» ولما اضطر «لوكاس» للتوقف عند رأس الجسر الذي احتله عند «انزيو» مدة خمسة أيام قبل ان يتابع التقدم. كان التفاهم تاماً بين «باتون»

و«الكساندر» وكان كل منهما معجباً بالآخر: كان بامكانهما مع «هاردينغ» رئيس أركان «الكساندر» ان يتوغلوا مسافة بعيدة وبسرعة وان يجعلوا من السنداان ـ الضربة الجوية الثقيلة التي وجهت إلى جنوب فرنسا في شهر آب سنة ١٩٤٤ ـ نوعاً من الملهاة والهدر للجهد. وانه لمن المثير للسخرية حقاً ان نفكر بأن انفعال جنرال على حافة الشيخوخة بعد ظهر يوم شديد القيظ وفي حمى المعركة، ساهم في إثارة سلسلة من الحوادث ربما ساعدت على اطالة الحرب العالمية الثانية في أوروبا ستة أشهر أخرى لم يكن ثمة داعٍ لها.

هذا، على الأقل، واضح تماماً. إذ لا ينتظر من القادة أن يقوموا بزيارات منتظمة للجرحى في المستشفيات إلا في حال حدوث أعمال غير نظامية من قبل السلطات الطبية. وإذا كان أولئك القادة شديدي الحاسية فان مرأى النتائج الكئيبة للأوامر التي أصدروها ستؤدي حتماً إلى اضعاف تصميمهم على تنفيذ واجبهم الرهيب حتى النهاية. كذلك تؤكد التجارب بأن آخر من يريد ان يراه جندي يعاني من الجراح ومن صدمات القتال، هو قائد جيشه. فالمستشفى هو منطقة الطبيب والكاهن وليس الجنرال، وفي كل معركة سيكون هنالك، حتماً، بعض الاصابات النفسانية.

كما سيكون هنالك دائماً تقريباً نسبة من المتهربين والمتمارضين: أما كيف ينبغي ان تعالج هذه الحالات فهذا أمر يتوقف على الظروف الناشئة في حينها.

لكن، هناك أمر مؤكد: فمهما يكن الاجراء المتخذ ينبغي ان يقوم هذا الاجراء على أفضل إرشاد طبي متوافر. أما فيما يتعلق بـ «باتون» فانه في اللحظة التي كان نجمه فيها فـي صعـود، كاد أن يأفل فجأة ويصبح في حالة يصعب ان يعود منها إلى ما كان عليه: إذ مما لا شك فيه انه لو ارتكب أي عمل شاذ آخر لما كان باستطاعة حتى «آيزنهاور» و«مارشال» وصديقه القديم «ستيمسون»، بكل ما لهم من نفوذ مشترك لدى وزير الحربية، أن ينقذوه من سخط صاحب السيادَة «الشعب».

الفصل الثامن

ولادة جيــش

«لا تجعل لأفكارك لساناً، ولا لأي فكرة مهزوزة عملاً»
هاملت

في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٤ كان يندفع إلى الشمال، القطار الخاص الذي أعده البريطانيون للواء «جون سي . هـ. لي» قائد منطقة الاتصالات الامريكية وكان في هذا القطار، رغم ان قلة من الناس كانت تعرف ذلك، «باتون» وهو في طريقه للقاء المجموعة المتقدمة من الجيش الثالث الذي سوف يتخذ تحت قيادته مكانته جنباً إلى جنب مع جيوش التاريخ الكبرى وجيوش «هانيبال» وجيوش «كرومول» آلمحنكة وجيوش «مارلبورو» و«ولينغتون»، وجيش نابليون العظيم، وجيوش ايطاليا وجيوش مصر وجيش (لي) في شمالي (فرجيينا) والجيش البريطاني الثامن في الصحراء الغربية وغيرها وغيرها من الجيوش التي أثنى عليها التاريخ. في فجر ٢٨ كانون الثاني وتحت أضواء باهتة جداً دخل القطار إلى محطة سكة حديد «غرينوك» حيث كانت رياح قاسية في الخارج تجرف مياه «الكلايد» القذرة وتكتسح أمامها مجموعات السفن السنجابية اللون الراسية هناك، وتعصف مزمجرة بين الأبنية المحيطة بأحواض السفن، وهي أبنية سوداء قذرة قديمة العهد. تأخرت سفينة الملكة ماري بسبب رداءة الطقس وكان على «باتون» ان يمضي يومه وهو يفتش المستودعات والمستشفى ثم يسجل في مفكرته السحر والفتنة اللذين شعر بهما بلقاء أمراء البحر البريطانيين والجنرالات والطيارين الذين استقبلوه ورحبوا به أجمل ترحيب ـ ولم يستطع أن يحي العقيد «ادواردت . ويليامز»، وبصحبته ١٢ ضابطاً و٢٣

مجنداً من المجموعة المتقدمة من جيشه الجديد، إلا عندما أرخى الليل سدوله للفوضى التي ضربت أطنابها والضجيج الهائل الذي حدث أثناء انزال الآلاف من المجندين المخصصين لعملية السيد الأعلى overlord (عملية شمالي غربي فرنسا).

لم يكن المكان ولا الزمان يسمحان بالقاء كلمة أو تسجيل حدث تاريخي فكان كل ما استطاع «باتون» فعله هو الترحيب بهم وإبلاغهم انه هنا بصفته القائد الجديد وان قطاراً خاصاً سيصل خلال ساعة لينقلهم إلى مركز القيادة الجديدة قرب بلدة «كنتسفورد» في «تشيشاير». وعلى الضوء الخافت المصغر في غرباتهم المعتمة في القطار، أمروا بالا يقولوا أو يكتبوا شيئاً عن القائد العام الجديد. عندها أدرك بعضهم الحقيقة المشرقة المفرحة: سينطلق الجيش الثالث للقتال بقيادة القائد اللامع الرائع «باتون» وليس بقيادة «هوجز» الهادىء الرزين.

فحتى ذلك الحين وطوال سنتين ونصف لم يكن الجيش الثالث أساساً إلا منظمة للتدريب، مقر قيادتها «فورت سام هوستون، تكساس». ووحداتها مبعثرة في منطقة شاسعة واسعة تمتد من المسيسبي إلى أريزونا ومن اركانساس إلى حدود المكسيك. أما المشرفون على تمرينات هذه الوحدات وتحقيق المناورات اللازمة فقد كانوا يتمركزون في «ليزفيل لويزيانا» ولم ينسوا أبداً تلك الأوقات. فقد قاموا بتقديم كل التسهيلات التكتيكية والتقنية المتعلقة بالمعارك العنيفة في منطقة المناورات الرئيسية في «لويزيانا» مع التدريب العنيف المرهق بجميع أشكاله. وقد سبق وأثبت الجيش الثالث أنه مدرسة فعالة شديدة العنف. كان قائده الأول «كروجر» على الرغم من بلوغه سن الستين مدرباً ممتازاً يتمتع بمهارة فطرية للبحث والتنفيذ الرائع وكأنه على مسارح السينما الكبيرة. حل «هوجز» محله عام ١٩٤٣ عندما ذهب «كروجر» لينضم إلى «ماك آرثر» في المحيط الهادىء، و«هوجز» هذا رغم كونه محافظاً وغير مدع إلا أنه أقل مهارة في عمليات الاستعراضات من «كروجر» ومع ذلك فقد اشتهر في وقت لاحق من الحرب بصفته قائداً للجيش الأول. بيد ان الحوادث سترينا فوراً بأن استبداله بـ «باتون» يعتبر من أعظم القرارات الخارقة التي اتخذتها وزارة الحربية في الحرب كلها وقد حصل الاستبدال في كانون الثاني / ١٩٤٤.

تتغير التنظيمات العسكرية بتواتر متزايد دوماً لذلك ان كان علينا ان نحكم بعدل على «باتون» وعملياته وان نتفهم تلك العمليات جيداً اذن سيتوجب علينا ان نشرح تشكيلات الجيش الامريكي أثناء الحرب العالمية الثانية. كان العدد الاجمالي في كل جيش

يتراوح ما بين /١٠٠,٠٠٠/ رجل و/٣٠٠,٠٠٠/ رجل، يتوقف ذلك على عدد الفيالق والفرق المخصصة له وكان يتوجب عليه ان يستطيع العيش والتحرك والقتال بسرعة. لذلك ينبغي ان يضم في تشكيلاته كل شيء من انسان وأدوات لكي يتمكن من القيام بذلك. والواقع انه كان باستطاعتنا ان نجد فيه كل شيء: جميع الضروريات الحياتية المتوافرة عادة في مدينة كبيرة.

كانت قيادة الجيش تتألف من سرية القيادة والقوات الخاصة التي لا بد منها لكي تستطيع القيادة القيام بدورها بصورة فعالة. وتحت قيادة هذا المقر يوجد عادة ثلاثة أو أربعة مقرات فيالق منظمة وفق خطوط مماثلة إنما على مقياس أصغر. ويوجد في الفيلق فرق مشاة وفرق مدرعة بالاضافة إلى قوات دعم كثيرة كوحدات المدفعية والهندسة والمدفعية المضادة للطائرات والمدفعية المضادة للدبابات والوحدات الخاصة بالحرب الكيميائية كي تكتمل قوة الجيش القتالية.

ويضم الجيش شرطة عسكرية تنفذ القانون والنظام وتسيطر على حركة السير، كما يضم وحدات طبية كي تهتم بالمرضى والجرحى، وفيلق الاعاشة والمؤن الذي يعالج أمور المؤن العامة كالبترول والطعام والملابس، ثم فيلق النقل الذي يهتم بنقل المؤن، ووحدات الإشارة التي تعمل على تأمين الاتصالات. كذلك يضم مهندسين لانجاز كل مهمة مدنية تقريباً علاوة على تجهيز الاعتدة الخاصة التي تقاتل بها. وقد روعي أيضاً ضمان إحداث أقل ما يمكن من الآلام والمعاناة بالنسبة للمدنيين، حلفاء كانوا أو أعداء. ومن هنا كان لزاماً إعداد مفارز للشؤون المدنيةعلاوة على كل ما ذكرنا والحقيقة ان جميع الوحدات كانت عملياً مستقلة ذاتيا فيما يتعلق بالنقل والطبخ. كذلك كان لكل جيش إشارة قماش مميزة تعلق على كتف كل جندي: وتعود اشارة الجيش الثالث أصلاً إلى أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان يسيطر كجيش احتلال على المنظمة الامريكية في الراين. ومن هنا جاءت الاشارة على شكل حرف (A) على خلفية زرقاء يدور حولها حرف (O) وهذه تعني (جيش الاحتلال). اختار «باتون» للجيش الثالث اسماً رمزياً هو كلمة محظوظ إذ كان ينوي ان يجعله محظوظاً وقد تم له ذلك. وبهذا أصبح الرمز المحدد لمركز القيادة في المعركة هو عبارة «إلى الأمام يا محظوظ»، كانت بعض الأقسام الأخرى في الجيش الامريكي أكثر تفاخراً وكبرياء فالقيادة العليا للحلفاء: فجيش «شاف» شعاره (الحرية) بما فيها من جاذبية للديمقراطية. وكان النسر شعار الجيش الثاني عشر (بقيادة برادلي) ويعني الولايات المتحدة فوق الجميع، وشعار الجيش الأول (السيد) وما تتضمنه من معاني التصميم العنيف. كان مقر قيادة الجيش الثالث شأن الجيوش الأخرى، مقسماً

إلى مجموعتين وخمسة فروع للأركان العامة (G_1) للموظفين، (G_2) للاستعلامات (G_3) للعمليات، و(G_4) للتموين و(G_5) للشؤون المدنية بالاضافة إلى ثمانية عشر فرعاً للأركان خاصة للإشراف على جميع الأسلحة والخدمات. أي كان العدد الاجمالي المقرر ٤٥٠ ضابطاً وألف مجند تقريباً، لم يسمح «باتون» وخلافاً لأي قائد آخر بزيادة هذا العدد معتبراً ان من غير العدل حرمان الوحدات الأدنى من رجال هي في أمسّ الحاجة إليهم من أجل القتال الفعلي، علاوة على أن أية زيادة أخرى تعني فقدان سرعة الحركة. لم يذهب «باتون» مرة ثانية إلى «غرينوك» لملاقاة باقي ضباط قيادته حين وصلوا في وقت لاحق على متن الباخرة «ايل دي فرانس» وكانت هناك صدمة تنتظر ضباط الأركان الكبار ما عدا واحداً منهم. فلدى نزولهم إلى اليابسة تبلغوا أن «باتون» قد استبدلهم ببعض المتمرسين الذين خدموا تحت إمرته في أفريقيا وصقلية أي عملياً كان جميع رؤساء الفروع من الخيالة: بعضهم جاء من فرقته القديمة: المدرعة الثانية. أما بالنسبة للمستويات الأدنى فلم يجر أي تبديل كما حدث انه قال مرة لـ «آيزنهاور»: «أنا لا أريد أركاناً لامعين بل أريدهم مخلصين». وهذا ما حصل عليه بالفعل ـ ضباط أركان غير فضوليين يتمتعون بكفاءة عالية مخلصون كل الاخلاص قدموا له ولاء مطلقاً فوثق بهم رداً على ذلك ثقة مطلقة كافأهم ودعهمهم إلى أقصى حدود الدعم. لاحظ السكان المدنيون الساكنون في «كنتسفورد» كما لاحظ جميع الخبراء البريطانيين في أمور السلوك العسكرية والملابس والنظام والتمارين أن القادمين الجدد يختلفون عن بعض الجنود الامريكين العاديين الذين سبق ورأوهم. كانت بناطيل الركوب الجيدة التفصيل والأحذية الجميلة اللامعة هي ملابسهم الاعتيادية كما كان الجميع يرتدون، أثناء المطر أو الشمس، أربطة العنق كما كانت التحية الرسمية دقيقة وأنيقة. والجميع مؤدبون أمام الجمهور. وقد اعتقد الكثيرون خطأ، بأن أولئك الجنود لا بد وأنهم جاؤوا من مستوى اجتماعي أعلى من باقي الجيوش الامريكية. لقد أصبحوا أصدقاء الكثيرين. أما ما ذكروه للانكليز عن قائدهم العام فقد كان له تأثير فوري: ان هذا الرجل محارب ومظفر في الحروب فارتفعت معنويات المدنيين المحليين رغم كل ما كانوا يعانونه من تقنين الأطعمة والخضوع لكل أنواع التقييد والتحديد التي يمكن ان يتصورها الانسان وكذلك التعتيم لمدة /١٢/ ساعة كل يوم وأحياناً أكثر.

ما من قائد أبداً كان بامكانه السيطرة على قيادته بشكل فعال كما كان «باتون». فقد كان يعرف هو ورئيس أركانه المكان الذي يقفان عليه معرفة بالغة الدقة ولقد كان الجيش الثالث محظوظاً فقد بقي الجنرال «هيو جـ. غافي» وهو ضابط أركان يتمتع بعبقرية

فائقة وخبرة بشؤون الدبابات في مركزه حتى أوائل فصل الخريف من /١٩٤٤/ عندما انتقل ليستلم قيادة الفرقة المدرعة الرابعة ومن ثم قيادة فيلق. ولسوف يخلفه الجنرال «هيو بارت ر. غي» الفارس القديم الذي كان مع «باتون» منذ أيام المغرب وكان كلا الرجلين كفوءاً في ممارسة مهنته المعقدة العويصة. كانت وجهة نظرهما مماثلة تماماً لوجهة نظر قائدهما. ولطالما طلب منهما أموراً يعتقد من هم أقل مهارة منهما أنها مستحيلة ولكنهما كانا ينجزانها. أما في ما يتعلق بالأركان العامة فقد كان جميع رؤساء الفروع، بشيء من الاستثناء، جنوداً نظاميين لديهم خدمة طويلة في المدرعات والخيالة. وكانوا جميعاً قديرين أكفاء. كان أبرزهم بالتأكيد العقيد «أوسكار و. كوتش» رئيس فرع (G_2) ويطلق عليه اسم «شمعة إشعال» الجيش الثالث. لم يكن صحيحاً أبداً ما قيل عن «باتون» من أنه كان يعمل بأسلوب الحدس والتخمين أو بوحي الساعة بل كانت تجري في غرفة كوتش الحربية وبشكل دائم، تقديرات للمواقف وتقييمات ربما تعتبر بالنسبة للمعلومات والتحريات المتوافرة صادرة عن أذكى وألمع ذهن في الجيش الامريكي. وقد ثبت أن ذلك الرجل العلامة المتواري عن الأنظار، المتواضع والمجتهد إلى أقصى درجات الاجتهاد هو ألمع ضابط بين أركان «باتون». إنه العقيد «وولترجـ. ملر» الذي كان يتمتع بمزاج مختلف تماماً: فهو الانسان الذي يمكن الاعتماد عليه تماماً فيما يتعلق بالاهتمام بالتموين ولذلك كان السم المنغص لحياة شاف (القيادة العليا للحلفاء) ولكنه صديق الجنود المقاتلين. كان البعض يقولون إنه أقدر ممن وجد على ظهر الأرض منذ موسى لكن، كان هناك آخرون لا يطرونه بهذا القدر. على كل حال كان يحصل على المواد ويرضي «باتون» الذي كان يسعده ان يسمح «لملر» بمتابعة عمله دون أي تدخل من أحد أو حتى دون أي استفسار غير مناسب عن الطرق التي كان يستخدمها. وكان «باتون» يصر على ان يزور ضابط من كل فرع الجنود المقاتلين يومياً. وبذلك نما رباط من التفاهم وشعور بالتضامن في الجيش الثالث ليس له نظير في أي مكان آخر، وأسوة «ببرشينغ» و«ولينغتون» حافظ «باتون» على مسافة ما بينه وبين الهيئة الرئيسية لأركانه. فقد كان يعيش بعيداً عنهم مع مجموعة قادته. وكان أقربهم إليه، باستثناء رئيس أركانه، رئيس أطبائه العقيد «تشارلس ب. اودوم» وهو طبيب ذائع الصيت من «نيو أورليانس» إضافة لكونه مرجعاً فيما يتعلق بجراحة الأوعية الدموية ولقد ظهرت مهارته الهائلة بصورة خاصة في حقل التنظيم والمعالجات الناجعة والمهارة في إجلاء المرضى مما كان له أبعد الأثر في الدور المرموق الذي لعبه في المحافظة على معنويات الجنود وتخفيف آلامهم. ومن أصدقائه الخلص أيضاً كان هناك المقدم «تشارلس ر. كودان» وهو طيار من طياري الحرب الأولى

يحمل «وسام الصليب الحربي» كما أنه رجل ثري ساح في كثير من البلدان وعاش الأوساط الاجتماعية العالية في أوروبا وفي الولايات المتحدة، طلق اللسان، يتكلم اللغة الفرنسية تماماً كاللغة الانكليزية، متعدد المواهب، مقدام وعلى دراية تامة بأمور الحياة. كان يحب فرنسا بما في ذلك خمورها ومطبخها وذكاء أهلها. وجدير بالذكر ان مرحه وسعة حيلته وعقله الثاقب كان لها جميعاً أثر فعال في تخفيف عبء الضغط عن كاهل قائده ذلك الضغط الناتج عن اثر الاتصالات والمواقف الجديدة التي لا نهاية لها. كذلك كان هناك مرافقه المقاتل الرائد «الكساندر ل. ستيلر» من رعاة البقر من تكساس وهو صديق حميم تعود صداقتهما لأيام الحرب العالمية الأولى، يجيد استعمال المسدس مثل قائده لذلك حيثما كان يذهب «باتون» كان يذهب «ستيلر» أيضاً وهكذا كان باستطاعة «باتون» ان يستمتع، في حالات الاستجمام بحديث رجال ناضجين من جيله. وغني عن البيان ان هذا كان يختلف تماماً عن القادة الآخرين الذين كانوا يسمحون لأنفسهم أثناء الاستجمام بالجلوس والاستماع إلى ثرثرة مرافقيهم الشبان. وممن كان قريباً منه أيضاً المراسل الرقيب «ميكس» وهو خيّال زنجي واسع الحيلة وشجاع يذكرنا بحارس نابليون المملوك العملاق وكان مسؤولاً أيضاً عن ملابس «باتون» الرائعة وأخيراً كان هناك الرقيب المسؤول عن الطعام «فو. ب. لي» وهو صيني الأصل من مواليد أمريكا وكان برأي سيده ورأيه هو شخصياً أفضل طباخ في الجيش الامريكي بأسره. كان «باتون» يهوى الطعام الجيد وأسوة «بمانغين» كان يؤمن بأن من عليه أن يقاتل سيجيد القتال إذا ما تغذى جيداً ولعل البطاطا المقلية التي تناولها «نابليون» في افطاره قبل معركة «واترلو» تفسر لنا بوضوح ما قام به من عمل رديء في ذلك اليوم. كذلك، بوجود طباخ ماهر كـ «لي» لم يكن من المحتمل أن يتعرض «باتون» لمخاطر الافراط في الطعام. كان في «بيفرهول» منزل كبير ذو خشب أبيض وأسود على طراز منازل «تشيشلير» التقليدي وهناك كان يقيم «باتون» مرتاحاً وكان أكثر ما يبهجه الترحيب بالزوار العديدين المشهورين الذين كانوا ينزلون عنده. وفي ما بعد، حين دخل المانيا، كان «باتون» يصادر عادة أفضل منزل في الريف المجاور.

أما في الميدان، وكما هو شأن «مونتغومري» فقد كان يسكن ويعمل في مقطورتين كبيرتين إحداهما سيارة مدفع محولة يدخل إليها بواسطة بضع درجات من مؤخرتها أعدت كمقر لسكناه. كان في هذه السيارة سرير مركب داخلياً ومغسلة صغيرة وحمام وطاولة ذات أدراج جانبيه وضوء كهربائي وهاتفان احدهما ذو سماعة خضراء خاص بالاتصال مباشرة «ببرادلي» و«آيزنهاور» ومجهز بجهاز خاص للتشويش، والآخر للتحدث مع أركان قيادته إذ لم يكن «باتون» يتحدث معهم باللاسلكي مطلقاً. أما المقطورة الثانية فتحتوي

على مكتبه وفيها طاولة ولوحات خرائط وهواتف اضافة إلى مولد كهربائي متنقل يوفر التيار اللازم.

على أن السمة الفريدة في قيادة «باتون» إنما هي غرفة الحرب التي كان أول من أنشأها «كوتش» في «بوفر» ثم انتشرت وأصبحت دون شك أروع شيء في الجيوش الامريكية والبريطانية والكندية، وأروع ما كانت تتميز به هذه الفرقة خريطة بمقياس ٢٥٠,٠٠٠ / ١ تبين الموقف في الجبهة الغربية حتى مستوى الفرق لدى كل من الحلفاء والألمان وكان إلى جانبها خريطتان أخريان واحدة تغطي الجبهة الشرقية والأخرى منطقة الجيش الثالث. وهذه الأخيرة، بمقياس ١٠٠,٠٠٠ / ١ تبين توزيع القوات، بما في ذلك وحدات العدو حتى مستوى الفوج. وضعت جميع الخرائط على لوحات يمكن تفكيكها وإنزالها. وكان هناك خرائط أخرى عديدة ونماذج ولوائح ورسوم بيانية وأوامر قتال جهزها جميعاً الفرع (G_2). كانت النماذج المصورة للأرض وقد ارتجلها أركان «كوتش» واضحة ودقيقة كل الدقة وهكذا عندما كان «باتون» يدخل غرفة الحرب لاصدار التعليمات اليومية كان أول ما ينظر إليه هو اللائحة التي تبين اصابات الجيش الثالث واصابات العدو في ذلك اليوم اضافة إلى وضع الحملة. وسواء كانت هذه الترتيبات موجودة في خيمتين ضخمتين أو في بناء فانها لم تكن تخيب أمل «باتون» أبداً، إذ كانت تمده بأدق الأشكال والمعلومات وبنظرة واحدة. أما في الأشهر القليلة الأخيرة للحرب فانها ستصل إلى درجة مذهلة من الدقة وسينعقد داخل جدران هذه الغرفة الكثير من المؤتمرات البالغة الأهمية كما ستدور أهم المناقشات خلال الحرب. كان من بين أركان حربه، وليس فيهم إلا واحد نظامي فقط أكثر الرجال كفاءة وأهلية في الجيش كذلك كان يزور هذه الغرفة مجموعات من الجنود الذين يتركون الخنادق القتالية للاستراحة، ومع الزمن أصبحت هذه الزيارات إحدى الميزات التي يتميز بها الجيش الثالث. فقد كان يشعر من يقع عليهم الاختيار للقيام بهذه الزيارة بأنهم أفراد في أعظم جيش من الجيوش الأوروبية علاوة على ذلك فان زيارتهم لهذه الغرفة، غرفة الحرب كانت تزيد من إيمانهم بالكفاءة الرائعة التي يتمتع بها قائدهم وأركانه وهو الايمان الذي لم يكونوا يترددون بنقله إلى الآخرين على أحسن وجه. كانت التعليمات اليومية على نوعين ـ تعليمات خاصة في الساعة السابعة صباحاً لا يحضرها إلا رئيس الأركان ورؤساء الفروع والجنرال «ويلاند» من القيادة التكتيكية الجوية التاسعة عشرة وتعليمات عامة في تمام الساعة الثامنة تشمل جميع فروع الأركان. أما الأولى فلها صفة رسمية تجري بأسلوب ندوة مكشوفة تنتهي بقرارات من «باتون» وبشكل يؤكد أن الجميع يشتركون في حمل أفكار متشابهة.

لقد شعر الجيش الثالث منذ اللحظة التي تسلم فيها «باتون» زمام القيادة بفرقعة السوط. إذ لا شك أن الخبرةِ التي اكتسبها «باتون» في تونس وفي صقلية أكدت قناعته بأن الحاجة إلى النظام تفوق كل الاعتبارات الأخرى.

وسرعان ما تعلم الجنود أنه لا يوجد في نظر «باتون» إلا نوع واحد من الأنظمة هو النظام التام. والدليل الخارجي له يظهر في الملابس الأنيقة والنظافة الشخصية والحلاقة حيثما أمكن ذلك ولو كان في سعير المعركة أما الضابط الذي لا يستطيع تأكيد شخصيته من خلال الحفاظ على معاييره الرفيعة بضرب المثال للآخرين وإبقاء صوته عالياً، يصبح في عداد المحكوم عليهم والمرذولين في نظره. لقد أعلن «باتون» أمام الجميع أن الهدف الأول والرئيسي من النظام هو تحقيق التنبه واليقظة،فالانسان الخامل الذي يفشل في تأدية التحية يقع فريسة سهلة في يد العدو وعندما لا يكون الجنود في حالة القتال كان «باتون» يصر على ان يؤدي الجنود جميع المراسم الشكلية من امتطاء الحرس لظهور الخيل واطلاق البوق لايقاظ الجند في الصباح وإنزال العلم والجند تحت السلاح وما إلى ذلك من أمور يبتكرها وسيلة لغرز التنبه في النفس والتأهب للمعركة وبدونها لا يمكن إحراز النصر. مع ذلك لم يكن «باتون» مفسد بهجة، فهو نفسه لم يكن متقشفاً كلياً ولم يظهر أي علامة من علامات الحماس التي أظهرها قادة الجيوش الامريكية الأخرى فيما يتعلق بمنع تعاطي المشروبات الكحولية. والواقع أنه لم يكن بعيداً ذلكِ اليوم الذي سيتمتع جيشه بأعظم حظ فيستولي على كميات هائلة من المشروبات وقد كتب عليها بأنها: مدخرة للقوات المسلحة الألمانية. كما أنه لم يعامل جنوده كالأطفال بجعل المدن والقرى خارج حدود زياراتهم. لم يكن «باتون» أحمق كما لم يكن مفرطاً في الاحتشام. وعندما كان يطرح أمراً على بساط البحث كان يتقبل جميع التعليقات والاقتراحات ممن هم أدنى منهم. أما عندما يصل إلى قرار ويصدر أمراً فانه لا يحيد عن رأيه مطلقاً. علاوة على ذلك لم يحاول مطلقاً اضعاف حيوية مرؤسيه باصدار أوامر تتجاوز الحدود أكثر مما يجب وهو الأمر الذي ينجم عنه تخفيض مكانتهم الشخصية وحرمانهم من مبادراتهم الشرعية وبذلك عرف جنود الجيش الثالث بأسره، منذ أيامهم الأولى في انكلترا، معرفة تامة حدود سلطتهم الفردية والمسؤولية الملقاة على كل منهم. فهم لم يكتشفوا تميمة (تجلب الحظ) بل رئيساً عظيمًا.

في «بوفر» تمكن «باتون» بفضل هيئة أركانه الفعالة ونظام القيادة الواضح من البقاء على اتصال يومي مع جنوده دون ان يتورط بالتفاصيل غير المجدية وبذلك وفر وقتاً للتفكير والتخطيط. كما انه عمد إلى دراسة حملات «ولينغتون» وتاريخ الفتوح النورماندية بقلم فريمان ـ قرأ مجلداته الستة بما في ذلك الفهرس. في هذا الوقت زاره الناقد العسكري

البريطاني اللامع «ليدل هارت» أثناء جولة قام بها على جميع الجيوش الامريكية الموجودة في المملكة المتحدة وقد استغرقت الجولة شهرين وكانت زيارته له في «بوفر هول» وقد أعجب فوراً بسمات «باتون» الديناميكية وحسن قيادته وسيطرته على الجيش بشكل فاق جميع ما رآه في أي مكان آخر من القوات الامريكية. قال له «باتون» بأنه قضى وقتاً طويلاً في دراسة حملات «شرمان» على الأرض في «جورجيا» و«كارولينا» وذلك بمساعدة كتابه. كما تباحثا سوية في إمكانية القيام بعمليات على غرار عمليات «شرمان» - تحرك بغير عقبات بغية الاسراع في الزحف، الانقطاع عن خطوط المواصلات إذا اقتضى الأمر واكتساح القوات المقاومة كما فعل الألمان ١٩٤٠.

لم يعرف «باتون» الدور الذي أنيط بجيشه في حملة السيد الأعلى بشكل مؤكد إلا بعد أسبوعين من وصوله إلى انكلترا. وصل «مونتغومري»، قائد القوات البرية المخصصة للانزال الفعلي في «نورماندي»، إلى انكلترا في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني، ووصل «آيزنهاور» بعد اسبوعين. في هذا الوقت كانت خطة الغزو التي أعدها «مورغان» وأركانه تشمل هجوماً أولياً تقوم به ثلاث فرق ولواءان محمولان جواً، يتبع ذلك ثلاثة فيالق أخرى تزحف متجاوزة الفرقة التي سبق ونزلت إلى الشاطىء وبسبب الخبرة التي اكتسبها «مونتغومري» أثناء عمليات الانزال في صقلية وبرؤية خاصة للأسلوب الذي ستجري فيه العمليات فإن الأسلوب الذي اقترحه في ما يتعلق بتطور المعركة حالما تتثبت أقدامه على الشاطىء، وبموافقة من «آيزنهاور» غيّر الخطة الأصلية جذرياً. فقد أصر قبل كل شيء على ان يكون الهجوم الأول مؤلفاً من قوات أضخم بكثير وهذا يعني توسيع الجبهة من خمسة وعشرين ميلاً إلى ٥٠ ميلاً - وانه ينبغي الاستيلاء على المناطق المغمورة بالفيضان في الجناح الغربي الذي يسد طريق الدخول إلى «شربورغ» بانزالات محمولة جواً. كذلك طالب بالاسراع في الاستعدادت وان يكون ذلك على نطاق واسع. ثم طرح جانباً كل اقتراح يرمي إلى عملية الزحف والاختراق إذ أن ذلك قابل لإثارة الكثير من التشويش والفوضى ثم خصص لكل فيلق منطقته الخاصة من الساحل بحيث يستطيع الاستمرار في عملياته دون أية عقبة.

حوالى (١١) شباط كانت الخطة قد تبلورت تماماً فكشف عنها لقادة جيوشه - «دمبي» الجيش البريطاني الثاني، و«كريرار»، الجيش الكندي الأول و«برادلي» الجيش الامريكي الأول و«باتون». عقد الاجتماع في جو مثير للسخرية هو مكتب رئيس مدرسته القديمة، «سان بول» في «همرسميث» وهو معهد لم يكن يحمل له أي احترام من الناحية الأكاديمية أثناء شبابه. سار كل شيء على ما يرام. وكالمعتاد كان كل ما قاله «مونتغومري»

قاطعاً وواضحاً وضوح النهار. أعجب «باتون» بالبساطة الجوهرية للخطة التي تقضي باقامة رأس جسر بحيث يكون الجيش الامريكي الأول إلى اليمين والجيش البريطاني الثاني إلى اليسار، وأعجب أيضاً بالتشديد على الحاجة الملحة للسرعة والعنف مع انه، وطبقاً لما يقول «غوينغاند» رئيس أركان «مونتغومري»، قد استاء لأن جيشه الخاص لن يكون له دور في المراحل الأولى، إلا أنه ابتهج عندما سمع بأن مهمته سوف تكون اجتياح شبه جزيرة بريتاني، إذ يستغل الانتشار الذي سيكون قد قام به جيش «برادلي».

انتهى الاجتماع والروح المعنوية عالية بعدئذ عاد «باتون» إلى مقر قيادته ليقوم بتدريب جيشه، كي يستطيع القيام بالدور الذي ستثبت النتائج انه هو شخصياً وجيشه جديران كل الجدارة به ومما لا شك فيه انه كان محظوظاً إذ تخلص من جميع الأمور المملة والتعقيدات ومثبطات العزائم التي ستكون جميعها من نصيب «برادلي» و«دمبي» وجدير بالذكر ان عملية المخادعة المعروفة باسم «الثبات» لم تكن القسم الأقل إشراقاً من عملية «السيد الأعلى» (أي الحملة في شمالي غربي فرنسا). فالخطة التي كانت تتوقف عليها جميع العمليات قامت أساساً على الايهام بأن الحملة ستبدأ بهجوم على جنوبي النرويج من موانيء اسكتلندية وان الهجوم الأساسي سيحصل على «بادي كاليه» ويقوم به جيش مؤلف من اثنتي عشرة فرقة ترتفع إلى ان تصل إلى خمسين. وأي انزال آخر للحلفاء يكون بقصد للالهاء وتحويل النظر. في الأيام التي سبقت اليوم المحدد، قامت الطائرات بطلعات فوق «بادي كاليه» بمعدل أكثر بمرتين من طلعاتها فوق «نورماندي» كما ألقيت قنابل شمال «لاهافر» أكثر بمرتين مما ألقي إلى الغرب منها. كذلك فان الهجوم الرئيسي بالقنابل تركز على السكك الحديدية الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من «السين» وقد أقيم مقر قيادة في «دوفر» كما أقيمت معسكرات زائفة وقوات وقوارب انزال كاذبة وشقت أيضاً طرق وممرات في أجزاء مختلفة من جنوبي شرقي بريطانيا بالاضافة إلى تحويلات سكك حديدية. ولرفع مستوى الخداع تمركزت حشود من فرق «مركبة» وقسم كبير من الجيش الثالث في هذه المنطقة قبل «اليوم الموعود» كذلك دعمت عملية الخداع في تلك المنطقة حركة هائلة من الاتصالات اللاسلكية التي يمكن تصديقها كما عممت اقتراحات ملهمة بكل مهارة عن طريق الصحف والأقنية الدبلوماسية بما في ذلك تلك التي كانت في «دبلين» حيث كانت تعمل السفارة الألمانية دون تدخل طوال الحرب. ابتلع «هتلر» وخبراء مخابراته الطعم بكامله: الصنارة والخيط والثقل «كرة الرصاص» وبمنطقها التيوتوني الذي يتميزون به حكموا بأن الحلفاء سيوجهون جهدهم الرئيسي على «بادي كاليه» وبذلك يحققون السيطرة على أقصر طريق بحرية مع غطاء قتالي كامل من

مطارات «كنت»، و«سسكس»، و«اسكس». وقد اعتقدوا ان الغارة على «دييب» (Diepp) /١٩٤٢/ لم تكن إلا تجربة. علاوة على ذلك فان النزول في «بادي كاليه» يعني أقصر طريق إلى «الروهر» القلب الستراتيجي النابض في غربي المانيا. ونتيجة لكل هذا ركزوا القسم الأكبر من فرقهم الميدانية شمالي السين ولسوف يرفضون تحويل هذه القوات إلى الجنوب حتى بعد عملية الانزال بستة أسابيع. حتى ذلك الحين لم يكن هنالك إلا جنرال أمريكي واحد أثر عليهم وحاز على اعجابهم بما حققه من انجازات. ولم تكن صحافة الحلفاء تألوا جهداً في التهليل له ورفع اسمه إلى أعالي السموات. لقد نشرت جميع الصحف أخبار تحركاته أثناء تجواله في كورسيكا وايطاليا ومصر وبات معروفاً حينذاك انه في انكلترا.

ومن الجلي ان «هتلر» وخبراءه حكموا بأن جهود الحلفاء الرئيسية سوف تكون أمريكية كما توضح لهم ان هذه الجهود ستكون تحت قيادة «باتون». وبما انهم كانوا يقدرون الصفات التي يتمتع بها هذا الرجل أفضل من كثيرين من مواطنيه فقد رفعوه لمرتبة قائد «مجموعة جيوش». ولكي يزيد من هذا الوهم الذي سوف يؤدي في الوقت المناسب إلى هلاكهم، قام «باتون» بوحي ساعته في ٢٥ نيسان في البلدة الريفية الصغيرة «كنتفورد» وساعة الصفر قد أصبحت وشيكة بمبادرة غير متوقعة قطعياً وبدون اي تفويض، فقدم مساهمة فردية نموذجية.

لم يكن أحد من المتحاربين قد استفاد من النساء في الحرب العالمية الثانية مثل الانكليز. وجدير بنا ان ننوه هنا بالخدمات العظيمة التي قدمتها حركة النسوة المتطوعات (WVS) من ضمن المنظمات النسائية التي ساهمت بالنصر النهائي للحلفاء. فقد كن رائعات، أولئك المتطوعات الناضجات بملابسهن الخضراء الداكنة وقد وضعن أمام أعينهن هدفاً عملن على تنفيذه بعزم وإصرار لا يضاهيهما على الرغم من أنوثتهن، عزم الشباب وإصرارهم. لقد حملن على أكتافهم تقريباً كافة أعباء الخدمات العامة تقريباً:

من الاعتناء بالعائلات المهجرة نتيجة تدمير بيوتها والاهتمام بالمسنين ورعاية الضعفاء والمعلولين ومواساة الجنود إلى الإنتاج بالجملة لمربى الراوند الذي يحوي أقل ما يمكن من السكر، ثم العمل لصالح وزارة الأغذية لتعميم نوع جديد من الأطعمة الخالية من اللحم عرف باسم فطائر وولتون، وكذلك تعميم قشور لحم الخنزير والجزر والبطاطا والبصل مع الطحين التي كانت تجثم على الصدر وكأنها الاسمنت.

لقد آمنّ طيلة حياتهن بأن مهمتهن هي فعل الخير والآن انفتحت أمامهن منافذ

لا حدّ لها. ولا بد ان أنظارهن قد وقعت على جنود «باتون» في المعسكرات (في بوفر) وفي «توفت». كان من الجلي أن أولئك الرجال يتحرقون شوقاً لبيوتهم ولعطف وحنان الأم، وشعرن بأنه يجب سد هذه الحاجة وانه ينبغي ان يكون لهم بيتهم الخاص وهكذا أصبح نادي «مرحبا» في «كنتسوفرد» جاهزاً للافتتاح الرسمي في /٢٥/ نيسان. إن جوهر أي جهد تطوعي ناجح هو ان يمنح جميع المعنيين أقصى ما يمكن من الدعاية العلنية والتهاني القلبية. وبقدر ما يكون القوم الذين يعلنون عن افتتاح مؤسسته للتطوع أكثر رفعة بقدر ما تزداد المكانة الاجتماعية للمنظمين. وربما كان على حركة النسوة المتطوعات في «كنتسفورد» ان يبذلن قصارى جهدهن لمعالجة الانتقادات الطنانة التي ينشرها بعض العقداء المسنين في الحرس الوطني أو الموظفين المحليين المسنين من الذين بلغوا أرذل العمر كما كن حريصات ألا يظل اسم واحد ممن قدم لهن مساعدة دون أن ينشر في الصحف المحلية والتأكد من انه لم يترك عمل خير دون ان يسجل. لذا من الطبيعي ان تشعر أولئك النسوة بأعظم درجات البهجة والسرور لدى رؤيتهن جنرالاً أمريكياً يبلغ طوله أكثر من ست أقدام وتلمع أربع نجوم على كتفيه وهو في أجمل هندام حتى لكأنه صورة طبق الأصل عن السيد (غالاهاد) وهو يرتدي أفضل الحلل المزينة بالأوسمة والنياشين في القرن العشرين. أما النادي الذي كان وشيك الافتتاح فقد قام بنتيجة جهود محلية لصالح جنود «باتون»، وفضلاً عن العرفان بالجميل لا بد ان نذكر بأن ما كان يتمتع به (باتون) من لطف فطري متغلغل في صميم فؤاده ومن شعور بالشهامة والنخوة والنبل كل ذلك جعل رفض عرض الافتتاح مستحيلاً. لذلك وجد حلاً وسطاً مرضياً، فرغم انه رفض شرف افتتاح النادي شخصياً بحجة انه لا يريد ان يظهر عظيمًا أكثر من اللزوم إلا انه وافق بأن يشاهد الإجراءات بطريقة غير رسمية، وكان هذا سبباً في جلب ما كاد يدمره فعندما وصل متأخراً خمس عشرة دقيقة لمشاهدة الاحتفال ارتبك كثيراً إذ شاهد عدداً من المصورين ينتظرون قدومه. وحين احتج على ذلك أكدوا له انهم لن ينشروا أية صورة يظهر فيها شخصياً وانه ليس هنالك أي صحافي والواقع انه لم يكن داخل القاعة إلا حوالى ستين شخصاً، معظمهم من النساء.

وفي الوقت المحدد وقفت المديرة الاقليمية لحركة النساء المتطوعات وألقت كلمة مختصرة ثم أعلنت افتتاح النادي. حينئذ طلبت منه السيدة «كنستانتين سميث»، الرئيسة المحلية ان يلقي كلمة صغيرة. وبديهي ان الرفض يعتبر أمراً بالغ الفظاظة، بيد انه أصر بأن ما سوف يقوله ينبغي ألا يرسل إلى الصحف.

ولقد أوضحت السيدة (سميث) هذا الأمر تماماً في الكلمة التي قدمته فيها. كان من المستحيل حتى بالنسبة لانسان أقل إحساساً وعاطفة من «باتون» ان يقاوم ما حصل حينذاك من تدفق الإعجاب الذي أظهره الجمهور وهناك روايات متعددة عما قال بالفعل. فقد تحدث ارتجالاً عن الحاجة الملحة إلى التفاهم ما بين الانكليز والامريكان ثم ذكر ملاحظة على سبيل الدعاية قال فيها: بما أنه يبدو لي ان أمريكا وبريطانيا العظمى وروسيا سوف تحكم العالم فكلما ازدادات معرفتنا بعضنا ببعض أكثر ازدادت حالتنا تحسناً. على كل حال هذه هي الكلمات التي أرسلها «آيزنهاور» إلى «مارشال» في تقريره الذي رفعه له في /٢٩/ نيسان حول هذه الحادثة:

نشرت الجرائد في اليوم التالي كل ما حدث عند الافتتاح انما حذف بعضها اسم روسيا ولم يشر إليه أبداً رغم التأكيد لـ «باتون» بأن الصحافة لن تنشر شيئاً عن ذلك. كان رد الفعل في الولايات المتحدة مباشراً وعنيفاً ومريراً والسبب الرئيسي هو (انه لم يذكر اسم روسيا وجدير بالذكر ان الواشنطن بوست كانت معادية له على نحو خاص. لقد شمر أصحاب الاقتراحات من جميع الألوان والفئات عن سواعدهم وشدوا هممهم لابداء آرائهم ضد ما فعل «باتون» ولمهاجمته بعنف. فقد فسر بعض الجمهوريين ملاحظاته بأنها ليست إلا تطفل جنرال على الشؤون السياسية وتدخله في إدارة «روزفلت» واتهموه بأنه: حليف مؤازر لدوائر وزارة الخارجية. وأما حزب اليسار فقد اتهمه بتحقير الاتحاد السوفييتي. في حين أن «آيزنهاور» وهو يحمل على كاهله العبء الهائل في ما يتعلق بالاستعدادات الجارية للغزوة النورمندية خاصة وقد وصلت الاجراءات إلى ذروتها، شعر بأن الضغط الذي مارسته عليه واشنطن لشرح ما حصل، وهو القشة التي تقصم ظهر البعير. فقبل اسبوعين فقط، وبعد أن أضاع الكثير من الوقت لتوضيح ملاحظات أبداها «باتون» في السنة السابقة في كلمة ألقاها أمام «الفرقة ٤٥» حول الحاجة لسحق العدو سحقاً كاملاً، عادت الكلمات الآن وتجددت بشكل يوصل صاحبها إلى المحكمة العسكرية، وقد أفهم «آيزنهاور» «باتـون» بانه يتكلم أكثر مما يجب بكثير. لقد كان الهياج عظيًما جداً في الولايات المتحدة حتى انه ألغى عملياً أي أمل بالتصديق على الترفيع الدائم لقائمة طويلة من اسماء الضباط بما في ذلك «باتون» نفسه و«بدل سميث».

وحري بالذكر انه كان هناك من طالب بعنف والحاح بتنحية «باتون» وصرفه من مركزه. وانقضت أيام و«مارشال» و«آيزنهاور» يتحاوران على مستقبل «باتون». لكن، أخيراً استدعاه «آيزنهاور» إلى لندن في / ٢٩ / نيسان وأنّبه ونصحه بشكل رسمي.

وغني عن البيان ان ذلك قد آلمه في الصميم إذ سجل في مفكرته: «اليوم الأول من أيار ١٩٤٤ / أشعر بألم يفوق آلام الموت، ولكنني لم أصرف حتى الآن. إذا سمحوا لي بأن أقاتل فسوف أقاتل. وإلا فانني سأقدم استقالتي كي أتمكن من الكلام وحينئذ سأقول الصدق، وربما أقوم باسداء خدمة أفضل لوطني. في طريقي إلى البيت وطوال خمس ساعات، كنت أردد في نفسي قصائد شعرية كثيرة منها:

لو تستطيع أن تضع جميع مكاسبك في كومة واحدة
وتغامر بها دفعة واحدة في ضربة حظ
وتخسر، وتبدأ ثانية من حيث بدأت أولاً
فلا تنبس بكلمة واحدة عن خسارتك
لقد تحديت ظروفاً متناهية في الشدة
ولم يخيب أملي ظرف واحد.

كانت أفكاري الأخيرة تتركز حول نقطة واحدة وهي انني مخصص لتحقيق أعمال باهرة ـ ما هي؟ لا أعرف، ولكن هذه الحادثة الأخيرة كانت متناهية في تفاهتها فظيعة جداً في تأثيرها ونتائجها، إذن فهي ليست نتيجة لحادث وإنما هي عمل من أعمال الله. فلتكن اذن مشيئة الرب».

ومن البديهي أن «آيزنهاور» شعر بألم عميق لاضطراره إلى توبيخ صديق العمر، الصديق الأكبر منه سناً والأقدم بخمس سنوات والذي يتمتع بخبرة قتالية أعظم بكثير من خبرته هو نفسه. حينذاك أخذ «آيزنهاور» موقفه تماماً وأخبر «مارشال» بأن ذنب «باتون» ليس سيئاً إلى الدرجة التي تجعلنا الجرائد نعتقدها.

كما تدخل «ستيمسون» وزير الخارجية ثانية مع «مارشال» من أجل «باتون» وبناء على ذلك ترك «مارشال» الأمر لـ «آيزنهاور» كي يقرر فيما إذا كان «باتون» مذنباً فيصرف أم لا.

ومما لا شك فيه أن قرار «آيزنهاور» بالاحتفاظ بـ «باتون» على رأس الجيش الثالث كان من أهم القرارات التي اتخذها لمصلحة بلاده.

مع ذلك فقد سجل عدم موافقته على ما تفوه به «باتون». وإليكم الرسالة الرسمية التي وجهها إليه:

«إنني مرة ثانية اتحمل مسؤولية الاحتفاظ بك قائداً رغم الأصداء الضارة الناتجة

عن تصرفك المحرج الشخصي. إنني أفعل هذا فقط لثقتي بك كقائد مقاتل دون أي دافع آخر». ولم تعد علاقاتهما الشخصية إلى سابق عهدها مطلقاً بعد ذلك: أما فيما يتعلق بـ «باتون» فان ذكرى تلك الحادثة بقيت تحز في صدره حتى النهاية.

ومما لا شك فيه أن الأجيال اللاحقة ستجد من الصعوبة بمكان كبير ان تصدق أمراً تافهاً كهذا يمكن ان يتضخم على هذا النحو المرعب في لحظة من أحرج لحظات الحرب أي آخر أيام الاستعداد «لليوم الموعود» يوم بدء الحملة، عندما كانت ستارة الأمن تنسدل على القوات الهائلة المحتشدة والمتأهبة للقيام بالحملة الهائلة على أوروبا. على انني اعتقد أنه ما من حادثة أفضل من هذه تمثل لنا الصعوبات الجمة التي كانت تواجه الديمقراطيات وخاصة ديموقراطيات الحلفاء. أما الدرس الذي تلقنه جنرالات المستقبل فهو انهم عندما يطلب منهم التحدث أمام الجمهور في مثل هذه الحالات التي تحضرها الصحافة وتكشف عن كل ما يجري فيها فعليهم ان يحذوا حذو القائد الأعلى الأسطوري «ألدرشوت كوماند» الذي، لكونه في إحدى المرات قد أثار وببراءة تامة عش دبابير، بات كلما طلب منه ان يتحدث عند افتتاح حفل يقتصر على قول الكلمات التالية:

إنه لمن دواعي سروري ان أعلن عن افتتاح هذا (المعهد أو قاعة الصلاة أو الحمام أو ما إلى ذلك).

ثم يجلس بعدها دون ان يتفوه بكلمة واحدة. وحول القضية الأوسع المتعلقة بالبيانات التي يعلنها الجنرالات حول أي موضوع فيه أي أثر سياسي فان الاجراء الذي قامت به «مانشستر ايفننغ ستار» بعد خطاب «باتون» في «كنتسفورد» يقدم إرشاداً طيباً لأجيال المستقبل. فقد أهمل المحرر بكل لباقة ما قاله «باتون» في «كنتسفورد ونشر صورة فوتوغرافية بذلاً من ذلك علق تحتها بهذه الكلمات: جنرال الدم والبسالة «باتون»، يقدم «ويلي» كلبه المدلل الذي كان سابقاً في سلاح الجو الملكي وطار فوق المانيا، بعد ان تكلم في افتتاح نادي مرحبا الدافىء ممثلاً بجنود الامريكان والحلفاء في قرية انكليزية. بذلك قال المحرر كل ما يمكن أن يقال في أقل عدد ممكن من الكلمات. فقد جمع فقرتين اخباريتين هامتين: دون أن يمس شعور أحدكما انه لم يترك أية قضية يحتمل أن تشكل حجر عثرة أمام الجنود أو تربك الرؤساء السياسيين أو تسبب أي تأزم بين الحلفاء وبهذه المناسبة، نجد ان هناك حقيقة صادقة على الأقل في المثل المعروف (ما فكّر به «لانكاشاير» هذا اليوم سيفكر به العالم غداً).

الفصل التاسع
داخل رأس الجسر

«لكنني الآن محتجز، مقيد، محصور
تحيق بي الشكوك الهائلة والمخاوف».
ماكبث

كان الجنرال الذي قابله (ليدل هارت) في «بوفر هول» مرة أخرى بتاريخ /٩/ حزيران رجلاً آخر غير مستعد للتعاون. وكان قد أنقضى أربعة عشر يوماً على ابتداء الحملة وما فتىء البريطانيون متمركزين خارج «كاين» كما لم يكن الامريكان قد استولوا على «شربورغ» بعد. لقد هبت أسوأ عاصفة على القناة منذ ٤٠ سنة ومن الجلي ان أصداء الحادث الذي حدث في صقلية وكذلك آثار التأنيب الرسمي الذي أعقب حادثة «كنتسفورد» مازالت تحز في نفسه وتتردد في ذهنه. لاحظ «ليدل هارت» ان «باتون» قلق ومنزعج التفكير خاصة عندما ذكر دون أي مسوغ نواقص جيشه في ما يختص بالأمن. كرر مراراً خلال حديثه عبارات تدل على ما كان يعتمل في نفسه مثل: يجب «ألا تنقل هذا عني» و«هذا ليس للتسجيل» و«انك لم ترني». ورغم ان هذا كان سيئاً مرهقاً بالنسبة لـ «ليدل هارت» إلا أن المدهش انه استطاع ان يسجل ما سجله فعلاً. لقد أعلم ان في الجيش الثالث ١٣ فرقة وان مدفعيته يمكنها ان تطلق من القنابل في اليوم أكثر من قوة قصف القنابل لدى الحلفاء جميعاً. علاوة على ان رأيه بدقتها لم يكن جيداً وكي يثبت هذه النقطة أخرج صورة شمسية لجسور السين ظهر فيها بكل وضوح انه على الرغم من إدعاءات الطيارين مازالت جميع تلك الجسور سليمة تماماً. كما ذكر «باتون» لـ «ليدل هارت» انه يعتقد على وجه العموم بأن التدمير الذي سببه القصف الجوي لا

يتناسب أبداً مع قيمته العسكرية ووافق على ان المشكلة الأساسية المباشرة لدى البريطانيين أمام «كاين» وكذلك أمام الامريكيين الذين باتوا يدركون الصعوبات التي خلقها لهم الحصار، تضع العبء في الوقت الراهن على كاهل المشاة. أما هو شخصياً فقد كان ما يزال يفكر بالتكتيكات المدرعة عندما يحين الوقت ـ تلك التكتيكات التي تشمل احتياجات واسعة واختراقات عميقة على غرار الاختراقات التي قام بها «رندسرت» عام /١٩٤٠/. وأردف «باتون» بأنه يعتقد أن دبابات «شرمان» هي أفضل دبابات في جيوش الحلفاء وان الدبابات البريطانية «كرومول» و«تشرشل» أقل قوة بكثير ـ وهو رأي كان بالامكان ان يؤكده حينذاك العاملون السيئو الحظ على تلك الدبابات لو سئلوا. كذلك تابع القول بأنه طبقاً لخبراته يعتقد بأن فرع الاستخبارات كثيراً ما يبالغ في تقدير قوة العدو وفي الصعوبات التي تواجه الموقف كما أعاد ما قاله في مؤتمر حديث العهد عقد في مقر قيادته وهو ان الفرع (G_2) في الجيش الثالث هو أفضل فرع في أركان جيوش الولايات المتحدة جميعاً لكنه أضاف: مع ذلك فانه دائماً يخطىء بنسبة ٥٠٪، والناحية الأخرى هي ان الأركان تتحفظ كثيراً في تقديراتها حول ما يمكن انجازه.

لقد اكتشف وهو في أفريقيا انه يستطيع ان يفعل أفضل بثلاث مرات بالنسبة لعدد الجنود والآليات والتموين مما كانت الأركان تعتقد بأنه ممكن. مع ذلك فقد ظهر إعجابه بتنظيم أركان «مونتغومري» في المقر ٢١ الخاص بمجموعة الجيوش.

يعطي التسجيل الذي تم حينذاك، وعلى ضوء ما عرف فيما بعد، انطباعاً بأن «باتون» كان يلعب دوراً لمنفعة «ليدل هارت»، وهو الدور المخصص له في عملية الثبات إذ قال إنه كان يفضل ان تكون الحملة موجهة إلى «بادي كاليه» بدلاً من «نورماندي» لأنها أقرب إلى الهدف ثم استشهد بقول «دريك» كما قارنه بقول «رودني» ليدلل على قيمة ضربة محمولة بحراً قريبة من الهدف. ولم يضف بأنه كلما طالت مشاركة الألمان له في هذا الرأي أكثر كلما طالت مدة إبقائهم لفرق المشاة من جيشهم الميداني في «بادي كاليه» أكثر وبذلك تبقى بعيدة تماماً عن المكان المخصص له شخصياً كي يندفع في الوقت المعين، ومما لا شك فيه ان تسرباً للمعلومات يحمل رأيه في ما يتعلق بالفوائد التي تجنى من إنزال آخر للحلفاء قرب «دييب» سوف يساعد كثيراً في المحافظة على خداع العدو. أما في ما يتعلق بالعمليات الفعلية في «نورماندي» فقد قال «باتون»: إن القوات الامريكية توغلت إلى مدى أعمق بكثير من القوات البريطانية في كل مرحلة من مراحل العملية وان البريطانيين فشلوا في تحقيق أي من أهدافهم حول «كاين».

بينما كان الامريكان يكتسحون شبه جزيرة شربورغ. وقال أيضاً: «إن هناك فرقاً المانية في مواجهة الأمريكان أكثر من الفرق التي تواجه الانكليز. لكن هذا لم يكن صحيحاً. فالواقع، كما ذكر «ليدل هارت» في الحال، ان البريطانيين كانوا قد حاصروا أربع فرق بانزر قرب «كايين» وبذلك غدا سهلاً على الامريكان أن يندفعوا نحو «شربورغ».

بدا لـ «ليدل هارت» ان من المستغرب ان يعبر «باتون» عن مثل هذه المقارنات المهينة أمام رجل لم يتعرف عليه إلا منذ فترة قصيرة ولسوء الحظ لم يكن عدم تفهم الصعوبات التي كانت تواجه الانكليز ووجهة نظرهم حول ذلك مقصوراً على «باتون» وحده، فالواقع أن هذا الافتقار للتفهم المقرون بعوامل أخرى يؤكد بأن الحرب التي كان من الممكن انهاؤها بشكل مرض /١٩٤٤/ استمرت حتى /١٩٤٥/ ولم يكن لأي انسان مصلحة في ذلك ما عدا ستالين. إذن من الضروري ان أكرر هنا ذكر العاملين الرئيسين اللذين أثرا على الموقف البريطاني تأثيراً عميقاً في ما يتعلق بالحرب. أولاً، كانت هناك الآثار المؤلمة التي تركتها الحرب العالمية الأولى والخسائر الفادحة التي حلت بجميع طبقات المجتمع وخاصة الطبقات التي خرج منها معظم القادة. فالرأي العام لا يتحمل مجزرة بشرية أخرى كالتي حصلت عند «السوم» إذ حتى «تشرشل» نفسه، وقبل «يوم الهجوم» مباشرة رأى كوابيس في نومه عن البحر وقد أحمرت مياهه بسبب الدماء. ثانياً، كان عدد الجنود البريطانيين أقل من ربع ما لدى الولايات المتحدة ومع ذلك فقد كانوا يحاولون إبقاء قوات ضخمة في فرنسا والبحر المتوسط والشرق الأقصى. وكان على القادة أن يبحثوا دون هوادة عن كل رجل وكل قطعة عتاد. أما وقد حل «يوم الهجوم» فقد كان «مونتغومري» يقود آخر جيش بريطاني، إذن فان حدوث أية نكسة وحدوث عدد كبير من إصابات يعتبر كارثة لا يمكن التعويض عنها. كما كان الجميع على يقين تام بأن حرباً تطول مدتها حتى /١٩٤٥/ سوف تسبب انحطاطاً قومياً محتماً، على المدى الطويل بالاضافة إلى فقدان النفوذ داخل الحلف. أما الموقف الامريكي فقد كان يختلف كل الاختلاف. إذ أن الجيوش الامريكية لم تشترك في الحرب العالمية الأولى إلا في الأشهر القليلة الأخيرة. وإصابات الجند كانت تافهة جداً إذا ما قورنت باصابات المتحاربين الآخرين. علاوة على ذلك، كانوا يعرفون انهم يتفوقون تفوقاً كبيراً على أي قوة غربية أخرى حليفة كانت أو عدوة، بالعدد والثروة والقوة الصناعية والتقنية. كما كان يساند جيوشها قوة جوية هائلة بالاضافة إلى مساندة أسطول يتزايد عدد سفنه باستمرار. وكانوا يشعرون بكل إيمان بأن هذه الثقة العظيمة بأمريكا قادرة على الهام الجنود، بأنهم سيحرزون النصر في النهاية.

إزاء هذا الواقع ينبغي ألا يدهشنا أنه لم يكن أي جنرال من جنرالات «آيزنهاور»، باستثناء «برادلي»، يدرك تماماً المهارة التي أظهرها «مونتغومري» في معركة «النورماندي». فكما سبق وشرحت، كانت الخطة تنص على القيام بعمليات في جبهة الجيش البريطاني الثاني في الجناح الشرقي بحيث يتمكن الجيش الامريكي الأول من اكتساب أرض تمكّن «باتون» من القيام باقتحام ساحق نهائي في الغرب. وللوصول إلى هذا الهدف كان «مونتغومري» مستعداً لأن يجتذب فرق البانزر الالمانية نحو البريطانيين قرب «كاين» ويبقيها هناك. فهو لم يكن يهتم بالاستيلاء على المدن والقرى حباً بالاستيلاء ذاته.

وقد امتد الافتقار إلى فهم هذه النقطة حتى «آيزنهاور» نفسه الذي سجل حتى في / ١٩٤٨ / في كتابه «حرب صليبية في أوروبا» أنه مع تقدم المعركة ذهل للحالة شبه الساكنة حول «كاين». وفيما بعد على طريق «فاليز» أما «مونتغومري» فقد أصدر في نيسان وبصورة لا تدل على الكياسة خريطة تبين الخطوط المرحلية وقد رمى من ذلك لاظهار التقدم المتوقع لـ «د» زائد ٨٠. وكان هذا في نظر الانكليز تقديراً تجريبياً للاحتمالات يفيد مخططي الشؤون التموينية. بيد أن الامريكان فسروها في أواخر حزيران وأوائل تموز بأنها وعود لم تنفذ. وفيما يتعلق بهذه الشكوك، فقد كان «آيزنهاور» متأثراً بمورغان مؤلف خطة «كوساك» الاصلية، ذلك المؤلف الذي لم يكن صديقاً لـ «مونتغومري»، وكما كان متأثراً أيضاً بـ «تدر» نائبه البريطاني الذي تألم كثيراً للتأخر في احتلال مطار «كاربيكيه» والذي كان يشعر، باعتباره خدم كضابط مشاة صغير في الحرب العالمية الأولى، بأنه مؤهل تماماً لأن يتكلم كرجل ثقة معصوم عن الخطأ في معالجة مشاكل الجيوش.

ولو فشلت عملية «كوبرا» التي بدأت في ٢٥ تموز لما استطاع «آيزنهاور» ان يقاوم الضغوط الآتية من الولايات المتحدة ومن جنرالاته أنفسهم لان ينحي «مونتغومري» من منصبه القيادي. والحقيقة التي لا بد من ذكرها هنا هي ان الامريكان لم يكونوا ينظرون نظرة رضى لأساليب «مونتغومري» وعلاوة على ذلك فان جنرالاتهم كانوا يكرهونه كراهية شخصية. فحسب رأيهم كانت وطنيتهم ومصالحهم المهنية تملي عليهم الشعور بالحاجة الماسة لتحقيق هيمنة كاملة على العمليات بحيث تصبح في أيد أمريكية تماماً. وإذا كان موقفهم هذا يشوه استراتيجية الحملة فأمر قد يكون موضع جدل، لكن مما لا جدال فيه أنه كان موقفاً مضاداً لمصالح الحلفاء. والحقيقة ان «باتون» نفسه لم يقم بأية محاولة لاخفاء كرهه لـ «مونتغومري». ومما لا شك فيه ان هذا أمر يدعو للاسف إذ أن كلاً منهما كان يتمتع في أعين جنوده وأعدائه لا سيما «رنسدادت» و«سبيدل» بأرفع الصفات التي جعلت كلا منهما يتجاوز بمراحل عديدة معاصريه من القادة في جيوش الحلفاء. ومن المدهش ان

الاثنين كانا يشتركان بصفات متماثلة فكلاهما رياضي، يلعب ليربح وكلاهما يزدري الأعراف والتقاليد، ولكل منهما ميول تاريخية متطورة جداً، وكلاهما من اتباع الكنيسة الاسقفية المتحمسين وكلاهما يحب نقل الأخبار، وقراءة الفصول المفعمة بالمعارك وسفك الدماء في العهد القديم من التوراة. وكان كل منهما يؤمن إيماناً راسخاً بجدوى الصلاة بصفتها عوناً على النصر. أما موقفهما تجاه النساء فكان موقف نبل ومروءة.

وفي المناسبات كان يظهر كل منهما كريماً تجاه الضعفاء المتواضعين الودعاء وكان الجنود يعجبون إعجاباً شديداً بهما. فجنود «باتون» كانوا يطلقون عليه اسم جورجي تحبباً، وجنود «مونتغومري» كانوا يطلقون عليه اسم «مونتي»، وقد انتشرت شعبية «باتون» حتى بين صفوف البريطانيين. وكان باستطاعة كل منهما أن يخاطب حشوداً كبيرة من الجنود وهو يتفرس في وجوههم فيثير حماسهم ويرتفع هتافهم إلى عنان السماء. لكن من الجدير بالذكر ان أسلوب واحدهما كان يختلف عن الآخر اختلافاً كبيراً: إذ يقال إن بعض خطابات «باتون» رفعت اللغة البذيئة إلى مرتبة الفن الجميل، وأخص بالذكر الكلمة التي ألقاها في انكلترا في شهر حزيران وفيها المقطع المذهل التالي:

«ليس من المفروض ان أكون قائداً لهذا الجيش ـ وليس من المفروض حتى ان أكون في انكلترا. فليكن أول من يكتشف ذلك أولاد الزنى الألمان الملعونون. أريد منهم يوماً ما ان ينتصبوا على قوائمهم الخلفية وينبحوا كالكلاب: أيها المسيح خلصنا من الجيش الثالث الملعون ومن ابن الكلبة «باتون». هناك شيء واحد تستطيعون أيها الرجال ان ترددوه عندما ينتهي كل شيء وتعودوا إلى بيوتكم مرة أخرى. . . يمكنكم ان تقدموا الشكر لله لأنكم بعد عشرين سنة من هذا التاريخ قد ترون أنفسكم جالسين قرب الموقد وأحفادكم على ركبكم، يسألكم أحدهم ماذا فعلتم في الحرب فلا تضطرون لنقله إلى ركبتكم الأخرى ثم تسعلون وتقولون كنا نجرف السرطان في «لويزيانا». . .».

أما «مونتغومري» فكان يخطب بلغة منمقة سليمة تليق بابن رئيس أساقفة وكان باستطاعته أن يتلاعب بعواطف أي حشد من الجنود البريطانيين وكأنه كاهن متعصب يشن حملة صليبية.

فيقنع سامعيه بأنه إذا لعب كل منهم دوره فإن الله العلي القدير سيضمن النصر لـ «مونتغومري» الذي مسحه الله بزيته المقدس وبعثه لشعبه المختار.

وعندما كان يحرز انتصاراً غالباً ما كان يقول: يجب ألا نتأخر عن تقديم الشكر والثناء لمن يستحق ذلك: إنه عمل حققه العلي القدير رغم أنه يبدو مدهشاً في نظرنا ـ

إذن بإيماننا بالله وبالحماس لقضيتنا ولواجبنا في القتال علينا أن نتابع النضال بقلوب مفعمة بالشجاعة وبتصميم على نيل النصر. ومهما تبـد هذه المشاعر مربكة بالنسبة للأجيال اللاحقة المدللة التي لم تشم رائحة البارود ولم تعرف معنى الحرمان حتى من المواد الأساسية، فهناك حقيقة لا تزول أبداً وهي ان كلمات كل من «باتون» و«مونتغومري» كانت كافية تماماً في ذلك الوقت لبث روح القناعة واليقين في قلوب الجنود. وعلى أي حال فقد كان المثقفون في الخطوط الأمامية من الجبهة نادرين ندرة العذارى في «مونتمارتر». كذلك كان كلاهما مجرداً من الحنكة السياسية وخالياً من روح المكر والاحتيال كما ان كلاً منهما كان مقتنعاً تماماً بأنه معصوم من الخطأ ومن الزلل وهذا أمر طبيعي، فمن يرد أن يملك المقدرة على الآخرين تنويماً مغناطيسياً يجب أولاً ان يتمكن من تنويم نفسه، وقد نجح كل منهما في هذه العملية.

هناك تقليد في الولايات المتحدة يقضي بتحيز الناس لمن «يرتفع بعد قطع طريق شاقة». أي الارتفاع بفضل الاستحقاق المجرد وقوة الاخلاق الخالصة عن مستوى حالة المجتمع. ومن الممكن ان نقول ساخرين أن «باتون» لا يستطيع الادعاء بأنه يتمتع بهذه الميزة فطالما قال مفتخراً بأن راتبه من الجيش لا يعني شيئاً له.

لقد تنقل «باتون» وخلافاً لـ «آيزنهاور» في الأواسط الخاصة ذات النفوذ الكبير في الجيش منذ نعومة أظفاره وظهر بمظهر لائق تماماً بين الأثرياء. أما «مونتغومري» المولود على السرير الشديد البرودة في بيت أبيه كاهن الأبرشية فلم يكن له أي مال خاص وقد برز من كتيبة من كتائب المشاة أثناء القتال. كان «باتون» مضيفاً أنيساً مرحاً محباً لضيوفه وكريماً إلى أقصى درجة. أما «مونتغومري» فربما يتذكر أحياناً ان يقدم لضيوفه كوباً من الشاي، لكنه في أكثر الأحيان لا يتذكر ذلك أبداً. وأخيراً كان كلاهما يتوق للدعاية بما يسبب له الشهرة وذيوع الصيت.

ولم يكن أي منهما يدرك أن هناك أشياء.من الأفضل ألا تقال. وهكذا في عصر اشتهر بغرائب الشذوذ يمكننا ان نضعهما في الصف الأمامي. فقد كان شكل كل منهما هبة من الله للصحافة التي كان الملل قد أصابها من الجنرالات المتجمدي الوجوه الذين لا ينبسون ببنت شفة. وعلى هذا يمكننا أن نشبه «آيزنهاور» بمتعهد حفلات فنية يعمل معه نجمان في مسرحية واحدة وكل منهما يباري الآخر كي يكسب شعبية أكثر ولعل لهذا الأمر لم يكن أقل الصعوبات التي واجهت «آيزنهاور». بالنسبة لـ «باتون» كانت الأسابيع السبعة التي تلت«يوم الهجوم»أكثر الأيام التي ثبطت عزيمته وأربكته طوال الحرب كلها. إذ

كثيراً ما كان ضباط أركانه يجدونه منزعجاً يائساً فريسة للمخاوف بأن تنتهي الحرب فجأة قبل أن يستطيع القيام بالدور الذي يستهدفه. كما بدأ يشعر بالمرارة لكبر سنه: لقد كان في التاسعة والخمسين والأجيال الأصغر سناً تقرع الأبواب. لكن بعد انتظار طويل وفي ٦ تموز طار بطائرة / ٤٧ / من مطار صغير قرب «ساليسبري».

كان الصباح صافياً، وبعد وقت قصير أصبح فوق القناة حيث كانت تبدو والبحر من ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم خضراء قاتمة اللون كئيباً.

بعدئذ وقع بصره على الخط الأبيض التي تصنعه الأمواج المتكسرة على طول شاطىء «كوتنتين» بالاضافة إلى ما بقي من «شربورغ». بعد ذلك رأى دماراً كدمار ساحل «أوماها»: سفن نصف غاطسة، وزوارق انزال من جميع الأنواع منتشرة على نحو جنوني وحواجز ساحلية منتزعة ثم علب وصناديق أدوية محطمة وأكداس كبيرة من المؤن وأرتال من سيارات الشحن تتحرك إلى الداخل عبر تلك الكثبان. وعند الهبوط قابله هو وصحبه ضابط من أركان «برادلي». وبما أن حركة السير على الطريق الساحلية ذات الاتجاهين كانت شديدة الكثافة فقد ظلوا أكثر من ساعة قبل ان يتمكنوا من الوصول إلى مقر قيادة «برادلي» الذي لم يكن يبعد إلا بضعة أميال داخل البر في حقل مغطى جزئياً بالأشجار قرب «ازيغني». قضى «باتون» طيلة بغد الظهر يتشاور مع «برادلي»و«هودجز» وفيما بعد مع «كولينز» قائد الفيلق السابع. وفي الصباح التالي حضر الجلسة الصباحية مع «برادلي» وهيئة أركانه كما حضر أيضاً «مونتغومري» ورئيس أركانه من «بيبو». في هذه الأثناء كان «غي» رئيس أركان «باتون»، تصحبه جماعة متقدمة يقطع القناة بقوارب انزال من «سا وثامبتون» وحين وصلوا البر الفرنسي أقاموا مركزاً لقيادة الجيش الثالث في بستان تفاح لا يمكن الدخول إليه إلا بواسطة طريق مغطى بالعشب في الضاحية الجنوبية الشرقية لبلدة «بريكوبك» قرب قرية «نيهو» الواقعة وسط شبه جزيرة «كوتنتين» وعلى بعد حوالى عشرة أميال خلف الخط الأمامي للجيش الأول. وسرعان ما أقام «ويلاند» مقر القيادة الجوية التكتيكية رقم ١٩ في مكان قريب ومن تلك اللحظة فصاعداً سيعمل هو و«باتون» برأي مشترك واحد.

كان وجود «باتون» في رأس الجسر هذا ما يزال سراً مكتوماً على الصعيد الرسمي، لذا كان ينسل من هذا المقر المستور في سيارته الجيب كل يوم تقريباً بعد صدور التعليمات اليومية، فيزور مقر الفيلق الثامن والفيلق الخامس عشر ثم يزور الفرق وكانت تتبعه دائماً سيارة جيب ثانية بغرض الحماية من جهة وتقديم العون في حالة حدوث أية

متاعب من جهة أخرى. وكانت السيارتان مجهزتين برشاشات. وكان «باتون» يحب القيادة بسرعة ٥٠ ـ ٦٠ ميلاً في الساعة لذا عندما كان المرافق المسؤول عن التوجيه يتجاوز المنعطفات بسرعة كبيرة لم يكن «باتون» يغضب مطلقاً. خلال محنة الأسابيع السبعة التي أحاقت بالجيش الامريكي الأول والجيش البريطاني الثاني، تلك المحنة التي ستفسح المجال لـ «باتون» كي يندفع من على جناح «برادلي» الغربي، لم يلعب «باتون» أي دور على الاطلاق رغم أن هذه المحنة كانت بالنسبة للجيش الامريكي الأول من أشد ما واجهه أي جيش أمريكي في الحرب العالمية الثانية. فقبل كل شيء كادت أن تقع كارثة أثناء المذبحة التي جرت على سواحل «أوماها». بعد ذلك جاء السخط الشديد أثناء الزحف نحو «شروبورغ» وأخيراً معارك الاستنزاف الباهظة الثمن التي دامت ثلاثة أسابيع بين أسيجة الشجيرات. فـ «سان لو» التي كان مقرراً ان تسقط في ١١ حزيران ـ لم يتم الاستيلاء عليها إلا في ١٨ تموز. وحتى حينذاك كانت الطريق من «ليسي» إلى «بيرير» بأيدي الألمان، و«سان لو» نفسها كانت تتلقى باستمرار وابلاً من قذائف المدفعية وقنابل الهاون. ومن الجدير بالذكر ان تقدم ٧ أميال غربي «فير» وأربعة أميال تقريباً شرقاً، كلف الامريكيين ثمناً باهظاً للغاية: ٤٠,٠٠٠ اصابة، ٩٠٪ منها تكبدها المشاة.

أما هجوم مونتغومري (غود وود) الذي بدأ في ١٨ تموز على شكل رأس حربة تشكل المقدمة منه ثلاث فرق مدرعة وتساندها قاذفات القنابل البريطانية وقوة السلاح الجوي الأمريكي الثامن بأكملها، فقد أوقف بعد ثلاثة أيام على بعد سبعة أميال من فاليز إذ حصل تبدل مفاجىء في الطقس. والواقع أن مونتغومري كان قد حقق ما خططه في ٢٥ تموز عندما صفت السماء وأصبح برادلي مستعداً للقيام بتسديد ضربته الحاسمة المسماة كوبرا. كان الجيش السادس البريطاني يحجز في جبهته ست فرق بانزر فيها ٦٤٥ دبابة و ٩٢ فوجاً من المشاة، حشدت جميعها بصورة رئيسية لصد أي اقتحام بريطاني متوقع نحو فاليز. وهكذا لم يكن في مواجهة الأمريكيين إلا فرقتا بانزر مؤلفتان من ١٩٠ دبابة. وبعد انتظار طويل حانت الفرصة لبرادلي، تسانده أكثر من ٢,٠٠٠ قاذفة قنابل ثقيلة ومتوسطة تابعة لقوة الحلفاء الجوية، كي يفتح ثغرة يمكن لباتون أن يستغلها.

اضطر أيزنهاور نظراً لبطء تقدم الجيش الأول في كونتنين في الأسابيع الأولى من شهر تموز أن يكسر الجمود وبالاتفاق مع أركانه قرر القيام بعملية إنزال برمائي يقوم بها الجيش الثالث في بريتاني في منطقة مورا على بعد ١٠٠ ميل من شبه جزيرة شيربورغ. وقد تم الاحتفاظ بالفرقة الأمريكية الثامنة والعشرين على شكل احتياطي

يدفع به عند الضرورة، وذلك لأنها كانت قد تدربت على مثل هذه العمليات. وعلى ذلك فقد صدرت الأوامر إلى «باتون» فوراً بعد نزوله في فرنسا بأن يرسم خطة لهذه العملية، وسرعان ما قدم «باتون» اقتراحاً بأن ينزل مؤقتاً فيلق مؤلف من فرقة مدرعة واحدة وفرقتي مشاة في «مورا». ثم يندفع الجميع إلى الشرق عن طريق «دينان» و«سان هيلير» وينحرفون إلى الشمال ثم يسددون ضربة شديدة إلى الألمان المواجهين للجيش الأول، من المؤخرة. بعد تحقيق ذلك يندفع الجميع شرقاً مرة ثانية في الاتجاه العام لـ «ألنسون» و«أرغنتان». بعد ذلك يتقدمون حسب الظروف اما إلى «ايفرو» واما إلى «شارتر» على شكل ضربة قاصمة. وقد قال أحد كتاب سيرة «باتون» المدنيين أنه لو تم تبني تلك الخطة لتخلص الجيش الأول من الآلام المريرة التي كان يعانيها من القتال بين اسيجة الشجيرات اضافة إلى تمكينه من الاسراع بالتقدم. لكن كان من الصعوبة بمكان اثبات صحة هذا الافتراض. عندما رفعت هذه الخطة لأمير البحر رامزي قائد بحرية الحلفاء الذي سارع لابداء الملاحظات بأن دفاعات الساحل قوية جداً وان مخاطر الابحار معقدة كما سيتعرض الاسطول لمخاطر لا مبرر لها بسبب قرب قواعد الغواصات الألمانية وعندما يقدم أمراء البحر الانكليز والامريكان اعتراضات كهذه يغدو الجدال، كما بينت ذلك التجارب، مجرد مضيعة للوقت ولا جدوى منه على الاطلاق. أما كيف كانت ستحل مشكلة المساندة الجوية، وقد كانت عسيرة بسبب قلة مساحة الأرض الحقيقية التي يحتلها الحلفاء في «كوتنتين»، فذلك أمر لم تلق السجلات العسكرية الرسمية أي ضوء عليه.

لهذا السبب عندما قدم «برادلي» لـ «آيزنهاور» الخطة التي رسمها لعملية «كوبرا» في تموز لاقى استجابة حماسية. كانت الخطة تنص على ان يقوم «كولينز» قائد الفيلق السابع باستغلال ضربة جوية هائلة على العدو في منتصف جبهة «برادلي» من أجل خرق ثغرة ضيقة نسبياً ثم الاندفاع بعدد كبير من مدرعاته نحو«كوتانس» وبذلك يفكك الدفاعات الألمانية المواجهة للفيلق الثامن على الجناح الساحلي ويمهد بذلك لاندفاع لاحق نحو قاعدة «كوتنتين» الجنوبية التي تعتبر بوابة طريق «بريتاني». هنا وعلى جرف يرتفع ٢٠٠ قدم تقع «افرانش» التي تشرف على خليج «سان ميشل» حيث تتفرع خمسة طرق شمالاً وشرقاً والبلدة الصغيرة تقع بين نهرين هما نهر «سي» ونهر «سيلون» اللذان يجريان باتجاه المحيط الأطلسي ليصبا فيه. وعند «افرانش» تتلاقى جميع الطرق لتصبح طريقاً عامة واحدة تتجه جنوباً لمسافة خمسة أميال تقطع «سيلون» قرب «بونتوبول» وسرعان ما سوف تعرف هذه النقطة باسم «ثغرة افرانش». بعد ذلك تنتشر الطرق على شكل مروحة شرقاً

وجنوباً وغرباً. عندما يتخلص الامريكان من هذا الخانق كما قال «كلوغ» نفسه، وهو القائد الألماني الذي حل محل «رند ستدت» كقائد عام للجبهة الغربية، «سيصبح الامريكان خارج الغابة» وسوف يكون بامكانهم تحقيق ما يشاؤون لذلك اقترح «برادلي» ان يندفع الجيش الثالث بأسره عبر هذا الخانق لتنظيف شبه جزيرة «بريتاني» بحيث يصبح بالامكان تحرير الموانىء وايجاد نوع من مجمّع موانىء في خليج كبير يمكنها تأمين الامداد لجيش امريكي ارتفع عدد فرقه في النهاية إلى مئة فرقة. عند انجاز هذه العملية يندفع «باتون» شرقاً وقد كان هو شخصياً يفكر بخطة مشابهة لهذه الخطة منذ ١٣ أيار.

كان «باتون» عند وضع الخطة، يستخدم دائمًا خريطة «ميشلين» السياحية للطرق وكما قال، فقد كانت تقدم له كل ما يبتغيه ـ من خطوط حديدية وشبكات طرق وأنهار وكل ما يريد الانسان ان يعرفه عن الأرض بصفة عامة، بينما يترك أركانه يتصارعون مع التفاصيل الموجودة في الخرائط ذات المقاييس الأكبر. عندما كان «باتون» يبتعد عن مقر قيادته كان يحمل معه دائمًا خريطة خاصة لمنطقة العمليات المباشرة مغطاة بغطاءمانع للماءحجمها ١٠ × ٢٠ انشاً ومقياسها انش واحد لكل ثمانية أميال، تظهر عليها أهم المدن ومقاطع لطرق ومعلمة كلها برموز سرية عددية للدلالة عليها. وبالاشارة إلى هذه الاعداد كان باستطاعة «باتون» ان يخبر أركان قيادته عن مكان وجوده وما يريد ان ينجز وكان مع رئيس أركانه وضابط اشارته والعقيد «كوتش» نسخ مشابهة. بالاضافة إلى ذلك كان مع «كوتش» نموذج كامل لأرض «بريتاني». على كل حال كان «باتون» يعرف تماماً طبوغرافية شبه الجزيرة لأنه كان قد استطلعها سنة ١٩١٢ كما انه انعش ذاكرته جزئياً بمساعدة كتاب «الفتح النورماندي» بقلم «فريمان» وقد ثبت في ذهنه انه حيثما كان «وليام» الفاتح يذهب يحسن به هو أن يذهب اذ من الواضح انه اتبع خطوط تقسيم المياه. كان «باتون» يعتقد بأن هذه الطرق ستكون صالحة لسير الدبابات أثناء الطقس الرطب إذا قام الألمان، كعادتهم التي لم يغيروها عند الانسحاب، بتدمير الطرق الرئيسية.

كان «باتون» يضع جميع خططه انطلاقاً من تقليد الخيالة ـ قرار سريع وتنفيذ سريع وجرأة يعتمد عليها. فتنفيذ خطة جيدة بشكل عنيف الآن أفضل من تنفيذ خطة كاملة في الاسبوع التالي. وكسياسة عامة قرر أنه أثناء العمليات القادمة على الحرس المتقدم من كل رتل عند ضرب أية مقاومة ان يطوق العدو ويحتجزه، أثناء ذلك يستمر حرس متقدم آخر بالاكتساح التدريجي حتى يصل إلى المقاومة التالية. وحينئذ تتكرر عملية «قفز الضفادع» ذاتها. وحين لا يظل لدى العدو وقت للوقوف على قدميه لن يستطيع القيام بضربة مضادة. هذه الطريقة، من حيث الجوهر، هي التي جلبت النصر للألمان في

«بولندا» وفرنسا وشمالي أفريقيا في السنوات الأولى للحرب.)

كيف استطاع «باتون» في هذه المرحلة ان «يؤثر» على خيال وتصورات جنوده؟ يمكننا ان نكتشف ذلك من ثنايا رسالة بعث بها ضابط شاب إلى والده في حوالى ٢٥ تموز واقتبس منها «سيمز» التالي: «اجتمع ضباط أركان الجيش الثالث، طبقاً لـلأمر الصـادر، في ساحة قلعة. وفجأة فتحت الأبواب الأمامية وخرج منها ضابط غريب عجيب وقف تحت أشعة الشمس يتفرس بهم دون ان يتفوه لأول وهلة ببنت شفة. سكت الجميع ونظروا إليه فبدأ حالاً الكلام بصوت مرتفع وغير لطيف. كان الانطباع الأول الذي تركه هو انه شخص قوي يرتدي ملابس ممتازة نظيفة لا تشوبها أية شائبة، وحذاء يلمع وشارات متعددة تبدو على كل جزء منه علامة الجنديَ والقائد. وقبل ان يتكلم كثيراً عرف الجميع انه القائد».

وكما قال الكاتب «اعتقد ان الحفلة كانت قد دبرت على نحو ما وأخرجت بعناية تامة وانه جاء كي يستولي علينا جميعنا وأظن انه نال ما تمناه. فبالنسبة لي لم يصطدني وحسب بل جعلني أسير حبه وانني مستعد لأن أذهب معه إلى آخر الأرض».

أما خطة استغلال حملة «كوبرا» فقد طورها «باتون» بحيث خرجت تحمل دمغته وهو في أحسن حالاته: لم يكن يهتم بفتح الموانىء ليرضي حشداً من خبراء الادارة والتموين الدائمي الجلوس على الكراسي: بل كان قد عقد العزم على إبادة مجموعة الجيوش «ب» فوراً. إذ كان على الفرقة المدرعة الرابعة أن تندفع مبتدئة العمليات من فجوة «افرانش» وتزحف مباشرة نحو «دينز» و«كيبرون» وبذلك تقطع شبه جزيرة «برست» قريباً من قاعدتها فتعزل من في داخلها من الألمان كما تمنع قدوم تعزيزات لهم من الشرق ومن الجنوب. أما الفرقة المدرعة السادسة فتنطلق مباشرة نحو «برست» عن طريق الهضبة المركزية وبهذه العملية تحرر منطقة فرنسية واسعة مع طرد الألمان إلى الموانىء بحيث ينقض عليهم المشاة في ما بعد، وأخيراً كان على وحدة موقتة اسمها وحدة المهمة « آ » (مؤلفة من الأسلحة الثلاثة البرية والبحرية والجوية) أن تؤمن السيطرة على سكة الحديد التي تتبع، بصورة عامة، خط الساحل الشمالي وذلك باحتلال الجسور قبل ان يتمكن الألمان من نسفها. عندما يتحقق كل ذلك، يندفع الجيش الثالث شرقاً عبر مناطق الألمان الخلفية بسرعة البرق ناشراً الموت والدمار وهو مندفع قدماً. وقد أطلق «باتون» العنان للجميع إذ مهما كلف الأمر كان ينبغي ان يندفعوا دون توقف حتى ما وراء نقطة الانهاك وهي مهمة لا تناسب أمزجة رجاله وحسب بل تناسب كل أمريكي أصيـل أيضاً.

ولكي يبقي اشُرافه كاملاً على سير المعركة أبقى تحت سيطرته الشخصية مجموعة الخيالة السادسة، بقيادة العقيد «م. فيتشت»، التي تعرف باسم «خيالة باتون البيتية». أما مهمة هذه الوحدة، فقد كانت اعداد دوريات تحمل أجهزة لاسلكي بحيث تنطلق في كل مكان من الجبهة والأجنحة بكاملها كي ترسل تقارير مستمرة ومباشرة عن الوضع العسكري إلى مركز قيادته المتقدم. وقد أظهر أولئك الرجال كفاءتهم، كما سنرى حالاً، شأنهم شأن أولئك الذين أطلق عليهم «مونتغومري» اسم «الاشباح»، وكان لهم عنده نفس المهمة، وبذلك كان «باتون» وأركانه يظلون على علم في ما يتعلق بموقف من المواقف على نحو أفضل من الفيلق أو الفرقة المعنية. ولا شك ان مجرد معرفة الضباط والجنود بأن «باتون» يعرف ما يفعلون وربما يعرف أكثر من ذلك، هذه المعرفة تشكل حافزاً قوياً جداً.

نوى «برادلي» ان يشن عملية «كوبرا» في اليوم الرابع والعشرين. ولكن بسبب رداءة الطقس ألغى الهجوم في اللحظة الأخيرة، إنما جاء الالغاء متأخراً كثيراً فلم يمنع ٣٠٠ قاذفة من أن تسقط قنابلها التي سقط بعضها على جنوده أنفسهم وأدى ذلك إلى نتائج مأساوية.

لكن بعد طول انتظار، وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي بدَأ الهجوم الجوي الكبير، وهذه المرة سددت الضربات إلى الهدف. ويعلق «بييرلين» قائلاً إن فرقة بانزر «لهر»، وهي ضعف حجم فرقة بانزر اعتيادية وأفضل فرق البانزر تجهيزاً ويعتبر رجالها من النخبة الأشداء، بالاضافة إلى فرقتي المظليين الثالثة عشرة والخامسة عشرة أصبحت وكأنها في «رواق موت» عرضه أربعه أميال وعمقه ميلان« فقد دفنت الخنادق ودمرت مرابض المدافع المضادة للدبابات وأشعلت النار في خزانات البترول وخزانات الذخائر والمؤن». ويمكن القول إن أكثر من نصف عدد الألمان الذين كانوا هناك قد قضي عليهم اما قتلى أو جرحى أو دفنوا أحياء أو أصيبوا بالجنون. بل حتى الدبابات والمدافع دمرت وأصبحت قطعاً صغيرة، أمّا الطرق فلم تعد صالحة للسير وبعد نصف ساعة كانت هذه القاذفات تهاجم كل ما يتحرك تحتها. وعندما بدأ الفيلق السابع بالتقدم للقيام بالهجوم واجه عراقيل من الدمار والخراب الذي خلفته القاذفات أشد من مقاومة من بقي من الألمان، وعندما رأى «كولينز» ان دفاعات الألمان قد تحطمت شكل فرقتين سريعتي الحركة في الصباح التالي:

الأولى وهي الفرقة التي تقدمت نحو شرق «ماريغني» لم تواجه إلا مقاومة ضئيلة

وفي اليوم السابع والعشرين كادت تصل إلى «تسي ـ سير ـ فير».

أما الثانية التي اندفعت نحو «كوتانس» فقد واجهت مقاومة شرسة. كان أمامها «بييرلين» الذي لم يبق في مقر قيادته إلا ٢٠ ضابطاً ورجلاً، فأخذ يبذل جهده وهو في بيت مزرعة قديم كي يجمع البقية المبعثرة من فرقته. هاجمت الدبابات الامريكية من بقي معه من الأحياء. واشتعل النار في البناء وهبت في جميع زواياه، ومن الجدير بالذكر ان آخر من غادر هو «بييرلين» نفسه وفي ظلام الليل شوهد وهو يسير على الطريق متجهاً نحو الجنوب. كان بمفرده وقد قضي قضاءً مبرماً على فرقته الهائلة ـ فرقة بانزر «لهر»، زهرة فيلق البانزر، التي كان «غودريان» قد قال عنها في ذلك الربيع: «بهذه الفرقة وحدها يمكنك ان تطرح الانكلوسكون في البحر».

كان الوقت قد حان لبدء الفيلق الثامن هجومه الكاسح على الساحل إذ كلما تمكن هذا الفيلق من الاسراع في الوصول إلى «أفرانش» كلما كان بامكان «باتون» أن يسرع في اطلاق جيشه، ولذلك دعاه «برادلي» ذلك المساء إلى المقدمة كي يعمل نائبا له. أما هيئة أركان الفيلق الثامن التي كانت قد اعتادت على الاجراءات الحذرة المتمهلة للجيش الأول فقد ترنحت من وطأة هذه الصدمة. منذ ذلك الوقت فصاعداً أصبحت عمليات ذلك الفيلق تحمل لمسة «باتون». ففي صباح الغد كانت فرقتان مدرعتان ستقومان بقيادة الهجوم متجهتين نحو الجنوب وكان «هاوسر»، أملاً منه بالتملص من الضربة، قد أمر الأحياء المتبقين من قوته الذين كانوا في مواجهة الفيلق السابع والثامن بالجلاء نحو الشرق بدلاً من الجنوب وبذلك واجهوا دروع الفيلق السابع وتمزقوا إرباً. باتت الطريق مفتوحة، وسقطت «كوتانس» في اليوم الثامن والعشرين. ثم سقطت «غرانفيل» و«افرانش» في اليوم الثلاثين. أثناء ذلك أصدر «مونتغومري» أمره للجيش الثاني ببدء الهجوم، بحيث يلتف حول محور «كومون» كي يشن هجومه. في اليوم الأول من شهر آب أصبح الجيش الثالث يعمل رسمياً كجزء من مجموعة جيوش جديدة ـ مجموعة جيوش «برادلي» الثانية عشرة. أما «هوجز» فسوف يستلم قيادة الجيش الأول. ويظل «مونتغومري»، موقتاً، مسؤولاً عن القيادة العامة للعمليات، مع ان قراراته غدت بمرور الأيام تخضع أكثر وأكثر لنقد الامريكيين وموافقتهم.

في هذا الوقت، والفيلق الثامن متقدم عند «افرانش» كان «باتون» يضع خلفه في العمق الفيلقين الخامس عشر والعشرين وهما يتلهفان للبدء بالعمليات. وإلى الوراء كان مقر قيادة الفيلق «١٢» يشرف على الحركات المتقدمة وعلى السواحل. حينذاك كان نضال

الأسابيع السبعة، نضال الموت والفناء قد اقترب من النهاية. ولاحت في الجو إمكانية تنفيذ عملية «جنا» مرة ثانية. إذ بعد ان تم الانتصار لـ «نابليون» اطلق هذا العنان لـ «مورا» مع حشود خيالته للقيام بمطاردة قاتلة للجيشين البروسي والسكوني. كذلك في تلك الليلة، ليلة ٣١ تموز، وَقف «باتون» والجيش الثالث برباطة جأش وثقة بالنفس، تواقين ومتأهبين للقيام بتسديد الضربة النهائية القاصمة. كان التشابه قوياً بين الرجل والجنود والساعة وكان التناظر تاماً.

الفصل العاشر
الحرب طبقاً لخريطة ميشلين

لاتباع الطريق الأفضل
استخدم خريطة ميشلين مقياس ١٠٠,٠٠٠/١

منذ «يوم الهجوم» غدت الجبهة الألمانية أشبه بدفاعات بحرية لساحل منخفض معرض لضربات بحر هائج وعواصف لم يسبق لها مثيل. كانت أحياناً تظهر ثغرة فيها إنما سرعان ما تسد لتعطي الانطباع بالقوة والمرونة وحسن الحركة وكأنها فولاذ جيد السقي، لكن تغير كل شيء فجأة تحت شمس وغبار اليوم الأول من شهر آب: فعلى الجناح الغربي من «افرانش» تقدم سيل كبير من الجيش الثالث بقوة وعنف متزايدين وأخذ يهدر منطلقاً قدماً: لقد حانت أعنف لحظة من لحظات معركة «النورماندي»: فخلال ساعات كان يتغير الوضع على طول الجبهة، وخاصة جبهة الجيش الثالث، مراراً وتكراراً. وبعد ربع قرن لم تفقد الأيام إلا القليل من توترها الشديد ذاك رغم مرور الزمن.

بالنسبة للجيش البريطاني، كان أحد الأسباب التي جعلت «مونتغومري» يحافظ على معنويات جنوده هو تأكيده عليهم جميعاً بأنهم، وحسب نص كلماته: «ينبغي ان يظلوا في الصورة». ونتيجة لهذا لم يهمل قادته أية فرصة لجعل رجالهم يشاهدون على خرائطهم كيفية سير المعركة ومكان وجود العدو. أما «مونتغومري» الذي كان دائم التنقل انما دون عجلة أبداً، فكلما كان يصل إلى مجموعة من جنوده كان يشير لهم على خريطته الخاصة أين كانت فرق البانزر وماذا يفعل الامريكيون وبماذا يفكر هو شخصياً وبذلك كان يقطع الطريق على السؤال المحتمل: إذا كنا نقاتل معظم فرق البانزر على جبهتنا

فلماذا اذن يبطىء الامريكيون كثيراً في عملية الاختراق؟» وكان جميع من يحتمل ان يصبحوا استراتيجيين، من مستوى قائد فصيلة فما فوق، يحصلون بذلك على الجواب.

لقد أصبح سؤال الساعة من تلك اللحظة فصاعداً هو «أين جورجي باتون الآن؟» رغم ان وجوده على الساحة يفترض ان يكون سرياً للغاية. لقد رأى أولئك الجنود في «باتون» أحد الرجال الذين يقررون المصائر وذلك لأنهم، بفضل دور السينما وما أخرجته هوليوود من أفكار وأساطير في الأربعينات، كانوا يستطيعون بسرعة ان يروا فيه «رجل القدر». فالرجل كان في السابق يمثل في هيكل آلهتم بطلاً غريب الأطوار، أما الآن فقد بات أمامهم بطلاً أمريكياً صرفاً. لقد بدأت القصص تنتقل من فم إلى فم وهي تتحدث عنه بالتفصيل من «فاليز» حتى نهر «فير». كانت الحرب بالنسبة لهم قد اكتسبت بظهور «باتون» الصفة الدراماتيكية التي يتصف بها الشوط الثاني من مباراة دولية، الفريق الوطني فيها على وشك الانتصار. فـ «باتون» وهو يتأرجح في المصفحة العملاقة سيسدد إلى الجيوش الألمانية ضربة قاضية تشبه ضربة شمشون لأعدائه، وعندما يقطع عليهم خط التراجع لن يترك لهم إلا أعينهم كي يذرفوا منها الدموع. كان على الألمان ان ينسحبوا أو انسحقوا تماماً وكان لهذا الحل ميزاته، أو كان يحبذه الضباط والجنود إنما لسوء الحظ كان هناك عامل واحد لم يعرفوه كما انهم لم يستطيعوا في ذلك الوقت ان يعرفوا عنه شيئاً، وأعني بذلك الأصداء التي أسفرت عن القنبلة التي وضعها «فون ستوفنبرغ» تحت الطاولة أثناء المؤتمر الذي ترأسه «هتلر» في «عرين الذئب» قرب «راستنبرغ» في بروسيا الشرقية وذلك في العشرين من شهر تموز.

قبيل منتصف ليلة ٣١ تموز، عندما كان رجال الفرقة المدرعة الرابعة يحاولون انتهاز الفرصة ليقفوا قليلاً قبل الانطلاق صباحاً من رأس الجسر الذي استولوا عليه بكامله عند «بونتوبول»، كان اجتماع آخر يعقد في مقر قيادة «الفوهرر» لبحث اقتراحات «جودول» القائلة بأن «التخطيط لانسحاب محتمل من الجبهات الساحلية، ينبغي ان يبدأ فوراً». لم يحضر ذلك الاجتماع من قيادة «هتلر» إلا «جودل» ونائبه «وارليمونت»، وممثل عن الحرس النازي ذوي القمصان السود وثلاثة ضباط آخرين من ذوي الرتب الصغيرة، استمرت كلمة «هتلر» مدة ساعة كاملة ومن العجيب ان التسجيل الحرفي لمحضر الجلسة قد بقي بكامله. اعترف «هتلر» أثناء حديثه الطويل غير المنتظم والذي يدل على تدهور صحته، بأن التهاباً في أذنيه يمنعه من السفر جواً وانه لا يستطيع الوقوف منتصباً مدة طويلة دون ان يشعر بالدوار وانه كان يشعر أحياناً بصعوبة في المشي. بعدها ألقى وابلاً من السباب والشتائم على الضباط الكبار الموجودين في «الويهر ماخت» (القيادة الألمانية)

وخاصة هيئة الأركان العامة قائلاً بأنه ما من أحد منهم جدير بالثقة وأن اللوم يقع عليهم وعليهم وحدهم للورطة الشديدة التي تتخبط المانيا فيها الآن. ثم استطرد ذاكراً الوضع الاستراتيجي على كل الجبهات واعترف بمهارة الانكليز في القيام بانزالات برمائية على سواحل أوروبا مهما بعدت مسافتها ـ اذن الضرورة ملحة لابقاء الأمور على ما هي عليه. وبعد طول انتظار وصل إلى نهاية تهجمه ونقده اللاذع وذكر أخيراً الهدف الحقيقي من الاجتماع. إنه لا يثق بـ «فون كلوغ» القائد العام للجبهة الغربية ولذلك فانه من ذلك الوقت فصاعداً سيشرف شخصياً على العمليات في فرنسا. لذا يجب ان يبلغ «فون كلوغ» أولاً بأن عليه أن يقاتل هناك في كل الظروف والأحوال، ثانياً أن هذه المعركة حاسمة ثالثاً ان فكرة العمل بحرية وعلى المكشوف نوع من الهراء وبعد ان شل حركات قائده العام في فرنسا أصدر أمره بتشكيل هيئة أركان خاصة في مقر قيادته لرسم ما يلزم من خطط في حال الاضطرار إلى الانسحاب.

كما قال إن هناك حاجة ملحة لكسب الوقت. إذ يجب أولاً ان تصبح الموانى الفرنسية قلاعاً ينبغي الصمود فيها حتى آخر رجل وآخر طلقة وبعدها ينبغي تدمير جميع المنشآت. ثانياً عندما تصدر الأوامر من رئاسة الأركان بالانسحاب ينبغي نسف جميع الجسور وورش السكك الحديدية ومرافق الاشارات أي يجب ان نترك للعدو أرضاً محروقة كما حدث سنة ١٩١٧ عندما انسحب الألمان إلى خط «هندنبرغ». ثم أرسل «وارليمونت» ومعه أوامر صريحة لـ «كلوغ» بأن يبقي عينيه موجهتين إلى الأمام وعلى العدو دون ان يفكر أبداً بالالتفات نحو الخلف. فأي شيء ينبغي فعله في المؤخرة إنما هو من مسؤولية رئاسة الأركان ورئاسة الأركان وحدها.

إن المقارنة بين فقدان الثقة الذي ضرب أطنابه بين «هتلر» وجنرالاته وبين الاخلاص الاجماعي والولاء المشترك الذي أظهره الجميع لـ «آيزنهاور» و«مونتغومري» و«برادلي» في هذا الوقت، تثير الذهول والاستغراب. لقد أحرز الكتاب والصحفيون أموالاً طائلة في ذكر تضارب الأفكار والمصالح المزعومة ما بين الامريكان والبريطانيين في هذه الحملة حتى رسخ نوع من الانطباع بوجود خلاف وجدل مستمرين بالاضافة إلى سوء التفاهم، والواقع ان العكس هو الصحيح. فقد أكد «برادلي» أن «مونتغومري» مارس خلال حملة «النورماندي» السلطة التي منحها له الحلفاء: «بكل حكمة وحلم وتسامح وضبط نفس واعتدال» وعندما كان ينسق بين الجيش الامريكي الأول والجيش البريطاني الثاني كان يتجنب بكل عناية التدخل في قرارات القيادة الامريكية وبدلاً من ذلك كان يمنحنا حرية العمل بصورة مستقلة وحسب اختيارنا أما في داخل الجيش البريطاني فقد

اعتاد أولئك المعاصرون له والذين اعتبرهم غير مناسبين للقيادة، أن يقولوا «إنه يقود كل فصيلة من فصائل الجيش البريطاني» والحقيقة ان هناك شيئاً من الصحة في هذا القول. فلَم يكن ثمة أحد يمكنه شم رائحة القتال أفضل منه. إذ ما أن يظهر أي خلل في أية عملية من عمليات الجانب البريطاني حتى ينقض وكأنه الغضب الإلهي كي يصحح الخلل دون هوادة أو رحمة. ولم يكن هناك من أدرك خيراً منه أن معاملة الامريكان بهذا الشكل لا يمكن ان تحدث سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة العسكرية، ومما لا شك فيه ان تأثيره على العمليات الامريكية أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً عندما اتخذ «آيزنهاور» مقراً له في معسكر «تورينه» في ٧ آب وأصبح «برادلي» مثله تماماً قائد مجموعة جيوش في اليوم الأول من شهر آب. هذا الفقدان للسيطرة يفسر لماذا اتخذت المعركة اتجاهاً آخر في الأسابيع الحرجة القادمة.

غدت فجوة «افرانش» نفسها مشكلة من أشد المشاكل التي واجهت المهندسين وهيئة الأركان في الجيش الثالث ارباكاً، فعلى الجناح الساحلي لـ«كونتنتين» لم يكن هناك إلا طريقان رئيسيان نحو الجنود أحدهما غاص بالقنابل وشظايا القذائف والحيوانات النافقة والمركبات المحطمة بالاضافة إلى الألغام المزروعة فيه وحوله وفي بعض الأماكن كان الطريق مسدوداً تماماً لما تراكم فيه من الحجارة والأنقاض الأخرى التي كانت مدناً صغير أو قبل قذفها بالقنابل. ولحسن الحظ لم يكن هناك نقص في الجرافات الضرورية لتنظيف الطرق وجعلها صالحة للسير خاصة في «افرانش» نفسها. أما أسوأ الخوانق فكان عند «بونتوبول». ففي هذه الفوضى والخراب يجب ان تمر جميع وسائط النقل المتوجهة إلى «بريتاني»، علمًا بأن الطريقين الأساسيين نحو الجنوب يتفرعان عند «كوتانس» ومرة ثانية عند «افرانش». كان الطقس قد أصبح شديد الحرارة وكان الغبار الكثيف يملأ الجو خلف حركة السير. على هذا الخانق وجه الألمان كل ما لديهم من قاذفات قنابل «لوفتلوت ٣». ومما لا شك فيه ان العبور المذهل الذي حققته الفرقتان المدرعتان خلال هذا الخانق يعطينا دلالة عن الكفاءة الرائعة التي كان يتمتع بها أركان الجيش الثالث والمدفعية المضادة للطائرات والمقاتلات الحليفة والوحدات نفسها إذ أن العبور لم يستغرق أكثر من ٢٤ ساعة. وجدير بالذكر أيضاً أن «باتون» ومعاونيه الذين كانوا أحياناً يخرقون جميع القوانين بوجودهم في جحيم المعركة وتحت وابل من القذائف، ليلاً نهاراً، قد بثوا بالتأكيد روح النشاط والبسالة في جنود فرقتين لم تنهزما أبداً طوال تلك الحملة. لقد كتب أحد قادة الفرق يقول: «قضيت معظم وقتي وكأني شرطي سير» و«باتون» نفسه لم يكنَ يعارض بأن يبذل جهوده الشخصية على هذا النحو. فعندما توقف

في «افرانش» بسبب ضجيج الشاحنات المخيب للآمال قفز من سيارته الجيب ووثب إلى داخل كشك للشرطة على شكل مظلة في وسط الساحة ليوجه من هناك حركة السير على مدى ساعة ونصف بكل حماس وحمية واندفاع وقد كان تأثير ذلك على السائقين كتأثير التيار الكهربائي، وهذا أمر رائع إذا قورن بتصرفات القادة الآخرين في أي مكان آخر أثناءتدخلهم في مثل هذه الظروف. إذ أنهم كانوا يزيدون من الفوضى وتعقيد الأمور عندما يتسلمون بأنفسهم مهمات الشرطة العسكرية. لكن بالرغم من كل هذه العراقيل، لم ينتصف اليوم الأول من شهر آب حتى كانت الفرقة المدرعة الرابعة تسير بكل حرية جنوبي «بونتوبول».

في هذا الوقت كانت الأوامر التي أصدرها «هتلر» إلى «كلوغ» في ما يتعلق بتحويل الموانىء إلى قلاع، نظراً لسيطرة الحلفاء على الجو وافتقار الفرق الساحلية لسرعة الحركة، قد بات لها ما يبررها، وقد نقلها «كلوغ»، بعدم رضاً ملحوظاً إلى «هاوسر» قائد الجيش السابع. لقد أدرك كل منهما انه سيسفر عن ذلك عزل حوالى ٢٠٠,٠٠٠ جندي بينما يمكن في غير هذه الحالة ارجاع بعضهم لأعداد مراكز احتياطية خلف مجموعة الجيوش: أما «هاوسر» الذي كان منهمكاً في عمليات «النورماندي» فقد نقل تلك الأوامر غير المشكورة، بالنسبة لمهمة الدفاع عن «بريتاني» إلى «فارمباخر» قائد الفيلق «٢٥» وبذلك غسل يديه من تلك المهمة. كانت معركة «نورماندي» قد امتصت حوالى ثلثي الفرق المدافعة عن «بريتاني». أما البقية فكانت تتألف من فرقة المظليين الثانية وفرقة المشاة «٣٤٣» حول «برست» والفرقة الضعيفة «٢٦٦» قرب «مورليكس» والفرقة «٢٦٥» الثابتة عند «لوريان» و«سان نازير» و«نانت»، يلحق بها بطاريات مضادة للطائرات ومجموعات مضادة للدبابات ومهندسون وعاملون في السلاح البحري والسلاح الجوي. ولتعزيز هذه القوات حضرت البقية الباقية من الفرقتين «٧٧» و«٩١» الخارجتين عن معركة «نورماندي»، أرسلها «فارمباخر» لتعزيز حامية «سان ما لو» وللدفاع عن «رينز». وقد أصدر هو نفسه أوامر إلى قادة القلاع بأن مهمتهم الرئيسية هي حماية قواعد الغواصات في «سان مالو» و«برست» و«لوريان» و«سان نازير» وان يقاتلوا حتى النهاية. بعد اصدار هذه الأوامر أقام «فارمباخر» في «لوريان». وبسبب الافتقار للاتصالات لم يستطع هذا القائد ان يمارس أكثر من سيطرة محلية. بعدئذ أخذ كل الماني استطاع ان يستولي على سيارة آلية بالاسراع إلى ترك الفرنسيين داخل «بريتاني» ليتولوا الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم، وأنطلق مهرولاً كالأرنب نحو الموانئ وإلا تعرض اما للاغتيال على أيدي جيش فرنسا الحرة أو لرصاص الدبابات الاميركية. يبلغ عدد سكان «رينز»

عاصمة المقاطعة ٨٠,٠٠٠ نسمة وتبعد ٦٠ ميلاً عن «افرانش» و٦٠ ميلاً أخرى عن الساحل الجنوبي في «كويبرون». ويتفرع منها ما لا يقل عن عشرة طرق رئيسية. صدرت الأوامر من «ميدلتون» إلى «وود» قائد الفيلق الثامن بأن يستولي على «رينز» فقط. وعندما استلم «باتون» زمام القيادة في اليوم الأول من شهر آب حدد للفيلق احتلال «كويبرون» على بعد ٦٠ ميلاً أخرى حتى يغلق شبه جزيرة «بريتاني». ومن الطبيعي ان ينصاع «وود لهذه الأوامر لكونه من جنود الخيالة أيضاً. وفي وقت مبكر من المساء وصلت طلائع دباباته إلى ضواحي «رينز». هنا واجه الفيلق مقاومة عنيفة من مجموعة مقاتلة من الفرقة «٩١» بإمرة مقدم كان قد وصل إليها قبل الفيلق بوقت قصير. وقد انضم إلى هذه القوة، مباشرة بعد ذلك، فوجان آخران تعدادهما ١,٩٠٠ جندي جاؤوا من «ليمان». دافع الألمان عن «رينز» بعنف شديد عندما خيم الظلام كان الامريكان قد خسروا ١١ دبابة. خلال الليل وصل «كونيغ»، قائد الفرقة «٩١»، مع جنود آخرين وتسلم زمام القيادة. أما «وود» وقد أخذ يلاحظ نقص البترول والذخيرة والجراية الغذائية فقد قرر انه لكي يتمكن من احتلال المدينة عليه ان يقوم بهجوم مركز بالمشاة وليس بالمدرعات. وافق «ميلدتون» على ذلك وأرسل إليه «الكتيبة ١٣» من الفرقة الثامنة لتحقيق هذا الهدف. بعد أن تزود «وود» بالوقود أخذ زمام المبادرة وأنقضّ بمدرعاته على شكل قوسين كبيرين في عملية التفاف حول المدينة وبذلك تمكن من قطع ٧ طرق من الطرق العشرة الرئيسية فأصبح الموقع في حكم المعزول.

يعتبر الاقتحام الذي قامت به الفرقة المدرعة السادسة أيضاً دراماتيكياً. ففي وقت مبكر من اليوم الأول من شهر آب أصدر «ميدلتون» أوامره إلى «غرو» وهو قائد آخر من مدرسة «باتون» وطرازه، بأن ينطلق نحو «دينان» في ذلك العصر ذاته، وبعد ساعة أو ساعتين وصل «باتون» نفسه فوضع يده على كتف «غرو» ثم قال: «استول على برست». سأله «غرو» إن كان هناك هدف متوسط فأخبره «باتون» أن عليه ان يتجاوز أية مقاومة ثم أردف بأنه تراهن مع «مونتغومري» على أن «غرو» سيكون في «برست» لسلة السبت، أي مسافة ٢٠٠ ميل في خمسة أيام. وكان هذا كافياً لـ «غرو» الذي امتلأ قلبه سروراً لكونه أحد جنود الخيالة فقال: «هذا ما قضينا السنين الطوال ونحن على مقاعد الدراسة كي نصبح مؤهلين لانجازه». مع ذلك، لم تكن بداية انطلاقه سهلة. فعلى بعد ستة أميال وراء «بونتوبول» سدت مفرزة من الجنود الألمان الطريق عند أحد الممرات الاجبارية مبدية مقاومة عنيفة، لم يتمكن من القضاء عليها كلياً إلا عند حلول الظلام. مع شروق شمس اليوم الثاني من شهر آب كانت الفرقة تسير دون مقاومة: «لا حدود تهتم بأمرها،

لا معلومات محددة، والواقع لا شيء سوى خريطة «بريتاني» والادراك بأن المقاومة هي حيث تجدها. في ذلك اليوم اندفعت الفرقة قدماً مسافة ٣٥ ميلاً، بعدئذ صدتها مقاومة عنيفة منظمة في ضواحي «دينان»، وقد أوضح الاستطلاع أن المكان قوي التحصينات، لذا عقد «غرو» في تلك الليلة اجتماعاً مع أركانه الذين أشاروا إلى أن القوافل وكذلك فرقة المشاة «٧٩» ستستغرق أياماً قبل ان تلحق بهم. ونصحه رئيس أركانه بأنه من الآن فصاعداً ينبغي على الفرقة أن «تبقى متماسكة لضمان أمنها»، أي بكلمات أخرى ينبغي التريث ريثما تصلها امدادات أخرى ومن ثم تتابع الزحف. غير ان «غرو» أدهش أركانه عندما أعلن ان الزحف سوف يستمر في صباح اليوم التالي. وطبقاً لذلك وبعد اشتباك بسيط مع العدو عند «مورون» اندفعت الفرقة مسافة ٣٠ ميلاً أخرى. عند ذاك وصل أمر حاسم لا يقبل المناقشة من «ميدلتون» بأنه ينبغي حشد القوات وأن يرجعوا على أعقابهم كي يحتلوا «دينان» باعتبار انها خطوة أولى للهجوم بنطاق فيلق كامل على «سان مالو». في الحال أرسل «غرو» احتجاجاً إلى «ميدلتون» إنما دون أن يحظى بأي تغيير. وهكذا كانت طلائع فرقة «غرو» في ليلة الثالث من آب عند «لوديبك» تعاني من أشد حالات المرارة وخيبة الأمل، وقد عطلت مسيرتهم أوامر من سلطة عليا رغم انها لا تبعد عن «برست» أكثر من ١٠٠ ميل. كان «باتون» قائد الجيش ومن جنود الخيالة وكان «ميدلتون» قائد الفيلق الثامن ومن جنود المشاة وكان الاثنان متباعدين تباعد القطبين.

في الصباح التالي، وبينما كان «غرو» وأركانه في مقر قيادتهم في أحد حقول القمح منهمكين في رسم خطة للهجوم على «دينان» حسب أوامر «ميدلتون» اندفع «باتون» بينهم فجأة وهو في حالة هياج شديد، صائحاً «ماذا تفعلون هنا بحق الشيطان ؟ اعتقد انني أمرتكم بالزحف على «برست». أخبره «غرو» أنه كان قد أوقف الزحف بناء على أوامر خطية من قيادة الفيلق الثامن عندئذ سلم رئيس الأركان الأوامر إلى «باتون» الذي قرأها ثم طواها وخبأها في جيب بنطلونه. بعد ذاك قال بهدوء وكأنه يفكر بصوت عال «انه لجندي مشاة حقاً». ثم التفت إلى «غرو» وقال: «أنا سأواجه «ميدلتون»، أما أنت فعليك أن تمضي حيث طلبت منك». لقد أضاع «ميدلتون» يوماً كاملاً عندما كان للوقت أعظم قيمة: إذ لم يدرك ان احتلال «برست» يتوقف بالدرجة الأولى على السرعة في استغلال حالة الذعر الهائلة التي حلت بالألمان قبل ان يستطيع المدافعون عن «برست» تنظيم أنفسهم وقبل أن تصلهم التعزيزات. وكان «باتون» يرمي إلى هدف أكبر من «سان مالو» التي كانت في كل الأحوال، ستدمر كما دمرت «شيربورغ».



(١) «باتون» يزور سلطان المغرب في الرباط



(٢) «آيزنهاور» يعلق النجمة الذهبية الثالثة على صدر الفريق قائد فيلق الولايات المتحدة الثاني.

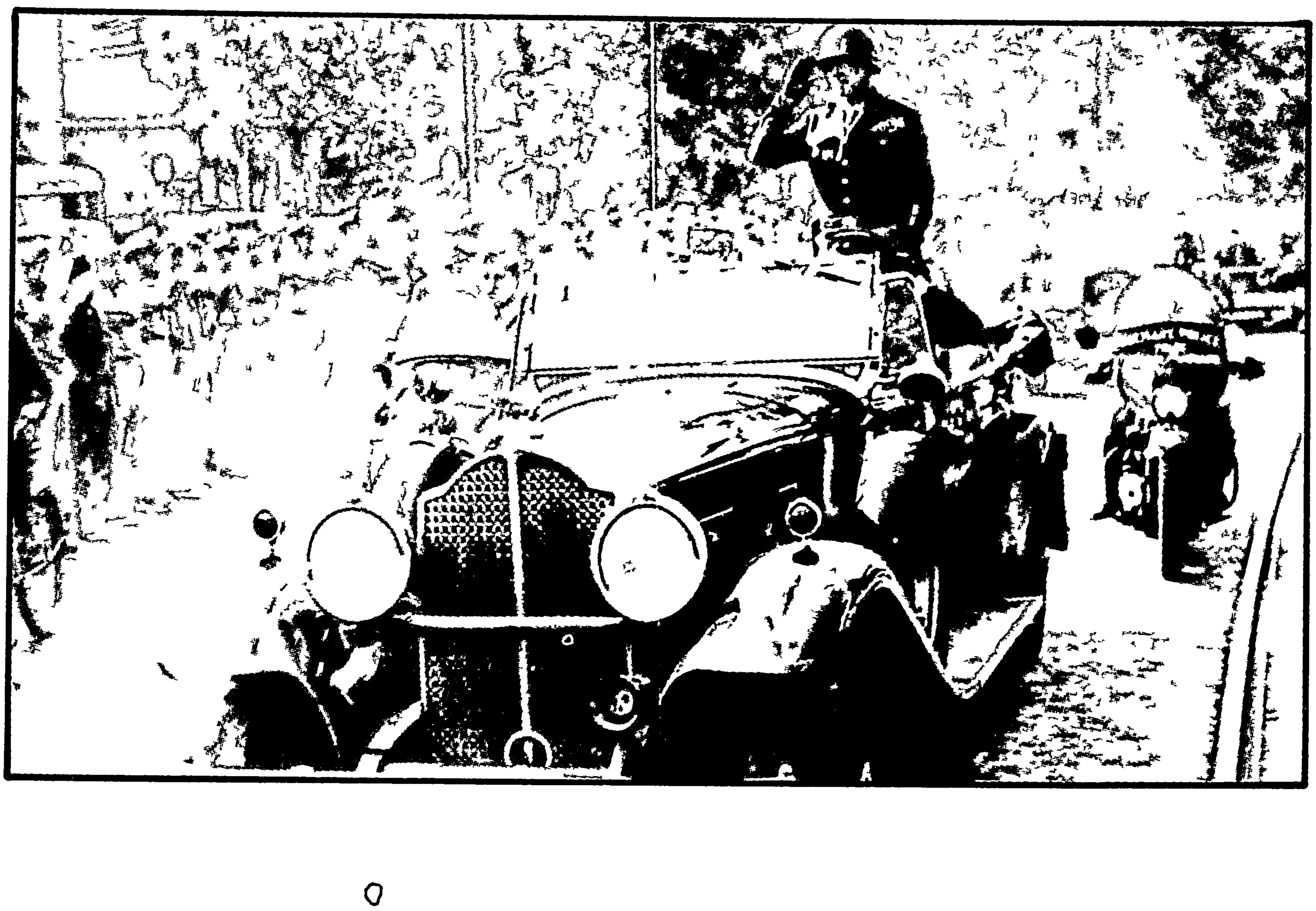


(٣) تفتيش قوة وحدة (برية بحرية جوية) جاهزة للانزال في صقلية ومعه «الكساندر» والعميد البحري «كيرك».

(٤) في الطريق إلى «ريمز»
٣٠ آب سنة ١٩٤٤.



(٦) بوسطن «مساشوستس»
حزيران سنة ١٩٤٥





(٥) على الراين: ٢٣ آذار سنة ١٩٤٥

بالواقع أصبحت خطة «السيد الأعلى»، بما فيها من التشديد على الحاجة الملحة للاستيلاء على موانىء «بريتاني» بغية تسهيل التقدم نحو «السين» باستمرار، قديمة وغير مجدية. ففي ٢ آب توضح لكل من «آيزنهاور» و«مونتغومري» أن الوضع قد اتخذ اتجاهاً لم يكن بحسبان المخططين مطلقاً. أولاً، كانت هناك الفجوة المتزايدة الاتساع بين «افرانش» على الساحل ونهاية الجبهة الألمانية المتفككة، ثانياً: نقل عدد كبير من الجنود لمساندة جيش «هاوسر» السابع المزعزع الأركان ولم يبق في «بريتاني» إلا ما يلزم لحماية الموانىء، اذن يكفي فيلق واحد لتنظيف «بريتاني» والاحتفاظ بها بالتعاون مع جيش التحرير الفرنسي الذي أصبح عدده حينذاك ٢٠,٠٠٠ ويتمتع بروح ومعنويات جديدة. تلك كانت حصيلة الاستنتاجات التي توصل إليها، بالاجماع «مونتغومري» و«برادلي» و«دمبسي» عندما اجتمعوا في ذلك اليوم. وقد تمخض ذلك الاجتماع عن «رسالة التعليمات» الثانية لـ «برادلي» التي كانت تحمل إلى «هودجز» قائد الجيش الأول أوامر بالتقدم في منطقة «فيرمونتين» وتثبيت نفسه في منطقة «ميين» ـ «دومفرونت» استعداداً للانطلاق نحو الشرق كما ألغيت أوامر «باتون» السابقة إذ كان عليه الآن أن يكمل تنظيف «بريتاني» ويؤمن موانئها مستخدماً لهذه الغاية «أقل عدد ممكن من القوات» وأن عليه بما تبقى من جيشه ان ينظف المنطقة الواقعة جنوبي «اللوار» وان يبقى مستعداً لعمليات أخرى «بواسطة قوات مدرعة كبيرة» تزحف إلى الشرق وإلى الجنوب الشرقي ـ أي في المنطقة المكشوفة إلى الجنوب من منطقة «الأحراج» حيث ما زال الجيش الأول والجيش البريطاني الثاني يعملان فيها. كان من الجلي انه لم يكن لدى الألمان هنا أي احتياطي كما كان من السهل أيضاً زحف المدرعات.

استمرت المقاومة العنيفة التي واجهها «هودجز» أثناء ضغطه القوي باتجاه «مورتين» من قبل فيلق المظليين الحادي عشر والفيلق الرابع والثمانين وفيلق البانزر السابع والأربعين. فقد قاتلت هذه الفيالق قتالاً مستميتاً، لكن رغم ذلك وبمساعدة هجوم من الجيش البريطاني الثاني إلى الشرق من «فير» باتجاه «كوندي ـ سير ـ نوارو» تمكن الجيش الأول من دحر ميسرة الجيش الألماني عند «مورتين»، فأنفتحت بذلك ثغرة بعرض ٨٠ ميلاً بين «مورتين» و«اللوار» بدأ «باتون» باختراقها بواسطة الفيلق الخامس عشر حيث وصل إلى خط نهر «ميين» الذي يبعد ٣٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي ما بين «ميين» وقلعة «غونتير» كما بدأ الفيلق العشرون الزحف جنوباً باتجاه «اللوار». وبذلك سيكون الحد التالي للجيش الثالث هو «لي مان» التي تقع على بعد ٤٥ ميلاً إلى الشرق. لم يعين «باتون» حينذاك ما سيقوم به بعد ذلك، لكنه قال لـ «هيسليب» قائد الفيلق الخامس

عشر ان عليه ألا يندهش إذا تلقى في الوقت المناسب أوامر بالزحف نحو الشمال الشرقي أو حتى نحو الشمال. إن نظرة عاجلة إلى خريطة «ميشلين» تقنع أي إنسان لماذا كان «باتون» يفكر بامكانية الالتفاف حول الألمان من الجهة الغربية للسين. فإذا ما تمكن من السيطرة على مركز الطرق عند «آرغنتان» واستولى البريطانيون على «فاليز» حينذاك يكون جيش البانزر الخامس ومجموعة بانزر أبرباخ والجيش الألماني السابع جميعاً داخل طوق قوي. أما بالنسبة لـ «مونتغومري» فان كل ما تنبأ به في نيسان أصبح واقعاً عملياً فقد وصل الأمريكان إلى نقطة يمكنهم منها الالتفاف شرقاً. وفي نهاية حزيران كان قد أصدر أوامره إلى «برادلي» بأن يرسم خططاً من أجل «قيام الميمنة بعملية اجتياح قوية إلى الجنوب من منطقة الأحراج لتحقيق أهداف متتالية هي: (لافال ـ مبين) و(لي مان ـ آلنسون)»، وقد بدأ هذا الآن.ففي توجيهه ليوم ٤ آب قال: «حالما تظهر فجوة في جبهة العدو يجب أن نضغط عليها ونخترقها ونتجاوزها إلى مناطق مؤخرة العدو. ويجب على الجميع ان يناضلوا بكل قواهم طيلة اليوم وكل يوم». كان «آيزنهاور» و«مونتغومري» و«برادلي» متفقين تماماً بالرأي، فالحس السليم كان يقول بأن على «فون كلوغ» إذ أراد أن يبقى حياً وان تبقى لديه إمكانية للرجوع فيما بعد، ان ينسحب الآن أو يسحق إلى الأبد.

وهكذا نرى أن ساحة الحرب في «بريتاني» أصبحت، بجرة قلم، ساحة ثانوية. مع ذلك ما من شيء يمكنه أن يحجب روعة التقدم الكاسح الذي حققته الفرقة المدرعة السادسة وهي تندفع كالبرق الخاطف على «برست». لقد وصلت الفرقة بالفعل إلى ضواحي المدينة في مساء ٦ آب ووجدت ان دفاعها قوي. وقد فشلت إحدى المحاولات التي استهدفت خداع الحامية كي تستسلم، فالواقع أن «غرو» وجد دفاعات المدينة أقوى بكثير مما يتوقع. كما اكتشف انه بحاجة لقوات أكثر بكثير مما يستطيع أن يحشد للسيطرة على الموقع. وبناء على ذلك توقف هناك بانتظار وصول تعزيزات من المشاة. مع ذلك فان تقدمه مسافة ٢٠٠ ميل في أقل من أسبوع بخسارة لم تتجاوز ١٣٠ قتيلاً و٤٠٠ جريح يعتبر عملاً في غاية الروعة. ولو أن «ميدلتون» لم يوقفه مدة ٢٤ ساعة فربما كان سيتمكن، وهو في ذروة قوة زحفه، من استغلال الوقت قبل ان يعيد الألمان تنظيم أنفسهم وبالتالي تحطيم دفاعات «برست»، ولا شك ان هذا الأمر سيظل دائماً موضع الجدل والأخذ والرد. كانت التحصينات الفرنسية القديمة قوية جداً كما كان بين المدافعين الـ(١٥,٠٠٠) فرقة المظليين الثانية بقيادة «رامك» الباسل الذي لا يستهان بقوته ومهارته. ومن المسلم به ان «باتون» خسر رهانه مع «مونتغومري» بوقت قصير إلا ان الفرقة المدرعة السادسة قد نجحت في توقيف قوة عددية هائلة في «برست» وظهرها إلى

البحر. ومن الجدير بالذكر أيضاً ان مهمة الوحدة (البرية البحرية الجوية) التي استهدفت وحققت تنظيف خط سكة الحديد والشاطىء الشمالي تعتبر أيضاً من أروع المنجزات. كذلك كانت الفرقة المدرعة الرابعة تندفع بسرعة هائلة أيضاً وقد انقضت في هذا التاريخ على دفاعات «لوريان» و«نانت». فكل من «غرو» و«وود» كان من جنود الخيالة مثلما يشتهي «باتون» وقد كان له كل الحق في ان يفتخر بهما.

سنكون مبالغين إذا قلنا إن الاستقبال الذي أظهره الفرنسيون للحلفاء كان ودياً. وانه لمن عدم الكياسة في هذا الوقت ان نلاحظ في أنقاض «فير» القول المشهور «لا فاييت، ها نحن هنا» أو أن نذكر بالنسبة للانكليز في «كان» ذلك الترحيب الودي الذي سبق سنة ١٩١٤. كانت الحالة تختلف في «بريتاني». فهنا كانت المقاومة الفرنسية (وهي بين ٢٠,٠٠٠ ـ ٣٠,٠٠٠) رجل مستمرة بمساعدة البريطانيين والسلاح الجوي الملكي منذ سنة ١٩٤١.

وعند ظهور أول دبابة أمريكية دبت الحياة في جيش فرنسا الحرة فقدم الادلاء والمرشدين وزود الأمريكان بالمعلومات ثم ألقى القبض على الجنود الألمان الذين أوقعهم سوء حظهم في أيدي الفرنسيين وهم بعيدون عن وحداتهم وقام بالقضاء عليهم بالاضافة إلى قص شعور البنات اللواتي تعاونّ مع الألمان بكل حماس. منذ ٣ آب بدأ «باتون» يمارس نوعاً من السيطرة على نشاطات هذا الجيش بواسطة العقيد «إيون» وضباط أركانه الذين هبطوا بالمظلات في «بريتاني». في ٤ آب كان «باتون» الوحيد، بين جنرالات وسياسيي الحلفاء، الذي يمكنه ان يلفظ الأسماء الفرنسية بنفس الأسلوب الفرنسي كما انـه كان يجيد التكلم بالفرنسية. ولم يكن الزمن ولا كوارث سنة ١٩٤٠ قد استطاعت ان تخفض من حبه الرومانسي لفرنسا وتقاليدها. لقد تمكن من تحرير منطقة كاملة في أقل من أسبوع فلم تبق في داخلها أية مقاومة المانية منظمة. أما من بقي من الألمان فقد كانوا محاصرين في «سان لو» و«لوريان» و«سان نازير» و«برست». وبدا واضحاً أن وجود هذه الموانىء في أيدي الألمان لم يعد له أهمية تذكر. إن بوسعه ان يترك مهمة محاصرتهم للآخرين أما هو فمن الممكن ان يوجه نشاطاته للامساك بصيد أثمن.

بالنسبة للكثيرين ممن يمكنهم إعطاء رأي حكيم حول الوضع العام، في كلا الجيشين المتصارعين، بدا واضحاً تماماً ولأسباب عسكرية ان على الألمان إذا رغبوا في تجنب الكارثة، ان يوقفوا المعركة في «النورماندي» وأن ينسحبوا إلى ما وراء السين وان يجلوا عن جنوب فرنسا. وقد تكلم «كلوغ» في هذا المنحى مع «وارليمونت» مبعوث «هتلر» الذي جاء بأوامر «الفوهرر» في اليوم الأول من شهر آب. لقد قال له إنه بهذه

الطريقة وحدها يمكن إنقاذ الجيش السابع ومجموعة بانزر «ابرباخ» كي تقوم في الوقت المناسب، بهجوم مضاد. ومما لا شك فيه ان نهر «السين» بما فيه من التواءات وانحناءات لم يكن مناسباً لتشكيل خط دفاع قوي يمكن الدفاع عنه بفعالية، أما وراء هذا النهر فيعتبر مركز «السوم ـ مارن ساؤون» إذا استولى عليه الألمان مركزاً قوياً، يمكنهم منه، على الأقل، الاحتفاظ بمواقع القذائف الموجهة بالاضافة إلى الاحتفاظ بأرض المانيا المقدسة فلا ينتهك حرمتها أحد. وراء هذا المركز يوجد مركز دفاعي قوي آخر على طول قناة «البرت» ونهر الموز قبل الجدار الغربي. وهكذا نرى انه كان ما يزال هناك مجال واسع لدفاع مخطط قوي على التربة الفرنسية إضافة إلى وجود احتمال بانقلاب الوضع ضد الحلفاء في الوقت المناسب. لقد كان الانتاج الصناعي الحربي للتعويض عن الخسائر المادية يجري على قدم وساق رغم قوات الحلفاء الجوية وبفضل «سبير». لذا، وانطلاقاً من هذه الافتراضات أصدر «مونتغومري» أوامره المفصلة في ٤ آب طالباً من مجموعة جيوش «برادلي» أن تزحف في جبهة عريضة وان «تقوم بالترتيبات اللازمة بحيث تزحف الميمنة بسرعة نحو الشرق ثم إلى الجهة الشمالية الشرقية نحو باريس. كما كان على قوة كبيرةٍ مجوقلة (محمولة جواً وتضم كتيبتين بريطانيتين) ان تستخدم كقوة تسبق الامريكيين كي تؤمن منطقة«شارتر»وبذلك تقطع على العدو طريق النجاة ما بين «أورليان» و«باريس» كذلك طلب من القائد العام للقوات الجوية «ان يحول القوة الجوية الرئيسية لمساعدة عملية اكتساح الميمنة وتأمين ايقاف جميع عمليات العدو، إن أمكن، على طول السين ما بين باريس والبحر». وبهذا، اعتقد «مونتغومري»، انه وضع الكرة عند أقدام «برادلي» و«باتون». واستجاب الأثنان بسرعة البرق. ففي مساء ٦ آب كان «هودجز» ينطلق نحو «دومفرونت» كخطوة تمهيدية للانقضاض على «آلنسون» أما فيلق «باتون» الخامس عشر فقد كان حينذاك على بعد لا يتجاوز العشرين ميلاً عن «لي مان»، أي تماماً خلف جيوش «فون كلوغ». وبذلك فقد أصبحا في طريقهما إلى الالتفاف حول الألمان غربي السين، وهذا ما أثلج صدر «مونتغومري» وملأ قلبه سروراً.

وإن كانت هناك ٢٠٠ ميلٍ تفصل الفرقة المدرعة السادسة المتمركزة عند «برست» عن الفيلق الخامس عشر قرب «لي مان» فذلك أمر لم يربك «باتون» مطلقاً، كما لم يسبب الحيرة لأي مسؤول آخر. فكالعادة، كان «باتون» يخطط في ذهنه لمعركتين لاحقتين، وكان قد مضى عليه بعض الوقت وهو يدير في فكره معركة «كان» ثانية بينما كان فيلقه الخامس عشر ينطلق شمالاً زاحفاً على «آرغنتان» كي يصل إلى «لي مان» حيث يلتقي الجيش الكندي الأول المنطلق شرقاً من «فاليز»، وبدا من البديهي، كما اعتاد

«مونتغومري» ان يقول منذ يوم «د» أنه، نظراً لسيطرة الحلفاء الجوية الكاملة، لا يستطيع العدو أبداً ان يقوم بهجوم مضاد. فكلما بقي العدو في موضعه مدة أطول ساءت حالته أكثر فأكثر.

في تلك الأيام الدراماتيكية من أوائل شهر آب كان «باتون» ما يزال يتمتع بمقدار كبير من السيطرة على فيالقه الثلاثة رغم أنها كانت تعمل في جبهات مختلفة تبعد عن بعضها البعض أكثر من مئة ميل. أما ما يبعث على الدهشة والذهول فهو مقدرته الهائلة على الوجود في كل مكان. ففي كل ليلة له نقطة قيادة جديدة. أما نهاراً فكان يتجول في ميدان معركته الواسع الشاسع طائراً على علو منخفض بطائرة (لـ ٥) صاعداً نازلاً جبهات فرقه، بينما كان يتجول أحياناً في سيارته الجيب. وفي بعض الأحيان كان يشاهد ماشياً بين جنود المشاة ثم لا يلبث ان يندفع ليسحب ضابطاً لجأ إلى حفرة على الطريق أو يوبخ ضابطاً آخر لم يعلق رتبته بينما كانت أوامره مشددة بأن تعلق هذه الرتبة على الخوذة دائماً. أما التعرض لقذف القنابل من الطائرات والهجمات من علو منخفض (كلها من الطائرات الحليفة) فقد أهملها وكأنها قطرات ماء تقذفها بطة من على ظهرها. ولم يكن يكتفي أبداً بإلقاء الأوامر: بل كان يتأكد بنفسه من تنفيذها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. يصفه مرافقه «كودمان» الذي لم يكن يفارقه في ذلك الوقت بأنه كان: «يدفع ويسحب ويحث ويلجأ إلى المداهنة ثم يقيم الدنيا ويقعدها ويطبق السماء على الأرض. ولم يكن يهتم مطلقاً بسلامته الشخصية، بل لقد حدث في إحدى المرات أن ساق سيارته وسط وحدات فرقة المانية. وحيثما كان يذهب كان ينشر شعاره: «لا تشغلوا أفكاركم بالأجنحة، ان طائراتنا التكتيكية تعرف كل شيء قبلكم وتقوم بواجبها، اذهبوا حيثما أردتم وبأسرع ما يمكنكم. كان «باتون» يتمتع بموهبة غريبة تجعل الرجال يندفعون للقيام بانجاز أمور لم يكونوا يعتقدون انهم قادرون على تأديتها، وربما لم يكونوا ليحققوا تلك الأعمال الباهرة لولا وقوعهم تحت تأثير شخصية فذة. أطلق عليها ما أردت من الأسماء، إنما هي شخصية جندي فريد رائع لم يكن يجيد عمله كجندي فحسب بل كان يحبه حباً جماً. إذن فليس من المدهش ان يستجيب له جيشه بصفته القائد المحبوب وينفذ أوامره بقوة اندفاعية أمريكية نموذجية ومقدرة على خلق الحماس والتعبير عنه فيما وصف بأنه «أعظم اهتياج في تاريخ الحروب».

مساء السادس من شهر أيار، بدا حسب قول «مونتغومري» وكأن كل شيء يسير طبقاً للخطة في جيوش الحلفاء بدءاً من الفرقة المجوقلة السادسة في أقصى الجناح الشمالي لخط الحلفاء وحتى فيلق «باتون» الخامس عشر على بعد ٢٠٠ ميل جنوباً وهو

يزحف نحو «لي مان». كان يظهر على خريطة «كوش» الكبيرة في مقر قيادة الجيش الثالث ان الجيش الكندي الأول بقيادة «كريرار» على وشك تسديد ضربة قاصمة للعدو على طريق «فاليز» وبمساندة قصف جوي عنيف. أما جيش «دمبسي» (الجيش البريطاني الثاني) فبعد ان هيمن على أهم مرتفعات «نورماندي» أي جبل «بيسون»، انطلق نحو «كوند» و«آرغنتان» بينما كان جيش «هودجز» الأول يشق طريقه بقتال عنيف متوجهاً نحو «دومفورت» مع التخطيط للزحف فيما بعد من على يسار «باتون» نحو «آلنسون». أما فيلق «باتون» الخامس عشر فقد كان يندفع وكأنه جهنم نحو «لي مان» إلى الجنوب من «أفرانش» وكانت هناك أكثر من ١٢ فرقة تمر خطوط تموينها من ثغرة لا يزيد عرضها على ١٢ ميلاً ولم يخطر ببال أحد أن الألمان سيقومون بضرب هذا الشريان العظيم الأهمية بالنسبة لشبكة الامدادات الامريكية.

في تمام الساعة الثانية صباحاً من يوم ٧ آب، أيقظ ضابط الاستخبارات المسؤول الجنرال «كوتش». لقد تلقى لتوه خبراً من «مصدر يوثق به عادة» بأن هجوماً مضاداً على نطاق واسع كان وشيك الوقوع ضد الجيش الأول. نهض «كوتش» وتلمس طريقه في العتمة الشديدة إلى أن وصل إلى خيمة العقيد «مادوكس» أحد ضباط أركان العمليات. ومع أنهما كانا متأكدين تماماً من أن الجيش الأول يستطيع الصمود بكل قوة إلا أنهما شعرا أن الخبر خطير لدرجة تبرر إيقاظ «غي»، رئيس الأركان. في تلك اللحظة كانت إحدى فرق الجيش الثالث، الفرقة «٣٥»، تمر عبر الثغرة. فإذا أوقفت وتحركت إلى الشرق تصبح في وضع يضيف عمقاً إلى دفاعات الجيش الأول. بهذه التوصية تحرك الثلاثة نحو عربة «باتون» وأيقظوه، وبعد نقاش دام بضع دقائق أعطى الأوامر بتنفيذ ذلك مساندة للفيلق السابع من الجيش الأول.

ولعل التاريخ لم يعرف حتى ذلك الوقت، حملة عرف فيها كل من الجانبين المتحاربين الكثير من المعلومات عن خصمه، مثل هذه الحملة، ويعود، ذلك إلى حدّ ما للنظام اللاسلكي السيىء، والقراءة الرديئة للخرائط، وسوء تحديد الجبهات علاوة على ثرثرة الأسرى والاستطلاعات الجوية. إذن فقد كان يلوح في الجو مشروع تحقيق الحلم -الذي راود القادة العظام منذ «هانيبال»، أي مناورة «كاين» ذات الالتفاف المزدوج التي أصبحت بادية لكل ذي عينين، إذ لا يمكن لأي انسان أن يقوم بشن هجوم مضاد دون مساندة جوية إلا إذا كان مجنوناً. لذلك استنتج «باتون» أن الهجوم لم يكن إلا محاولة لاخفاء انسحاب وشيك. لكنه سيكون مخطئاً في ذلك وقد أخطأ معه، ولأسباب وجيهة، الكثيرون. لقد أخطأ جميع القادة العسكريين للحلفاء، بدءاً من «آيزنهاور» فما دون.

الفصل الحادي عشر
مناورة «كاني»
الرواية الانكلو أمريكية ١٩٤٤

إما انه يخشى مصيره كثيراً
أو أن ما يستحقه ضئيل كثيراً ذاك الذي لا يجرب
أن يربح أو يخسر كل شيء
جيمس غراهام
ماركيز مونتروز

قبل أربعة أيام وفي تمام الساعة الواحدة صباحاً، حين كان «فون كلوغ» قد قرر نقل فيلق البانزر «س س» الثاني من «كان» كي يؤمن التوازن لوسط جيشه ما بين «الأورن» و«فير» نظراً لأنه كان يواجه أزمة كبيرة في وسط جبهته في قطاع «كومون» حيث ظهر ان اختراقاً بريطانياً وشيك الوقوع كما كان الجيش الأول من الميسرة يزيد في توسيع الثغرة إلى الشرق من «افرانش». في ذلك الوقت تماماً سقطت صاعقة هائلة من «هتلر». فقد كان على «كلوغ» ان يحشد جميع قواه على الميسرة وان يعيد الاتصال بالشاطىء عند «افرانش»، وبذلك يعزل جيش «باتون» ويدمره في الوقت المناسب: أما ما سوف ينجز بعد ذلك فقد كان أقل وضوحاً، وطبقاً لما قاله «سبيدل» رئيس أركان مجموعة الجيوش «ب» فقد كان الاستراتيجي الأعلى «هتلر» يهدف من ذلك إلى أن يطوي جبهة الحلفاء بأسرها ويخرجها من الغرب. ورغم رأي «كلوغ» في ما يتعلق بهذا الأمر غير المعقول والبعيد بعداً ساحقاً عن الصواب فانه بدأ على الفور بتنفيذه.

لقد عاشت هيئات أركان القيادات الألمانية أياماً عصيبة مريرة في الحرب العالمية الثانية، انما لم تشاهد قط أسوأ من الأيام الأربعة التالية. إذ إن نقل فرق البانزر «س س» الحادية والعشرين والتاسعة والعاشرة من جبهة الجيش البريطاني الثاني سيؤدي إلى انهيار

كامل تماماً لذا يجب ابقاؤها حيث هي وهكذا جرت اتصالات تلفونية مستمرة ما بين مقرات القيادات المعنية، مقر قيادة «هتلر»، مقر القائد العام في الغرب، مجموعة الجيوش «ب»، الجيش السابع ومجموعة البانزر في الغرب ـ التي كان يجري في ذلك الحين تقسيمها إلى جيش البانزر الخامس ومجموعة بانزر «ابرباخ». وقد أسفر عن تحريك المشاة كي يحلوا محل المدرعات وكذلك إعادة توزيعهم ازدحام هائل في حركة المرور ومما زاد الطين بلة استمرار طلعات الطائرات الحليفة في ظروف جوية مثالية. ونتيجة لذلك فشلت استبدالات الوحدات وتعزيزات الوحدات الأخرى في الوصول إلى غاياتها فقد تأخرت جميع التحركات عن مواعيدها. ولم يستطع «فون كلوغ» أن يجمع، بغية الاندفاع من «مورتين» إلى «افرانش»، سوى أربع فرق بانزر، جميعها غير مستوفية القوة. وطبقاً لما يقوله ابنه، المقدم «فون كلوغ»، لم يكن متوافراً إلا ١٤٥ دبابة أي ما يعادل القوة المتوسطة لفرقة واحدة مدرعة لدى الحلفاء، ومن هذا العدد يبدو ان ثمانين دبابة فقط عبرت خط الانطلاق.

وقبيل ٦ آب، كان قد بدا واضحاً وضوح الشمس انه إن لم توقف قوات «باتون» فانها لن تلبث ان تصل إلى مقر قيادة «هاوسر» في «ليمان». إذن فالهجوم الآن أو لن يحدث أبداً: وسواء كانت الفرق المهاجمة كاملة أم لا ينبغي ان يبدأ الهجوم في ليلة ٧/٦ آب. في اللحظة الأخيرة أصر «هتلر» ان يكون «ابرناخ» هو القائد بدلاً من «فونك». وأبلغ «فون كلوغ» رئاسة أركان «هتلر» هاتفياً، وهو في ذروة اليأس: «أنا مضغوط بسبب الوقت ولا أملك أي ضمانة بأن المشاة سيصمدون في مراكزهم مدة طويلة أمام الهجمات الانكليزية والامريكية. لذلك ينبغي ان أقوم بالهجوم في أسرع وقت ممكن. ونتيجة لهذا عندما بدأ الهجوم بعد منتصف ليلة ٧/٦ آب كانت فرق البانزر الأربع تفتقر إلى الدبابات والرجال كما كانت مرهقة والأوامر الصادرة إليها سيئة. منذ البدء، ظهر، بما لا يحتمل الشك، ان مصير العملية هو الفشل الذريع. ففي الميمنة لم تستطع فرقة البانزر «١١٦» التحرك من منطقة احتشادها، أما جنوبي نهر «سي» مباشرة حيث لم يكن للامريكيين سوى قوات خفيفة فقد تمكن رتل من فرقة البانزر الثانية من التقدم بضعة أميال إلا أن الفرقة المدرعة الامريكية الثانية سرعان ما أوقفتها. بينما واجهت الفرقة المدرعة الامريكية الثلاثون، ما بين «مورتين» وسان «بارتلمي»، هجوم فرقتي البانزر ـ «س س» الأولى والثانية، بكل عناد وتصميم، وقد تمكن العدو من اجتاح القريتين في ظلام الليل والصباح الباكر تحت ستار الضباب لكن بعد ذلك أوقف في مكانه. وعلى الربوة «٣١٧» أي إلى الشرق مباشرة من قرية «مورتين» رفضت كتيبة الخيالة ٢/١٢٠

التزحزح من موضعها وبذلك أربكت، بشكل خطير، تطور الهجوم الألماني.

وحتى منتصف النهار كان قد حال الضباب والسحب المنخفضة دون أعمال الطيران: بعدئذ انقشعت السماء فجأة فتمكنت طائرات «التايفون» قاذفة اللهب التابعة لسلاح الجو الملكي-رقم «٨٣» من قصف وتدمير الدبابات الألمانية والمركبات المكتظة على الطرق والممرات، دون هوادة أو رحمة. وفي الوقت ذاته سيطرت الطائرات الامريكية «موستانغ» على أجواء المعركة. أما رد المدافع الألمانية المضادة للطائرات فقد كان ضعيفاً للغاية. وقد أبلغ الطيارون لدى عودتهم من الجبهة للتزود بالذخيرة والوقود أن المعنويات الألمانية قد تحطمت تماماً. كان الرجال يهجرون دباباتهم في كل مكان ويبحثون عن مخابىء. وحسب قول رئيس أركان فيلق البانزر «٤٧» فان نشاط الطائرات قاذفة القنابل كاد أن يصل إلى درجة لا يمكن تحملها، إذ لم يسبق ان عرفت فرقة بانزر من قبل قصفاً واسع النطاق كهذا ولم يحدث ان هوجم عدد هائل من العربات في مثل تلك الحالة من الثبات. ومما زاد في تأثير هول القتال، الرد الامريكي على الأرض. لقد تمكن قصف المدفعية الدقيق التسديد والقنابل المضادة للدبابات التي لم تكن تخطىء هدفها من ايقاف الارتال المهاجمة في أماكنها، وقد تسارعت التعزيزات لمقاومة هذا التهديد. في أواخر النهار كان «كولنز» والفيلق السابع قد تعزز بخمس فرق مشاة وفرقتين مدرعتين جميعها مندفعة لسد الطريق في وجه العدو. وهكذا استمر العراك بضعة أيام على نحو بالغ العنف والمرارة إلا أن الألمان، كانوا منذ ظهيرة اليوم الأول قد فقدوا زمام المبادرة بشكل نهائي.

لكن الحقيقة اننا إذا ما قارنا بين الهجوم الألماني من حيث وزن المتفجرات المستعملة والعنف العام، وبين الضربة التي سددها «مونتغومري» على الجبهة الكندية في ذلك اليوم ذاته بدا ذلك الهجوم أشبه بسعال في عاصفة رعدية. ففي ذلك اليوم وبدءاً من الساعة الحادية عشر بعد الظهر حتى منتصف الليل كانت قاذفات القنابل الثقيلة (١,٠٥٠ قاذفة) تسقط حزاماً متواصلاً من المتفجرات الشديدة على المواقع الألمانية الواقعة على جانبي طريق «فاليز». وعند منتصف الليل اندفعت الفرقتان: الكندية الثانية والهايلاند «الحادية والخمسون»، كل منهما في مركبات لا يخترقها الرصاص، ويساندهما فوج مدرع، مخترقتين الغبار والظلام لتكتسحا كل ما كان أمامهما. وكان «سيموند»، قائد الفيلق، قد عقد النية، عند مجيء الصباح ان يدخل بينهما الفرقة الكندية الرابعة والفرقة المدرعة البولندية بهدف الانطلاق إلى «فاليز». في تلك الليلة، وقد أفعم «مونتغومري» بثقة لا حد لها أرسل برقية إلى المشير اللورد «ألانبروك» قال فيها: «لقد أوقف الأمريكان

الهجوم الألماني في منطقة «مورتين» بشكل ممتاز». وأضاف «انني لا أخشى أي شيء بالنسبة لهذه الجبهة وانني مستمر في خطتي الهجومية في كل مكان دون اي تغيير. ثم اتبع ذلك بتقرير نوه فيه بنجاحات «باتون» في ما يتعلق بالزحف على «لي مان» وختم تقريره قائلاً: «إذا استمر الألمان بالهجوم عند «مورتين» لبضعة أيام أخرى فانني أقول إنهم قد لا يستطيعون، أكرر قد لا يستطيعون ان يفروا بجلودهم.

لكن علينا أن نذكر أن «مونتغومري» حتى هذه اللحظة، كان قد رسم خطة للقيام بعملية التفاف واسعة النطاق يقوم بها الجناح الامريكي الجنوبي نحو السين باتجاه «باريس» وفي نفس الوقت يدفع القطاعات الوسطى والشمالية لقوات الحلفاء مباشرة نحو النهر. لكن هجوم الألمان المضاد الآخر عند «مورتين» جعله يقرر بعد مناقشة الأمر هاتفياً مع «برادلي» أن تجرى، في نفس الوقت، محاولة التفاف أقصر تستهدف السيطرة على القوات الألمانية المحتشدة ما بين «فاليز» و«مورتين» ومن ثم القضاء عليها.

كان فيلق «باتون» الخامس عشر يكتسح في ذلك الحين كل ما يقف في مواجهته وكان يقترب الآن من «لي مان»، لقد كان في وضع ممتاز يسمح بالالتفاف شمالاً لتحقيق الاتصال مع القوات الكندية المتجهة جنوباً نحو «فاليز» و«آرغنتان». وبدا أنه إذا ما بقي الألمان حيث هم لبضعة أيام أخرى، وإذا ما استطاع «باتون» و«كريرار» ان يشقا طريقهما بحيث يحققان الاتصال معاً في مكان ما، بين «فاليز» و«آرغنتان»، فانه سيحصل بالتأكيد هزيمة المانية على نطاق واسع.

لذلك فقد طلب من جيش الولايات المتحدة الثاني عشر آن يوجه ميمنته نحو الشمال إلى «النسون»: «بكامل قوته وأقصى سرعته، وفي الوقت ذاته أمر الجيشين الكندي الأول والبريطاني الثاني بأن يتوجها بهدف التلاقي عند «فاليز»: «وبأقصى ما يمكن من السرعة» فقد بدا واضحاً تماماً أن انتصاراً رائعاً كان وشيك الحدوث: إلا ان السؤال في تلك اللحظة كان: هل سيقضى على الألمان قضاءً مبرماً أم أن بعضهم سيستطيع النجاة؟

إن دراسة حوادث الأيام العشرة التالية في السجلات الرسمية البريطانية والأمريكية وفي التقارير الشخصية التي سجلها «آيزنهاور» و«مونتغومري» و«برادلي» قد تترك القارىء في حالة شك بالنسبة لمن كان يتحمل المسؤولية النهائية للقرارات التي اتخذت في ذلك الحين، فكلا السجلين الرسميين، وكل منهما رائع في هذا الميدان ونزيه نزاهة لا يرقى إليها الشك، لا يلقي أي ضوء على انه منذ يوم الاثنين في ٧ آب أي يوم

الهجوم المضاد على «مورتين» والهجوم الكندي المسمى «توتالايز» على طريق «فاليز»، كان «آيزنهاور» يقيم في معسكره الشخصي المسمى «شلبارست» قرب «تورنيير» و«ميزون».

أما «تدر» نائبه البريطاني فيدعي ان ذلك التحرك من المملكة المتحدة كان بأقتراح منه. فهنا وفي منطقة تحيط بها أسيجة من الشجيرات ترتفع ١٠ أمتار باستثناء الجهة الشرقية حيث كانت الشجيرات قد قلمت بحيث تتوافر إمكانية لمشاهدة حقل متاخم يمكن ان تهبط به طائرات الارتباط، كان لـ «آيزنهاور» مقطورته الخاصة وكانت هناك مقطورتان للنساء المساعدات ومقطورة احتياطية تستعمل لأهداف المكتب، أما المرافقون والضباط الآخرون فكانوا في خيام مجاورة وكان مقر القيادة هذا يتصل بكل من مقر «مونتغومري» و«برادلي» هاتفياً، كما كان مركز الاشارة ومخيم المطبعة على بعد ربع ميل. ومن ذلك المكان كان باستطاعة «آيزنهاور» ان يصل إلى مقري «مونتغومري» و«برادلي» بالسيارة خلال ساعة واحدة وكان يحقق ذلك بالفعل، وباستثناء يوم ١٠ آب عندما طار «آيزنهاور» إلى انكلترا لتفتيش الفرقتين المجوقلتين «٨٢» و«١٠١» فقد ظل مقيماً هنا مدة العشرة أيام البالغة الأهمية ولم يكن هناك أحد بأوسع معاني الكلمة أفضل منه موقعاً لمعرفة من فعل «ماذا ولمن وكيف ولماذا» في الجبهة بأسرها.

فبوجود «آيزنهاور» شخصياً في «النورماندي» أصبحت مسؤولية القرار الذي سيتخذ الآن منوطة مباشرة به وهي المسؤولية التي انتظر الشعب الامريكي ان يتحملها بهذه الطريقة، والواقع أن «برادلي» يؤكد انه هو الذي اقترح على «مونتغومري» بحضور «آيزنهاور» في اليوم الثامن من شهر آب ان على الجيشين الامريكيين الأول والثالث ان ينحرفا باتجاه «فليز» و«آرغنتان» ومما لا شك فيه انه كان منحى، يمكن عملياً ان يتخذه فيما لو سئل كل قائد وضابط أركان أو حتى مراسل جريدة في جيوش الحلفاء، وأن يقترحه بكل رغبة وتأكيد وان يكون لرأيه ما يبرره نظراً لوضوح الأمر وضوح الشمس في رابعة النهار. لذا لا ريب أبداً بأن الأوامر التي تلقاها «باتون» و«هودجز» كانت باجماع آراء «آيزنهاور» و«برادلي» و«مونتغومري» وباختصار فقد أمر «باتون» بأن يحول الفيلق الخامس عشر إلى الشمال من «ليمان» وان يزحف على محور «النسون ـ سي كاروج» جنوبي «آرغنتان» وعند الوصول إلى هذه النقطة عليه ان يقوم بعمليات أخرى ضد جناح العدو ومؤخرته في اتجاه «آرغنتان». إضافة إلى ذلك، وبغية تعزيز مدرعاته أعطي الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية التي كانت قد وصلت تواً إلى الساحة. أثناء ذلك أمر «هودجز» جزءاً من القوات بأن ينطلق من «أبيسار» نحو «فليز». في هذه المرحلة يبدو من الواضح ان

«برادلي» كان يتصور أن الفيلق الخامس عشر سيعمل عند وصوله إلى خط «كاروج - سي» جنوبي «آرغنتان» وكأنه سندان تجاه مطرقة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين - وهو منحى ليس من المنتظر ان يروق لـ «باتون» كثيراً. ترجم «باتون» من جهته الأوامر التي صدرت إليه بأنها تعني ان هدف جيوش الحلفاء هو الالتفاف حول الجيوش الألمانية غربي السين وتدميرها حيثما وجدت ودون أي قيد أو شرط. وعلى ذلك فقد وجه الفيلق الخامس عشر نحو «آلنسون»وفي طليعته الفرقتان المدرعتان: الفرقة المدرعة الفرنسية على اليسار والفرقة المدرعة الخامسة على اليمين ولدى الوصول إلى خط «كاروج - سي» كان على الجميع ان يتأهبوا لشق طريقهم شمالاً في جبهة ضيقة نسبياً أي ان يتصلوا بالجيش الكندي الأول: وهكذا يكون قد تم تطويق العدو تطويقاً كاملاً. فـ «باتون» لم يكن يعتبر أبداً ان الحدود غير قابلة للخرق ان كانت غير ملائمة له. لذلك ولكي يحمي ميسرته في ثغرة العشرين ميلاً التي تفصل جيشه عن الجيش الأول، نقل الفرقة الثمانين التي وصلت من عهد حديث إلى منطقة «إيفرون».

كانت الفرقة المدرعة الفرنسية بقيادة اللواء «لي كلارك» تتمتع بسجل حافل في القتال في أفريقيا وكان ينتظر منها الكثير.

أما وقد جهزت الأعتدة الامريكية وابتهج رجالها بعودتهم إلى وطنهم وبالترحاب الرائع الذي استقبلهم به الرجال والنساء فقد أصبحوا وكأنهم كلاب صيد تتحفز للانطلاق بشكل أساسي كي ينتقموا من عدوهم اللدود ويعيدوا إلى فرنسا سمعتها التي كانت قد تلوثت. فبعد نزولهم إلى البر في ٣٠ تموز زحفوا إلى منطقة «لي مان» في اليوم التاسع من آب حيث كان مهندسو الفيلق قد قاموا ببناء جسور تتمكن بواسطتها الفرقة من العمل وراء «سارث» وبعد فجر اليوم العاشر من آب مباشرة كان كل شيء قد أعد للزحف دون ان يعرفوا إلا القليل عن العدو الذي يواجههم والحقيقة كانت دفاعات محور «لي مان» - «آلنسون» من مسؤولية الفيلق «٨٥» الذي كان يتألف من فرقتين ضعيفتين وقسم من فرقة بانزر «٩» وما تبقى من بانزر «لهر» والجيش السابع وقد تميزت عمليات ذلك اليوم بمناوشات دبابات محدودة ونيران مدفعية مربكة أي ان ذلك اليوم لم يتميز بعمليات واسعة النطاق. انطلقت الفرق تحت سمع وبصر «باتون» نفسه وقطعت ١٥ ميلاً في اليوم. وهذا نصف المسافة إلى «آلنسون» وقد خسرت ٣٦ دبابة أثناء ذلك في اليوم التالي مرت بغابة «بيرسين» من كلا جانبيها وقد ترك المشاة لتطهيرها من الأعداء. لكن الزحف تباطأ بسبب سدود متتالية على الطرق تغطيها نيران مدفعية مركزة ورغم ذلك كله وصلت الفرقة المدرعة الخامسة إلى «السارث» عندما خيم الظلام وحصلت على

ممر إلى الشمال الشرقي من «آلنسون»: أما الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية فقد تريثت موقتاً كي تقوم باستطلاع مسافة أربعة أميال إلى الجنوب من المدينة. أما «كلوغ»، وقد أخذ منه الذعر كل مأخذ بسبب تهديد مؤخرته فقد حصل أخيراً على الأذن من القيادة العامة (هتلر) بأن يعلق عمليات «مورتين» وان ينقل مجموعة بانزر «ابرباخ» نحو الجهة الجنوبية الشرقية في إتجاه «آلنسون» مستهدفاً تسديد ضربة مضادة على الجناح الغربي للفيلق «١٥». ولتحقيق هذه الغاية دخل «ابرباخ» البلدة بعد الظهر، لكنه ذهل عندما وجد الفوضى تعم كل شيء والمدينة ممتلئة بالجنود الاداريين وغير الاداريين وقد فروا مذعورين أمام دبابات «باتون». كانت هناك عربات تشتعل وقد حطمها طيران الحلفاء وكانت الدبابات في كل مكان داخل وخارج البلدة وبعد يومين من القتال تمكن الفيلق الخامس من تخفيض فرقة البانزر «٩» إلى ما يعادل فوجاً من المشاة وفوجاً من المدفعية وربما ١٢ دبابة. وهكذا كل ما أمكن إعداده للدفاع عن «سي» لم يكن أكثر من سرية مشاة وعندما أرخى الليل سدوله تمكنت وحدة فرنسية من شق طريقها ببسالة عبر جسور نهر «سارت» ودخلت المدينة. مع انبثاق فجر اليوم الثاني عشر انطلقت الفرقة المدرعة الخامسة عبر «مامر» واستولت على «سير» وقد رأى «هيسليب» الفوضى التي ضربت أطنابها في خطوط العدو الخلفية فأعلن في الحال ان «آرغنتان» هدف ذلك اليوم. كان على الفرقة المدرعة الخامسة ان تلتفت إلى الجهة الشمالية الغربية وتحتل الموقع بينما تقوم الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية باحتلال «كاروج» وبذلك أصبحت إمكانية الالتفاف الكامل حول الألمان تلوح بشكل واضح تماماً في الأفق. سيما بعد التمكن من الاتصال مع الكنديين جنوبي «فاليز» بواسطة الفرقتين المدرعتين وبمساندة الفرقتين «٧٩» و«٩٠» الصامدتين ما بين «آرغنتان» و«آلنسون». وقد رأى ذلك بوضوح كل من «باتون» و«هيسليب» اللذين كانا يخططان للعمل حسب الأوامر التي أصدرها في ذلك اليوم «مونتغومري» الذي كان ما يزال اسمياً آمر القوات البرية والتي تنص على: «تدمير قوات العدو الرئيسية حيثما كانت» ولكن إذا ظهر احتمال بانها قد تفر منهزمة فينبغي على الجيوش الحليفة ان تنفذ الخطة الأكمل: أي الالتفاف الأوسع غربي «السين» حسب ما رسم سابقاً.

يتفاخر القادة عادة بأن العمليات التي قاموا بها تحققت طبقاً للخطة. والحقيقة قلما تكون العمليات هكذا: فكما لاحظ «هانيبال» قبل ٢,٣٠٠ سنة، فإن الحرب يلازمها عناصر الحظ بالاضافة إلى أخطاء بشرية غير متوقعة، وكلا الأمرين برز بشكل جوهري في هذا اليوم الهائل يوم ١٢ آب. فعلى جانبي خط تقدم الفيلق «١٥» كانت توجد غابة

«إيكوف» الواقعة على بعد خمسة أميال من جنوبي غربي «آرغنتان» وكانت أوامر «هيسليب» الصادرة لـ «لي كلرك» واضحة تماماً، إذ كان عليه ان يمر إلى الغرب من هذه الغابة كما شدد على ان الطريق العامة الرئيسية من «آلنسون» حتى «آرغنتان» قد خصصت لاستخدام الفرقة المدرعة الخامسة ولهذه الفرقة فقط. غير ان «لي كلرك» ولشدة شوقه إلى التقدم السريع أهمل هذا التقييد عن عمد وأرسل وحدة قتالية شرقي الغابة وأخرى في وسطها وثالثة غربها. تمكنت هذه الوحدات الفرنسية في الوقت المناسب من تطهير الغابات وبكل نجاح شقت طريقها قدماً حتى أصبحت على مرمى النظر من ايكوش وهدفها لذلك اليوم ـ خط «آرغنتان» ـ «كاروج». لكن لسوء الحظ، سدت بهذه العملية الطريق من «سي» إلى «آرغنتان» وأوقفت لمدة ست ساعات الشاحنات التي كانت دبابات الفرقة المدرعة الخامسة في أشد الحاجة إليها كي تحقق اقتحام «آرغنتان». عندما بدأت الفرقة الخامسة بالهجوم في وقت متأخر من بعد الظهر كان الألمان قد استفادوا من الوقت لتنظيم دفاع قوي ولذلك فان الهجوم لم يحقق أهدافه. ولو كان الهجوم قد شن قبل ست ساعات لما لاقى إلا القليل من المقاومة. ولكن خلال النهار وصلت وحدات من فرقة البانزر «١١٦» من مجموعة بانزر «ابرباخ» من «مورتان» أما باقي الفرقة فوصلت في الليلة التالية، وساندت دفاعات الجناح الشرقي بما تبقى من الفرقة «١٣١». خلال النهار دمر الفيلق «١٥» ١٠٠ دبابة وأسر ١٥٠٠ رجل، وبالرغم من الصد والصمود الذي حققته مجموعة بانزر «ابرباخ» في وجه الفرقة المدرعة الخامسة إلا أن موقفها كان يدعو لليأس والقنوط، فقد كان على فرقة البانزر «١١٦» أن تقوم لدى وصولها بأعمال دفاعية، أما الفرقتان الأولى «س س» والثانية من فرق البانزر فكان موعد وصولهما اليوم التالي، وكان على الفرقة الثالثة عشرة ان تكافح كفاحاً شديداً كي لا تدمر، فكيف اذن تستطيع القيام بهجوم مضاد على نطاق واسع ؟ أصبحت قاعدة التموين الألمانية في «آلنسون» في أيدي الأمريكان وقد كانت سيطرة الحلفاء على الجو، الذي كان صافياً، كاملة تماماً مما أسفر عنه استحالة التموينات أو تحركات الجنود، بشكل عملي، خلال النهار، وكانت الفكرة انه إذا استولى الكنديون على «فاليز» والأمريكان على «آرغنتان» فإن المسافة التي ستفصل بينهما في هذه الحالة لن تزيد عن ١٣ ميلاً. إذن فقد أصبحت اللحظة التي يتم فيها تطويق الألمان على الجبهة الغربية قاب قوسين أو أدنى. عندما خيم الظلام، أمر «هيسليب»، دون اهتمام بالصد الذي لاقته الفرقة المدرعة الخامسة، «لي كلرك» باحتلال «أرغنتان» في الصباح وأمر الفرقة المدرعة الخامسة بأن تكون على أهبة الاستعداد في الجهة الجنوبية الشرقية من البلدة كي تشق طريقها عبر الصفوف الفرنسية، بكامل قوتها، كي

تلتقي بالكنديين عند «فاليز» وعندما أخبر «باتون» عما ينوي فعله وطلب منه جنوداً إضافيين ليسدوا الطريق إلى الشمال من «آلنسون» نال من «باتون» موافقة حارة في الساعات المبكرة من يوم ١٣ آب لدى الوصول إلى «فاليز». كان عليه ان يستمر بالاندفاع ببطء إلى ان يحقق الاتصال بالحلفاء. وطبقاً لما قاله «برادلي» فقد قال له «باتون» في تلك الليلة مداعباً على الهاتف: «دعني اذهب إلى «فاليز» وسوف نتمكن من طرد الانكليز حتى البحر ونمثل «دنكرك» أخرى. سارع «لي كلرك» بالتحرك مع فجر يوم ١٣ فنظف أولاً غابة «ايكوف» ثم اندفع قدماً نحو «كاروج» و«ايكوش» وكما شرع طبقاً للأوامر بتنظيم خط نحو «آرغنتان». تمكنت إحدى دورياته بالفعل من دخول المكان ولكنها طرحت إلى الخارج في الحال أما جهود الفرقة المدرعة الخامسة فيما يتعلق بالاختراق فقد واجهت مدافع «٨٨ س» مخفية على أرض مشرفة تقع إلى الشمال من «آرغنتان» مما اضطرها إلى التوقف موقتاً. وجدير بالذكر ان الفرقتين المدرعتين بانزر «س س» الأولى والثانية تمكنتا من التخلص عند «مارتين» وبالرغم من الهجمات الجوية المتواصلة وازدحام حركة المرور والافتقار إلى الوقود فقد تمكنتا من الاختراق. مع ذلك فان وضع مجموعة بانزر «ابرباخ» في ذلك اليوم - الثالث عشر - في «آرغنتان» كان يدعو لليأس والقنوط إلى أقصى الحدود. اضطر «ابرباخ» ان يدفع جنوده للعمل على شكل أجزاء متفرقة وغير منتظمة: فقبل كل شيء، عندما وصلت فرقة البانزر «س س» الأولى لم يكن فيها إلا ٣٠ دبابة وبغير مشاة. أما فرقة البانزر الثانية فلم يكن فيها إلا ٢٥ دبابة ونصف قوتها من الرجال بينما كان في فرقة البانزر «١١٦» ١٥ دبابة فقط. أما فرقة البانزر التاسعة فكانت قد دمرت، عملياً، في اليوم السابق. إذن فمجموع ما كان عند «ابرباخ» ٧٠ دبابة وقد أرهق رجاله بعد ان تعرضوا على مدى ستة أيام، لقصف المدفعية وقنابل الطائرات بشكل مستمر. إذن لا شك ان دفاعاته في «آرغنتان» كانت ضعيفة للغاية. وعلى النقيض من ذلك كان باستطاعة الفيلق «١٥» ان يحشد ٣٠٠ دبابة «شرمان» و٢٢ فوجاً من المدفعية وفرقتي مشاة بالاضافة إلى روح معنوية وصلت إلى ذروتها وراحة تكاد تكون كاملة وبقيادة «باتون» و«هيسليب» و«لي كلرك» و«اوليفر» الذين كان كل منهم يتعطش شوقاً للقتال. وعلاوة على هذا كله كانت هناك السيطرة الكاملة على الأجواء. لقد أوقف زحف الكنديين موقتاً ويعزى ذلك بالدرجة الأولى إلى أن قادتهم كانوا يفتقرون للخبرة إضافة إلى أن مساندتهم الجوية كانت ضعيفة للغاية، مع ذلك فقد كان لدى «مونتغومري» ضربة أخرى توجه في الصباح الباكر على طريق «فاليز» اسمها «تراكتابل»، ومرة أخرى بمساندة كل طائرة من طائرات سلاح الحلفاء كان الجيشان: البريطاني الثاني

والأمريكي الأول يدفعان أمامهما دون هوادة أو رحمة جميع المشاة والمدرعات التي كانت على جبهتيهما بالرغم من الصعوبات الأرضية. كان «سب ديتريخ» وهو من أقوى وأمهر قادة الجيوش الألمانية جميعاً قد سبق وأبلغ مقر القيادة العامة (هتلر) بأن جيش البانزر الخامس على وشك الانهيار الكامل وانه إذا لم يسمح، لما تبقى من الجيش السابع ومجموعة بانزر «ابرباخ»، بالانسحاب دون أي تأخير فانه سيواجه بدون شك، حصاراً كاملاً لا يبقى معه أي أمل بنجاة أحد. فالعملية كانت قد وضعت لتحقيق انتصار رائع يلعب فيه الدور الرئيسي كل من «باتون» و«هيسليب» والفيلق «١٥» والكنديون.

لكن فجأة، بعد الظهر، اضطر الفيلق ١٥ للتوقف مكانه طبقاً للأوامر التي لا تحتمل الأخذ والرد والتي أصدرها برادلي إلى باتون ونقلها هذا الى هيسليب: يجب ايقاف جميع الحركات الرامية لتحقيق الاتصال مع الكنديين وينبغي ارجاع أي جندي يصدف ان يكون في مكان متاخم لأرغنتان، اذ على الفيلق ١٥ ان يحتشد للقيام بعمليات في اتجاهات أخرى. احتج باتون على هذا التغيير لكنه نفذ بكل طاعة ولم يحاول ان يخفي سخطه فقد بقي حتى آخر لحظة في حياته مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الفيلق الخامس عشر كان يستطيع بكل سهولة دخول فاليز واغلاق الثغرة ـ وقد وافق الألمان، في ما بعد، على هذا الرأي بالاجماع. كما ان الأبحاث اللاحقة بررت هذا الرأي تبريراً كاملاً. وقد ظل قرار التوقف الذي اتخذه برادلي والذي أسفر عنه عدم اغلاق ثغرة فاليز ـ ارغنتان موضع جدل كبير ما بين مؤرخين كبار وغيرهم كان الحق الوحيد لأحد الكتّاب في دخول مثل هذا الجدل يرتكز على انه كان يقود لواء مشاة من الجيش الثاني في ذلك الوقت، وانه عندما أغلقت الثغرة أخيراً في ١٩ آب تدبر أمر ايجاد بعض الوقت وهو ينتظر ان يأخذ مكانه أثناء الزحف إلى السين، ليسوق سيارته في المنطقة التي كانت تشكل جبهة الجيش الخامس عشر في ارغنتان، وكان انطباعه حينذاك بأنه لو أطلقت حرية العمل «لباتون» لاستطاع ان يغلق الفجوة، ربما في اليوم الرابع عشر وانه ما كان لينجو أحد من الألمان. فالأرض لم تكن غير مناسبة للتكتيكات المدرعة لو استغلتها يد قادرة ماهرة وخلافاً لوجهة النظر الشائعة كانت معظم الاصابات الألمانية قد نجمت عن النيران المضادة للدبابات ونيران المدفعية وليس بسبب العمليات الجوية.

ليس هناك أي شك بأن ذلك القرار كان قد حظي بموافقة آيزنهاور، فقد كان في المنطقة ويمكنه إن يطلع على الأخبار مثل برادلي وطبقاً لما تقوله مفكرة بنشر، كان ايزنهاور قد تناول طعام العشاء على مائدة برادلي في تلك الليلة التي اتخذ فيها القرار بعدم

الاستمرار في الزحف إلى الشمال من آرغنتان. اذن نرى اخيراً انه من الصعب التهرب من الاستنتاج بأن مسؤولية ما حصل تقع على عاتقه، وجدير بالذكر انه في ما بعد لم يؤكد ذلك ولم يتهرب منه. والواقع انه بسبب وجوده في فرنسا فقد كان يتولى قيادة الجيوش البرية، تلك القيادة التي كان الانكليز يعتبرونها في يد مونتغومري ريثما ينقل ايزنهاور مقر قيادته الى فرنسا. اذن كان ايزنهاور في ذلك الحين يلعب دورين وقد استمر ذلك حتى نهاية الحرب ـ القائد الأعلى وفي نفس الوقت قائد قوات الحلفاء البرية. وكان في هذا يشبه موسيقياً يحاول القيام بالدور الأول وفي نفس الوقت القيام بقيادة الاوركسترا.

سرت اشاعات في ما بعد بان القوات الجوية قد اسقطت قنابل موقوتة وراء الخطوط الألمانية وانه لو استمر الفيلق ١٥ بالزحف لكان من الممكن ان يواجه احتمال النسف، اي: «يرتد كيده الى نحره ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها». معرفة هذا الخطر هي التي أوحت الى برادلي بان يوقف الفيلق والواقع ان تلك القنابل كانت معدة بحيث تنفجر بعد ١٢ ساعة: اذن يمكن صرف النظر عن هذا العذر اذ كان الجنود الامريكان وكذلك الانكليز قد تدربوا على خوض هذا النوع من المخاطرات اثناء زحفهم وعلى التعامل مع امكانية تعرضهم للنسف من قبل طياريهم كما لو كانت احدى حقائق الحياة.

ذكر برادلي في ما بعد انه لو سمح للفيلق ١٥ بأن يتابع التقدم لاصطدم مباشرة بالبريطانيين والكنديين ولأسفرت عن ذلك معركة فاجعة يؤسف لها بين الأصدقاء، وهي طريق مؤدبة في التعبير، تعني أنهم قد يقتلون بعضهم بعضاً. لكنني اعتقد انه كان يحسن ببرادلي ان لا يتقدم بهذا العذر فالواقع انه هو نفسه اقترح في وقت لاحق انه كان بالامكان وضع علامة بارزة أو تعيين علامة أرضية ظاهرة بصفتها نقطة اتصال وهكذا كان بالامكان التوصية بزحف محوري متوازٍ لكل من الفيلق ١٥ والجيش الكندي الأول وبذلك يُقطع طريق النجاة على الألمان من مكانين بدلاً من مكان واحد. وفي الوقت نفسه لم يكن صعب على الانكليز والامريكان ان يتفقوا على اشارات ضوئية خاصة: اذ كان كل منهما يملك كميات كبيرة من الشهب النارية، وكان كل رجل في الجيش البريطاني يملك، أو ينبغي ان يملك قطعة مثلثة من زهور شديدة الصفرة ليدل القوات الجوية على مركزه ولم تكن قد سنحت الفرصة بعد كي تقدم هذه الزهور الى البنات الفرنسيات على سبيل التذكار، أولئك البنات المتلهفات شوقاً للتحرر. كذلك كان الأمن اللاسلكي رديئاً بشكل يرثى له فمن خلال الصخب المجنون الذي كان يملأ الجو كان بالامكان التعرف بوضوح ودون اي خطأ على اللهجة الامريكية واللهجة الكندية التي لا يضاهيها الا لهجة الاسكتلنديين وخاصة ابناء غلاسغو او لهجة اولئك الذين ولدوا في الطرف الشرقي من

لندن «اللهجة الشعبية»، اي لم يكن من المعقول ان يبقى أحد جاهلاً لمدة طويلة اقتراب الصديق منه. وأخيراً، عندما يكون قائد إحدى الفرق ما يزال مرتاباً بمكان وجود حلفائه فان من السهل عليه ان يمتطي متن أحدى الطائرات الملحقة به ويحلق للتأكد بنفسه كما لم يكن بامكان اي انسان ان يخطىء في رؤية النجمة البيضاء المرسومة بوضوح ظاهر على جميع الدبابات الحليفة.

لكن، هناك اعتراض آخر بشأن السماح للقوات الحليفة بالاقتراب بعضها من بعض، وأعني ان مثل هذا العمل يجعل تعيين الأهداف الجوية عسيراً. وهذا صحيح، انما من الجدير بالذكر أن الأركان توجد عادة لحل مثل هذه المشاكل: ولم يكن ذلك عسيراً، ففي العمليات الشديدة الميوعة التي جرت في الأيام القليلة التالية يبدو ان مدافع الحلفاء لم تكن تواجه أية صعوبة إذا حكمنا على ذلك من المذابح التي حدثت في غابة غوفرن وكان معظمها من عمل أيديهم.

ذكر برادلي في كتابه «قصة جندي» انه كره ارسال الجنود الأمريكان إلى ما وراء «ارغنتان»لأنه كان يفضل وجود كتف صلبةفي«ارغنتان»على ان يرى عنقاً مقطوعةفي«فاليز». وقال في ما بعد انه لم يشك أبداً في مقدرة الفيلق الخامس عشر على اغلاق الفجوة - أما ما كان يشك فيه فهو مقدرة الفيلق على الاستمرار في الاحتفاظ بها مغلقة. يبدو لنا أنه كان مخطئاً تماماً في اعتقاده بأن بامكان عناصر فرقة المانية كانت قد تسللت من قبل عبر الثغرة أن تسحق، اذا ما قامت بهجوم ضخم متهور، الخط الدفاعي الامريكي. فان أي جندي من جنود الطليعة سواء كان أمريكياً أو انكليزياً كان بامكانه ان يقول لبرادلي ان جذور المتاعب الألمانية لم تكن بسرعتهم في الانطلاق بل كرههم لهذا الانطلاق والمضي قدماً. لكن ربما كانت اعتبارات الأمن هي التي بررت نوعاً ما ايقاف الفيلق الخامس عشر. والحقيقة لم يكن هناك أي تهديد من الشرق بل كانت هناك على الجناح الغربي فجوة تبلغ حوالى ٢٥ ميلاً ما بين الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية وفرقة الجيش الأول الأولى عند ميان، ومن المعقول ان يقوم ابرباخ باستغلال هذه الثغرة. والحقيقة ان القيادة الألمانية العامة ذاتها كانت تعتقد انه سيفعل ذلك غير ان برادلي لا يشدد على ذلك. والواقع انه بدا من غير المحتمل ان تقوم بمثل هذا العمل مجموعة بانزر أبرباخ، بعد ان شنت قبل خمسة أيام هجوماً باء بالفشل الذريع اضافة إلى ما لاقته من هول القنابل التي كانت تنصب عليها مدة ٢٤ ساعة في اليوم من مدفعية وطائرات الحلفاء وفي مثل هذه الحالة لم يكن باتون ليسمح لها بالقيام بمثل هذه الخطوة التي ستكون واضحة تماماً على ان المذهل

بالحقيقة ان يرتاب برادلي بمقدرة باتون على معالجة مثل هذه الأوضاع خاصة إذا أعدنا النظر في ما حققه باتون في العمليات الماضية.

في مجال واحد ينبغي الاعتراف بأنه كان من حق برادلي، تكتيكياً، عدم تجاوز حدود ارغنتان وذلك لأن الحد الفاصل بين منطقة مجموعة جيوشه ومنطقة مجموعة الجيوش ٢١ يقع الى الجنوب من ارغنتان ولم يطلب برادلي من «مونتغومري» لأذن بتجاوزه كما أن هذا لم يمنع. كان الاثنان وكأنهما مشتركان في مباراة كرة قدم لا في معركة، وهذا يزيد من دهشتنا لأن برادلي كان أول من اقترح عملية الكلاب القصير الى ارغنتان أما مونتغومري فقد غالى في تقدير مقدرة القادة الكنديين، باستثناء سيموندز «وقد وجه جهوده الرئيسية الى ما وراء طريق فاليز منتظراً منهم ان يصلوا الى ارغنتان اولا - كذلك لم يقدر مونتغومري الانطلاق المفعم بالنشاط الذي بثه باتون وهيسليب في الفيلق الخامس عشر حق قدره. وفي وقت لاحق ذكر برادلي انه هو وباتون كانا يرتابان بمقدرة «مونتي» على اغلاق الفجوة في ارغنتان وانهما قد انتظرا بفارغ الصبر الاذن للانطلاق شمالا. اذن من الجلي انهما كانا يراقبان بعجز تام العدو وهو يفر بجلده شرقا عبر الفجوة يعصره الجيش البريطاني الثاني وكأنه معجون اسنان يخرج من انبوبة. كتب برادلي في ما بعد: «اذا كانت تكتيكات مونتي قد حيرتني فانهما قد افزعت ايزنهاور اكثر بكثير اذ اخذ الجيش الثالث المتذهل ينظر الى طريدته تفر أمامه وهو عاجز عن القيام بأي تحرك، بينما كان باتون ساخطاً بسبب الخطأ الفاحش الذي وقع فيه مونتغومري وهذا يتطلبق تماما مع بيان باتون نفسه في كتابه «الحرب كما عرفتها» اذ قال: «بان الفيلق الخامس عشر كان يمكنه، وبكل سهولة، دخول فاليز واغلاق الفجوة واني اعتبر ذلك التوقف خطأ فادحاً ذلك لأنني كنت متأكداً تماماً انه كان باستطاعتنا دخول فاليز لكنني لم أكن متأكداً من ان البريطانيين يستطيعون ذلك». وحده ايزنهاور كان بامكانه التدخل مع مساعديه الاثنين برادلي ومونتغومري اللذين كان كل منهما متشبثاً بكرامته في تلك اللحظة الجرجة، وكان هناك ما يبرر تدخله. الواقع ان الفكرة خطرت له في ما بعد، فاشار بعد الحادثة بمدة طويلة الى انه كان بالامكان اغلاق الفجوة ومن ثم القضاء على الالمان قضاء مبرما. ان شعوره بالافتقار للخبرة في ميدان القتال الامامي، هذا الشعور على ما يبدو هو الذي قاده الى قبول النصيحة بدلاً من اتخاذ القرار بنفسه. فهو لم يشعر أبدا الشعور الحقيقي بالمعركة. ومما لا شك فيه إن مستشاريه في شؤون الاعلام كانوا قد فشلوا في اعطائه تقييما سليما للمأزق الحرج الذي كان الالمان يتخبطون فيه وهم في ذلك الجيب.

أما فيما يتعلق بالاجيال اللاحقة فيمكنها، بشكل مبرر ، أن تستنتج ، مع معرفتها الورطة التي كان يتخبط فيها الالمان ولم تبلّغ لايزنهاور، ان القضاء المبرم على الجيش الالماني كان ممكنا لو امكن الوصول الى قرار حاسم وربما كان اسفر عنه انتهاء الحرب ١٩٤٤ ، . كان باستطاعة باتون وهيسليب، بوجود الفرقة الفرنسية المدرعة الثانية والفرقة المدرعة الخامسة وباقي فرق الفيلق ١٥ التي كانت في حالة اشتباك مع ما تبقى من مجموعة بانزر ابرباخ، ان يقوما بعملية حاسمة لن تكلف الا نصف الثمن بالنسبة للخسائر الامريكية في الأرواح اي كان من الممكن ان تصبح معركة ارغنتان هي معركة الشرف المجيدة في تاريخ الجيش الامريكي شأنها شأن معركة «ماناساس» الثانية أو «تشانسلور فيل» وكان باستطاعة الفرنسيين ان يضيفوا انتصارا آخر، طال انتظاره، الى القائمة الرائعة المسجلة على قوس النصر - وبثمن معتدل أيضاً. لقد كتب لي كلرك بمرارة الى ديغول في ذلك الوقت: «انتابني شعور بأن الموقف أشبه بموقف ١٩٤٠ انما على نحو معكوس: فوضى كاملة في صفوف العدو وارتال منذهلة الخ . » كان بالامكان ان تكون ذروة احداث الجبهة الفرنسية عند ارغنتان - فاليز رائعة ولكن القيادة العليا قررت غير ذلك: لا بد ان التاريخ سيدينها أما ايزنهاور وبرادلي فكان باستطاعتهما ان ينضما الى صف روبرت اي لي اذ كان تحت امرتهما من يتوق الى القيام بأعظم المغامرات واعني بذلك اقدر قادة القوات المدرعة واقدر قائد انجبته الحرب العالمية الثانية وكان جينذاك في ذروة مجده، رجل كرس حياته بكاملها من أجل فرصة كهذه وكان تحت قيادته جنود وصلت معنوياتهم الى ذروتها بالاضافة الى مساندة قوة جوية كاسحة. لقد فشلت القيادة العليا في استغلال هذه المواهب وبذلك سارت الخطوات الأولى التي أكدت اطالة الحرب الى ١٩٤٥ دون اي مبرر أو ضرورة.

الفصل الثاني عشر
التطويق الأوسع

إلى الأمام، على امتداد مائة من الأميال وحتى باريس، كان يمتد تحت أشعة شمس آب قلب فرنسا وأوروبا، أرض كأنها رقعة شطرنج مختلفة الألوان وسهول تنحدر بلطف وحقول قمح وغابات صغيرة ـ بلاد يمكن فيها لدبابات باتون ان تسرح وتمرح دون أي مانع أو حائل. أما على الهضبات الحوارية في «ايفرو» و«دور» و«شارتر» و«شاتودن» فقد كانت هناك مواقع لا حد لها تصلح لأن تكون مطارات لا بد منها فيها بعد لمساندة الجيوش عندما تصل إلى السين وكانت هناك شبكة من الطرق الرائعة تمتد بصورة عامة إلى الجهة الشمالية الشرقية وإلى الشرق إضافة لعدد كبير من الطرق الجانبية التي تمتد نحو الشمال والجنوب. إما نهر اللوار فكان يقف حارساً على الجناح الأيمن. . أمر «برادلي» «باتون» بأن يكلف فرقة «لي كلرك» المدرعة الثانية وفرقة المشاة التسعين بالمحافظة على الوضع في «أرغنتان» بينما يزحف هو شرقاً إلى خط يمتد من الشمال إلى الجنوب تقريباً عبر «أورليان» و«شارتر» و«درو». هذا التحرك سيجعل قواته على جبهة تقرب من الستين ميلاً وعلى مسافة قريبة من باريس. هنا اقترح «باتون» ان يتوقف ريثما تكتمل الإجراءات التموينية. كانت تلك اللحظة من أعظم اللحظات التي عاشها «باتون» فقد أعلن وهو مفعم بالنشاط والفرح في مؤتمر عقد في ١٤ آب قائلاً: بانتهاء هذا اليوم يكون الجيش الثالث قد تقدم أبعد وأسرع من أي جيش آخر في التاريخ، وسيتقدم الآن أكثر، فقد توجه الفيلق

الخامس عشر نحو «درو» والفيلق العشرون نحو «شارتر» والفيلق الثاني عشر نحو أورليان. وعند الوصول إلى هذا الخط كان على الجميع ان يتأهبوا للاندفاع شمالاً أو شمالاً شرقاً أو شرقاً طبقاً لما يتطلبه الوضع الذي يرونه. وبعد أن أعطى التعليمات لـ «هيسليب» أضاف: «إن كان لا بد لي أن أقول هذا بنفسي، فإنها خطة جهنمية رائعة وهي من وضعي كلية».

من الجدير بالذكر ان برادلي كان يتمتع بميزة أخلاقية لطيفة وأعني بها صراحته في الاعتراف بأخطائه. فبعد أنْ أطلق العنان لـ «باتون» كي ينطلق شرقاً دون اعاقة. وهو قرار اتخذه بنفسه دون الرجوع إلى «آيزنهاور» أو «مونتغومري»، خطرت له أفكار ثانية: أكان من الأفضل ان يوجه «باتون» إلى جهة الشمال الشرقي نحو «شامبو» عند فجوة جيب «فاليز؟» لو فعل ذلك لما كان من المحتمل ان يتمكن الألمان من الاحتفاظ بفم الكيس مفتوحاً ستةأيام أخرى، ومن المؤكد ان عدد الناجين من شبكة الحلفاء سيكون أقل بكثير، عندما طلب «مونتغومري» منه العون في اليوم السادس عشر أمر الفيلق الخامس من الجيش الأول بالتدخل. وأخيراً عندما قاموا بالهجوم بعد ٤٨ ساعة أوقفتهم قوات «ابرباخ» على بعد ثلاثة أميال من «شامبو» فبقيت فجوة الأميال الستة بين «شرين» و«شامبو» مفتوحة مدة يومين آخرين لكن مما لا شك فيه ان الفرقة التسعين اتصلت بالفرقة المدرعة البولونية عند «شامبو» في ١٩ آب وتمكنت من كسر النطاق الذي ضربه فيلق البانزر الثاني حول «لودهار» وعلى مدى أربعة أيام كانت خسائر البولونيين فادحة بيد ان بطولتهم كانت اسطورية ولو انجدوا في وقت مبكر لما كانت خسائرهم بتلك الفداحة. في اليوم الحادي والعشرين من شهر آب توقف القتال تماماً حول السرداب المرعب، سرداب رفات الموتى الذي شكلته «سان لامبرت». وتشكل الأيام الستة الأخيرة لمعركة فجوة «فاليز»، أي من بدءخطة «تراكتابل» وحتى ارسال «باتون» إلى الشرق في اليوم الرابع عشر، قصة مأساوية، كما يعترف بذلك المؤرخ الكندي الرسمي، من مآسي سوء استعمال القوة الوحشية من قبل الجيش الكندي الأول وقيادة قاذفات القنابل على السواء وقد عوضت عن ذلك المقدرة القيادية لقائد الفيلق الكندي الثاني الفريق «هـ.ج سيموند»بالاضافة إلى البسالة التي أبداها الكنديون والبولنديون. لم تكن الفرقة المدرعة الكندية الرابعة ولا الفرقة المدرعة البولونية قد قامتا بأي عمل قتالي قبل زجهما في جحيم معركة «النورماندي»، كما كانت الفرقة المدرعة الكندية أحدث التشكيلات الكندية ولم تمنح أية فرصة للتدريب الجماعي وكان لا بد من أن يصرف قائدها الذي لم يكن قد تسلم قيادتها إلا في شباط، رغم ان أخطاءها ليست جميعاً بسببه. ومن الجدير

بالذكر أيضاً أنه كان باستطاعة فرقة المشاة الكندية الثانية أن تحقق نتائج أفضل لو أنها كانت خلال الفترة الطويلة التي قضتها في انكلترا قد انتهزت الفرصة للاهتمام بدروس «مونتغومري» الذي كان متشوقاً تماماً لأن يقدمها لها عام ١٩٤١ و١٩٤٢. ولكن هذه الجهود قوبلت بمقاومة واستهزاء. مع ذلك يبدو انه كان على المؤرخ الكندي الرسمي ان يؤكد أكثر على انه كان أمام هذه الفرقة جيش البانزر الخامس الذي كان يتألف من فرق عركتها الحروب تماماً ويقودها ضباط وضباط صف ذوو صفات حربية عالية وخبرات طويلة. لقد كانوا يحاربون وظهورهم إلى الجدار وكانوا مستعدين لأن يدفعوا إلى الجدار ثمن المذبحة الهائلة حول «سان لامبرت» حيث كان الأموات في مراحلها النهائية قريبين بعضهم من بعض إلى حد التلامس، إضافة إلى أن رائحة التعفن كانت فظيعة إلى درجة جعلت ملاحي الطائرات الخفيفة يشمونها ومما لا شك فيه ان برادلي كان مصيباً في ظنونه بعد ان حول «باتون» بعيداً عن فريسته القريبة في أرغنتان في ١٣ آب أي قبل إغلاق الفجوة بثمانية أيام.

أثناء ذلك، وبوجود خرائط قليلة ودون أية معرفة عملية بمركز العدو المتربص في الأمام، اندفع في اليوم الخامس عشر اللواء «جلبرت ز. كوك» قائد الفيلق الثاني عشر دون أية عمليات استطلاعية مسبقة في اتجاه «أورليان» على الطريق المباشر وطريق «شاتودن» أيضاً. ومن الجدير بالذكر ان هذا اللواء كان قديراً محنكاً عركته الحرب العالمية الأولى، وقبل ان يخيم الظلام مباشرة كان الفيلق قد تمكن من اكتساح الدفاعات المضادة للدبابات والمضادة للطائرات في مطار «أورليان» الكبير ثم تابع اندفاعته في الضوء الباهت إلى ان وصل ضواحي المدينة في الصباح التالي وحين كان رتلان مدرعان يقومان بمهاجمة المدينة من الشمال كان فوج المشاة ١٣٧ يندفع داخل المدينة من جهة الغرب فاستقبله السكان بترحاب بالغ. كانت المقاومة ضئيلة: فاستمرت البهجة العارمة طيلة النهار. في تلك الليلة علم العالم بأجمعه أن مدينة «جان دارك»، كما سارعت الصحافة لتسميتها، قد سقطت في يد«باتون» والجيش الثالث. لقد عرف العالم أخيراً مكانه وهو السر الذي زعم البعض ان «آيزنهاور» قد منع الإعلان عنه بسبب غيرته. يؤكد نقاد «باتون» على أن هذا القائد لم يقدر في حينها حق قدرها إمكانية أن تقوم قوات المانية جنوبي اللوار بمهاجمة مواصلاته ومواصلات مجموعة الجيوش الثانية عشرة. وهذا الرأي أبعد ما يكون عن الحقيقة فقد كان «ويلاند» والقيادة الجوية التكتيكية التاسعة عشرة يهيمنان دون انقطاع على خط النهر ويشتبكان مع الزمر الألمان حيثما وجدت، كما ان طائرات المراقبة المدفعية ظلت تقوم بالمراقبة فوق «اللوا» وهو رافد من روافد اللوار ولاكمال هذه الرقابة الجوية

اجتاحت الفرقة المدرعة الرابعة ضفة النهر الشمالية من «لوريان» حتى «أورليان» وهذه العمليات اضافة إلى نشاطات جيش فرنسا الحرة الذي شرع في هذه المرحلة بامداد «كوتش» بنطاق واسع من المعلومات التي كان بعضها صحيحاً قد اقضت مضاجع الألمان فقاموا بنسف جميع الجسور حتى «بلوا» وبعد ذلك قامت مجموعة المهندسين ١١٧ بتدمير باقي الجسور حتى «أورليان» وبذلك نرى ان جناح «باتون» الجنوبي كان آمناً تماماً.

هنا، حري بنا ان نذكر ان من سمات «باتون» المحببة إخلاصه وولاءه لاصدقائه فعند سقوط «أورليان» وجد «باتون» نفسه في حيرة شديدة أثرت على مشاعره تأثيراً عميقاً. «فكوك»، رغم كونه صديقاً قديماً وجندياً رائعاً وقائداً باسلاً لا يستطيع «باتون» التخلي عنه، كان يعاني في تلك المرحلة من أحد أمراض الدورة الدموية وكان ذلك المرض عنيفاً إلى حد أن إبقاءه قائداً للفيلق الثاني عشر لم يعد ممكناً. لكن الاضطرار لحرمان هذا الصديق من منصبه القيادي وهو في ذروة مجده مس فؤاد «باتون» في الصميم. إذ إنه أدرك ثقل الضربة المعنوية التي سيكيلها لصديق قديم. لذا عمل كل ما في وسعه للتخفيف من وقع الضربة فهتف إلى «آيزنهاور» مباشرة طالباً منه أن يقدم له جميلاً شخصياً وهو ان يمنح وسام الخدمة الممتازة لصديقه كوك الذي يستحقه عن جدارة.

كان اندفاع الفيلق العشرين نحو «شارتر» سريعاً ودراماتيكياً أيضاً فالفرقة المدرعة السابعة الموجهة أصلاً نحو «درو» كانت قد تمكنت من قطع ١٥ ميلاً في اليوم الرابع عشر من آب قبل ان تتجه ، بعد الظهر، إلى «شارتر» وأسفرت عن ذلك عملية إعادة تنظيم للتلاؤم مع الظروف الجديدة مما أدى لحدوث بعض التأخر. عندما استؤنف الزحف في اليوم التالي، ولدى الوصول إلى ضواحي «شارتر»، هاجم المدينة رتلان مدرعان أحدهما دخل المدينة من الشمال الغربي والثاني من الجنوب الغربي ومع تلاشي النهار بدأت تواجه الرتل الثاني وعلى نحو مفاجيء مقاومة عنيفة. أما ما حدث فهو التالي: لقد عين الجيش الألماني الأول هذه المدينة نقطة ازدلاف للجنود المتخلفين عن وحداتهم من معركة نورماندي. وعندما وصل أولئك الجنود نظموا على شكل مجموعات مقاتلة وهو أسلوب فني امتاز الألمان بممارسته جزئياً بسبب الخبرة التي اكتسبوها في شمالي افريقيا وروسيا. علاوة على ذلك عندما اندفع الرتل داخل المدينة حدث ان قائد الجيش الأول الجنرال «كرت فون درشفالري» شخصياً كان قد عقد اجتماعاً هناك ليقرر كيف يوزع الفرقتين الفرنسيتين اللتين أمر هتلر بارسالهما إلى هناك وهما الفرقة الثامنة والأربعون من شمالي فرنسا والفرقة ٣٣٨ من الجنوب، وفي وجه هذه المقاومة غير المتوقعة تراجعت الدبابات

تحت جنح الظلام، وخلال الليل وصلت الفرقة ٣٥ إلى ضواحي المدينة الجنوبية الغربية حيث كانت تتدفق التعزيزات الألمانية الجديدة فأسفر عن ذلك ان الفيلق ٢٠ لم يتمكن من اليوم التالي من ان يحتل سوى قسم صغير جداً من منطقة العمران، بتاريخ السابع عشر حصل قتال شوارع غير حاسم ولم تسحق المقاومة كلياً إلا بعد شن هجوم عالي المستوى في اليوم التالي، هجوم ساحق قام به المشاة والدروع بمساندة مدفعية الفيلق. وقد اتخذت عناية مشددة كي لا تدمر المدافع ابنية المدينة القديمة وبوجه خاص الكاتدرائية التاريخية وكانت نتيجة المعارك ان سقط في الأسر أكثر من ٢٠٠٠ من الألمان وتم الاستيلاء على منشأة كاملة سليمة للقوات الجوية الألمانية وبذلك أصبح الفيلق العشرون على بعد ٥٠ ميلاً من باريس.

في غضون ذلك، زحف الفيلق الخامس عشر على الجناح الشمالي وإلى يمينه الفرقة ٧٩ باتجاه «نوجين لي روا» بينما تقدمت الفرقة المدرعة الخامسة على «درو» مبتعدة ٦٠ ميلاً عن أرغنتان ماسحة باستخفاف شديد بعض حواجز الطرق التي كان الدفاع عنها ضعيفاً. وفي صباح ١٦ آب كانت الفرقة المدرعة الخامسة فوق نهر «اليور» كما كانت تطوق «درو» التي سارع الألمان إلى إخلائها. في نفس الوقت استولت الفرقة ٧٩ على «نوجين لي روا» دون أيةمقاومة تذكر وأقامت رأس جسر على «اليور» وبذلك أصبح «باتون» يملك خمسة جسور على «اليور» كما أضحى وهو في «درو» على مسافة قصيرة من باريس لا تتجاوز الـ ٣٧ ميلاً. بيد أن الحاجة الملحة لم تكن في تلك اللحظة تحرير باريس بل إكمال القضاء على مجموعة الجيوش «ب» وقد اشترك في هذا الرأي كل من «آيزنهاور» و«برادلي» و«مونتغومري» و«باتون» ولذلك اتخذ القرار بان يجري مجرد ضغط بسيط على باريس ومضايقتها بحيث يتحاشى «باتون» حرب الشوارع فيها لا مع الألمان فحسب، بل بين الفرنسيين أنفسهم. كما كانت تواجههم مشكلة تحويل ٤٠٠٠ طن من المؤن لتغذية السكان إذ كان هناك اعتقاد راسخ بأن السكان يتضورون جوعاً وقد ثبت في ما بعد ان هذا الاعتقاد كان خاطئاً: اذن كلما طال تأجيل احتلال باريس كلما كان ذلك افضل للمتحالفين، وجدير بالذكر ان زحف «باتون» الذي لم يكن له نظير في السابق قد حمّل نظام التموين عبئاً ثقيلاً لا يطاق. ففي مدة تقل عن الأربعة أسابيع مد خط تمويناته من «سان لو» إلى «السين» تقريباً. لقد كان في بريتاني يقوم بعدة عمليات حصار ثم أصبحت طلائع جيشه على بعد ٢٥٠ ميلاً من «شربورغ»، وكانت قطارات سكة الحديد حتى «لي مان» تعمل بشكل جيد لكن الجسور المنسوفة عرقلت التقدم بعد ذلك، كذلك كانت مجموعة عربات السكة الحديدية الفرنسية قديمة ومركباتها قليلة وذلك بسبب قذائف

الحلفاء التي انصبت عليها وخاصة القذائف التي تساقطت على ورش السكك الحديدية قبل ومنذ يوم «د»، لقد سبق واستعيرت سيارات شحن بريطانية من أربع شركات للمحافظة على متابعة «باتون» للزحف لكنه رغم ذلك بدأ يشعر بنقص البترول وحتى الأسبوع الثالث من شهر آب كان النقل الجوي مشغولاً بالعمليات فوق ثغرة «أورليان»، لكن تقدم «باتون» حوَّل هذه الطائرات كي تقوم بنقل الإمدادات لجيش «باتون». ومن تلك اللحظة فصاعداً أصبح النقل المحمول جواً لصالح الجيش الثالث عملاً يومياً روتينياً، وفي نفس الوقت موضوع حوار مستمر ما بين مقر قيادة «باتون» ومقر قيادة «آيزنهاور». وجدير بالذكر ان الحوار لم يكن يرضي أحداً. في ١٧ آب أمر «برادلي» «باتون» بأن يدفع الفيلق الخامس عشر ٢٥ ميلاً أخرى من «درو» إلى «السين» بحيث يقطع مركز مواصلات «مانت غاسيلور» وبذلك بقطع الطريق على الألمان فلا يفرون من الجنوب الشرقي وفي نفس الوقت دفع الفيلق ١٩ لسد الثغرة التي أخلاها الفيلق ١٥ ما بين «غيس» و«درو». كان «ويليام الفاتح» قد نهب ثم حرق «مانت» عام ١٠٨٧ وعندما دخلت الفرقة «٧٩» البلدة دون مقاومة وجدت أنها كانت قد قصفت بعنف شديد من قبل سلاح الجو الملكي، بحيث دمرت جميع الجسور التي كانت على نهر «السين» وعرضها هنا ٨٠٠ قدم ـ كما كانت نيران الرشاشات تنصب من الضفة الشمالية.

وقد عادت الدوريات التي أرسلت حتى مسافات قصيرة من ضواحي باريس بتقارير تؤكد وجود مجموعات صغيرة من الألمان متجهة نحو العاصمة لكنها ليست على شكل جماعات منظمة. كان الوقت قد حان للانتهاء من معركة «النورماندي» وعلى الرغم من الكارثة التي حلت في «فاليز» كان «مودل» ما يزال يملك بعض السيطرة على بقايا الجيش السابع وجيش البانزر الخامس اللذين كانا قد اندمجا تحت قيادة «سيب ديتريخ» ويقدر ما فيها من الرجال بـ ٧٥,٠٠٠ وعدد الدبابات بـ ٤٥٠ منسحبة نحو المعابر الواقعة على نهر «السين» ما بين «ليزأندسي» و«روان» وتحتشد بصورة رئيسية في الانحناءين الكبيرين لمجرى النهر جنوبي وغربي المدينة. كان هذا التجمع يشمل أيضاً جنوداً من الجيش الخامس عشر الذي لم يشتركوا في المعارك غربي «فاليز» وكانوا نسبياً في حالة جيدة من الراحة والنشاط.

وعلى ذلك فقد اجتمع «آيزنهاور» و«برادلي» و«مونتغومري» و«دمبسي» صباح التاسع عشر من آب للاتفاق على قرار بكيفية تحقيق التطويق النهائي، وكان هناك غربي «السين» مباشرة شبكة طرق ممتازة موازية لمحوره الرئيسي وملائمة بشكل رائع لاندفاع

قوي يقوم به الفيلقان (١٥ و١٩) من المراكز التي وصلا إليها الآن، وبصورة مباشرة نحو حشود الألمان المتجهة إلى الجنوب والجنوب الغربي من «روان».

لكن زحفهما هذا سوف يتضمن اجتيازاً لجبهة الجيش الثاني البريطاني. عرض «برادلي» بلباقة أن يقدم وسائل نقل لتأمين التحرك مسافة ٣٠٠ ميل حول مؤخرة الجيش الأول وعبر منطقة الجيش الثالث. أما «مونتغومري» وقد بات يفتقر للرجال نتيجة قتال دام شهرين كما انه لم يكن يتوقع تعزيزات رغم انه كان حينذاك يخطط لانقضاضه التالي على «السوم» وعلى «انتورب» فانه رفض عرض «برادلي» اللطيف مرغماً.

إذن، كان لا بد من تقبل المضايقة الادارية الامريكية داخل القطاع الانكليزي التي قد يسببها وجود الجنود الامريكان وبذلك لم يمنع جنود «باتون» من ان يكونوا في المرحلة الأخيرة الحاسمة.

وطبقاً لذلك اتجهت الفرقة المدرعة الخامسة ـ من الفيلق ١٥ ـ شمالاً على طول الضفة الغربية لنهر «السين» باتجاه «لوفيير» كما توجه الفيلق «١٩» إلى «البوف» وفي تلك الليلة طار «باتون» في طقس رديء للغاية بعد ان قضى يومه في «مانت» كي يحصل على موافقة «برادلي» على خطته الرامية لاقامة رأس جسر عند «مانت» عمقه من أربعة أميال إلى ستة أميال وأن يبني جسراً هناك للمركبات والدبابات والأجهزة الثقيلة. وافق «برادلي» في الحال، ليس على العبور عند «مانت» وحسب، بل على القيام بعمليات عبور أخرى ينبغي ان تنفذ بأقصى سرعة شرقي «باريس» وان يقوم بالتنفيذ الفيلق العشرون عند «ملن» و«فونتينبلو» والفيلق الثاني عشر عند «سنس».

وجدت الفرقة «٧٩»، قرب مانت سداً يصلح لأن يكرن ممراً ضيقاً عبر النهر. وفي تلك الليلة وتحت مطر غزير سار فوج المشاة «٣١٣» في رتل واحد، رجلاً إثر رجل وعبروا النهر دون أي ازعاج. كما عبر النهر جنود آخرون يحملون أعتدة خفيفة في قوارب نقل واقتحام وبعد الظهر كان قد أنشىء جسر خفيف وعندما أرخى الليل سدوله كان القسم الأكبر من الفرقة ٧٩ قد عبر السين وفي اليوم التالي اكتسحت الفرقة مركز قيادة مجموعة الجيوش (ب) وطاردت الفرقة الألمانية التي كانت تتقدم نحو المنطقة. في ٢٣ آب افتتح جسر من جسور بيلي (جسر قوي من الفولاذ سمي باسم المهندس «بيلي») يمكنه ان يحمل كل آليات السير بمختلف أنواعها.

أما الفرقة المدرعة الخامسة وبعد ان عين لها «باتون» الهدف (لوفيير) فقد انطلقت

مع فجر ٢٠ آب وساتغرقت العملية خمسة أيام قابلت الفرقة خلالها مجموعات قتالية متتالية إلى أن وصلت إلى (لوفيير). كانت الأرض مناسبة للدفاع وقد قاتل الألمان بعنف. في (لوفيير) اتصلت الفرقة مع الكنديين ثم انسحبت جنوباً وفي نفس الوقت شق الفيلق (١٩) من اليسار، طريقه قدماً نحو (البوف). هنا واجه الفيلق مقاومة شديدة، ولذلك شن هجوماً قوياً جرى بالتنسيق مع الفرقة (٢٨) في ٢٥ آب لتأمين السيطرة التامة على الموقع. قبل تسليمه للكنديين. بعد أن انتهت المهمة انسحب الفيلق إلى منطقته تاركاً خلفه طريقاً نظيفة يستطيع الجيش البريطاني الثاني ان يسير عليها إلى نهر «السين» عند «فرنون» و«ليز أند لي». ورغم أن الألمان كانوا قد نجحوا في الأيام الأخيرة من شهر آب بادخال آلاف المركبات عبر نهر «السين» فان هذا الاندفاع الامريكي حرمهم بالحقيقة من نصف وسائط العبور التي كانوا يستعملونها. ونتيجة لذلك أصبح انحناء النهر جنوبي وجنوبي غربي «روان» يعجان بوسائط النقل والجنود الذين كانوا ينتظرون أن يأتي دورهم للعبور وهم معرضون لقصف عنيف من سلاح الجو الملكي والمدفعية الكندية. وسرعان ما تطور الوضع وأصبح مجزرة هائلة مماثلة لما حصل في ثغرة «فاليز» فقد استمرت المجزرة خمسة أيام أخرى. قبل ان ينتهي القتال وينتهي حمام الدم كان في الأكوام المتراكمة من الحطام ما يزيد على ٤٠٠ عربة محروقة أو مدمرة من بينها أكثر من ١٥٠ دبابة، فعرف «سبيدل» القائد العام، اللامع الصيت ورئيس الأركان في الأيام السعيدة، انه فقد هنا فرصة رائعة لانقاذ من بقي حياً من جيشه. كان يعتقد ان فرقة (باتون) المدرعة الخامسة سوف تندفع نحو الطرق الممتازة على الضفة الشمالية لنهر السين بدلاً من الزحف جنوباً وإغلاق المخارج من روان على جانب النهر البعيد.

وكان «ليدل هارت» يعتقد نفس الاعتقاد. وكان «سبيدل» مقتنعاً أنه لو فعلت الفرقة ذلك وهي تتمتع بروح معنوية عالية وكفاءة رفيعة لتمكنت من القضاء على ما تبقى من مجموعة الجيوش قضاءً مبرماً، أما ما حدث فهو انه تمكن من النجاة عدد يتراوح ما بين ٢٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ قاتلوا في معارك أخرى خاصة عند «أرنهم» ولم يعبر «باتون» عن أي رأي مسجل فيما يتعلق بهذه المسألة التي كانت تخص «برادلي» ولا تخصه هو. لكن أنظاره بدأت تتجه إلى ناحية أخرى، إلى المجالات الممتازة التي تقدمها معابر السين الواقعة جنوبي «باريس» والطرق الكبيرة التي تمتد من هناك إلى قلب المانيا. في اليوم الحادي والعشرين دفع الفيلق «١٢» وقد بات بامرة «ادي»، كي يقوم بوثبة كبيرة أخرى إلى الأمام. فتقدم رتل من الفرقة المدرعة الرابعة كان في الطليعة بسرعة متزايدة، ثم تجاوز مقاومة عند «مونتارجي» واندفع بأقصى سرعة نحو «سنز». هنا فاجأ الجنود ضباطاً

من الألمان يقضون عطلـة، وعند فجر اليوم التالي كانوا قد أقاموا رأس جسر على نهر «اليؤن» بعد احتلال المدينة أما المقاومة الألمانية في «مونتار» فقد انهارت أمام الفرقة «٣٥» بعد بضعة أيام. وفي اليوم الخامس والعشرين زحفت الفرقة المدرعة الرابعة ٤٠ ميلاً أخرى باتجاه «تروي» ثم توزعت على الضواحي وفق تشكيل صحراوي وكانت كل دبابة تبتعد عن الأخرى حوالى ١٠٠ ياردة ثم راحت تندفع هادرة داخل المدينة.

كان تقدم الفيلق العشرين من على اليسار الذي يستهدف الاستيلاء على رؤوس جسور على السين ما بين (ملن) و(مونترو) سريعاً وساحقاً أيضاً.

ورغم المقاومة الشديدة التي جابهتها الفرقة الخامسة على نهر «اسوم» فانها تمكنت من التقدم ٤٠ ميلاً في اليوم الحادي والعشرين من آب، ثم اندفعت في اليوم التالي تواجهها مقاومة متزايدة حول «فونتينبلو» وتمكنت من الوصول إلى السين وعبرته في ٢٣ منه. عند «مونترو» وإلى اليسار من هذه الفرقة حققت الفرقة المدرعة السابعة تقدماً باهراً في اتجاه (ملن). وهكذا كان الجيش الثالث قد حصل في ٢٥ آب على أربعة رؤوس جسور على السين الأعلى إلى الجنوب من باريس ما بين «ملن» و«تروي» وسلم رأس الجسر الذي أقامه عند «مانت» إلى الجيش الأول.

لقد كان اندفاع وسرعة وكفاءة جيش «باتون» أموراً رائعة ومذهلة لدرجة سحقت أمامها أعداداً كبيرة من الألمان المذعورين المرتبكين.

ففي جو التحرير الرائع هذا لم يعد يبدو ان هناك أشياء مستحيلة بالنسبة لهم. لقد انخفضت أرقام الخارجين من المعركة بسبب الارهاق أو الأزمات النفسية إلى الصفر فليس ثمة شيء يرفع المعنويات كالنجاح، وكان ذلك النجاح قد تحقق على نطاق واسع.

بالنسبة للفرنسيين كانت رائحة الاحتلال الألماني الكريهة قد تلاشت لدى وصول أول دبابـة أمريكية.

فالشعب الذي يغلي حماسة عادة، تخلى عن جميع القيود وأخذ يغدق كرمه على الفاتحين بمنحهم الخمر والثمار إضافة إلى وضع أكاليل الزهور على الدبابات.

كانت الشمس ساطعة والثمار ناضجة. وكل ما كان يأخذه الألمان بالقوة كان الشعب يقدمه بطيبة خاطر وبكل شوق وترحاب.

وفي كل بلدة وفي كل قرية تتحرر كانت ترتفع الاعلام الثلاثية الألوان وكان يتم

ذلك بسحر ساحر ثم يرتفع بجانبها العلم الامريكي بنجومه وشرائطه وكان الجميع يخرجون إلى الشوارع ليلوحوا بأيديهم أثناء مرور الجنود دون كلل أو ملل.

وكان الأولاد يصيحون طالبين السجاير للبابا وكانت النسوة يرفعن أطفالهن كي يستطيعوا رؤية الجنود.

أما كبار السن ممن خاضوا الحرب العالمية الأولى فكانوا يتقلدون أوسمتهم بكل اعتزاز وفخار وينطلقون لمصافحة محرريهم. بينما كان رؤساء البلديات وهم يفخرون بارتداء أوشحتهم المثلثة الألوان ينتظرون سنوح الفرصة كي يرحبوا بالضيوف ويظهروا لهم الحب والاحترام، وخاصة القادة الامريكان منهم وهم يمرون داخل بلداتهم وقراهم. لقد كان هناك الكثير من الأدلة على الشكر والعرفان بالجميل اللذين كان سواد الشعب الفرنسي يشعر بهما تجاه الامريكيين.

أما الفلاحون والعمال فقد كان شكرهم دون أي تحفظ:

فبعد تحررهم لن تكون هناك مشكلة لا يمكن حلها بسهولة.

لكن هذا لم يكن ينطبق لسوء الحظ على باريس وسكانها، إذ أخذت تتسرب أخبار إلى خطوط القتال تؤكد انهم، يتضورون جوعاً وتردد في بعض الأوساط بأن المدينة ستحتاج إلى نقل يومي من المؤن يعادل نصف ما تحتاج إليه مجموعة الجيوش الثانية عشرة. وبما أن المعركة كانت ما تزال مستعرة حو معابر «روان»، راود «آيزنهاور» و«برادلي» الأمل بأن يتمكنا من إرجاء نجدة المدينة إلى أمد أطول.

وكان الرجلان متفقين تماماً على نقطة واحدة:

يجب عدم توريط «باتون» بهذه الأمور، أولاً لأن عليه هو وجنوده أن يركزوا أفكارهم ونشاطاتهم جميعاً على الاستمرار بالمطاردة، ثانياً لأنهماتذكرا ما حدث سابقاً في المغرب عندما أطلق العنان لـ «باتون» قليلاً في الميدان السياسي. وكان بعض أصدقائه الفرنسيين بعيدين أيضاً عن الاعتراف الشخصي بجميل «روزفلت» و«تشرشل» ولم يكن «آيزنهاور» ولا «برادلي» يرغبان بالتورط في الدوامة السياسية الساخنة في العاصمة الفرنسية من أحزاب موالية لـ «بيتان» وأخرى موالية لـ «دي غول»، ولكن الأحداث في باريس أرغمتهما.

ففي مساء الثاني والعشرين من آب وصلت سيارة «ستروين» صغيرة تحمل خمسة

مدنيين بأسمال بالية. الخطوط الامريكية عند «نوبل - لي - فيو». لم يعرها أحد أي اهتمام في البداية، وقد تمكن أخيراً أحد أفراد الجماعة وهو عميل بريطاني من اقناع الوحدة المحلية بأنهم يحملون رسالة إلى الجنرال «آيزنهاور». نقلهم المرشدون إلى مقر قيادة الفيلق حيث وصلوا حوالى منتصف الليل. هنا قضوا بعض الوقت ريثما اقتنع الضابط المناوب بأنهم جماعة يجدر إرسالهم إلى مقر قيادة «باتون» قرب «شارنز». كانوا بالفعل وفداً من باريس يتألف من «نوردلينغ»، أخي القنصل السويدي، عميل انكليزي، «جان لوارن» وهو سكرتير وزاري سابق للجنرال «ديغول» ثم ضابط الماني بملابس مدنية يمثل «شولتيتز» حاكم باريس العسكري.

وفي الساعة الثامنة صباحاً، مثلوا أمام «باتون» ليخبروت أنهم جاؤوا كي يرتبوا تعليق العمليات العدائية. رفع «باتون» سماعة الهاتف في الحال وأخبر «برادلي» بأنه مقتنع أن كل ما يريده الوفد هو إنقاذ باريس وربما إنقاذ الألمان وبما انه كان ما يزال منزعجاً لأن القيادة كانت قد بلغته رسمياً من قبل انه لا علاقة له بتحرير باريس فقد قام بعدئذ دون مبالاة بارسال الوفد في طائرة خفيفة إلى مقر قيادة «برادلي» في «لافال».

لا يشكل تحرير باريس إلا جزءاً صغيراً من قصة البطولات التي أنجزها «باتون» والجيش الثالث إنما ينبغي صرف النظر عن الأسطورة التي تقول بأن تحرير باريس تم بفضل الثورة العفوية التي قام بها عناصر المقاومة وسكان باريس والجهود الوحيدة التي قامت بها الفرقة المدرعة الثانية تحت قيادة «لي كلارك». أما الحقيقة الناصعة فتقول بأنه لولا مساندة «غرو» والفيلق الخامس ولولا تغاضي «شولتيتز»، حاكم باريس العسكري، لأصبحت باريس مسرحاً لمذابح هائلة سالت فيها الدماء على نطاق واسع في الشوارع ولأصاب النصب التذكارية أضرار بالغة لا يمكن إصلاحها. فـ «ديغول» لم يكن الخيار الوحيد الذي اتفق عليه الشعب بالاجماع.

بينما كانت دبابات «باتون» تندفع نحو السين بدأ «ديغول»، وبعد أن اعترفت به كل من انكلترا والولايات المتحدة كرئيس للحكومة الموقتة، يضغط على «آيزنهاور» كي يسمح لفرقة «لي كلرك» بالزحف من «أرغنتان» لتكون في طليعة الحلفاء الداخلين إلى باريس. وقد وصلت وقاحته إلى درجة جعلته يلمح بأنه إذا لم يوافق «آيزنهاور» على هذا الطلب سيقوم هو شخصياً باصدار الأوامر إلى «لي كلارك». أما من أين سيحصل «لي كلارك» على تموينات وبتروله فالله أعلم. يقيناً كان «ديغول» قد تمادى أكثر من اللزوم فيما يتعلق بإثارة «آيزنهاور» وجعله يفقد صبره ودماثته ولطفه. لكن مع ذلك قام آيزنهاور

في ٢٢ آب وبكل شهامة ونبل بإعطاء الأذن للفرقة، بصفتها جزءاً من الفيلق الخامس، كي تزحف على باريس وطبقاً لذلك قام الفيلق الخامس وإلى يساره فرقة «لي كلارك» وإلى يمينه فرقة المشاة الرابعة بشق الطريق عبر الحلقة الألمانية من الجنود المتمركزين على محيط هذه الحلقة في ٢٤ آب. لم تكن العملية مجرد نـزهـة. لقد كانت المقاومة الألمانية متقطعة إلا أنها أحياناً عنيدة وعنيفة والواقع أنه لولا مساندة فرقة المشاة الرابعة لحل بفرقة «لي كلارك» إصابات أكثر بكثير مما أصابها بالفعل.

وربما كانت قد تورطت بقتال مرير مع العناصر الشيوعية داخل صفوف قوات المقاومة مما كان سيسفر عنه نتائج مريعة. إذ من المؤسف ان بعض أشد الرجال عنفاً في صفوف المقاومة (جنود التحرير) كانوا شيوعيين ولم يكونوا ينظرون بعين الرضا إلى «ديغول» أو «بيتان» أو «لافال».

إذا تتبعنا تطور الأحداث الماضية نلاحظ ان موقف «ديغول» بالنسبة للحليفتين الرئيسيتين، أمريكا وانكلترا، كان دائماً موقفاً خشناً متصلباً يفتقر للكياسة على الرغم من انه مدين لهما، تقريباً بكل شيء، وقد ظهر شخصياً في باريس في ٢٥ آب بعد أن قضى الليلة السابقة في غرفة رئيس الجمهورية في قصر «رامبوبليه» ونام على ملاءات المارشال «بيتان» دون أية دعوة ودون أي إعلان. أما «لي كلارك» فقد عامل «بارتون» قائد فرقة المشاة الرابعة بغلظة لا يضاهيها إلا معاملة «كونيغ» لـ «غرو» قائد الفيلق الخامس الذي، سواء أحبه «ديغول» أو كرهه، فقد كان يمثل قائد الحلفاء الأعلى في المدينة. ومما يؤسف له أنه كان وراء البهجة العظيمة والاحتفالات في الشوارع كثير من الاحتكاك وسوء التفاهم ما بين الفيلق الخامس من جهة و«ديغول» واتباعه الذين كانوا ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى من جهة أخرى. ومما زاد في حيرة وارتباك «غرو» قدوم العميد «بليز ب. روجرز» وجماعة منطقة وسائل الاتصال المتقدمة في الحال تقريباً إلى المدينة وأخذوا يطالبون بوضع اليد رسمياً على أفضل الفنادق لنزول جيش من العسكريين البيـروقراطيين الأصليين ومن معهم من المتطفلين الذين كانوا قد وصلوا في قطار خاص. ومنذ اللحظة التي دخلوا فيها المدينة شرع «كونيغ» بإصدار أوامره في كل ما يتعلق بأمور المدينة وجدير بالذكر ان «ديغول» كان قد عينه حاكماً عسكرياً دون ان يذكر ذلك حتى لـ «غرو» . وكان حينذاك حديث عبر فيه كل منهما عن رأيه بصراحة يؤسف لها.

ومما زاد الطين بلة اعتذار «مونتغومري» عن قبول دعوة «آيزنهاور» المؤدبة للانضمام إليه من أجل القيام بزيارة رسمية في ٢٦ آب لـ «ديغول» في باريس. ذلك الرفض لم يكن أبداً لأن «مونتغومري» يأبى الاشتراك في حفلة رسمية لا يلعب هو فيها الدور الرئيسي،

إنما الحقيقة هي ان البريطانيين كانوا ما يزالون يذكرون السخط الذي أثاروه عندما قاموا بمفردهم سنة ١٩٤٠ بإغراق الأسطول الفرنسي نظراً لأنهم لم يكونوا يثقون بـ «بيتان» أو بـ «لافال» ولذلك فقد فضلوا ان يسمحوا لحليفتهم الرئيسية ان تحمل ما أسماه «تشرشل» من تجربته المريرة باسم «صليب اللورين».

والحقيقة ان «ديغول» قد تصرف بهذه المناسبة تصرفاً يفتقر للكياسة قريباً من الغطرسة والتعجرف. ومع انه بدا على سكان باريس العافية وحسن التغذية فان «ديغول» طلب حالاً من «آيزنهاور»، وقد لبّاه، ١,٥٠٠ طن من المؤن الغذائية والأدوية والبترول، على ان تصل إلى باريس يومياً بما في ذلك ٥٠٠ طن محمولةجواً لتسد الحاجات العسكرية. كما شدد على طلب الأسلحة والعتاد والألبسة الرسمية للجنود وطبقاً لما قاله «آيزنهاور» طلب أيضاً فرقتين تساعدانه من أجل المحافظة على الأمن والنظام في المدينة.

كانت أمريكا، من أجل تحرير فرنسا وتسليم «ديغول» زمام السلطة، قد تكبدت منذ «يوم الهجوم» ١٢٥,٠٠٠ إصابة. وكان أحد الأسباب التي دعت إلى حملة «السندان» أي النزول في جنوب فرنسا في ١٥ آب هو إنزال جنود فرنسيين لمساندة حكومة «ديغول». إذن فقد كان الأمريكان يستحقون على الأقل شكراً أو عرفاناً بالجميل أكثر بكثير مما قدمه «ديغول». أما إن كان من الممكن أن تكون العلاقة ودية أكثر لو أنّ «باتون»، وليس «غرو» و«برادلي»، هو الذي عهدت إليه مهمة تحرير المدينة فأمر لا يمكننا أبداً الجزم به إنما يمكننا ان نقول إنه أمر محتمل جداً. كما يمكننا أن نقول أيضاً إنه كانْ بإمكان «باتون» ان يضفي على الإجراءات جواً مسرحياً ونوعاً مِن الملاءمة التاريخية لا يستطيع أحد غيره ان يقوم به ما عدا «تشرشل» نفسه - وكان سيتمكن من السيطرة على المسرح وعلى «ديغول» نفسه بما سيحظى من هتاف وتصفيق سكان باريس وإطراء الصحف العالمية، فعلاقاته الشخصية مع كل من «غوان» و«كونيغ» كانت ممتازة.

وجدير بالذكر ان كليهما قد عرج لتقديم واجب الاحترام والتقدير له أثناء ذهابهما إلى باريس وكان «لي كلارك» يشعر بالراحة عندما كان «باتون» رئيسه وفوق كل هذا كان «باتون» شغوفاً بفرنسا إلى درجة يأتي حبه لها بعد حبه لبلاده. كما أنه كان يجيد الفرنسية نطقاً وكتابة وهذا ما لم يتمتع به غيره من زملائه القادة الامريكان لكن مما لا شك فيه ان «باتون» كان يفتقر إلى اللباقة السياسية وان «آيزنهاور» كان على صواب عندما أبعده عن باريس حينذاك. إنما يمكننا القول: إن آيزنهاور قد حرم التاريخ بهذا الإجراء من مسرحية هائلة مثيرة تفوق أغرب أحلام «دي ميل» في الاطار الرائع الذي يتكون من «قوس النصر»، و«الانفاليد» و«نوتردام» و«ضريح نابليون».

ورغم ان القتال على مفارق الطرق في «فرنون» و«روان» لم ينتهِ تماماً حتى آخر الشهر فإن سقوط باريس يشكل النهاية الحقيقية لمعركة «النورماندي» التي قطع خلالها «باتون» والجيش الثالث أكثر من ٤٠٠ ميل خلال ٢٦ يوماً وحاربا على جبهتين، وبكل فعالية حتى الجناح الجنوبي على طول خط «اللوار» وذلك باستخدام القوة الجوية مع التعاون الوثيق بين القوات الأرضية وقوات التحرير الفرنسية.

خلال هذه العملية استطاع الجيش الثالث ان يطرح خارج المعركة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ الماني بين قتيل وجريح وأسير وغنم أو دمر أكثر من ٥٠٠ دبابة وحوالى ٧٠٠ مدفع.

ويمكن القول ونحن على يقين تام انه لو سمح للجيش الثالث بالقيام بتسديد الضربة القاضية في «أرغنتان»، كما كان يود «باتون»، لكانت الإصابات أكثر بكثير ولتحقق ذلك كله بثمن لم يزد على ١٦,٠٠٠ إصابة أي أقل بـ١٣ بالمائة من الخسائر الامريكية الاجمالية في «النورماندي». لكن مما لا شك فيه ان هذا الجيش لم يشترك في المعركة إلا بعد أن تمكن الجيش الأول والجيش البريطاني الثاني والجيش الكندي الأول وقوات الجو الحليفة طوال ثمانية أسابيع قاسية ومريرة من تسديد ضربات قاصمة إلى الجيشين السابع والبانزر الخامس أوصلتهما إلى درجة الانهاك، ومما لا ريب فيه أيضاً أن الكثير من انطلاقات الجيش الثالث قد حصلت دون ان تلقى إلا مقاومة تافهة. وعلى هذا فإن من حق جيوش «آيزنهاور» الأخرى ان تتذمر وتشكو من انها هي التي تحملت أعباء ووطيس المعركة في «هيجروز» و«سان لو» وحول «كان» بينما كان الجيش الثالث هو الذي نال إطراء الصحافة ومديحها. مع ذلك كله فقد كان هذا الجيش مديناً إلى حد كبير فيما يتعلق بقلة خسائره وانطلاقاته الرائعة للمهارة التدريبية التي حظي بها ولروعة القيادة التي كانت له ولحسن الادارة التموينية التي تمتع بها وللدعم البري والبحري في جميع المستويات ومبادرات وجرأة جنوده بمختلف رتبهم. كان هذا الجيش يقف في تلك اللحظة، وروحه المعنوية قد بلغت عنان السماء، مترابط العناصر متماسك القوى مسيطراً على موانىء هجومية على طول «السين» الأدنى أي أقرب إلى قلب المانيا بمسافة ١٠٠ ميل على الأقل من جميع جيوش الحلفاء الأخرى، متطلعاً بكل شوق للحظة صدور الأمر كي يندفع قدماً ويقضي قضاءً مبرماً على ما تبقى من الجيوش الألمانية المهشمة في المغرب، لقد كان الجيش الثالث صاعقة حقيقية قادرة، لو دفعت في الاتجاه الصحيح، ليوجه ضربة ربما كانت أنهت الحرب سنة ١٩٤٤.

الفصل الثالث عشر
الجبهة العريضة والجبهة الضيقة

إن مشاكل الانتصار مقبولة أكثر من مشاكل الهزيمة ولكنها لا تقل عنها صعوبة
تشرشل

على جميع القادة، إلا إذا أسعدهم الحظ أحياناً، ان يقاتلوا كل معركة على جبهتين إحداهما في المؤخرة. في شهر آب واجه «آيزنهاور» نقداً عنيفاً من «مارشال» ومن «النيويورك تايمز» بأنه ترك الحبل على الغارب لـ «مونتغومري» وانه لا يمسك زمام المعركة بقبضة قوية.

وسرعان ما رد على ذلك بشدة مبيناً أن نقاده لا يفهمون الصعوبات التي يواجهها في ما يختص بوسائل الاتصال لا مع جيوشه فحسب بل أيضاً مع القوات الجوية الضخمة وقواعدها التي كان معظمها في المملكة المتحدة. وقد أكد في رده الموجه إلى «مارشال» بأنه ما من جهد رئيسي يبذل على المسرح البري إلا بموافقتي وما من أحد في قيادة الحلفاء يتجرأ على الشك بسلطتي العليا ومسؤوليتي عن الحملة بأسرها. مع ذلك ففي الأيام الأخيرة العصيبة كان هناك ما يدعو للارتياب بأنه قد سمح لـ «مونتغومري» و«برادلي» بأن يرسم كل منهما خطته على هواه بالنسبة لمتابعة المطاردة.

فـ «مونتغومري» مثلاً رسم خطته الخاصة بالاستمرار في المطاردة إلى ما وراء السين حالما حصل عند «فرنون» على جسر قوي يكفي لحمل كل أنواع وسائل النقل والآليات. بحيث يندفع «هوروكس» والفيلق «٣٠» ليلاً نهاراً ودون توقف في الاتجاه الشمالي

الشرقي نحو «بروكسل» و«انتورب» بينما يقوم الجيش الكندي بتمشيط ساحل «بادي كاليه» والبلجيك ويدمر في طريقه مواقع القذائف الموجهة التي كانت تضايق «لندن» في ذلك الوقت.

في ٢٥ آب، أي يوم تحرير باريس، استدعى «برادلي» «باتون» إلى «شارتر». وقام هو أيضاً برسم خططه الخاصة بالاستمرار في المطاردة: إذ كان على الجيش الأول ان يعبر السين عند «ملن» و«مانت» اللتين كان الجيش الثالث قد استولى عليهما من قبل وأقام رأس جسر عند كل منهما، ثم يزحف على «ليل» أما الجيش الثالث فعليه ان يندفع صباحاً من رؤوس جسوره إلى يمين الفيلق الثاني عشر وإلى يساره الفيلق العشرون، ويستمر في المطاردة سائراً بشكل عام على الطريقين الرئيسيين الممتدين شرقاً من «باريس» إلى ما أسماه «باتون» «ثغرة نانسي» وما أطلق عليه «برادلي» اسم خط «منتر ـ ستراسبورغ».

كان فيلق المطاردة التابع لـ «باتون» في ذلك الحين يتألف من ثلاث فرق مدرعة وأربع فرق من المشاة الميكانيكية. وقد كان اعتقاد «باتون» الراسخ منذ الاقتحام عند «سان لو» وحتى قبل ذلك بكثير بأن هذا الخط هو الذي ينبغي أن تستمر عليه المطاردة الرئيسية.

ذلك أيضاً هو الاتجاه الذي رغب «برشينغ» بأن يتخذه سنة ١٩١٨ كان «باتون» على يقين تام من ان هذا الطريق هو طريق قدره الذي عليه ان يسلكه أيضاً ليحقق انتصار الجيش الامريكي الذي حرم منه قائده القديم المحترم. قبل بضعة أيام كان قد عزز إيمانه مدربه القديم في مدرسة الأركان في «لانغر» أثناء الحرب العالمية الأولى، الذي طار لزيارته مع مرافقه «كودمان» من «فان».

وقد قوى «جوان» أيضاً من عقيدته هذه عندما زاره في ٢٣ آب، وكان «باتون» يكن له محبة واحتراماً عظيمين، مؤكداً أن المطاردة الرئيسية يجب ان توجه نحو «الموزل» و«وارمز» و«فرانكفورت».

مع فجر السادس والعشرين من شهر آب كان «باتون» وجنوده في حالة تأهب كامل. ساق سيارته شخصياً إلى الفيلق «٢٠» عند «فونتينبلو» ثم إلى «تنمور» جنوبي شرقي «مونترو» ليلقي نظرة على فرقة المشاة الخامسة وكي يهنىء قائدها «ايروين» على ما أحرزه من إنجازات باهرة. وقد اغتنم هذه الفرصة كي يقلد أوسمة للعديد من الرجال، أوسمة صليب الخدمة الممتازة، وبحضور المصورين والصحفيين.

فأسوة بـ «نابليون» كان «باتون» يشدد على منح المكافآت والأوسمة فوراً لمن يمتاز بشجاعته وعلى مرأى ومَسْمع أكبر عدد ممكن من الجمهور والصحفيين. إذ أنه كان يدرك تماماً أن تأخير ذلك كثيراً قد يعني حرمان هؤلاء المستحقين من الأوسمة إذ يحتمل ان يقضوا نحبهم أو يصابوا بجروح.

ويبدو أن نفس الرجال في أية وحدة على الخط الأمامي هم الذين يقومون دائمًا بأعظم المغامرات وهم الذين يدفعون الغرامة: أما البقية فيتبعون.

في وقت مبكر من الحملة عندما تلقت هذه الفرقةالأوامر بأن تهاجم دبابات فرقة مدرعة اشتكت انه ليس لديها ما تركب عليه فقال لهم «باتون»:

إن كل جندي يفضل ان يقطع ٢٥ ميلاً وهو راكب مهما كانت المزعجات، على ان يمشي ١٥ ميلاً. والآن هم يعرفون ان ما قاله كان صحيحاً فعلاً، فشقت حناجرهم السماء ثناء على الدبابات ومديحاً لها. بعدئذ عاد على أعقابه وقطع السين عند «ملن» حيث كانت الفرقة المدرعة الثالثة تهدر مندفعة قدماً.

عرفه الجميع فوراً فانتصبوا في دباباتهم وهتفوا. بيد أن ذلك اليوم لم يقتصر على التهاني والتصفيق الحاد والهتاف.

فلدى وصوله إلى مقر قيادة الفرقة المدرعة السابعة قال لقائدها بنغمة أقل وداً وتحبباً وبلغة وصفها هو نفسه بأنها «لغة حادة لاذعة» بأنه ليس راضياً عن انجازاتهم ولا على تقدمهم وانه ما لم يتحسن ذلك حالاً فسيذهب». ولم يتحسن ذلك فذهب فعلاً. ساق سيارته إلى «فونتنيبلو» ومن هناك اعتلى متن طائرة ليلقي نظرة على مقر قيادة الفيلق «١٢» على الطريق من «سنز» إلى «تروي». وكان توقفاً محظوظاً. ففي تلك اللحظة جاء «وود» قائد الفرقة المدرعة الرابعة ليبلغ بأن «بروس كلارك» تمكن من احتلال «تروي» بعد ان قام بعملية رائعة وسريعة في وجه مقاومة عنيدة جداً أظهرها جنود الأمن وبعض ما تبقى من المتمركزين على محيط البلدة.

صف «كلارك» سرية دبابات متوسطة واحدة وخلفها سريتان من مشاة المصفحات ثم هاجم وجميع الرشاشات تصب رصاصها حممًا.

في اليوم التالي تابع الفيلق «٢٠» اندفاعه نحو «ريمز» بينما زحف الفيلق «١٢» على «شالون». في غضون ذلك كان مطار «بريسي» الصغير قرب «أورليان» يعج بالطائرات التي كانت تحط محملة بأكداس الذخائر وأطنان البترول، وجدير بالذكر أن ما لا يقل عن

نصف استهلاك البترول الضروري للجيش الثالث، (الاستهلاك اليومي الكامل ٣٦٨,١٢٥ غالون) بات ينقل جواً.

في اليوم الثامن والعشرين أصبحت ارتال «باتون» على المارن في «شاتوثيري» و«شالون» وراحت تندفع شرقاً نحو ميادين الحرب الأولى دون أي عائق. لكن برز حينذاك مشروع هدد بأخذ جميع الطائرات المخصصة لـ «باتون» ألا وهو إنزال جيش حلفاء مجوقل في تورني قبل وصول فيالق «هودجز» و«مونتغومري». ذهب «برادلي» إلى مقر قيادة «باتون» في الساعة ١٠,٣٠ يطلب منه التوقف عن المطاردة بصورة موقتة، فاحتج «باتون» وتمكن بعد جدال من ان يأخذ إذناً بالاستمرار في الاندفاع إلى «الموز».

لقد كان في تقدم الجيش الثالث عنصر من الابتهاج والانطلاق العاطفي:

فالحرب قد تكون جحيمًا لكن المطاردة الظافرة شيء مسكر. كانت وحدات الاستطلاع والخيالة تندفع في كل مكان مكتسحة كل شيء أمامها وعلى الجناحين لتمكين الأرتال الرئيسية من التقدم. على الطرق العامة كان كثير من الألمان الذي صودفوا على الطريق مرتبكين ودون قادة: وكان البعض تواقاً للاستسلام ولم يكن أي منهم راغباً بالوقوع بين مخالب جيش التحرير الفرنسي الذي كان يقتل جميع المتخلفين المتلكئين بالطريقة التي تحلو لأفراده. أما المقاومة التي كانت تواجه الزحف عند معابر الأنهار فقد كانت عادة على شكل مجموعات قتالية صغيرة فيها دبابة واحدة أو دبابتان أو مدافع ذاتية الحركة بالاضافة إلى حوالى مائة من المشاة. أما حواجز الطرق فكانت على الغالب سطحية وتسهل إزالتها.

لقد بدا وكأن الألمان تخلوا عن كل أمل في إقامة خط ثابت قبل الجدار الغربي. ففي كل مكان برزت دلالات على الفوضى التي كانت قد ضربت أطنابها بين الألمان.

لقد صادرت دبابات «باتون» قطارات مندفعة شرقاً من باريس محملة بغنائم مغرية: حرير وكاميرات وأدوات بصرية وأطعمة معلبة وشاحنات مليئة بالخمر والبراندي المخصصة لضباط الأركان.

وقد وجدت طواقم الدبابات ان إطلاق النار وتعطيل القاطرات عمل مربح تماماً وهدف سهل جزيل المكافأة على أكثر من صعيد. بعد ثلاثين سنة لا بد أن الجنود المسنين ظلوا يقصون ما اعتبروه أبهج ساعات الصيف في حياتهم، تلك الساعات السعيدة التي قضوها في المطاردة عبر أوروبا مع «جورج الهادر».

كان التاسع والعشرون من آب هو اليوم العصيب، في رأي «باتون» في ذلك الوقت وبعد مرور ٣٠ سنة ظهر انه كان مصيباً في رأيه.

لقد تبين له كما تبين لكل جيشه ان المقاومة الألمانية قد انهارت وأن ليس هناك ما يوقفهم إذا ما تابعوا الزحف باستثناء شكوك القيادة العليا. ولذلك وجه «أدي» قائد الفيلق ١٢ و«ووكر» قائد الفيلق ٢٠ إلى معابر «الموز» عند «كومرسي» و«فردان» لتسديد ضربة إليهما قبل ان يتمكن الألمان من نسف الجسور وبدا كل شيء على ما يرام لكن فجأة جاءت الضربة إذ لم يصل البترول المخصص لذلك اليوم (١٤٠,٠٠٠ غالون):

فقد سحبت طائرات «ث ٤٧» كي تقوم بحمل الجيش الأول المجوقل وإنزاله في الطرف الشمالي من جبهة الحلفاء.

احتج «باتون» بسخط بالغ لدى «برادلي» إنما دون نتيجة ولدى دعوته إلى مقر قيادته وجد أن «ادي» يقترح التوقف عند «سان ديزير» أي على بعد ٣٠ ميلاً من «الموز» نتيجة نقص البترول. وكان جواب «باتون» أمراً مقتضباً، هو الاستمرار بالاندفاع إلى ان ينفد بترول دباباته جميعاً، وبعد ذلك عليه ان يتركها ويتابع الزحف على الأقدام. في الحرب العالمية الأولى وفي ظروف مماثلة أفرغ «باتون» البترول من ثلاثة أرباع دباباته كي تظل البقية متأهبة للتحرك. كان ينبغي مهما كلف الأمر ان يستولي على معابر «الموز» وبأقصى سرعة وبهذه الطريقة وصل الفيلقان النهر في ذلك المساء بين «فردان» و«كومرسي».

لقد تمكنا بطريقة ما من متابعة الزحف ربما بمساعدة مدخرات استوليا عليها، مدخرات من البترول لم يكن «آيزنهاور» أو «برادلي» يعلم عنها شيئاً. في اليوم التالي ٣٠ آب / نوى «باتون»، إن حصل على البترول، ان يستمر في الاندفاع نحو «الموز» ما بين «منتز» و«نانسي». كان على بعد أقل من ١٠٠ ميل عن «الراين» و٣٥ ميلاً عن «السار». دخل «باتون» مكتب «برادلي» مندفعاً كالسهم متوسلاً: «بحق السماء يا .«براد» امنحني فقط ٤٠٠,٠٠٠ غالون من البترول وسأضعك داخل المانيا خلال يومين». وطبقاً لما قاله «برادلي» كان طلب «باتون» أشبه بمن يطلب إعطاءه النجوم. إذ كان ينبغي استخدام وسائل النقل الجوية جميعاً لتنفيذ عملية الانزال الجوي للجيش الأول المجوقل عند «تورني» ومن السخرية ان تلك العملية التي قام بها «مونتغومري» في تلك اللحظة لم تكن ضرورية مطلقاً. لقد سجل «إدي» في مفكرته «انه لمن العجب العجاب ان نجلس هنا. . . فأنا على قناعة تامة انه لو أمكننا الحصول على البترول اللازم لاستطعنا إنهاءهذه

الحرب في ما لا يزيد على اسبوعين».

والواقع أن وضع الألمان كان ميؤوساً منه. فقد أعلنت قيادة استخبارات «شاف» (قيادة الحلفاء العليا في أوروبا) بكل نشوة وفي بيان تخالطه أحياناً اللغة العامية: «ان نتيجة معارك آب كانت جيدة وأن العدو في الغرب قد عوقب وفاتته الفرص» إذ لم يعد (الجيش الألماني) يشكل قوة متلاحمة متماسكة بل أصبح عدداً من مجموعات قتالية هاربة غير منظمة، بدون أية روح معنوية علاوة على افتقارها للعتاد والسلاح».

كانت مجموعة الجيوش السادسة قد نزلت في جنوبي فرنسا وشرعت بالزحف صعداً على طول وادي «الرون» دون أية مقاومة عملية تستحق الذكر.

وكانت الجبهة الشرقية تترنح متراجعة إلى الوراء. أما الهجوم الروسي العظيم الذي بدأ في أواسط حزيران فقد أجبر الآن فنلندا ورومانيا على الاستسلام وأخرج بلغاريا من الحرب، وفي الوسط اكتسحت بروسيا الشرقية مع كل ذكرياتها عن تاننبرغ:

لقد أصبح الروس الآن على أبواب وارسو.

وقد كشفت السجلات التي وقعت في أيدي الحلفاء أخيراً بأن تقديرات «شاف» لم تكن بعيدة عن الحقيقة ففي الجبهة الغربية كلها لم يكن هناك أكثر من ١٠٠ دبابة صالحة للاستعمال مقابل أكثر من ٢,٠٠٠ دبابة في رؤوس الحراب التي شكلتها جيوش الحلفاء أما جواً فقد كان التفاوت أشد هولاً: ٥٧٠ طائرة صالحة للخدمة مقابل ١٤,٠٠٠ أي كان الحلفاء يتمتعون فعلاً بتفوق نسبته ٢٠ إلى واحد في الدبابات و٢٥ إلى واحد في الطائرات وقد وصف «سبيدل»، رئيس أركان مجموعة الجيوش ب، تقدم الحلفاء في آخر أسبوع من شهر آب بانه سيل مزبد ابتلع ما تبقى من الجيش السابع وجيش البانزر الخامس أو أحاط بهما في حالة ازدحام فظيعة حول «مونز». وحسب قول «سبيدل» لم يبق في المانيا أية قوات أرضية ذات قيمة يمكن إلقاؤها في جحيم المعركة: كانت المعارك المرعبة في بروسيا الشرقية وفي المجر قد وصلت إلى ذروتها وامتصت جميع القوات والمصادر المتوافرة وقد لخص «بلمنتريت» رئيس أركان الجبهة الغربية، الوضع حينذاك بجملة واحدة إذ قال: لم يكن هناك قوات المانية وراء «الراين» وفي نهاية شهر آب كانت جبهتنا مكشوفة. كذلك لم يكن هناك جنود على الجدار الغربي ولم يكن أحد يعرف أين توجد المفاتيح فلفترة عابرة سريعة كانت قد انهارت بنية القيادة الألمانية بأسرها.

وكان الوقت قد حان كما شعر «باتون» في صميم فؤاده لتسديد ضربة واحدة إلى

قلب ألمانيا، ضربة تحطم بشكل مباشر «الهرماخت» (رئاسة أركان هتلر) تحطيمًا تاماً. في هذه اللحظة الحرجة مارس «آيزنهاور» سيطرة عملية مباشرة على مجموعتي جيوش «برادلي» و«مونتغومري» وبهذا أصبح دوره ثنائي السلطة: القائد الأعلى وقائد القوات البرية.

لقد قام بهذا العمل بكثير من الصعوبة. إذ كان مقر قيادته في «غرانفيل» خلف الجبهة بمسافة ٤٠٠ ميل. أما هيئة التخطيط والخدمات المعنية فلم تكن قادرة على تأمين اتصالات لاسلكية ملائمة، فلكي يتمكن «برادلي» من البقاء على اتصال جيد بقوات «باتون» الزاحفة بسرعة حوّلت له وحدات اللاسلكي الأمريكية المخصصة لـ«شاف» (القيادة العليا للحلفاء في أوروبا) مع ذلك كانت اتصالاته محددة باللاسلكي أو الشيفرة المتعبة الحل: كما كانت اتصالات «آيزنهاور» مع «برادلي» و«مونتغومري» مزعزعة رهينة الظروف وعرضة للتأخير المذهل. إزاء هذه العقبة الخطيرة بدا «آيزنهاور» يواجه أكثر قضية في الحرب العالمية الثانية إثارة للجدل والملل والارهاق: هل ينبغي تنفيذ الجبهة العريضة كما رسم خطتها الاصلية «مورغان» وأتباعه الذين كانوا يطيعونه طاعة عمياء فيما يتعلق بعملية السيد الأعلى، أم تنفيذ الجبهة الضيقة؟ وإذا كان المطلوب الجبهة الضيقة فهل ستكون في الشمال تحت قيادة «مونتغومري» الذي كان يطلب ذلك بإلحاح طوال الأيام العشرة الماضية أو في الوسط تحت قيادة «برادلي» أو تحت قيادة «باتون» في اتجاه «وارمز» و«فرانكفورت»؟ العوامل التي ينبغي النظر إليها بعين الاعتبار عديدة ومعقدة لكن مسألة وسائل الاتصال والمواصلات طغت على كل العوامل الأخرى: كان يجب إقرار السبيل الذي ينبغي اتخاذه على الفور، السبيل الذي يستهلك أقل ما يمكن من المؤن ووسائط النقل. أي بعبارة أخرى كان عامل الامداد والتموين هو مفتاح المشكلة بأسرها.

لقد رسمت عملية «السيد الأعلى» الأساسية على فرض ان الألمان سينسحبون بطريقة منظمة ويتريثون على خطوط الأنهر: وطبقاً لهذا التنبؤ كان الحلفاء سيصلون إلى السين بعد ٩٠ يوماً من يوم الابتداء، لكن «باتون» و«هودجز» وصلا هناك قبل الموعد المحدد بـ١١ يوماً وكان من المفروض أيضاً أن الموانىء البريطانية ستكون عاملة، والواقع أنها لم تكن كذلك مما أسفر عن خلل بنظام التموين كله.

لكن الصعوبة لم تكن في نقص المؤن والبترول، فقد كان هناك وفرة منها في الرأس الساحلي للـ«نورماندي».

الصعوبة الحقيقية كانت في وسائل النقل التي تنقل هذه المؤن إلى المقدمة. كذلك

كانت باريس قد تحررت قبل الموعد المحدد بـ ٥٥ يوماً وأخذ السكان يضجون طلب للطعام. ولذلك كان «برادلي» يرسل لهم الغذاء مستعملاً لهذه الغاية مئات من سيارات الشحن أما لماذا لم يطلب من السكان ان يستعملوا دراجاتهم للحصول على اللحم والبطاطا من المزارع المحيطة بالمدينة حيث كانت المؤن مكدسة فأمر لم يفسره أحد رغم انه كانت تبدو على الجميع دلائل الصحة والعافية. كذلك لماذا سمح لـ «لي» آمر منطقة القيادة «زد» ان ينشىء ثكنات واسعة في كوتنتين على شكل أكواخ مصنوعة من حديد الصاج المموج والسطوح نصف الدائروية مستخدماً عدداً مفرطاً من المركبات لهذه الغاية، فهو سر غريب أيضاً. لقد كان في باريس بتاريخ ٣٠ آب مشغولاً بنقل القوات التابعة له من المنطقة الخلفية إلى باريس وكما قال «برادلي» (لا أحد يستطيع حساب تكاليف هذا النقل بأطنان الحمولات التي نخسرها في الجبهة).

مع ذلك كان «بلوتو»، وهو خط أنابيب البترول الممتد من المملكة المتحدة، قد وصل فرنسا الآن، وكان يعمل. بل حتى طلبات «تدر» في ما يتعلق بالمطارات بات بالإمكان الاستجابة لها وتلبيتها دون أية صعوبة. وللمحافظة على استمرار تقدم «باتون» ـ قطار الكرة الحمراء السريع ـ بدا العمل بنظام المسافات الطويلة عبر الطرق العمومية منذ ٢٥ آب. إذ كانت أكثر من مائة سرية من سيارات الشحن تسير على شكل رحلات دائرية لمسافة ٦٧٠ ميلاً ناقلة أكثر من ١٠,٠٠٠ طن من المؤن. كانت كل مركبة تسير ٢٠ ساعة في اليوم على الأقل. وهي مغامرة لها ما يبررها إنما نجم عنها إساءة استعمال هذه الشاحنات بسبب السرعة الزائدة وضعف الصيانة كما ارتفعت نسبة الحوادث بسبب الارهاق المضني الذي كان ينتاب السائقين. إنه منظر لا ينساه أبداً من يراه، منظر أولئك السائقين، السود المنكبين على عملهم بكل حماس وإخلاص وجرأة رغم صعوبة المغامرة، لايصال المؤن إلى الجنرال «باتون». لم يكن الطعام هو المشكلة الرئيسية: فقد استولى الجيش الثالث على الكثير من المستودعات الألمانية وكان حوله الكثير من الماشية: خنازير ودجاج في المزارع يمكن وضع اليد عليها بصفة رسمية والكثير من البطاطا في الحقول كما كانت الثمار ناضجة، كان هناك غذاء أفضل من جراية الجندي الغذائية علاوة على انه لم يكن يسبب الامساك إلا ان الحاجة الماسة كانت للبترول الذي بلغت كميات استهلاك الجيوش منه ٨٠٠,٠٠٠ غالون في اليوم، لذا كان من الممكن، وبشيء من المهارة واستعمال الحيلة فقط، ايجاد وسائل نقل كافية لمساندة اندفاع واحد عبر الراين أما بقيادة «مونتغومري» أو بقيادة «باتون»، الأول في الشمال والثاني في الجنوب.

لكن إذا قام الجميع بالزحف المباشر فقد كان واضحاً وضوح الشمس ان هذا

الزحف لا يلبث ان يصاب بانهيار إداري تام. كان رأي «وستفال» أن اتجاه الاندفاع الذي كان على الحلفاء ان يتخذوه لا يعادل من حيث الأهمية وجوب تركيزه في جبهة ضيقة. وجدير بالذكر ان «وستفال» كان من أقدر الجنود المتمرسين الذين عركتهم الحروب بين الألمان والحلفاء على السواء. وقد باشر العمل كرئيس أركان لـ «فون رندستدت». عندما أعيد تعيين هذا الأخير قائداً أعلى في الغرب في ٥ أيلول. إذن فقد كان في مركز يعطيه كل الحق بالتكلم في ما يتعلق بقوة وتنظيم وتوزيع الجيش في ذلك الوقت ولقد عبر «وستفال» عن رأيه بقوله:

(كانت الحالة الاجمالية في الغرب خطيرة للغاية. فأية هزيمة كبيرة في أي مكان من الجبهة المليئة بالثغرات والتي قد لا تصلح لأن تسمى جبهة قد تؤدي إلى كارثة مريعة إذا تمكن العدو من استغلال الفرصة بمهارة. وهناك مصدر خطر خاص جداً هو انه ما من أحد كان قد اتخذ الإجراءات اللازمة لتدمير جسر واحد على الراين وهو خطأ استغرق اصلاحه أسابيع. فحتى أواسط تشرين الأول كان باستطاعة العدو وبكل سهولة ان يخترق جبهتنا في أية نقطة يختارها ومن ثم يعبر الراين ويندفع في عمق المانيا دون أية عقبة تقريباً.

إذن فيما يتعلق بوجوب تسديد ضربة واحدة سريعة في العمق اتفقت آراء ثلاثة جنود يتمتعون بأعلى المستويات والمراتب وهم «مونتغومري» و«باتون» و«وستفال» وطبقاً لما قاله اللواء «سيكسميث» فإن هذا الرأي يتفق أيضاً مع وجهة نظر «سيموندز» أقدر القادة الكنديين. في ذلك الوقت كان الجميع يتمتعون بموهبة فطرية فيما يتعلق بتقدير طبيعة المعركة، موهبة طورتها التجارب الفعلية، تلك الموهبة الرائعة التي تظهر الفرق، كما هي الحالة في الموسيقى أوالفن، ما بين الفن الرفيع والعرض المجرد للمهارة التقنية. كانت هناك أسباب عسكرية قوية تدعم طلب «مونتغومري» بأن يقوم هو بالاندفاع في الشمال وقد دأب «مونتغومري» منذ ١٧ آب بالالحاح على «آيزنهاور» ان يوافق على هذا الطلب.

لقد آمن إيماناً راسخاً بأنه من الممكن ان يوجه المطاردة ويسيطر عليها رجل واحد يكرس وقته ونشاطه كله لهذه المهمة ـ أي هو بالذات.

لكن إذا كان الشعب الامريكي والرأي العام في أمريكا لا يقبل به شخصياً، فانه مستعد للعمل تحت قيادة «برادلي» وكان يقول إن خطته تسبب انتشار الفوضى والارتباك في المانيا كلها أكثر من أية خطة أخرى. ففي أسوأ الحالات كان باستطاعته ان يستولي على «الروهر» الذي كان في ذلك الوقت ينتج ما لا يقل عن ٥٠٪ من فحم وفولاذ المانيا. ولم

يكن الجدار الغربي قد اكتمل في الجهة الشمالية.

كما كان هناك اعتبار آخر يفرض وجوب اتخاذ هذا المسلك:

فقد عانت لندن وجنوبي انكلترا ويلات مريرة من أسلحة (V_1) التي كانت متمركزة في «بادي كاليه». وكان من المعروف ان صواريخ (V_2) الأشد تدميراً ستشرع بالعمل من هولندا قريباً. إذن كان لدى «مونتغومري» أسباب وطنية وإنسانية قوية تدعوه لأن يلح على قبول طلبه للقيام باندفاع واحد حتى ولو أدى ذلك لخطر اجهاد الحلفاء.

لكن كانت هناك اعتراضات أمريكية جسيمة تتعلق بوضع الجهد الرئيسي بأيد انكليزية وخاصة «مونتغومري». فشنُّ حملة ذات جبهة ضيقة تحت قيادته يعني إبعاد جزء كبير من القوات الامريكية في أوروبا عن مسرح المعارك علماً بأن هذه القوات كانت قد أصبحت أكبر من القوات الانكليزية، إذ سرعان ما سوف يغدو تعدادها ١٠٠ فرقة. بينما تضفى أمجاد المطاردة جميعاً على الانكليز، وهو أمر لن يتحمله الرأي العام الاميركي بالتأكيد. هنا يجدر بنا أن نعلق أيضاً ان فرص «روزفلت» في ما يتعلق بإعادة انتخابه للمرة الرابعة في تشرين الثاني التالي، ستتضاءل كثيراً إذا قام «مونتغومري» بتنفيذ خطته ثم فشل.

وكان تقدم «باتون» السريع كالبرق، قد ضخمه إلى حد كبير في الولايات المتحدة بحيث إن إيقافه حيث هو يثير لدى الصحافة والجمهور درجة عالية من السخط والغضب.

وحري بالذكر أيضاً أن «مونتغومري» كان قد كدر مشاعر الجنرالات الامريكان الذين لم يترددوا حينذاك أو في ما بعد، في أن يعبروا عن كراهيتهم الشخصية له ـ وهكذا إن كان لا بد من اندفاع واحد فليكن أمريكياً إذن.

من هنا نرى الأسباب القوية التي رجحت الكفة بأن يكون الاندفاع بقيادة «باتون». فقد أظهر «باتون» أكثر من أي إنسان آخر ان باستطاعته استغلال العبقرية الامريكية فيما يتعلق باستثمار النصر. إنه اللاعب الذي يمسك الكرة ويعدو «الشوط النهائي» وحشود الجماهير تهتف له: وهو أكثر من أي جنرال آخر، الجنرال القادر على استغلال الملكة الفطرية الكافية في الجندي الامريكي في الحرب العالمية الثانية للقيام بحرب آلية في غاية السرعة الأمر الذي يتطلب درجة عالية من حسن المبادرة ومهارة الارتجال علاوة على استغلال طاقة الجنود الهائلة النابعة من حماسهم لقضية آمنوا بها

واستعدادهم للقيام بمغامرات كبيرة للحصول على نتائج كبيرة.

أما كون الاندفاع على هذه الجبهة طريقاً طويلاً نوعاً ما بعد اختراق الجدار الغربي ومن ثم إلى «التسار» ثم «وارمز» و«فرانكفورت» من أجل الوصول إلى الراين فهو اعتبار ثانوي.

ذلك أن الضربة المصوبة على الذقن ليست دائماً هي التي تصرع الملاكم. ففي الحرب يعتبر التوقيت الذكي والطرق الصالحة والقيادة المرنة أهم بكثير من المسافة. إذن فقد كانت الحاجة الملحة هي ان يقوم «باتون» باندفاع واحد مركز، اندفاع يصل إلى العمق بحيث لا تتاح فرصة للعدو يحشد بها قواته وكان الشعور بهذه الحاجة على أشده في ٢٩ آب ـ وهو اليوم ذاته الذي خفض فيه «برادلي» تمويناته من البترول بصورة تعسفية، من ٤٠٠,٠٠٠ غالون يومياً إلى مقدار جد ضئيل وبدلاً من ذلك، كانت الجهود الرئيسية مركزة في هذا اليوم في الشمال على الجيوش الثلاثة التي كانت تزحف على جبهة عريضة أما «باتون» فقد كان مشلول الحركة عملياً وراء «الموز» لافتقاره إلى البترول.

في ٢ أيلول استدعى «آيزنهاور» «برادلي» و«هودجز» و«باتون» و«هويت فاندنبرغ» القائد الجديد للسلاح الجوي التاسع، إلى «غرانفيل» في «كوتنتين» على مسافة ٤٠٠ميل، كي يشرح لهم خططه المستقبلية. في ذلك اليوم كان الجيش الأول يعالج جيباً المانياً كبيراً طوقه قرب «مونز» وإلى الشمال كان «هوروكس» قائد الفيلق «٣٠»، إلى يمينه فرقة الحرس المدرعة وإلى يساره الفرقة المدرعة «١١»، يندفع قدماً ليل نهار حتى غدا على مسافة تلفت النظر من بروكسل «وانتورب» بعد قطع ٢٠٠ ميل تقريباً، منذ ٢٩ آب، أكد «باتون» أن الفرقة المدرعة الرابعة قد استولت في ٣١ آب على جسور «الموز» عند «كومرسي» و«بونت ـ سير ـ موز» وهي في حالة سليمة قبل ان يتمكن حرس مؤخرة الألمان من زرع العبوات الناسفة.

وفي «فردان» كانت الفرقة المدرعة السابعة قد استولت على جسر سليم آخر. أي كان كلا رأسي الجسرين تحت سيطرة الدروع والمشاة والمدفعية التامة. إضافة إلى كل ذلك كانت دورياته في منطقة «الموزل» تقترب من تخوم «نانسي» كما كانت فرقة الخيالة الثالثة قد دخلت «تز». لم يكن قطع امداداته من الوقود قد شل حركته بشكل نهائي ولم تكن قد خارت عزيمته أو فترت همته.

ويقال إنه جاء على لسانه، دون أن يفكر، قوله: يمكن لرجالي ان يأكلوا أحزمتهم

أما دباباتي فتحتاج إلى الوقود.

ورغم ان البترول كان قد انقطع من موارده الرسمية الاعتيادية إلا أن الجيش الثالث كان يستخدم مهارته ومبادراته. فقد استولى على ١٠٠,٠٠٠ غالون ولم يكن هناك ضرورة لتقديم تقرير بهذا الصدد. ويقال أيضاً أن عناصر من الجيش الثالث تنكروا بزي أفراد من الجيش الأول وتمكنوا من الحصول على امدادات أخرى وهو عمل غير نظامي ولا شك إلا أن «باتون» لم ير من المناسب التحقيق به وكذلك كان تحت تصرف الجيش الثالث كميات ضخمة من الشمبانيا والبراندي التي استولى عليها بعد ان كانت مخصصة للألمان. إن أهم مبدأ من مبادىء النقل هو ان تكون هنالك حمولة كاملة ذهاباً وإياباً. ولم يهمل الجيش الثالث هذا المبدأ، لذا كانت مخصصاته الآتية بواسطة الجو أو بواسطه البر متيسرة تماماً. في هذا المؤتمر بدأ «آيزنهاور» الكلام عما كان، عملياً، يشكل المرحلة الأولى من سياسة الجبهة العريضة. فقد قال حينذاك لقادة جيوشه انه يركز على اندفاع يقوم به الجيش الأول والجيش البريطاني الثاني، في الشمال، مستهدفين القضاء على الجيب الألماني في «مونز» قضاءً مبرماً، وعند اتمام ذلك يبقى، بشكل عام، كل من الجيشين الأول والثالث في حالة سكون ريثما يغدو بالامكان الحصول على كميات كافية من البترول والمؤن الأخرى تخصص للجيش الثالث والفيلق الخامس كي يقوما بهجوم على الجدار الغربي. وعليهما حينذاك ان يستوليا على ذلك الخط ويسيطرا عليه سيطرة تامة. كان انطباع «باتون» في تلك اللحظة هو ان «آيزنهاور» كان مسكوناً بهاجس معركة كبيرة وشيكة الوقوع في الشمال فبين «باتون» أن تلك المعركة غير محتملة الوقوع وانه إذا ما سمح له بمتابعة الزحف فان المقاومة الألمانية ستنهار تماماً. اتبع «برادلي» بيان «آيزنهاور» بإعطاء «باتون» محور تقدم جرت حساباته بحيث يمكن لـ«باتون» أن يقطع الراين وان يصل إلى «مانهايم» و«فرانكفرت» أخيراً، لكن عندما تسمح ظروف التموين بذلك. كما تابع واعداً إياه بفرقتين أخريين، فرقة المشاة «٧٩» والفرقة المدرعة الفرنسية الثانية، لكنه أشار إلى أن «باتون» لن يكون بحاجة لهما قبل الانتهاء من أمر الجدار الغربي إنما كتنازل من القيادة سمح لـ«باتون» بالاستيلاء على معابر «الموزل» إذا استطاع الحصول على البترول.

ورغم أن «باتون» ظل غير مقتنع بسلامة قرار «آيزنهاور» إلا أنه كجندي أصيل انصاع لأوامر قيادته وبعد الظهر هتف إلى مقرّ قيادته ناقلاً لهم أوامره: كان على الجيش الثالث ان يصمد بقوة على خط رؤوس الجسور المقامة على «الموز»، وعلى عناصر الاستطلاع ان يتابعوا استطلاعاتهم شرقاً وفي الحال نقل مقر القيادة هذه الأوامر إلى

«إدي» قائد الفيلق ١٢ وإلى «ووكر» قائد الفيلق ٢٠، إنما لم يكن هذا الإجراء مهمًا، فقد توقفت دبابات الجيش الثالث عن التحرك وتوقفت المدافع عن اطلاق النار. كما توقف المشاة قرب الطريق وعسكروا في العراء تحت الأشجار أو في مستودعات التبن ومخازن القمح.

وانتقلت مقرات القيادة إلى القصور أو بيوت المزارع المريحة. كانت الحالة ما زالت مبهجة فالحرب ستنتهي بعد بضعة أسابيع، إذ لن يلبث النفط أن يأتي ويركب الجميع دباباتهم وعرباتهم كي يحققوا انتصارات أخرى على الراين وما وراءه.

وهكذا عندما كانت معنويات الجيش الثالث في الأوج وكانت الرغبة الجامحة في الوصول إلى الراين وعبوره تملأ جوانح كل ضابط وجندي، وكان الجميع يشعرون بأنهم، إن تابعوا اندفاعهم لن يقف في طريقهم شيء، في هذا الوقت بالذات جاء الأمر بالتوقف فتسمروا في أماكنهم وقد عقد الذهول ألسنتهم. كان معظم ضباط أركان «باتون» وقادته الرئيسيين من جنود الخيالة الذين تشربوا تقاليد الفروسية حتى امتزجت بدمائهم، تقاليد السرعة والبسالة والجرأة إضافة إلى الإلهام الذي كان قائدهم يوحي لهم به. كان مقر القيادة يتألف بمعظمه، من ضباط عملوا في السابق مع «باتون» في شمالي أفريقيا وصقلية، وكانوا يعملون بكل نشاط ودون أي ضجيج وكأنهم سيارة رولزرويس. وباستثناء فرقتي المشاة التسعين والخامسة والثلاثين، فإن عدداً قليلاً نسبياً من الضباط والجنود كانوا قد اشتركوا في القتال الدامي الذي دار عند أسيجة الشجيرات في «النورماندي».

لم تكن المعركة في نظرهم إلا تجربة مبهجة تتجلى فيها الحركة السريعة والنجاح الباهر. يقال «إن الجندي القديم جندي حذر» ولهذا السبب ندعوه «جندياً قديماً» لكن جنود الجيش الثالث كانوا ما يزالون يتمتعون بالحماس الأول الذي ينشأ عن الظفر المبكر قبل ان ينقشع الوهم عن أعينهم ومما لا شك فيه ان محتويات مخازن «ريمز» من الشمبانيا والسلع الأخرى المختلفة قد رفعت من معنوياتهم أكثر وأكثر. فخلافاً لجميع القادة الامريكيين كان «باتون» يحمل أفكاراً تحررية في مثل هذه الأمور. كان أسلوبه في الحياة أقرب لأسلوب «تشرشل» منه لأسلوب «مونتغومري»، أما مراسلو الصحف الذين كانوا هم أنفسهم يعيشون على جرايات الجند من الشمبانيا فلم يكونوا يعاملونه هو وجنوده بأقل من العدل. لقد عبروا غابة «أرغون»، بكل ما فيها من ذكريات سيئة أيام الحرب العالمية الأولى، دون قتال، أما «فردان» رمز المذابح الجماعية في الحرب العالمية الأولى فقد

سقطت بعد هجوم كاسح قامت به الدبابات.

لقد كان الجيش الثالث، من بين جيوش الحلفاء جميعاً ودون انتقاص لأي منها، هو الأفضل في مجال استثمار اللحظة العابرة السريعة وفي مجال التحدي ونيل النصر وكان قد مضى على هذا الجيش عندما استدعى «آيزنهاور» قادته إلى «غرانفيل» في ٢ أيلول يومان بالغا الأهمية وهو في حالة توقف، لكن بعد ثلاثة أيام وبامدادات محدودة من البترول حصل عليها «باتون» بطريقةما، تمكن هذا الجيش من استئناف زحفه إلى «الموزل» حيث واجهته مقاومة عنيفة، وبعد قتال دام خمسة أيام، تمكنت بعض القوات من احتلال «تسول» عند انحناء «الموزل» إلا أن البعض الآخر وصل عند «بونت» أو «مواسون» والبقية توقفت عند «متز» و«نانسي» وبذلك انتهت بالنسبة لهذا الجيش المطاردة وبدأت معركة اللورين الدامية المريرة التي ستدوم ١٦ أسبوعاً. ففي فترة السكون التي دامت خمسة أيام في جبهة الجيش الثالث، استعاد الألمان رباطة جأشهم وتمكنوا من سد ثغرات الجبهة بخمس فرق مختلفة أتوا بها بشكل من الأشكال لتتخذ مواقعها خلف حاجز «الموزل» المضاد للدبابات ما بين «متز» و«نانسي». إذن كانت قد انتهت أيام البهجة العارمة، أيام المطاردة دون مواجهة أية مقاومة إذ ما من أحد في مقر القيادة العليا كان قد تنبأ بأن مثل ذلك الانهيار الكامل قد يحدث.

وهناك في سجل تلك الأيام الأولى من شهر أيلول نوع من الضباب: توقف عن العمل، افتقاد للاتجاه الواضح الذي لا يفيد البحث إلا قليلاً في التخلص منه.

ولم يكن هناك من يتمتع بالاستعداد الذهني لاستغلال تلك الفرصة العظيمة السانحة التي تعتبر أعظم فرص تلك الحملة إلا «مونتغومري» و«باتون» بصورة خاصة. ورغم ان اقتراحات «مونتغومري» كانت من الوجهة العسكرية سليمة تماماً إلا أن المصالح الأمريكية والرأي العام الامريكي اشتركا في دعم اختيار «باتون». كان الوضع يتطلب حلاً بسيطاً يقدمه رجل لديه حس المعركة والقدرة على شم رائحتها وليس حلاً وسطاً لا يناسب أحداً، وفشله حتمي.

أما الثمن الذي سيدفع بسبب ايقاف «باتون» في آخر يوم من أيام آب فانه سيكون باهظاً جداً. لقد وقعت ثلاثة أرباع الاصابات في جيوش الحلفاء المشتركة في حملة شمالي غربي أوروبا ما بين ١٩٤٤ - ١٩٤٥ بعد الصد الذي حصل في أيلول أما الآلام التي عاناها سكان أوروبا المدنيون بسبب إطالة الحرب فليس بامكان أحد أن يصفها. ومن ناحية سياسية كانت الحاجة ملحة لأن ينهي الحلفاء الغربيون الحرب سنة ١٩٤٤ قبل ان

يتمكن الروس من التوغل في أوروبا الوسطى: ففي أيار سنة ١٩٤٥ سيصلون إلى الألب وتشكوسلافاكيا، كي يقيموا هناك الستار الحديدي. لقد منحت العناية الإلهية «آيزنهاور» أعظم قائد خيالة وأعظم جيش أنجبتهما بلاده: لكنه في اللحظة الحاسمة فشل في استخدامهما.

الفصل الرابع عشر
اللـــوريـــن

رجل واحد وعقل واحد قاد الجميع
بوليبيوس عن هانيبال

في الرابع من شهر أيلول أعطى «آيزنهاور» الضوء الأخضر لـ «باتون» باستئناف هجومه المعلق وفتح ثغرة في الجدار الغربي عند «السار» ومن ثم الزحف باتجاه «فرانكفرت». في الوقت نفسه كان على مجموعة الجيوش «٢١» اضافة إلى الجيش، الأول باعتبار منطقتها هي منطقة الجهد الرئيسي، ان تؤمن السيطرة على انتورب ثم تخترق الجدار الغربي شمالي «الآردن» وتستولي على «الروهر»، لقد كتب «آيزنهاور» في مذكرة رسمية تشرح هذه القرارات ما يلي:

«هزيمة الجيش الألمانية كاملة ،والشيء الوحيد المطلوب لتحقيق الفكرة تماماً هو السرعة»، لكن الواقع أنه عندما انطلق باتون في اليوم التالي من رأس جسره على «الموزل» وإلى اليمين الفيلق «١٢» باتجاه «نانسي» وإلى اليسار الفيلق «٢٠» شرقي «فردان» واجه وضعاً كان قد تغيرّ تغيراً جذرياً خلال الأيام الخمسة التي توقف بها، لقد بدأ الزحف في ريف يفرض قيوداً على عمليات غدت مألوفة منذ اختراق ثغرة «افرانش» ألا وهي منطقة «اللورين» غير الواضحة الحدود، والتي تقع ما بين «السار» و«الموز».

إنها أرض ذكرى دامية منحوسة، ذكرى الكوارث الرهيبة التي حلّت بالفرنسيين سنة ١٨٧٠، ومذبحة «مارس ـ لا ـ تور» «وسان بريفات» و«غرافلوت» وذكرى استسلام «بازين» في «متز» وما نتج عنه من إطاحة للامبراطورية الثانية، وهنا في آب ١٩١٤ قضي

على زهرة شباب فرنسا أثناء الهجوم المشؤوم الذي كان بداية الحملة. وإلى الغرب تقع «الأرغون» والنصب التذكارية التي تتحدث عن معارك الأمريكان في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩١٨. وفي المنطقة ثلاثة أنهار هي: «الموزل» و«النيد» ـ و«السار» وكلها تجري شمالاً وجنوباً تقريباً، بروافدها الكثيرة التي تقطع ما يشكل بالحقيقة، هضبة متموجة تكثر فيها الأودية العريضة المفتوحة التي لا يعرف قاع لها، عادة، في الطقس الرطب. تتميز المنطقة الزراعية الغنية في الجهة الشمالية الشرقية بجبال مسطّحة القمم تكثر فيها الغابات الصغيرة والقرى المشيدة بالحجارة و«الموزل» نفسه عقبة رهيبة. فمن ناحية الطقس يبدأ الفصل الرطب عادة في أيلول وتنهمر أقصى كمية من الأمطار في تشرين الأول، أي يصعب في هذا الوقت تحرك المركبات المجنزرة ذات العجلات خارج الطرق، بل يكاد ذلك أن يكون مستحيلاً أحياناً. ومما زاد الأمور تعقيداً التحصينات الفرنسية على حدود ما قبل ١٩١٤ وخط «ماجينو» الممتد هنا وهناك، أي باختصار يمكننا القول إن طبيعة الأرض منحت الألمان جميع التسهيلات لاستغلال مهاراتهم واستعداداتهم الفطرية للمعركة الدفاعية ـ لقد وضعوا مقاومات محدودة عند معابر الأنهر، أمّا الجهد الرئيسي فقد كان يتحمله المشاة على نحو خاص، وهذا ما كان متوقعاً. في حين كان الاحتمال ضئيلاً في أن تجري هنا عمليات اكتساح عريضة تقوم بها المدرعات أي لا شك ان معدل السرعة سوف ينخفض كثيراً.

بالحقيقة كان زحف «باتون» قد أوقف عندما كان هيكل القيادة الألمانية مدمراً تدميراً كاملاً، وحين سمح «آيزنهاور» باستمرار زحف «باتون» في ٤ أيلول كانت هذه القيادة قد تعافت واستردت نشاطها. فقد التفت «هتلر» ثانية إلى «رندستدت» وأعاد له اعتباره! «القائد الأعلى في الغرب»، وفي نفس الوقت أتحفه برئيس أركان شاب يتمتع بمقدرة عظيمة، أعني به «وستفال» الذي كان قد حارب تحت قيادة «رومل» في شمالي أفريقيا، كما شغل منصب رئيس أركان «كسلرينغ» في البحر الأبيض المتوسط. بذلك نرى ان السيطرة عادت مرة أخرى إلى أيد فعالة محنكة. لقد طلبت القيادة الألمانية العليا من هذين القائدين ايقاف الحلفاء في الشمال وعلى أبعد مسافة ممكنة في الغرب، والاحتفاظ بقبضة ثابتة على الأراضي الواطئة ومن ثم القيام في الوقت المناسب بهجوم مضاد على «ريمز». وفي الحال بدأت آلية القيادة الاعتيادية العمل بما هو أكثر من كفاءتها التقليدية. كان هناك وفي مواجهة «باتون» مباشرة الجيش الأول بقيادة «فون كنوبلزدورف» وهو جندي متمرس من أيام الحملة الروسية، يتمتع بخبرة كبيرة كقائد فيلق مدرع، وقد وصف بأنه رجل كفؤ لا يرحم ولا يتزعزع. وحين كان «باتون» في

وضع السكون والثبات ما بين ١ ـ ٥ أيلول تمكن كنوبلزدورف من إقامة جبهة متوسطة القوّة قوامها سبع فرق اسمية ولواء «بانزر». كانت هذه الجبهة تفتقر إلى المدافع المضادة للدبابات والمدافع الأخرى، لكن رغم ذلك كان فيها الكثير من «البانزر فوستس» ـ وهو سلاح فعال مثل البازوكا الامريكية ـ ورشاشات «سياندو» ورشاشات «برب» اليدوية بأصواتها التي تدعو للتقيؤ. أما فيما يتعلق بالامدادات الأخرى فقد كانت قريبة من «الروهر»، حيث كان انتاج الأسلحة رغم قصف الحلفاء يتدفق كالسيل. ومع ان بعض الجنود كانوا قد تجاوزوا سن الخدمة وكانوا من صنف أدنى مرتبة ولم يتدربوا إلا جزئياً فان الجبهة لم تكن تفتقر إلى الضباط الصغار ذوي الخبرة القتالية وصف الضباط المتمرسين بتقنية القتال الدفاعي تلك الخبرة والتقنية التي أنقذت الجيوش الألمانية مراراً وتكراراً في روسيا. بالحقيقة كان الجيش الثالث يواجه أقوى الجيوش الألمانية في كافة جبهات الحلفاء.

لقد أكدت التجارب في شمالي أفريقيا وإيطاليا والنورماندي الحقيقة المسلّم بها منذ الحرب العالمية الأولى، وهي أن المهاجم يحتاج، رغم التطورات الهائلة التي طرأت على السلاح الجوي وقتال المدرعات، لتفوق على المدافع بنسبة ٣ إلى واحد على الأقل، خاصة عندما يكون هذا الأخير متمركزاً في وضع حسن التنظيم. هذا وان أحد الأسباب التي دعت «باتون» للاستمرار في الاندفاع هو رغبته في تجنب مواجهة الوضع الذي كان يجابهه الآن على «الموزل». خلال زيارة قام بها إلى الفيلق «١٢» يوم ٣ أيلول، وكان يسوق سيارته على طريق «كومرسي» المحاذي لـ«موز» يتفقّد الفرقة «٨٠» في «غيرونفبيل»، عادت به الذكرى لدى رؤيته النصب التذكاري الضخم للقتلى الأمريكان الذين سقطوا في «مونتسك» أثناء الهجوم الذي وقع قبل ٢٦ سنة والذي كان هو شخصياً قد شارك فيه. لم يستطع «باتون» إلا أن يفكر بأن التأخير الذي فرض عليه هو وجيشه قد يسفر عنه، في الوقت المناسب، تشييد نصب آخر لرجال «لو كنا قد أسرعنا في الزحف لما ماتوا». فالقتال من أجل عبور «الموزل» سيكون رهيباً ومريراً. وجدير بالذكر أن الصراع بين فوج بانزر «س س» رماة القنابل السابع والثلاثين والفرقة الخامسة في رأس جسر «دورونوت» كان نموذجاً لذلك القتال المرير! فالمرة تلو المرة كان حملة القنابل اليدوية الألمان يتقدمون بنظام تام وهم يصيحون «هايل هتلر»، ويصرخون بعنف شديد لا لشيء إلا لكي يسقطوا صرعى بنيران الأسلحة الخفيفة الآتية من الغابات وصرعى القذائف المتفجرة الآتية من الجانب الآخر «الموزل». لكن كان كل هجوم يوقع قدراً من الاصابات القاتلة بين المدافعين عن انحناءة حدوة الحصان، وكان على الجرحى ألا يئنوا أو يطلبوا

المساعدة كي لا يتمكن الألمان من معرفة مدى الخسائر التي أوقعوها بهم. كذلك تخلت طواقم مدافع الهاون عن أسلحتها لأن أزيز انطلاق القذائف يكشف موضع خط الخنادق واستبدلتها ببنادق الموق. وكان أحد الملازمين يشغّل اللاسلكي بيد ويطلق غدارته باليد الأخرى... ولم يبق في كتيبة المشاة ١١/٢ إلا ضابطان حيّان من مجموع ضباط سراياها الثلاث من المشاة حملة البنادق وقد تجاوز عدد اصاباتها الاجمالية أكثر من ٣٠٠ إصابة».

مع ذلك ورغم الانتعاش المذهل في معنويات العدو، استطاع الفيلق العشرون، بتاريخ ٢٥ أيلول وبعد معارك ضارية أن يقطع «الموزل» ويصبح على بعد خمسة أميال من «متز» أمّا الفيلق «١٢» فقد احتل «تنسي» وراح يشق طريقه قدماً شرقي النهر. وفي الجناح الجنوبي احتل الفيلق «١٥» «لينيفيل»، وقد أصبح بصورة مؤقتة أيضاً تحت قيادة «باتون». في هذه اللحظة كان على «برادلي» ان يوجه إلى «باتون» ما عرف بأنه سيكون ضربة مريرة. فقد أدرك «آيزنهاور» الآن أنه أصبح أمام انهيار تمويني كامل، وعلى ذلك لم يعد باستطاعته الاستمرار في لهجوم على جميع الجبهات. لذلك، قرر إعطاء الأولوية التموينية للجيش الأول بغية تنفيذ هجومه على الجدار الغربي باتجاه «كولون» وإلى مجموعة الجيوش «٢١» في نتوء «آرنهم» على ان يستمر هذا الإجراء حتى افتتاح ميناء «انتورب». أما الجيش الثالث فعليه خلال ذلك ان يتحول إلى الدفاع وأن «لا يقوم بأية عملية هجومية أكثر مما يتطلب وضع الصيانة»، هنا لم يحاول و«باتون»، وقد حُطّ من شأنه إلى هذه الدرجة ان يخفي سخطه الشديد. وطبقاً لما قاله «برادلي»، لم يستطع حتى وافته المنية ان يتخلى عن رأيه بانه لو منح أولوية التموين في ذلك الوقت لاستطاع حتى في تلك الساعة المتأخرة ان يخترق دفاعات «السار» زاحفاً إلى «الراين»، ومما زاد من تثبيط عزيمته نقل الفيلق «١٥» إلى مجموعة الجيوش السادسة. وطبقاً لما يقوله «برادلي» «أخذ «باتون» يمشي بين فرق جيشه بخطوات بطيئة وئيدة وكأنه أسد مسجون في قفص». لكن «برادلي»، أملاً منه بتخفيف وطأة الضربة، خوّله القيام بتعديلات ثانوية على خطوطه ـ وهي حرية ترجمها «باتون» على نحو خاص، وعلى أنها «إذن بشن سلسلة من العمليات الثانوية» تنفذ فوراً ـ لتأمين خط مناسب للانطلاق بحيث يمكننا التحرك بسرعة عندما تطلب منّا القيادة العليا استئناف الهجوم».

كان هناك، فيما يتعلق بوضع الحلفاء الاستراتيجي الفعلي في أواخر أيلول عنصر يبعث على الضحك! فعدد رجالهم كان ضعفي عدد الألمان وعدد الدبابات أكثر بمرتين ونصف والقوات الجوية أكثر بـ٢٣ مرة من سلاح الجو الألماني، يدعم ذلك كله موارد الولايات المتحدة التي لا تنفد من الرجال والمال والمواد. اذن كان عليهم، لوتوافرلهم

حسّ فطري سليم، أن يسحقوا الألمان بالنتيجة سحقاً كاملاً وكأنهم جرف ثلجي منجدر. لكن، هنا لا بد لنا من مواجهة الحقيقة المرة وهي ان زمام المبادرة خرج من أيديهم مؤقتاً. وان الجيش الألماني كان ما يزال مستعداً للقتال بمهارته التقليدية وأصراره وعناده في أرض خفّضت إلى حد ما من تفوق الحلفاء الهائل في السلاح والنقل الآلي، علماً بأن الشتاء الطويل كان على الأبواب مع مرافقه الذي لا مناص عنه ـ ألا وهو عنصر نابليون الخامس أي الوحل. فعلى جبهة «باتون» كانت ضربة الألمان المضادة قوية وشرسة شأنها شأن أية ضربة أخرى وجهت في كل مكان من بحر الشمال حتى جبال الألب. ورغم أن هجوم «مانتوفل» المضاد عند «ليفينيل» الذي شنه في ١٨ أيلول صد صداً عنيفاً إلا أن الهجمات استمرت في أماكن أخرى حتى أواخر الشهر واستمر الضغط يتزايد بكل إصرار على نحو توضحه لنا حادثة وقعت عند «غرمسي» في أواخر الشهر، وهي حادثة تلقي ضوءاً أيضاً على ردود فعل «باتون» أثناء الأزمات، والقبضة الصارمة التي كان يقبض بها على زمام جيشه، بكل ما فيه من ضباط وأفراد.

في ٣٠ أيلول شن الفيلق «س.س ١٣» هجوماً مضاداً على الفرقة «٣٥» المتمركزة في غابة «دي كرمسي»، على بعد ميلين تقريباً شرقي نهر «سيل» وكان الهجوم جبهياً وعلى الجناحين مما أسفر عنه نشوء وضع خطير. لذلك تقدم «إدي» قائد الفيلق «١٢» إلى مركز قيادة كتيبة المشاة «٣٢٠»، في بناية في «بيونكورت» وهي قرية صغيرة تقع على بعد ميل واحد تقريباً غربي الغابة. هنا كان «باد» قائد الفرقة «٥٠» قد التقى جميع قادة الفرق اضافة لـ«غافي» رئيس أركان «باتون» «وغرو» قائد الفرقة المدرعة السادسة التي تشكل احتياطي الجيش الثالث. وفجأة انفجرت قذيفة في الباحة تسببت بقتل وجرح الكثير من المرافقين والاتباع الذين كانوا ينتظرون هناك. وعلى الفور هب الضباط المجتمعون وبذلوا كل ما في وسعهم لمساعدة الجرحى ثم استأنفوا اجتماعهم. ما جرى بين المجتمعين في ذلك الحين غير معروف الآن تماماً لكن التالي صحيح تماماً: لقد أصدر «إدي» أوامره بانسحاب الفرقة «٣٥» في تلك الليلة إلى ما وراء نهر «سيل» فأبلغ «غافي» «باتون» هاتفياً ما أمر به «إدي». حينذاك وفي الحال، هب «باتون» إلى طائرة خفيفة طارت به من «ايتان» إلى مقر قيادة «إدي» في «نانسي» حيث ألغى هناك أمر «إدي» القاضي بانسحاب الفرقة «٣٥»، وأصدر أمراً جديداً يقضي بأن تقوم الفرقة المدرعة السادسة بهجوم مضاد بأسرع ما يمكن. كما أمر الفرقة «٣٥» بالصمود في مواقعها» ثم أمر الفرقة المدرعة الرابعة المتمركزة إلى يمين الفرقة «٣٥» بالصمود مهما تكن الظروف. بعدئذ انطلق بصحبة «إدي» إلى مركز قيادة الفرقة المدرعة السادسة حيث وضعت خطط لبدء الهجوم في الصباح التالي

وحيث أوضح الجنرال «باتون»، كما سجلت ذلك مجلة الفرقة بكل حذر وكياسة: إن «باتون» لن يتخلى بالتأكيد عن شبر واحد من الأرض للألمان». إنه أحد البيانات التي تعبر عن الواقع بصورة مخففة. وجدير بالذكر ان السجلات الرسمية حافلة بأمثاله. وحسبنا هنا أن نقول إن الفرقة «٣٥» والفرقة المدرعة السادسة تمكنت في اليوم التالي من اصلاح الوضع تماماً وإعادته كما كان. أمّا الآمال التي دغدغت القلوب بأن تنتهي الحرب قبل عيد الميلاد فقد تلاشت أخيراً مع تناقص طول النهار وتزايد الليل، وقد بات جلياً أنه لا يمكن استئناف الهجوم إلا عندما تتحسن الظروف الإدارية والطقس. إذن فقد توافرت جميع العوامل الأساسية لخفض الروح المعنوية، ومن الضروري أن نذكر هنا لماذا لم يحدث هذا الانخفاض المعنوي في الجيش الثالث.

ما من قائد في الحرب العالمية الثانية نجح في فرض شخصيته على ضباطه وجنوده بصورة فعالة أكثر من «باتون». والواقع أن الكثير منهم راحوا يتبنون أساليبه الغريبة وعاداته الشخصية المميزة. بل لقد قيل إنه أنشأ جيشاً ثالثاً وفق صورته وطرازه ففي كل يوم تقريباً كان يندفع نحو الجبهة ليكيل الثناء أو التوبيخ وليلهم أو يبث الحيوية والنشاط. لم يكن «باتون» يرضى مطلقاً بإصدار الأوامر وحسب، بل كان دائمًا يريد التأكد من تنفيذها، وكان أحياناً يغامر عن عمد في كثير من الأمور: وجدير بالذكر ان ٩٠٪ من هذه الأمور كانت تتحقق بحيث تترك تأثيرات مجدية بصفتها مثالاً يحتذيه ضباط بدءاً من أصغرهم وحتى قادة الفيالق. كان «باتون» يفكر أن من الضروري «أن يرى جنوده بأعينهم أنه يمكن اطلاق النار على الجنرالات أيضاً». وكان ينطلق قدماً في النهار ولا يعود إلاّ في وقت متأخر من المساء، عند حلول الشفق أحياناً وأحياناً بعد حلول الظلام في طائرة ارتباط صغيرة. وذلك لأنه كان يؤمن أنه ينبغي أن يشاهد الجميع قائدهم وهو ذاهب إلى الجبهة إنما ينبغي ألا يروه وهو عائد منها وانه: «كلما ارتفعت مرتبة الضابط كلما توافر لديه وقت أكبر»، ولذلك ينبغي على الضابط الأكبر ان يزور الأصغر لا أن يستدعيه إليه. ولذلك كنت تراه طوال فترة التوقف في شهر تشرين الأول يسوق سيارته باستمرار صاعداً نازلاً منطقة جيشه، يبث في جنده روح التفاؤل ويلقي كلمات مناسبة حيثما يصادف تجمعاً يمكنه الاستماع إليه. أما الخطاب الذي ألقاه على مسامع الفرقة «٩٥» التي كان قد وصلت توّاً إلى مسرح الحوادث فإنه يصور لنا على خير وجه رأيه الذي طالما كان يردده. لقد قال في ذلك الخطاب: «إن المسافة من هنا إلى «الراين» هي «١٣٢» ميلاً فقط وإذا قام الجيش بهجوم كله عزيمة وهمة فمما لا شك فيه ان الحرب ستنتهي قبل ان نصل إلى «الراين» لذا علينا عندما نهاجم أن نمضي كما النار في الهشيم»

كانت الوحدات، حين لا يكون هنالك قتال، تقوم بالتدريب على استئناف الهجوم. وكان جميع الضباط والجنود يدرسون طبوغرافية الأرض ويتفحصون نماذج من الجدار الغربي. أمّا هو وضباط أركانه فقد كانوا يعدون أنفسهم ذهنياً للعمليات خلف «الراين» في أي وقت يتاح لهم مهما كان ضئيلاً. وكانت هناك مجموعات من المدارس تعمل بضغط عال في المناطق الخلفية من بينها مدرسة لتعويم جسور «بيلي» وأخرى لتعليم ضباط الأركان كيف يكتبون التنويهات بالبطولات وبذلك ينالون مكافآت فورية مناسبة. لم يكن «باتون» من قادة الحرب العالمية الثانية أولئك الذين كانوا يلجؤون لاظهار كفاءاتهم بصرف ضباط أركانهم من الخدمة بل على النقيض من ذلك كانت علاقاته بهم علاقات مودة ومساعدة فقد كان يدعمهم ويثق بهم ولم يكن يتأخر عن تقديم الثناء والمديح عندما يرى موجباً لذلك كما لم يكن يتدخل أبداً في شؤونهم الصغيرة. في عيد ميلاده دعاه رؤساء أركانه إلى حفلة في مقر العقيد «كوتش». كان هناك مشروب أطلق عليه اسم «الديزل المصفح» يناسب ميدان القتال تماماً ويتألف من عصير ليمونة واحدة وسكر حسب الذوق، وأوقة ونصف من الويسكي أو البوربون وفنجان شاي من الثلج المسحوق تمتزج جميعها بتحريكها داخل آنية خاصة للمزج. وخلافاً لأي قائد آخر لم يكن «باتون» يؤجل أبداً فرصة ترفيع أي ضابط من أركانه إلى رتبة أعلى عندما تسنح الفرصة خشية ان يسفر عن ذلك ما يضايقه، وبذلك حظي حتى النهاية بهيئة أركان أخلصوا له وللجيش الثالث كل الإخلاص لكن من المؤسف ان نسجل هنا أنهم سبب حماستهم هذه لخدمة رئيسهم ومن أجل الحصول على ما يرغبون بأية وسيلة ومهما كلف الأمر، كانوا يفشلون أحياناً في اكتساب محبة أصحاب المراتب القيادة في «شاف» وبوجه خاص محبة الفريق «لي» قائد منطقة المواصلات «زد» الذي عمل وبطريقة لا تصدق على خلق أزمة «سجاير» في ذلك الوقت. كان «باتون» يرحب بكل من كان باستطاعته مساعدة الجيش الثالث بما لديه من سلطة: وكان ترحابه بالضيوف وإكرامه لهم سخياً للغاية، فعندما جاء «آيزنهاور» ـ و«برادلي» لتناول طعام الغداء معه في تشرين الأول قدم لهم نوعاً من المشروب أطلق عليه اسم «١٧٠»، نصفه من البراندي والنصف الثاني من الشمبانيا، وقد اعتقد معظم الموجودين ان المشروب هو شمبانيا صافية وعلى ذلك فقد كانت النتائج بنظر «باتون» طيبة للغاية.

وصل «فرد آير» ابن اخت «باتون» وكان يعمل في سلك الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية ويتنكر موقتاً بثياب مقدم، إلى مقر قيادة الجيش الثالث ليقوم بزيارة خاله في أواخر تشرين الأول. وقد ذهل عندما شاهد الجميع حليقي الذقن يحتذون أحذية لماعة

نظيفة ويرتدون ربطات عنق وخوذاً، لكن تلك كانت حالة جنود الجيش الثالث عندما لا يشغلهم اشتباك مع العدو. كانت الشرطة العسكرية تعمل بأقصى جهد كي تحافظ على مستويات الأناقة العالية التي يرغب بها قائدهم وفي إحدى المرات قاموا بإلقاء القبض على ثلاثة أفراد من طاقم قاذفة قنابل كانت قد اسقطت في منطقة الجيش وذلك لأنهم لم يكونوا يرتدون خوذات أو ربطات عنق» وأمّا الدعابة التي كانت تتردد على السنة البعض من ان الجيش الثالث كان يحارب بصورة حسنة لأن الموت كان أفضل طريق للخلاص من الجيش فانها عارية كلياً عن الصحة. بيد أن بعض أفراد الجيش كانوا يفضلون مواجهة فرقة بانزر كاملة على ان يواجهوا غضب قائدهم، انما جدير بالذكر ان كل جندي كان يعتقد انه لا يتفوق على الألمان فحسب بل على جنود الحلفاء جميعاً، وكان أحدهم، إذا سئل عن الوحدة التي ينتمي اليها، يجيب «أنا مع باتون». وبعد ربع قرن كان الرجال، في طول الولايات المتحدة وعرضها، يتذكرون الرباط الذي جعل منهم طبقة خاصة، لقد خدموا تحت قيادة «باتون» في الأيام التي بلغت فيها مكانة الجيش الأمريكي الذروة..

وكان يدعم حماس «باتون» العظيم لبلوغ الكفاءة التامة في المعركة والمحافظة على احترام النفس، سواء في حالة العمل أو سواه، دافع إداري يدفعه لأن يضمن عدم تعرض الجنود وهم بعيدون عن خط القتال، لأي ازعاج يمكن تجنبه. لذا كان يُمنَح الجنود العاملين في الفرق الاحتياطية مساكن خاصة لايوائهم في البلدان والقرى ويعطون ملابس نظيفة وإذا كانوا محظوظين يرسلون إلى «نانسي» أو «سان نيكولاس» أو غيرهما من المراكز المخصصة للاجازات حيث يستحمون بالماء الساخن ويتناولون القهوة مع الفطائر ويشاهدون عرضاً سينمائياً أو ربما فيلمًا بطلته «مارلين ديترش». كانت المخابز الميدانية تنتج مؤن الخبز الطازج كما كان الجنود يحصلون على حبوب القهوة المحمصة كلما أمكن ذلك بدلاً من النوع المر القابل للذوبان الموجود مع الجراية الاعتيادية. وجدير بالذكر ان الكميات الكبيرة من لحم البقر الألماني التي غنمها الجيش الثالث من «ريمز» و«بريي» قد زادت من تنوع الجرايات الرسمية. وقد قدمت الحماية للشركات التي تصنع المعدات الحربية كي تتمكن من زيادة إنتاجها، فجهزت الدبابات بمناقير بط (نوع من المخارز) كي تتمكن من السير في الوحول. كما بدأت أعتدة الشتاء بالتوارد إلى الجنود: كالبطانيات والمعاطف وأكياس النوم الجديدة والدّفايات، لكنها لم تكن تصل بالسرعة الكافية التي يرضى عنها «باتون». لقد أدرك «باتون» إدراكاً تاماً ان انتظام الخدمات البريدية يؤثر كثيراً على معنويات الجنود ولذلك خصّص منذ تشرين الأول قطاراً يومياً خاصاً بحمل ٤٠٠ طن من الرسائل والطرود تسلم جميعها لأفراد جيشه بكل انتظام وسرعة. ولم يكن

هناك قائدٌ مثل «باتون» يؤكد على مسؤولية ضباطه فرداً فرداً ليس فقط فيما يتعلق بتصرفات جنودهم أثناء المعركة بل بكل ما يتعلق بصحتهم الجسدية والنفسية في جميع الأوقات. كان «باتون» يتذكر دائماً التجربة التي عاشها في الحرب العالمية الأولى لذلك كان يصرّ على تجهيز غرف موقتة للتجفيف وعلى ارسال زوج من الجوارب القصيرة الجافة لكل جندي على خط النار مع الجراية اليومية. أمّا بالنسبة للالتهابات التي تصيب القدم بنتيجة الوقوف طويلاً في المياه الباردة، فقد أكّد في رسالة شخصية وجهها للجميع أن من الممكن من وجهة طبية سليمة منع التهاب القدم! وحري بالذكر انه طرد عقيداً وجد في وحدته عدد غير عادي من المصابين بهذا المرض، وظهر بعد ذلك انخفاض مذهل بعدد المصابين بهذا المرض. لقد ساعدت كل هذه الاجراءات الجنود كي يحتفظوا باحترامهم لأنفسهم كما دعمت ثقتهم بكفاءة من هم أعلى منهم رتبة. كانت تلك الإجراءات بالحقيقة وسيلة للوصول إلى غاية وليست غاية بحد ذاتها. فـ «باتون» لم يكن ليوافق على الرفاهية كما غدت في السنوات التالية لأنه كان يعتقد ان في ذلك كثيراً من الميوعة وأن المشقة والحرمان، عند اللزوم، هما خير مدرسة للجندي.

وهكذا في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني، أي عشية استئناف الهجوم كانت معنويات الجيش الثالث وكفاءته القتالية ما تزال في أعلى المراتب من حيث الروح المعنوية رغم انهمار المطر المتتابع والجمود الاضطراري.

كان الجيش حينذاك يتكون من ست فرق مشاة وثلاث فرق مدرعة علاوة على عدد كبير من الوحدات التي لا تنتمي لفرق معينة، أي ان هذا الجيش وصل من حيث قوته الفعلية إلى ربع مليون رجل، ونتيجة لما كان يبذله ضباط الأركان ومصالح الامداد والتموين من جهود هائلة ازدادت المهارة فيما يتعلق بالدعم والاستعداد للعمليات الطويلة الأمد بكل ما يختص بالسلاح والذخيرة والبترول والمعدات الهندسية وتجهيزات الدبابات. من هنا نرى ان الأسس المادية التي ستسفر عنها انتصارات أخرى كانت موجودة بالتأكيد وبصورة حسنة تماماً.

أمّا ما كانت سياسة «آيزنهاور» بالنسبة للجبهة العريضة تعني بالمصطلحات العملية التي صاغت نموذج استراتيجية الحلفاء لما تبقى من الحملة فقد كشفها «آيزنهاور» لـ «مونتغومري» و«برادلي» في «بروكسل» بتاريخ ١٨ تشرين الأول. لقد تم اختيار «بروكسل» على ما يبدو كي يأتي المشير شخصياً ولا يبعث برئيس أركانه بدلاً منه. كان على الجيش الأول ان يبدأ الهجوم في أوائل تشرين الثاني من «اخن» وان يؤمن رأس جسر

على «الراين» جنوبي «كولون». وإلى يسار الجيش الأول يزحف الجيش التاسع كي يحمي جناحه الشمالي ثم يندفع شمالاً لملاقاة مجموعة جيوش «مونتغومري» المندفعة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من «نيجمغن». وبعد الوصول إلى «الراين» كان اقتراح «آيزنهاور» أن يتم تطويق «الروهر» وذلك بأن يقوم الجيش التاسع بالزحف شمالاً والجيش الأول جنوباً. هنا سيكون دور الجيش الثالث ثانوياً. إذ كان عليه ان يقطع «الراين» في مكان ما بين «وارمز» و«مينز» عندما تسمح الظروف التموينية وكان كل ما يتمناه «باتون» ان تسمح هذه الظروف بسرعة. في ذلك الوقت كان «باتون» قد اقنع «برادلي» بأن العدو وزّع كل قواته على الخط الأول من جبهة الجيش الثالث، لذلك ما ان يقضي على هذا الخط حتى يسهل الوصول إلى «الراين» والحقيقة أن المقاومة الألمانية في الشمال تمكنت من تأخير الشروع بهجوم الجيشين الأول والتاسع، لذلك عندما جاء برادلي ليبينّ، في ٢ تشرين الثاني ان الجيشين البريطانيين الأول والتاسع لم يكونا قد اتّما استعداداتهما، أخبره «باتون» على الفور بأنه يستطيع الهجوم بعد الأذن له بأربع وعشرين ساعة. والواقع ان الاستعدادات التفصيلية من أجل استئناف الزحف إلى «السار» كانت مستمرة منذ شهر أيلول. لذلك اتفق القائدان ان هجوم الجيش الثالث سوف يبدأ حالما يبدأ الطقس بالتحسن بحيث تتاح الإمكانية للقوات الجوية باضعاف مقاومة العدو، ولذلك فقد حدّد يوم ٨ تشرين الثاني لبدء الفيلق «١٢» العمليات الحربية وقد وافق «دفرز» من مجموعة الجيوش السادسة على أن يقوم بحماية ميمنة «باتون» وهو زاحف باتجاه الشمال الشرقي.

كان الطقس رهيباً، فقد هطلت أمطار في تشرين الأول تساوي ضعف ما يهطل في السنة الاعتيادية من أمطار. وخلال الأيام الأولى من تشرين الثاني ارتفع «الموزل» بسرعة، وفاض على ضفتيه مغرقاً قسماً كبيراً من الريف. لذلك وصل في اليوم السابع أحد قادة الفيالق ومعه قائد فرقة إلى مقر «باتون» ليطلبا تأجيل الهجوم ريثما يتحسن الطقس، فكان الرد الوحيد الذي ظفر به هو سؤال هادىء، «هل لكما ان تقدما توصية بمن سيخلفكما؟» لقد ألقى هذا السؤال ضوءاً جديداً على الأمر، فعاد كلاهما إلى مقر قيادته ليضع اللمسات الأخيرة على خطة الهجوم في الصباح، وفي الساعة العاشرة والنصف من ذلك المساء، حين نهض «باتون» إلى فراشه قال لـ «كودمان»! «أظن أن هذا اليوم أطول يوم في حياتي» ولم يبق ما أفعله بعد الآن إلاّ ان أصلي». كان قد مضى على عملية الإنزال في الدار البيضاء سنتان. في ما بعد عندما سئل «بلمنتريت» ان كان الهجوم قد فاجأه فأجاب على الفور بأنه لم يفاجئه!: فقد كانوا يعرفون «باتون» جيداً وكانوا

يعلمون انه سيخلد أول معركة له في الحرب.

في اليوم الثامن من شهر آب استيقظ «باتون» في الثالثة صباحاً وكان المطر غزيراً. حاول ان ينام انما ذهبت محاولاته سدى فنهض من السرير وشرع يقرأ كتاب «رومل»! «الأعمال الهجومية للمشاة» وبالمصادفة وقع على فصل يصف معركة وقعت أثناء هطول المطر في شهر أيلول من عام ١٩١٤. فطمأنه هذا كثيراً! ان ما أنجزه الألمان بوسعه هو أن ينجزه. واستغرق في النوم ولم يستيقظ إلا في الساعة الخامسة صباحاً على دوي القصف المدفعي الذي بدأ من توّه. لقد أضيىء وجه السماء الشرقي عندما شرع سبعمائة مدفع بقصف مراكز العدو. وفي تمام الثامنة اتصل به كل من «برادلي» و«آيزنهاور» وتمنيا له حظاً سعيداً. كان المطر ما يزال ينهمر، أي ليس هناك أي أمل بالمساندة الجوية إلا بعد انقشاع الغيوم وتوقف المطر.

انطلق «باتون» يرافقه «ستيلر» و«كودمان» بالسيارة إلى مركز مراقبة الفيلق «١٢» لكن نظراً لستائر الدخان الكثيفة فوق «الموزل» لم يستطع «باتون» ان يشاهد شيئاً. بيد أن المطر ما لبث أن أصبح رذاذاً وحوالى الساعة العاشرة سطعت الشمس فجأة من خلال السحب فظهرت على الفور مئات من قاذفات القنابل وانقضت بكل ما لديها من قوة على مراكز قيادة العدو باعثة الموت والدمار بما اسقطته من القنابل، انه لمنظر مذهل حقاً. قال «باتون» «أكاد أشعر بالأسى على أولئك الألمان أولاد الزنى»، بعدئذ انطلق بسرعة البرق كي يقوم بجولة على مراكز قيادة فرق المشاة الثلاث المهاجمة والفرقة المدرعة الرابعة. في وقت متأخر من بعد الظهر أرسل الفيلق «١٢» تقريراً بأن جميع الوحدات تقريباً حققت أهدافها عملياً، لكن لسوء الحظ انهمر المطر ثانية تلك الليلة على نحو غزير للغاية وفي الصباح التالي بدا منظر الجبهة يثبط العزائم، فقد تهدم الكثير من الجسور. وفي كل مكان كنت ترى الدبابات مهجورة متوقفة في مياه الفياضانات غير أن هجوماً رائعاً قامت به ١٤٧٦ طائرة على دفاعات «متز» شدد من عزائم الجنود. في تلك الليلة انهمر المطر مرة أخرى، وانهارت جميع الجسور التي كانت على «الموزل» باستثناء جسري «بونت» و«سون» كما ازداد عرض نهر «السيل» من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ قدم.كان هجوم الفيلق «٢٠» على الجناح الشمالي بكامل قوته. وخلال الأسابيع الخمسة التالية التي كان الطقس فيها يتحول من سيىء إلى أسوأ خاض الجيش الثالث معركة مستمرة، معركة تذكر بمعارك «نورماندي» في أسوأ حالاتها وليس بالاندفاع الذي يشبه البرق الخاطف في وقت متأخر من الصيف عبر غربي فرنسا. لقد استفاد الألمان أقصى الاستفادة من هدأة تشرين الأول فأعادوا تنظيم صفوفهم وتجهيزاتهم كما استعادوا روحهم المعنوية وهم يقفون على حافة أرض الآباء

والأجداد. بين الأول من أيلول والعشرين من كانون الأول وقع في أسر الجيش الثالث ١٠,٠٠٠ رجل علاوة على العدد الذي وقع في أسرهم في شهر آب. كان الهجوم أحياناً يقع على كامل جبهة الجيش، هجوم يذكّر بمعارك حرب العالمية الأولى الواسعة النطاق، بيد أن معظم العمليات كانت هجمات.منفصلة تساندها نيران المدفعية بأقصى قوتها الممكنة.

وهكذا استطاع «باتون» ان يخفض عدد الإصابات إلى رقم معقول. لم يكن «باتون» يقذف برجاله للموت دون ان تضطره الظروف وبالرغم من رداءة الطقس استطاع السلاح الجوي «تاك» تقديم مساندة عظيمة في المراحل الأولى، لكن بعد ذلك، وبسبب صعوبة الطيران في الأحوال الجوية الرديئة في كانون الأول، أصبحت المساعدة طفيفة. ومما لا شك فيه ان العمليات في هذه المرحلة كانت تسير بسرعة المشاة! فقد خفضت شبكات الطرق المحدودة والوحول المنتشرة في كل مكان من قوة الدبابات ومن إمكانية استغلال سرعة حركتها وقوة صدمتها. استسلمت قلعة «متز» للفيلق العشرين في ٢٢ تشرين الثاني مع ان بعض القلاع الخارجية لم تسقط إلا بعد ثلاثة أسابيع أخرى. إنها المرة الأولى كما يذكر «باتون»، مؤكداً عن حق معرفته للتاريخ، التي تقتحم فيها هذه القلعة منذ ٤٠٠ سنة ومع تزايد رطوبة الجو وتزايد البـرد في الليل راح العدو يهجر المناطق المشجرة ويلجأ إلى بيوتٍ من الحجر في القرى. فاتخذت العمليات حينذاك شكل عمليات تقدم صغيرة تقوم بها وحدات صغيرة داخل مناطق «السار» البشعة القذرة الملوثة. وكان باستطاعة مجموعات الألمان ان تقاتل في كثير من المعارك بمهارة تقليدية اشتهر بها الألمان في مثل هذه العمليات، ولدى استجواب الجنرالات الألمان الذين وقعوا في الأسر كان بعضهم يرتبك وينتقد بطء التقدم الامريكي، لكن ينبغي قبول هذا النوع من التعليقات بتحفظ أكبر من تحفظ بعض الكتاب الذين يفتقرون للخبرة الشخصية بالقتال في هذه الظروف. واجه الجيش الأول في غابة «هورتغن» في الشمال ظروفاً من الرعب الرهيب تذكر بمعركة «الموز ـ آرغون» في تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٩١٨. والواقع أن تجربة الجيش الثالث على «السار» لا تقل عن تلك المعركة قذارة ورعباً. رغم ذلك كان أمامه في أواسط كانون الأول فرص كثيرة لاظهار الشجاعة وقوة الصبر والتحمل. لقد أخرج العدو من ثلاثة مراكز بالغة الأهمية هي: «الموزل»، و«النيد» و«السار» وأصبح على الجدار الغربي. في هذه العملية حرم الاقتصاد الحربي الألماني من إنتاج معظم المصانع ومعامل صنع الصفائح والقضبان الحديدية في «اللورين» وحوض «السار» تلك المصانع المبنية عند مناجم الفحم، إضافة إلى أن الجيش الثالث جذب إلى

جبهته كثيراً من القوات التي كان الألمان بحاجة ماسة لها في الشمال، وأوقع بها خسائر فادحة، وبالرغم من الطقس المتردي كانت معنويات الجيش عالية بدءاً من أعلى رتبة فيه إلى أدناها، بعدئذ بدأ القيام بالاستعدادات للهجوم النهائي من أجل اختراق الجدار الغربي ومن هناك إلى خط «الراين» و«فرانكفرت» وقد حدد موعده في ١٩ كانون الأول، على ان يسبق ذلك أربعة أيام من قصف كثيف مركز يقوم به سلاح الجو الملكي وسلاح الجو التاسع.

من أجل هذه العملية عمل «كوتش» على جمع مقدار كبير من التفصيلات وذلك بجعله سلاح الجو التكتيكي «١٩» يحلق في مهمات استطلاعية أخذ بها صوراً لا حصر لها، وقد دُرست تلك الصور جميعاً بكل دقة وفهم. حينذاك حدث ما يعتقد أنه هبة من السماء، حادث لا نظير له في الحرب العالمية الثانية - فقد وقع في الأسر ضابط الماني يعرف معرفة مفصلة دفاعات الجدار الغربي ويود الكلام عن طيبة خاطر. كان ذلك الرجل يعلم ان «هتلر» لن يستسلم ولذلك وصل إلى نتيجة حاسمة: واجبه ان يعمل كل ما يستطيع لإنقاذ ما بقي من المانيا كي تنتهي الحرب بأسرع ما يمكن، وذلك باخبار «كوتش» كل ما يعرفه عن اسرار الجدار الغربي، وبدقة مذهلة غرزت دبابيس على الصور الجوية لاظهار جميع التحصينات الميدانية ومرابض المدافع وحقول نيرانها بما في ذلك مراكز الرشاشات التي لم تكتشفها الصور الفوتوغرافية الجوية. بعد التحقق من هذه المعلومات جميعاً، وبموافقة من «باتون» قام «كوتش» باعادة طبع الصور على خرائط ذات مقياس كبير يمكن استخدامها في الهجوم التالي: وعندما قام الجيش السابع فيما بعد باستغلال هذه المعلومات وجد انها ذات قيمة لا تقدر بثمن. بعدئذ في اللحظة التي أصبح فيها كل شيء جاهزاً أصدر «آيزنهاور» أوامره إلى «باتون» بتعليق عملياته الهجومية على «السار»، ذلك لأن التطورات التي طرأت على جبهة الفيلق الثامن في «الآردن» قد أذهلت الجميع، «آيزنهاور» و«برادلي» و«مونتغومري» إلى حد كبير.

لم تقتصر دراسة «كوتش» وهيئة أركانه على موقف العدو في جبهتهم الخاصة. فمنذ تشرين الأول كانت قد وصلت إليهم معلومات بأن الألمان يعدون وينظمون قوات احتياطية على جبهة الجيش الأول من بينها فرق بانزر وبانزر رماة قنابل ومظليون وكلها من نخبة الجنود لا مجرد جنود اعتياديين. وكان السؤال المحير: ما الغاية؟ هل ستقوم هذه الفرقة بهجوم مضاد في منطقة «آخن» حيث كان الجيش الأول مستمراً في الهجوم أو انها تعد لاستخدامها في هجوم تخريبي ضد جناح الجيش الثالث الشمالي عندما يزحف مبتعداً عن «السار»؟ وإذا كانت هذه الفرقة غير معدة - للاستخدام على أي من هذين

المحورين، اذن أين يقصد منها ان تتدخل؟ كيف تفسر حركة القطارات الكثيفة على كلاجانبي «الراين»؟ على الجناح الشمالي للجيش الثالث في «الآردن» كان فيلق «ميدلتون» الثامن يسيطر على جبهة طولها ٧٥ ميلاً من «مونشو» إلى «جخترناخ» ويتألف من أربع فرق وثلثي فرقة، منها فرقتان جديدتان على القتال واثنتان أصابتهما خسائر فادحة في غابة «هورتيغن». بعد الحرب وصف «برادلي» هذا الوضع بأنه: «خطر محسوب حسابه» وكان «كوتش» كلما فكر أكثر كلما ازداد كرهاً للموقف الذي كان عليه جناح الجيش الشمالي. وعلى ذلك فقد أوضحت تعليماته في ٩ كانون الأول بأن الموقف يشغل البال ان لم يكن يثير القلق. لقد بينّ «كوتش» لـ «باتون» وأركانه انه يوجد على جبهة الفيلق الثامن، وطبقاً لحساباته، فرقتان ونصف زيادة على كل ما هو موجود ضد الجيش الثالث وسبع فرق ونصف أكثر مما يوجد في مواجهة الجيش السابع المنتشر إلى اليمين، وقوة لا تقل إلا فرقة واحدة فقد عن مجموع فرق العدو التي كانت على احتكاك ببقية جبهة الجيش الأول، وقال «كوتش» ان العدو بات يملك سلاحاً جوياً مقاتلاً مرتاحاً ومجهزاً تجهيزاً جيداً بحيث يمكنه ارسال ١,٠٠٠ طائرة إلى الجو لمدة محدودة من الزمن. كما أضاف بأن الأرض في جبهة الفيلق الثامن صالحة لعمليات العدو الهجومية! فلم يكن هناك أي مجرى مائي يشكل مانعاً رئيسياً وكان هناك الكثير من الأماكن التي يمكن التستر بها لمنع المراقبة كما انه لم يكن هنالك مراكز دفاعية منظمة، ثم لخص كلامه مكرراً بأن العدو حقق تفوقاً على جبهة «الآردن» يعادل ٢ ١/٢ مقابل واحد وانه يقوم باستعدادات سرية في المنطقة وعلى نحو تدريجي، لذا فان هجوماً تشتيتياً ناجحاً حسب رأيه سيكون «طلقة في الذراع» بالنسبة للألمان، وهو احتمال ينبغي عدم إهماله، كان لتعليمات «كوتش» تأثير ملحوظ على ضباط الأركان المجتمعين! فبعد أن توقف عن الكلام ساد السكون بضع دقائق ثم أعقب ذلك نقاش انتهى إلى الاتفاق بأنه ينبغي الشروع بوضع خطة لمعالجة الموقف الذي سيظهر إذا شن العدو هجومه على جبهة الفيلق الثامن، مع عدم ايقاف الاستعدادات للهجوم الكبير المقرر في اليوم التاسع عشر. اضافة إلى ذلك ينبغي ألا تشمل الخطط حماية الجناح الشمالي للجيش الثالث وحسب بل أيضاً ضربة مضادة في الاتجاه الشمالي ثم ختم «باتون» المؤتمر بقوله: «سنكون في وضع يسمح لنا ان نواجه أي طارىء» لكن خلال أسبوع كانت ثمة مفاجأة كبيرة ستحل بـ «آيزنهاور» و«برادلي» و«مونتغومري» لقد كان «باتون»، شأنه شأن «برادلي»، يؤمن بالقيام بالمغارمات المحسوبة لكنه، وخلافاً لـ «برادلي»، كان دائماً يحمي رهاناته.

١

الفصل الخامس عشر
«الآردن»

ذم مع قليل من المدح، موافقة مع شيء من السخرية
وبدون تهكم يعلّم البقية كيف يتهكمون

«بوب»

انبثق فجر ١٦ كانون الأول وظهرت سحابة منخفضة أخفى الضباب الكثيف تحتها الحشود التي كانت قد تجمعت في جبهة الفيلق الثامن من «مونشو» حتى «أخترناخ» وتتألف من ١٣ فرقة مشاة و٧ فرق مدرعة يتبعها ١٠ فرق أخرى يساندها ٢,٠٠٠ مدفع وتشكل جميعها جيشي بانزر الخامس والسادس والجيش السابع. في الساعة ٥,٣٠ بدأ وعلى نحو مفاجىء قصف المدفعية والهاون كي يعيدإلـى الأذهان ذكرى أعنف وابل من القذائف انهال في الحرب العالمية الأولى. وعلى الفور اشتعل وجه السماء واشتعلت الجبهة بأسرها وكان يصحب القصف رشقات متتالية من صواريخ (V_1) تدوي هادرة فوق الرؤوس ومتجهة نحو الغرب. بعدئذ، ومع انقشاع الظلام بدأ المشاة يزحفون قدماً وفي أعقابهم فرق البانزر. وقد منعـت السحب المنخفضة، التي استمرت طيلة النهار، قوات الحلفاء الجوية من تقديم أي شكل من أشكال المساندة المباشرة أو أية معلومات عن تحركات العدو. لقد حققِ «مودل» مفاجأة واسعة النطاق لا يضاهيها إلا مفاجأة «نابليون» في «واترلو» و«روبرت أي لي» في «ماناساس» الثانية.

في وقتِ مبكر من ذلك الصباح كان «برادلي»، ودون أن يعرف التطورات التي طرأت على جبهة الفيلق الثامن،قد انطلق في سيارة من مقر قيادته في «اللكسمبورغ».

وهكذا لم يسمع، حتى وقت متأخر من بعد الظهر وخلال الاجتماع الذي كان منعقداً في مقر قيادة «شاف»،بأخبار التطورات في جبهة الفيلق الثامن. للوهلة الأولى طرح «برادلي» الخبر جانباً معتبراً إياه مجرد هجوم للافساد شنه الألمان آملين أن يجبروا «باتون» على إرجاء هجومه على الجدار الغربي: إلا أن الموقف كان بالحقيقة أشد خطورة بكثير إذ لم يكن هناك أية قوات احتياطية خلف قطاع «الآردن» وكان مقر قيادته في «اللكسمبرغ» سيتعرض لمأزق كبير في حال عدم توافر قوات دعم في الجناح الجنوبي من الاختراق. لكنه قرّر في الحال تعزيز الفيلق الثامن بفرقتين مدرعتين، الفرقة السابعة من الجيش التاسع في الشمال والفرقة العاشرة من الجيش الثالث في الجنوب.

في ذلك الوقت، كان «باتون» يحتفظ بالفرقة المدرعة العاشرة في «تيونفيل» على أهبة الاستعداد لاستغلال هجومه في «سارلوترن». إذن لا بد ان يكون أمر تسييرها فوراً إلى «اللكسمبورغ» قد أثار لديه احتجاجاً عنيفاً إذ بقي فترة من الزمن يخشى انه إذا ما فشل في القريب العاجل بتحقيق اختراق على «التسار» فسيتمكن «مونتغومري» من اقناع «آيزنهاور» بحشد جميع القوات المتوافرة للقيام بهجوم في الشمال وتحويل دور الجيش الثالث إلى دور دفاعي، وقد دعم «باتون» احتجاجه بقوله إن رجاله الذين دفعوا ثمناً غالياً مقابل تقدمهم إلى «السآر»، سيشعرون بأن تضحياتهم ذهبت سدى إذا عملت القيادة على اضعاف جيشه بأخذ الفرقة المدرعة العاشرة منه، كما بينّ بأن الموقف ربما لا يتعدى ان العدو يهدف من هجومه ان يفقد جيشه توازنه وبذلك يضطر للتخلي عن الهجوم في اللحظة ذاتها التي أصبح فيها هذا العدو على شفير الهاوية. لكن «برادلي» عمل على انهاء الحديث موضحاً أن هناك ما يدعم وجهة نظر «باتون» فعلاً لكنه لا يرى الموقف من المنظور ذاته وعلى كل حال الأمر أكثر أهمية من أن يناقش هاتفياً لكن ينبغي أولاً تنفيذ الأوامر. انصاع «باتون» للأمر، وخلال ساعة كانت الفرقة المدرعة العاشرة على الطريق المؤدية مباشرة إلى جبهة الفيلق الثامن.

في الصباح التالي حالت السحب المنخفضة دون عودة «برادلي» إلى «اللكسمبورغ» جواً فلم يصل إلى مقر قيادته إلا بعد الظهر. راجع الخريطة فوراً في غرفة الخرائط فظهر له ان العدو يستخدم مالاً يقل عن ١٤ فرقة على جبهة الفيلق الثامن، نصفها مدرع. وفي ذلك الصباح تمكن «باتون» قائد فرقة المشاة الرابعة الذي كان يسيطر على خط نهر «السور» على بعد ٢٠ ميلاً شمالي «اللكسمبورغ» من ايقاف العدو بعد ان رمى في المعركة كل ما لديه من الطبّاخين والخبازين والكتبة لسد الثغرة في الجبهة. أمّا الآن فقد

حذّر «ألن» رئيس أركان «برادلي» بأنه ان لم تصل الفرقة المدرعة العاشرة في الحال فان قيادة مجموعة الجيوش الثانية عشرة نفسها ستواجه اختيارين أمّا ان تصبح في خط النار أو تنتقل إلى مكان آخر. وحري بالذكر ان قصف مدفعية العدو الشديد وسرعة اختراق جبهة الفيلق الثامن كانا قد عطلا المواصلات تعطيلاً كاملاً. ومما لا شك فيه ان الكثير من المعلومات قد بولغ فيها ونظراً لعدم وجود استطلاع جوي فان تلك المعلومات لم تكن غير محققة وحسب بل كانت مربكة أيضاً.

كان الظاهر الخارجي أسوأ بكثير من الواقع الفعلي. فقد كان كثير من الضباط الصغار ودون أن تعرف ذلك قيادة مجموعة الجيوش، في تشكيلات ووحدات اكتسحتها، أو مرّت بقربها القوات الألمانية، إلا انها كانت ما تزال مسيطرة على نقاط أساسية معزولة قامت منها بسد الطرق ونسف الجسور أي كان الباقون من فرق الفيلق الثامن الأربع يقاتلون في مئة معركة غير مسجلة وبكل مهارة وبسالة وبذلك خفّضوا من سرعة تقدم الألمان. مع ذلك فقد كان الوضع في غاية الحرج، أشد حرجاً بكثير ممّا ظن «باتون» في ذلك الوقت كما اعترف صراحة في ما بعد. بيد انه في ذلك اليوم استدعى «فيليكين» قائد الفيلق الثالث إلى «نانسي»، ليناقش معه ما ينبغي فعله، إذا وصلت أوامر تقضي القيام بهجوم مضادٍ على الجناح الجنوبي لمنطقة اختراق العدو وقد أطلق على ذلك اسم «النتوء» لكن لحسن الحظ قرر «آيزنهاور» في ذلك اليوم ان يرسل احتياطيه الوحيد وهما الفرقتان المجوقلتان «١٠١» و«٨٢» من «ريمز» إلى مركز تقاطع الطرق الرئيسية في «باستونيو».

في صباح ١٨ آب استدعى «برادلي» «باتون» إلى «اللكسمبورغ» فوصل عند الضحى. وبالرغم من تلبد السماء بالغيوم بدأت تتضح صورة الوضع في «الآردن» أكثر وأكثر. كان الاختراق أعمق مما ظن أي منهما، لكن كتفي الجبهة كانتا صامدتين. كان اندفاع «سيب ديتريخ» مع جيش «البانزر» السادس في الشمال قد توقف عند «فالميدي»: إذ وصلت الفرقة المدرعة السابعة في الوقت المناسب للسيطرة على «سان فيت» أما شمالي «اللكسمبورغ» فان وصول الفرقة المدرعة العاشرة الفوري قد ساعد مباشرة على استقرار الجبهة. لكن في الوسط كان جيش البانزر الخامس منطلقاً بكل قوته باتجاه «باستونيو» التي كان ما يزال صامداً فيها عناصر من الفرقتين المدرعتين التاسعة والعاشرة، لكن الفرقة المجوقلة «١٠١» كانت مندفعة بشكل جنوني من «ريمز» إلى «باستونيو» وقد صدرت إليها الأوامر بأن تبقى مسيطرة عليها مهما كلف الأمر. قال «برادلي» ان ما يريده بشكل عام هو

ان يبقى الجيش الأول صامداً في الشمال وان يحرك فيلقاً مؤلفاً من ثلاث فرق من الجنوب لمساندة الفيلق الثامن. إذن يجب ان يؤجل «باتون» هجومه على «السار»، بعدئذ سأله «برادلي» ماذا يستطيع ان يفعل. ودون أي تّردد أجاب «باتون» بأنه يستطيع مباشرة حشد الفرقة المدرعة الرابعة قرب «لونغوي» عند منتصف الليل، وسحب الفرقة «٨٠» من خط القتال ووضعها على الطريق المؤدية إلى «اللكسمبورغ» عند بزوغ أول خيط من خيوط الفجر كما أن باستطاعته تحريك الفرقة «٢٦» نحو الشمال خلال ٢٤ ساعة. بعد ذلك عاد إلى مقر قيادته ليؤكد تنفيذ هذه الأوامر بالسرعة التي اعتاد عليها الجيش الثالث.

في الساعة ٢٣,٠٠ من تلك الليلة، تحدث «برادلي» معه هاتفياً ليخبره ان «آيزنهاور» في طريقه إلى «فردان» حيث سيعقد مؤتمراً في الساعة «١١» من صباح ١٩ آب، على ان يحضره «باتون» و«دفرز» من مجموعة الجيوش السادسة وقبل الذهاب إلى الفراش أمر «باتون» رئيس أركانه ان يقوم بالترتيبات اللازمة لعقد اجتماع لهيئة الأركان في تمام الساعة الثامنة صباحاً على ان يشمل الاجتماع هيئة أركانه العامة جميعاً اضافة لـ «ويلاند» قائد قوات «تاك» مع أركانه.

بدأ الاجتماع وفق أسلوب «باتون» الحقيقي، أخبرهم فيه ان الخطط قد تغيرت! ورغم انه يعلم تماماً انهم اعتادوا على التحرك السريع إلا أنهم سيحصلون على امتياز خاص الآن وهو تحرك أسرع وأسرع. وقد أوضح على نحو عام أنه ينوي التحرك شمالاً ليسدد ضربة إلى موطن الضعف الألماني حيث يمكن أن تكون النتيجة مؤلمة للغاية وذلك باستخدام الفيلقين الثامن والثالث على محورين من ثلاثة! الأول باتجاه الشمال المناسب من «ديكريخ» والثاني من «آرلون» أي إلى «باستونيو» والثالث على طريق «نيوفشاتو ـ باستونيو» باتجاه طرف النتوء حيثما كان، وفي الساعة التالية وضع هو وأركانه خطة مختصرة لثلاث عمليات واضحة المعالم منفصل بعضها عن بعض ورتب رموز شيفرة بسيطة يمكنه بواسطتها إعلام رئيس أركانه من «فردان» هاتفياً بالخطة التي ينبغي تنفيذها، بعدئذ انطلق نحو «فردان» مسروراً بما انجز ووصل مكان الاجتماع قبل الموعد المحدد بخمس عشرة دقيقة.

وانه لاجتماع مميز لكبار القادة عقد في مهجع حجري بارد وحضره «آيزنهاور» الذي سافر من «فرساي» بسيارة ثقيلة مضادة للرصاص لأن إشاعة كانت قد سرت مفادها ان «سكورزني» قد أرسل رهطاً من الجند لاغتياله، و«تدر» نائبه البريطاني وهو على أتم الاستعداد كعادته لتقديم النصائح المخالفة لنصائح «مونتغومري» و«برادلي»

و«دفرز» و«باتون» وغيرهم. أمر «آيزنهاور» اللواء «سترونغ» بأن يطلع الجنرالات المجتمعين على الموقف حتى تلك اللحظة فافتتح الجلسة راسمًا صورة لوضع شديد القتامة، فأنبرى «آيزنهاور» كي يضع الأمور في نصابها ثم قال مؤكداً: «علينا أن نعتبر الوضع الراهن فرصة طيبة لنا وليس كارثة. لا أريد أن أرى في هذا المؤتمر إلا وجوهاً مشرقة بشوشة». فصاح «باتون» فوراً: «يا للشيطان، لنكن شجعاناً بواسل ولنترك أولاد الزنى يصلون إلى باريس وحنيئذ سنقطعهم بكل تأكيد ومن ثم نأكلهم». أثار هذا الكلام ضحك الجميع ثم تابعوا بعده العمل.

انتهى الجميع إلى الاتفاق بأنه لا بد من توجيه هجوم مضاد في أول لحظة ممكنة، كما وافقوا على ان تلك الضربة يجب ان توجه ضد جناح العدو الجنوبي، وان «باتون» هو الرجل المناسب لهذا العمل. وحين سأله «آيزنهاور» متى يستطيع المجيء إلى «اللكسمبورغ» لاستلام زمام المعركة أجابه: «بعد الظهر» ثم قال إن باستطاعته القيام بهجوم قوي بواسطة الفيلق الثالث بحيث تنطلق ثلاث فرق لتسديد ضربة شمالي الطريق من «آلون» إلى «باستونيو» كما أكد ان الفرقة المدرعة الرابعة والفرقتين «٢٦» و«٨٠» ستكون كلها على أهبة الاستعداد في ٢٢ كانون الأول. وأضاف أنه لا يستطيع الهجوم بقوات أكبر إلا بعد مرور بضعة أيام وان الانتظار حتى ذلك الوقت «يجعلنا نفقد عنصر المباغتة». ترك ذلك البيان الصريح موجة من الرضا والدهشة. كان الجميع قد اتفقوا على ان «هودجز» لم يكن في تلك اللحظة، وجبهته تنزف دماً في الشمال، في وضع يسمح له بشن هجوم مضاد وان على جبهة الحلفاء ان تلجأ للدفاع. بعدئذ تابع المجتمعون عملهم بتعديل مواقع المسؤولية جنوبي «الموزل» بحيث يستطيع «باتون» سحب فيلقه الثاني عشر كي ينطلق إلى الشمال والشمال الشرقي في «اللكسمبورغ». وفي الحال وافق «دفرز» على استلام جبهة «باتون» على «السار» وحتى «سورلوترن». بيد أن «باتون» رفض التخلي عن ذلك الجزء الذي يسيطر عليه الفيلق العشرون. فقد أراده أن يبقى منطقة راحة بانتظار ما سوف يطلب في المستقبل من هذا الفيلق الذي سيحتاجه للاستيلاء على «ترير» وبذلك يتمكن من القيام بالجملة عن طريق «البالاتيبنيت» كما رفض أيضاً تسليم أية معدات جسور. وفي النهاية لخص «آيزنهاور» قرارت ذلك اليوم ببرقية أرسلها إلى رؤساء الأركان، قال فيها: «الخطة العامة هي رأب الصدع في الشمال وشن هجوم منسق في الجنوب» أمّا التفاصيل فقد تركها «آيزنهاور» و«تدر» و«برادلي» بكل سرور لـ «باتون». وطبقاً لما يقوله «برادلي» كان «باتون» يتحرق شوقاً للبدء فقد اشعل سيجاراً ثم أشار إلى النتوء الذي كان يخترق الخطوط الزرقاء على الخريطة وصاح:

(«براد»! هذه المرة وضع «الألماني» رأسه في فرامة لحم). ثم حرك قبضته وقال: «وهذه المرة أمسكت أنا بيد الفرامة»، ثم رفع السماعة كي يتحدث مع «غي» رئيس أركانه آمراً إياه أن يحرك الفرقة «٢٦» والفرقة المدرعة الرابعة باتجاه «آرلون» والفرقة «٨٠» نحو «اللكسمبورغ» عن طريق «ثيونفيل» وقال بأن الجهد الأساسي سيقوم به الفيلق الثالث على طريق «آرلون ـ باستونيو»، أما الفيلق الثاني عشر فيستلم المنطقة الواقعة شمالي «اللكسمبورغ» وبعد أن أنهى محادثته أنطلق إلى مقر قيادة الفيلق «٢٠» حيث قرر أن يقضي ليلته. ولدى وصوله هناك حرك الفرقة الخامسة، التي كانت حينذاك مشتبكة في هجوم على «سورلوترن» باتجاه الشمال بحيث تصل إلى منطقة الحشد الواقعة شمالي «اللكسمبورغ».

وفي الصباح التالي عندما وصل «باتـون» إلى مقر قيـادة مجموعـة الجيوش الثانية عشرة، أصيب بصدمة عنيفة إذ علم ان «آيزنهاور» اتخذ قراراً لدى رجوعه إلى «فرساي» حـرم فيه «بـرادلي» من الجيشين الأول والتـاسع ووضعهـما تحت قيادة «مونتغومري» وبهذا الإجراء ظل لدى «برادلي» جيش واحد هو جيش «باتون» الثالث. كان النتوء قد قسم مجموعة جيوش «برادلي» إلى قسمين منفصلين تماماً. «باتون» والجيش الثالث إضافة إلى جزء صغير من الجيش الأول في الجنوب ثم الجزء الأكبر من الجيش الأول اضافة إلى الجيش التاسع في الشمال. لم يكن «برادلي»، ومقره في «اللكسمبورغ»، في وضع يسمح له بالسيطرة على الجيشين الموجودين في الشمال. ولم يكن يرغب بنقل مقر قيادته إلى «نامر» متذرعاً بأن هذا الإجراء سيكون له تأثير سيىء على معنويات الجنود، وعلى ذلك فقد قام «آيزنهاور»، بعد حسابات نفسية دقيقة ومراجعة وجدانية وانطلاقاً من مبادىء وأسباب عسكرية بحته، باتخاذ قرار بوضع جميع القوات المتمركزة شمالي خط «غيفت ـ برم» تحت قيادة «مونتغومري» الذي كان في وضع يؤهله أكثر للقيادة من هناك، سيما وأن في يده في الوقت ذاته فيلقاً احتياطياً قوياً جداً وراء «الموز» أي ما بين «لييج ونامر». كانت الضربة شديدة الوطأة على «برادلي» فرفع احتجاجه لـ «بدل سميث» رئيس أركان «آيزنهاور» قائلاً: لو كانت قيادة «مونتغومري» أمريكية لوافقت معكم كلياً ثم كتب في ما بعد: «كان هناك كثير من المبررات بالنسبة لإعطاء «مونتغومري» القيادة الموقتة لمجموعة الجيوش شمالي منطقة الاختراق». ومما يؤسف له أشد الأسف أنه كان في ذلك الوقت، كثير من الخصام والتنافر بين «مونتغومري» من جهة وكل من «شاف» (القيادة العليا في أوروبا) و«باتون» من جهة أخرى إنما يجدر بنا أن نذكر هنا أنه كان هناك بعض المبررات الداعية للسخط وذلك بسبب تحيز «آيزنهاور» الجلي لصالح الانكليز.

فانطلاقاً من إدراكهما التام أن العبء الأكبر من الحملة يقع على الكواهل الامريكية، كان «باتون» وقيادة «شاف» يشعران بأن التأثير البريطاني الكبير في «شاف» لا يتناسب مع مقدار مساهمتهم بالجهد المشترك. فقد كان كل من نائب القائد الأعلي وقائد البحرية وقائد السلاح الجوي من الانكليز. لكن «برادلي» تحمل تخفيض مكانته بكل شمم وإباء. ولم يتدخل في أي وقت بعمليات «باتون» رغم انه كان يستطيع ذلك لأن جيش «باتون» هو الوحيد الذي بقي له من مجموعة جيوشه. أمّا «آيزنهاور» فلم يكن هنالك شيء يزيد من حسن سمعته أكثر من شجاعته في اتخاذ القرار العسكري الضروري الذي يضع مصلحة الحلفاء فوق المصلحة القومية، حتى ولو كان ذلك أحياناً على حساب مشاعره الشخصية. عدا عن ذلك فانه، نظراً لمعرفته التامة بصفات «باتون» وما يتميز به من شدة اندفاع وتهور وميله للانطلاق دون توقف، أوضح بكل جلاء أن عليه في الوقت الحاضر ألا يجعل الهجوم المعاكس يتعدى «باستونيو».

من «اللكسمبورغ» أنطلق «باتون» إلى «آرلون» لكي يحصل من «ميدلتون» قائد الفيلق الثامن السيىء الحظ على صورة كاملة عن الموقف العسكري في النتوء. هنا وجد «غافي» قائد الفرقة المدرعة الرابعة «وميليكان» قائد الفيلق الثالث قد وصلا قبله. كانت بقية الفيلق ما زالت تقاتل بصورة جيدة وكان هناك داخل «باستونيو»، التي باتت تطوقها ثلاث فرق من جيش البانزر الخامس والجيش السابع، الفرقة «١٠١» المجوقلة بالاضافة إلى وحدة قتالية من الفرقة التاسعة وأخرى من الفرقة المدرعة العاشرة وفوج الدبابات المدمرة «٧٠٥» وبعض المدافع المتنوعة ووحدات من الإعاشة، وقد توضح ان الجميع عقدوا العزم على القتال حتى النهاية، من هنا انطلق «باتون» إلى الجناح الشرقي، وزار على التوالي مقرات الفرقتين المدرعتين التاسعة والعاشرة وفرقتي المشاة «الرابعة» و«الثمانين» شمالي شرقي «اللكسمبورغ»، وكإجراء مؤقت، أي ريثما يصل الفيلق الثاني عشر لمعالجة شؤون هذا الجناح، عين «باتون» الجنرال «موريس» مسؤولاً عنه وبعد أن صنف مشاكل قيادته على الجبهة الجديدة قام بإصدار الأوامر إلى كتائب المدفعية ذاتية الحركة والمضادة للدبابات بان تتحرك قدماً إضافة إلى مستشفيات ميدانية ووحدات أخرى متنوعة كي تقوي جبهته الجديدة أكثر، وهكذا كان يوم «٢٠» كانون الأول، حتى بالنسبة لـ «باتون» يوماً محموماً، إذ لم يكن باستطاعة أحد سوى هيئة أركان جيش ذات مرونة استثنائية أن تعالج بما يلزم من المهارة مثل ذلك الوضع المشوش تماماً، سيما وانها كانت تعمل تحت قيادة ذلك القائد النشيط الديناميكي. كان قسم كبير من الجيش الثالث في ذلك الحين قد قام بتغيير كبير في اتجاهه يبلغ ٩٠° وانطلق بأقصى سرعة إلى الشمال كي

يكمل إعادة الانتشار الذي بدأ يأخذ شكله بسرعة. فإلى اليسار كان هناك الفيلق الثامن ويتألف من الفرقة المجوقلة «١٠١» وفرقة المشاة «٢٨» والفرقة المدرعة التاسعة، وفي الوسط عند «آرلون» كان هناك الفيلق الثالث ويتألف من الفرق: المدرعة الرابعة والمشاة «٢٨» و«٢٦» وإلى اليمين أي في الجهة الشمالية الشرقية من «اللكسمبورغ» كان هناك الفيلق الثاني عشر ويضم فرقتي المشاة الرابعة والخامسة والفرقة المدرعة العاشرة. أما الفيلق «٢٠» فقد بقي في الخط الأمامي في جبهة «السار». عين «باتون» مؤقتاً الساعة ٠٤٠٠ من يوم ٢٢/ كانون الأول موعداً لبدء الفيلق الثالث بالهجوم لإنقاذ «باستونيو» وفتح الطريق إلى «سان ـ فيت». والواقع أنه ما من قائد في الحرب العالمية الثانية، ربما باستثناء «رومل»، كان يتمتع بمثل تلك المقدرة على استيعاب الموقف العسكري والإحساس الصحيح بما يتطلبه: فلكي يتغلب على اللحظة الحرجة كان على استعداد لان ينتهك حرمة كل عقيدة تقريباً من عقائد القتال التي تعلمها في كلية الأركان في «فورت ليفنورث» وان يقوم بالارتجال من يوم إلى يوم وأن يزيد من استطاعة الطرق المتوافرة وان يستغل المبادرة الفردية والتوق للهجوم اللذين كان يتمتع بهما ضباطه وجنوده. وكانت له كل المبررات لأنْ يبدأ الهجوم على الفور ففي ذلك اليوم بالذات كان «فون رند سترت»، وقد توقف «سيب ديتريخ» في الشمال عند «ماليدي» قد وجه جهده الرئيسي إلى جيش البانزر الخامس بقيادة «فون مانتوفل» الذي كان يكتسح أمامه حينذاك ما بقي من الدفاعات الأمريكية الموجودة في «سان ـ فيت» و«باستونيو».

إن تحويل الجيش الثالث من رأس الجسر الذي أقامه على «التسار» إلى «الآردن» أمر يمكن مقارنته بأية مناورة مشابهة قام بها «رومل» في شمالي أفريقيا و«رندستدت» في فرنسا عام ١٩٤٠، إنما في ظروف أسهل بكثير تجعل التفوق لصالح العملية الأخيرة. فبعد أن تلقى «باتون» أوامر «آيزنهاور» في «فردان» بالتحرك في اتجاه «باستونيو»، كان عليه خلال أسبوع أن يقوم بتحريك القسم الأكبر من جيشه، أي حوالى ربع مليون جندي و١٣٣,٠٠٠ دبابة وشاحنة مسافة ٥٠ ـ ٧٠ ميلاً إلى الشمال في طقس سيىء للغاية وعلى طريق مغطاة بالجليد. كان «برادلي» يراقب من نافذة مكتبه في «اللكسمبورغ» أرتال الجيش الثالث المصطفة كتفاً لكتف وهي متحركة دون هوادة نحو الشمال وطوال أربع وعشرين ساعة يومياً، كان الجنود يحتشد بعضهم مع بعض بينما كانت الرياح الشرقية تعول داخل شاحناتهم المغطاة بالأغطية القماشية، أمّا قادة الدبابات فقد كانوا في أبراج «الشرمان» يلتفون حتى عيونهم بأوشحة صوفية وهم يوجهون مركباتهم الثقيلة الحركة على الحصى. طوال النهار والليل وتحت الأضواء الساطعة كان ذلك الحشد من الجنود يندفع

دون هوادة وفي ٢١ كانون الأول بدأ سقوط الثلج الكثيف يطغى على ضجيج الشاحنات، وبدأت الدبابات ـ تتزحلق على الجليد وكان وجه السماء ما يزال ملبداً بالغيوم: أي لا أمل بأي دعم جوي. كان التوتر في مجموعة الجيوش الثانية عشرة كلها قد بلغ ذروته.

بيد أن قلق «باتون» الرئيسي في تلك اللحظة، رغم انه لم يكشف عنه أبداً، كان ذا علاقة بالفرقة الرابعة في «اخترناخ»، فبعد معركة مستمرة مدة خمسة أيام قاتلت فيها قتالاً تراجعياً مريراً انسحبت خلاله مسافة أربعة أميال من نهر «سور» أصبح من المعتقد أنها وصلت إلى آخر رمق لها. ومع ان «تدي» نفسه وصل إلى «اللكسمبورغ» وتولى المسؤولية فان أبكر تاريخ استطاع ان يشن الهجوم المضاد فيه بفرقة المشاة الخامسة والفرقة المدرعة الرابعة هو ٢٤ كانون الأول. ولحسن الحظ، كانت فرقة المشاة العاشرة ستصل في الحال وتشن هجوماً من الحركة بعد أن قطعت ٧٥ ميلاً من «سورلوترن» مما سيجعل الجبهة متوازنة مستقرة. في تلك الأثناء لم يكن أحد يدرك، كما أدرك «باتون»، انه اذا قام العدو بهجوم قوي واسع النطاق على هذا الجانب من جبهته فان هجوم فيلقه الثالث سيتعطل تماماً. فهذا ما كان سيفعله شخصياً لو كان في موقف عدوه، من هنا يمكننا فهم نصائحه المستمرة بأن يتم «الانطلاق بسرعة البرق الخاطف»، لكن لحسن الحظ لم يكن لدى العدو أية فكرة عن تحرك الجيش الثالث.

في الاجتماع النهائي الذي عقد في ٢١ كانون الأول في «اللكسمبورغ» لوضع اللمسات الأخيرة للهجوم الذي كان سيبدأ في الصباح، وبعد أن تعرفت هيئات أركان الفيالق، الثالث والسابع والعاشر، على شدة الضغط الذي كان الجميع يعملون تحت وطأته وبعد أن أعطيت التعليمات، وقف «باتون» محدّقاً إلى الوجوه القلقة المتطلعة به ثم زمجر صائحاً: «بهذا الهجوم يخرج أولاد الزنى من مخابئهم وبذلك يمكننا القضاء عليهم قضاءً مبرماً. . والآن إلى العمل». لحسن الحظ، كانت بطاقات الميلاد التي أعدت للتوزيع قبل الهجوم على الجدار الغربي والتي كتبت في ١١ كانون الأول، تتضمن دعوات وابتهالات إلى العلي القدير بأن يجعل الطقس جميلاً أثناء المعركة، كما كانت تتضمن البركة من قائد الجيش. خلال الليل طلب «فيلبيكين» قائد الفيلق الثالث تأجيل ساعة الصفر من الساعة ١٤,٠٠ إلى الساعة ١٦,٠٠ وقد استجيب طلبه. كانت الأرض على جانبي الطريق «آرلون ـ باستونيو» وعرة ككل أراضي «الآردن» تقطعها في عدة أنحاء مجار صغيرة وأنهار ذات أودية عميقة أحياناً، كما تتكاثر فيها الغابات والحقول المتنوعة السطوح والأماكن التي قطعت أشجارها لاستغلالها. وكانت هناك أراض ودروب من

أنواع لا يمكن الاعتماد عليها كلياً تصل بين المزارع المنعزلة، أما الطرق الأساسية من «آرلون» إلى الجبهة الشمالية الغربية ومن «نيوفشاتو» إلى الجهة الشمالية الشرقية، فانها كانت توفر بعض فرص وإمكانيات المناورة، ولم يكن هناك إلا طريق جانبية واحدة ـ الطريق الأساسية من «آرلون» إلى «نيوفشاتو». اندفع الفيلق الثالث من خط الانطلاق هذا في تمام الساعة ١٦,٠٠ من صباح ٢٢ كانون الأول دون أي تأخير رغم الحرارة الهائلة التي بدأ الزحف بها. كان لدى «فيليبيكين»، ومقره في «آرلون»، الفرقة «٨٠» إلى اليمين والفرقة «٢٦» في الوسط والفرقة المدرعة الرابعة، فرقة «باتون» المفضلة والتي كان قائدها رئيس أركانه المرحوم «غافي»، إلى اليسار و«باستونيو» في منطقتها. ورغم ان عتادها كان قد تحطم بعد قتال مرير لمدة خمسة أشهر فانه كان يتوقع الكثير منها، ولن يخيب أمله. أما وضع العدو في الجبهة المواجهة مباشرة فقد كان غامضاً للغاية. كل ما كانوا يعرفونه هو ان المدافعين في «باستونيو» قد اضطروا للتراجع إلا أنهم كانوا ما يزالون متماسكين. وفي ذلك اليوم بالذات تلقى «لوتويتز»، الذي كان يقود عملية الحصار، الرد الشهير الذي وجهه «ماك أوليف». فقد جابه الفيلق الثالث المندفع شمالاً مقاومة عنيفة، إضافة إلى المتاعب التي نشأت عن فجوات الطرق المحفّرة والجسور المدمرة، وخلال ساعات النهار القصير تمكن الفيلق من قطع ٧ أميال، أي أقل مما كان يأمل قائده، لكنه مع ذلك كان إنجازاً باهراً وقد سارع «آيزنهاور» و«برادلي» لتأكيد ذلك.

في الصباح التالي وبعد إنتظار طويل، انقشعت الغيوم مما أتاح المجال لقوات الحلفاء الجوية أن تشترك في المعارك وان تعيد تموين «باستونيو». فقد راحت قاذفات القنابل تجول في طول الجبهة وعرضها محدثة اضطراباً وفوضى لا نظير لها خلف صفوف العدو. لكن بدا ذلك اليوم مثبطاً لعزائم الفيلق «٣» فقد وجد الفيلق أمامه فرقة المظليين الخامسة، وهي فرقة عنيدة جديرة بحمل سلاحها، رجالها قساة القلوب ـ يعتبرون الموت رياضة وتسلية. وكان على الفيلق الثالث ان يخرجهم بالقوة من كل غابة وقرية. كان قتالاً شرساً بين المشاة ولم يكن قد أحرز شيء يستحق الذكر عندما انتهت ساعات النهار القصير، لكن في الرابع والعشرين من كانون الأول ارتد المظليون وشنوا هجوماً مضاداً تمكنوا من إعادة الوحدة القتالية «ب» التابعة للفرقة المدرعة الرابعة عدة أميال إلى الوراء. لام «باتون» نفسه لبطء تقدم جنوده في ذلك اليوم، فأصرّ على ان يستمر الهجوم ليلاً نهاراً ودون توقف، مسجلاً للمستقبل ملاحظة مفادها ان مثل هذا القتال المتواصل يمكن ان يدوم ليلتين متعاقبتين لكن بعد ذلك يسقط حتى أقوى وأصلب الرجال من شدة الارهاق. ومرتين عزم على الاعتذار من «آيزنهاور» لبطء تقدمه إنما لم يكن هنالك داع

لذلك، فلو كان هناك قيادة أقل عزماً ومن «ميليكين»، و«إدي» و«غافي» لكان من المحتمل ألا يحصل أي تقدم علي الاطلاق فالأرض محدودة مغلقة والطقس رديء للغاية. والعدو بمنتهى الشراسة والبسالة.

في هذا الوقت شرع الفيلق «١٢» في الجهة اليمنى من جنوبي «السور» بهجومه على كتف النتوء اليمنى وفي أرض لا تقل وعورة عن جبهة الفيلق الثالث. هنا بلغ قصف المدفعية من الجانبين ذروته، إذ كان «باتون» في ذلك الوقت قد أعد مدفعيته المساندة التي بلغ تعدادها «٨٨» كتيبة فيها /١,٠٥٦/ مدفعاً من عيار ١٠٥مم فصاعداً وذلك علاوة على مدفعية الفرق.

داخل «باستونيو»، كان محيط الدفاع قد تقلص إلى ١٦ ميلاً. وفي يوم عيد الميلاد شن العدو هجومه الأكبر ضد الحامية الباسلة التي صدته إلى الوراء المرة تلو المرة، أما في الجناح الشرقي فقد تمكن الفيلق «١٢» من القيام بعملية اختراق ناجحة، أجبر العدو فيها على التراجع إلى «السور»، بينما كان ذلك اليوم في جبهة الفيلق الثالث مثبطاً للعزائم أيضاً فقد كان «فيليكين» يواجه مأزقاً واضحاً، لذلك عقد العزم على محاولة الالتفاف حول الجناح الغربي في الصباح، أي باتجاه طريق «نيوفشاتو» ـ «باستونيو»، وفي وقت مبكر من بعد الظهر طلب «غافي» قائد الفرقة المدرعة الرابعة السماح له بأن يقوم بمغامرة كبيرة مستخدماً الوحـدة القتالية كي يشق طريقه إلى «باستونيو»، فأجيب طلبه أخيراً. في الساعة ١٨,٤٥، وبعد قتال شديد حول طرف قرية «اسنوا»، استطاعت هذه الوحدة تحقيق الاتصال مع الفرقة المجوقلة «١٠١» وبذلك فتحت ممراً عرضه ٣٠٠ ياردة، وفي تلك الليلة قامت سرية دبابات خفيفة من كتيبة الدبابات ٣٧ ـ ترافقها ٤٠ شاحنة من المؤن و٧٠ سيارة اسعاف بالدخول إلى «باستونيو».

أدرك كل من الجانبين ان يوم ٢٦ كانون الأول هو يوم الحسم، وأنه نقطة التحول في معركة «الآردن». وليس هنالك من حاجة للاختلاف حول هذا الرأي بعد ٢٥ سنة. ففرق البانزر بقيادة «مانتوفل» كانت قد وصلت، بعد أن مرت بـ «باستونيو» إلى «سيلز» على بعد خمسة أميال من «الموز» عند «ديناند»، لكن في يوم عيد الميلاد قام فيلق «كولينز» السابع ومعه اللواء المدرع البريطاني «٢٦» الذي يعمل تحت قيادته أيضاً بتسديد ضربة قوية إلى الألمان فاضطروا لترك القرية، وبما أن السماء غدت صافية فقد سيطر سلاح جو الحلفاء على الأجواء سيطرة كاملة بحيث استطاع منذ «٢٦» ـ كانون الأول فصاعداً أن يمنع جميع فرق البانزر من الحركة في النهار. في تلك اللحظة وبعد تأخر طويل، أعطى

«هتلر» الأذن بتقديم كل احتياطي التموينات والذهيرة لدبابات «فون مانتوفل» إنما لم يكن بالأمكان تحريك هذا الاحتياطي نتيجة الافتقار للبترول وهكذا استطاع الفيلق السابع المنتشر على «السور» ان يقضي قضاءً تاماً في جبهة الجيش الثالث على الكتف التي كان الجيش السابع الألماني قد تلقى الأوامر بإنشائها. غير أنه لا يمكن الانكار بأن «باستونيو» لم تكن في ذلك الحين متصلة بالجيش الثالث إلا عبر ممر ضيق معرض للخطر دوماً، لكنها كانت قد أنجدت رغم كل شيء، الأمر الذي انعش قلوب الحلفاء جميعاً بيد ان قتالاً شديداً كان سيقع أيضاً فيما بعد في ذلك المكان، وقبل انتهائه ستكون دوامته الهائلة قد امتصت ما لا يقل عن تسع فرق المانية وقيادتي فيلقين بعد ان تقطعت إرباً إرباً، وكل ذلك استجابة لأوامر «هتلر» الجنونية وتطفله. لقد كانت معركة جنود حقيقيين دارت في برد قارس ورياح قاسية، وقد خاضتها الفرقة المجوقلة «١٠١» والجيش الثالث بكل تصميم وبسالة وبعنف لم يسبق له مثيل، ولم يأت كانون الثاني حتى كانا قد دفعا الألمان ما بين ٤ و٦ أميال بعيداً عن مركز إنقاض البلدة الصغيرة. في اليوم التالي، انما بعد فوات الأوان كما قال «مانتوفل»، أوقف الألمان هجومهم وذلك لافتقارهم للرجال والأسلحة والنفظ والذخيرة.

في ٢٧ كانون الأول، وضع «باتون» خطة واضحة لبتر النتوء الضخم الذي كان عرضه في ذلك الحين يبلغ الأربعين ميلاً وذلك باستخدام قوات مدرعة هائلة بحيث يندفع جيشه مباشرة نحو «بيتبرغ» و«بروم» سالكاً الطريق الذي أطلق عليه ضباط أركانه اسم «طريق شهر العسل». وقد اعتقد «بدل سميث» رئيس أركان «آيزنهاور» ان هناك كثيراً من الأشياء لصالح الفكرة رغم وعورة الأرض في الشمال. بيد أن السماح لجيش «باتون» بالانطلاق بكل حرية على هذا الشكل لا بد ان يشوه خطط «آيزنهاور» في ما يتعلق بالجبهة العريضة. كان «باتون» في ذلك الوقت يحث «برادلي» على استرجاع السيطرة على الجبهة كلها أي وضعها في أيد أمريكية، ولذلك فقد عمل «برادلي» جهده، بعد زيارة لـ «منتغومري» في عيد الميلاد تهدف لزيادة سرعة الهجوم المضاد في الشمال، على اقناع «آيزنهاور» بأن يعيد له الجيشين الأول والتاسع، لكن «برادلي» فشل في مسعاه. مع ذلك فان «مونتغومري»، وبشكل يخلو من اللباقة اختار تلك اللحظة بالذات كي يجدد اقتراحه بأن يكون هناك قائد مستقل للقوات البرية. كظم «آيزنهاور» غيظه، الذي كان له ما يبرره، وأوضح بشكل لا يحتمل الجدل أن الترتيبات الراهنة فيما يتعلق بالقيادة ستبقى كما هي ثم أضاف بأن على الجيشين الأول والثالث أن يقوما بتقليص النتوء بالهجوم على نحو متتال، من الشمال والجنوب على وسط النتوء باتجاه «هوفاليز» كما

أوضح بشكل حاسم ونهائي انه في غضون ذلك لن يقبل أي جدل آخر مع «برادلي» أو «مونتغومري» أو «باتون». اذن يمكن للمعجبين بـ «آيزنهاور» ان يطمئنوا أنه خلال تلك الأزمة العارمة، ودون ان تزعزعه اقتراحات الآخرين، كان يتابع بكل هدوء وصفاء ذهن الطريق الذي اختاره شأنه شأن «فون مولتكي» العظيم. لكن مما لا شك فيه ان هناك آخرين سيأسفون لأن فرصة كبيرة قد ضاعت مرة ثانية، من أيدي الحلفاء ألا وهي فرصة استغلال مواهب «باتون» والجيش الثالث استغلالاً كاملاً.

لم يول الجيش الثالث وقائده المضطرم حماساً، أي اهتمام - لمثبطات العزائم التي كانت تأتيه من القيادة العليا بل أمر القائد جيشه بالاندفاع قدماً نحو «هوفاليز»، فوصلها قبل «مونتغومري» بأربعة أيام - أي قبل الفيلق البريطاني السابع والفيلق الثلاثين الموجودين في الشمال. وان أمره اليومي الصادر في الأول من شهر كانون الثاني ليحمل رنة نابليونية واضحة، فلنقرأ ما يقول فيه: «إلى ضباط وجنود الجيش الثالث - وإلى رفاقنا في السلاح الجوي التكتيكي التاسع عشر:

بدءاً من الممر الدموي الذي اجتزناه إلى «افرانش» ثم «برست» فعبور شمالي فرنسا إلى «التسار» ثم عبور نهر «التسار» إلى داخل المانيا فزحفكم الآن إلى «باستونيو»، كان سجلكم سجل انتصارات مستمرة. فأنتم لم تهزموا عدواً ماكراً لا يُرحم وحسب بل تغلبتم أيضاً، بصبركم الذي لا ينفد وصمودكم الذي لا يقهر على جميع الصعوبات سواء ما كان منها بسبب الأرض أو الطقس. وهنا لا بد ان أؤكد لكم ان السرعة والبراعة اللتين تميزت بهما انجازاتكم ليس لهما نظير في التاريخ العسكري. لقد تلقيت مؤخراً من قائد مجموعة الجيوش الثانية عشرة «الفريق عمرن. برادلي» وسام الخدمة الممتاز الذي لم أحصل عليه بسبب انجازاتي الشخصية بل نتيجة إنجازاتكم أنتم. لذلك أشكركم من صميم قلبي.

وكل ما أتمناه لكم في مستهل هذه السنة الجديدة ان تتابعوا، برعاية الله العلي القدير والقيادة الملهمة لرئيس جمهوريتنا وقيادة جيوشنا العليا، مسيرتكم الظافرة حتى النهاية وبذلك يمحى عن وجه الأرض كل طغيان واستبداد وننتقم لرفاقنا الذين سقطوا في ساحة الشرف ويعود السلام إلى هذا العالم الذي أنهكت قواه الحروب.

ختاماً لا أجد في ذهني ما يعبّر عن شعوري أفضل من ان أعيد عليكم الكلمات التي قالها الجنرال «سكوت» في «شابلتبك» عندما قال! «يا حملة البنادق الشجعان، أيها

الأبطال المتمرسون لقد تعمدتم بالنار والدم وأصبحتم فولاذاً».

جـ. س ـ باتون
الفريق في جيش الولايات المتحدة،
القائد.

من العسير ان نجد دليلاً على معنوياته الشخصية في ذلك الحين أفضل مما نجد هنا. وسواء كان من وحي جهوده الأدبية أم لا، فمما لا شك فيه انه أثر على أفراد جيشه جميعاً بعزيمته التي لا تقهر حتى انهم أصبحوا مستعدين لأن يقاتلوا في النار والجليد والثلوج وان يضحوا بالنفس والنفيس في سبيل إحراز النصر النهائي. فهنا لم تكن تجد ذلك الاستراتيجي بارد الدم، البعيد عن خطوط القتال الذي يسوق رجاله نحو الموت. بل في صميم فؤاده كان يشعر بأنه واحد منهم! يشاركهم في عواطفهم ويحس بآلامهم إحساساً يمتلك كل ذرة من كيانه. ذات مرة، كتب أثناء انطلاقه في السيارة إلى مقر قيادة الفيلق الثالث، ما يلي:

«مررت بآخر وحدة قتالية من الفرقة «٩٠» الزاحفة قدماً نحو المعركة. كان أولئك الرجال قد قضوا في الشاحنات ساعات طويلة ودرجة الحرارة تحت الصفر وكانوا في أقسى حالات البرد. وعلى طرف الطريق المقابل كان صف لا نهائي من سيارات الاسعاف التي تنقل الرجال الجرحى. مع ذلك، عندما رآني جنود الفرقة «٩٠» انتصبوا وهتفوا. إنها لأعظم حادثة مؤثرة في حياتي كلها». لكن معرفة ما تنقله سيارات الاسعاف جعل تلك الحادثة أكثر إثارة لمشاعر الحزن والألم.

بالواقع كان عبء القيادة في ساحة الحرب ثقيلاً ومريراً، لأن النجاح لا يشترى إلّا بأرواح الرفاق.

هناك أيضاً إشارة تدل على إدراك «باتون» لقسوة وفظاعة الحروب وذلك في القصيدة الهزلية الساخرة التي تتكلم عن الموت والدمار والتي كتبها عندما التقى جيشه مع الجيش الأول عند هوفاليز في ١٦ كانون الثاني:

«يا بلدة «هوفاليز» الصغيرة، كم ساكنة هادئة نراك، فوق شوارعك المنحدرة المدمرة تمر الطائرات، مع ذلك لا يسطع في شوارعك الملعونة أي نور، فمخاوف وآمال السنين، كلها غدت أمس طعاماً للجحيم».

تابع الجيش الأول زحفه فاحتل «سان ـ فيت» في ٢٣ كانون الثاني وبعد ثلاثة أيام وصل الجيش الثالث إلى نهر «أور» في الجنوب، وبذلك انتهت معركة «الآردن».

كانت معركة «النتوء» عرضة لنقد شديد المرارة، مثلما كانت معركة «واترلو» و«غتيزبرغ» و«العلمين» ونتيجة لهذه المعركة ذاع صيت ثلاثة فقط إذ انتشر عن جدارة صيت «آيزنهاور» والقوات الجوية والجندي الامريكي. لكن العدالة تصر على إضافة اسم «باتون» إلى المجموعة، ففي الأيام الشديدة التوتر التي سبقت عيد الميلاد يجدر بنا أن نذكر أن معرفة الناس بأن قائداً ذائع الصيت هو الذي تحمل مسؤولية الهجوم المضاد قد عززت مواقف الكثيرين في أماكن أبعد كثيراً من حامية «باستونيو» الباسلة، ربما كان من باريس بل وحتى واشنطن. وفي الثناء البسيط الذي كتبه «آيزنهاور» عن «باتون» في كتابه «حرب صليبية في أوروبا» بسبب الدور الذي لعبه في هذه المعركة، تشعر بأن هناك أثراً من تنازل وتعطف يأتي بشكل سيىء من شخص لم يكن رغم ما تحلى به من المواهب والفضائل، جندياً مقاتلاً. فهناك حقيقة أكيدة في إدعاء قائد الجيش الثالث بأنه في انتشاره السريع كسرعة البرق نحو الشمال كي ينجد «باستونيو» في اللحظة الحرجة، اندفع أبعد وأسرع واشتبك مع فرق أكثر، وفي وقت أقل مما استطاع ان ينجزه أي جيش آخر في تاريخ الولايات المتحدة، لقد كانت هذه المعركة هي المعركة الأشد دموية في تاريخ الجيش الثالث من حيث الضحايا التي قدمها، إنما كانت ضحايا العدو أكثر بكثير، لكن قبل كل شيء استجاب الرجال بصورة مدهشة لقيادته، لذا كان بوسعه أن يكتب بكل عزة واقتناع بعد انتهاءِ المعركة مباشرة: «ما من بلد يستطيع الوقوف أمام جيش كهذا».

الفصل السادس عشر
الانتصار غربي الراين

«في سرعة الحركة تكمن قوتنا»
شعار الخيالة

قلائل هم الذين يخالفون تعليق«تشستر ويلموت» بعد الحرب مباشرة وهو ان «آيزنهاور» على الرغم من اعتراضات الانكليزوانتقادات «برادلي» و«باتون» أصبح يمسك زمام القيادة بقبضة من حديد. كان ما يزال لدى الألمان ٨٥ فرقة غربي «الراين». وطبقاً لأسلوبه في الماضي لم يكن «هتلر» يسمح أبداً بأي انسحاب لهذه الفرق. إذن فقد قرر «آيزنهاور» ان يدمرها حيث هي وبهذه العملية يصبح على ضفاف «الراين»، وهكذا، أي بعد ان يسيطر على هذا الحاجز الدفاعي، يستطيع ان يقطع على العدو أي هجوم مضاد قد يحاول شنه،بالاضافة إلى ذلك يمكنه بالسيطرة على النهر على طول الجبهة ان يختار النقاط المناسبة للعبور كي يطور هجومه ويدعم جهده الرئيسي ضد «الروهر» خاصة وقد بدا له ان الزحف عن طريق فرانكفورت و«كاسل» أفضل بكثير من ان يجري عبر الأرض الوعرة ما بين «كولون» و«بون».

وهي حقيقة بديهية يفهمها كل عامل الماني يبحر على ظهر قارب صعداً مع «الراين» ومتجهاً إلى «كوبلنز» و«فينز». طبقاً لذلك، أمر «آيزنهاور» كخطوة أولى مجموعة جيوش «مونتغومري» الحادية والعشرين مع جيش الولايات المتحدة التاسع بالاستيلاء على الضفة الغربية من النهر من «نيجمغن» حتى «دسلدورف» بهجومين يتلاقيان في النهاية. الأول يقوم به الجيش الكندي الأول من «الريخسوولد» (واسمه المحقق) والثاني من نهر

«الرور» يقوم به الجيش التاسع (واسمه غرناد). في هذه المرحلة على الجيش الأول ان يحتل سدود «الرور» وفي نفس الوقت يحمي الجناح الجنوبي للجيش التاسع. عندما يصل الجيش التاسع إلى «الراين» يبدأ الجيش الأول بالاندفاع نحو «كولون» وبعد احتلال المدينة يزحف جنوباً ويقطع خطوط العدو غربي النهر.

في غضون ذلك، حكم على «باتون» والجيش الثالث بدور كله سكون وعدم تحرك وذلك بحجة ان دفق التعزيزات لا يمكن ان يدعم هجوماً تقوم به في نفس الوقت كافة الجيوش معاً: التاسع والأول والثالث. ومن البديهي ان هذا الإجراء لا يتناسب أبداً مع ميول «باتون» خاصة وانه لم يقم مؤخراً إلا بسلسلة من الهجمات الثانوية التي أطلق عليها تأدباً اسم هجمات سبر الغور، وقد تألم كثيراً لارجاعه إلى المقاعد الخلفية عندما علم بالخطة الجديدة في مقر قيادة الجيش الأول في «سبا» في اليوم الثاني من شباط.

كان الافتراض بأن سياسة الحلفاء التي ترتكز عليها أوامر «آيزنهاور» ما تزال قائمة على توجيهه الصادر في اليوم الأول من شهر كانون الثاني والذي نص بصورة محددة على أنه بعد الوصول إلى «الراين» توجه الجهود الرئيسية إلى شمالي «الروهر».

ولسوف يبقى البريطانيون واقعين تحت وهم هذا التوجيه مدة شهرين آخرين لكن الحقيقة هي ان الاستعدادات التموينية الهائلة اللازمة لمجموعة جيوش «مونتغومري» كي تنقلها ليس عبر «الراين» وحسب بل قدماً حتى برلين، كانت قد وصلت مرحلة تخطيطية متقدمة، أما ما شعر به في ذلك الوقت «برادلي» و«باتون» من المرارة فلم يستطع «مونتغومري» ان يدركه كما لم يدركه الآخرون. فمن ناحية حب الوطن وحده، بدا لـ «باتون» و«برادلي» انه قد انكر عليهما متعة المشاركة بالظفر النهائي الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى وبذلك يحرم الوطن من هذا الفخر.

في ذلك الوقت كانت المساهمة الامريكية في قضية الحلفاء من الرجال والمال والمواد تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف المساهمة البريطانية، ومنذ تشرين الأول كان الجنود الامريكان قد تحملوا نسبة أعلى من الضحايا والاصابات.

إذن، فليس من العدل ان يتمتع «مونتغومري» وحده، وبالدرجة الأولى، بأكاليل الغار والظفر مع العلم انه كان مؤخراً، وأثناء معركة «الآردن» قد أثار المشاعر الامريكية ببيان خشن الكلمات وفي وقت غير مناسب، أدلى به إلى الصحافة. وبوصفهما جنديين محترفين فقد كان من الطبيعي ان يشعرا بالسخط لحرمانهما مما بدا لهما أنه نصيبهما العادل، من المدح والثناء والفخر أو كانا من أدنى مراتب البشر، وإذا كانت الفكرة القائلة بأن

الهدف النهائي للحلفاء يجب ان يكون تحقيق الغاية السياسية الأكثر قبولاً لدى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وأوروبا الغربية قد دخلت رؤوسهم في يوم من الأيام، فأمر أكثر من مشكوك فيه، نظراً لما ساهموا به من ترسيخ عقيدة في رؤوس جيلهم من الجنود النظاميين وهي ان مهمتهم تدمير القوات الرئيسية للعدو. وحالما يتم تدمير «هتلر» وأعوانه تسقط جميع الأهداف الأخرى بين أيديهم كما تسقط ثمار الخوخ الناضجة عن الشجرة. أي يترك البقية للسياسيين. وانطلاقاً من الأسس الطوبوغرافية الصرفة فقد كانت حجتهم أقوى. ذلك ان سهول شمالي المانيا لم تكن أرضاً مثالية لزحف الدبابات كما كان يزعم «مونتغومري» بل كان هناك الكثير مما يقال لصالح التطويق المزدوج الذي يمكن القيام به عن طريق فرانكفورت ومن ثم الاندفاع إلى «كاسل» إضافة إلى ما يمكن ان يقال أيضاً من حجج لصالح استمرار عملية الضغط في الوسط والجنوب بغية منع انسحاب القوات الألمانية نحو الشمال.

غير ان اعتراضات «باتون» فيما يعلق بالدور السلبي، نسبياً، المسند له، كانت تقوم بصورة رئيسية على حجج أكثر براعة ودهاءً. والواقع انه لم يظهر قائد أمريكي تمكن من تفهم العنصر الانساني فيما يتعلق بالحرب أكثر منه: ولم يدرك أحد بعمق أكثر منه أبداً ان الروح المعنوية لا يمكن ان تبقى ثابتة.

كان يدرك من خبرته خلال حربين متتاليتين ان الجنود الذين هم على تماس بالعدو ينبغي عدم إبقائهم في حالة سكون، فإذا سمح لهم بهذا وبأن يعيشوا حياة روتينية لا يقاتلون بها العدو فانهم سيطيلون التفكير بشكل يضعف معنوياتهم. ذلك انه ليس هناك إلا العمل والعمليات الهجومية يمكنها ان تحرر الجندي من تفكيره وترفع من معنوياته. هذه الفكرة مع فكرة السرعة يمكن ان توصلنا إلى صميم الفكرة التي كان يحملها «باتون» فيما يتعلق بخوض المعارك وبما ان جيشه كان مكلفاً بسبر غور دفاعات «سيغفريد» فلم يكن ينوي ان ينصاع حرفياً لأوامر «شاف» المكتوبة التي اسندت له مهمة دفاعية بحتة. ولحسن الحظ كان «برادلي» يتفهم تماماً آراء «باتون» وكان على يقين تام من انه عاجز عن التوقف دون حراك. وهكذا بعد ان حصل على موافقة ضمنية من «آيزنهاور» سمح لـ «باتون» بأن يشن هجوماً على جبهته في منطقة «الايفل» بدعوى ان الهجوم مخصص لمنع العدو من سحب جنود يستخدمهم في الشمال ضد «مونتغومري». خلال العملية كان عليه ان، «يخترق دفاعات سيغفريد» إلى الشمال من «الموزل» ثم يزحف بهدوء نحو «كيل» وهو مجرى جبلي مواز لحدود اللكسمبورغ ويقع خلف الحدود الألمانية بمسافة ١٢

ميلاً، وكان عليه ان يسيطر هناك على رأس جسر كي يستخدمه، في وقت لاحق أثناء الزحف النهائي على «الراين». وقد وصف هذه العملية بأنها دفاع عدواني وذلك للرد على أية اعتراضات قد يثيرها «مونتغومري» إذا بلغته أخبارها، ولعل هناك قليلاً من المناسبات في الحملة تمثل أكثر مما تمثل هذه المناسبة اطلاق آيزنهاور لعنان قادته الاميريكيين اضافة إلى محافظته على المظاهر المتعلقة بتضامن الحلفاء رغم الاستفزازات التي كان قد أثارها «مونتغومري» من عهد حديث اضافة إلى التناقص الواضح في الأهمية البريطانية مع اقتراب الحرب من نهايتها. ولعل مقابلة «باتون» لـ «آيزنهاور» في ٥ شباط تلقي ضوءاً رائعاً على علاقتهما في ذلك الوقت. لقد استدعي «باتون» إلى «باستونيو» فوصل إليها وأخشى ما يخشاه ان يتعرض هجومه للالغاء وهو ما يزال كالبرعم لكنه تنفس الصعداء حين عرف ان الاجتماع كان ذا صفة روتينية يتضمن أخذ صور للصحافة وهو عمل طالما أعجب به «باتون». ومع ان هذا اللقاء كان الأول منذ ١٩ كانون الأول، وفي أجواء تختلف تمام الاختلاف عن اجتماع «فردان» فإن «آيزنهاور» لم يذكر في كلمته أي شيء عن نجدة الجيش الثالث لـ «باستونيو».

مساء ٧ شباط بدأ «مونتغومري» هجومه في شمالي منطقة «نيجمغن» مسدداً ضربته بواسطة الجيش الكندي الأول وقد كان ٧٥٪ منه متمركزاً في المملكة المتحدة. استولى الجيش الأول في الوقت المحدد على سدود «الرور»، عندئذ فتح الألمان المحابس الرئيسية للماء فغمروا المنطقة بأكملها وهكذا منعوا الجيش التاسع من القيام بدوره في حركة الكماشة حتى ٢٣ شباط وهو الوقت الذي انخفض فيه مستوى الماء. خلال هذين الاسبوعين واجه الجيش الكندي الأول في صراعه مع جيش المظليين الألماني الأول، وكانت معنوياته عالية جداً، كل ارتباك يتصف به هجوم يجري في طقس رطب على دفاعات ثابتة وخطوط مواصلات وراءه على عمق عدة أقدام تحت الماء، إلا أنه تمكن من التغلب عليها جميعاً. أما عملية «باتون» التي أطلق عليها اسم «الدفاع العدواني» فقد سارت في إطار يكاد يكون مشابهاً: وحول طرق منهارة، ومطر متواصل وفيضانات ودفاعات من الاسمنت المسلح بالاضافة إلى الألغام، كما انه اضطر لأن يرسل التموين إلى جنوده المتقدمين بواسطة الطائرات. كان التقدم صعباً للغاية وقد اتخذ شكل هجومين استطلاعيين الأول باتجاه «بروم» وهي عقدة مواصلات ونقطة رئيسية هامة والهجوم الثاني باتجاه «بيتبرغ» على بعد ٢٤ ميلاً إلى الجنوب وقد غطيت بشبكة من دفاعات «سيغفريد». هنا كان الجدار الغربي قد وصل إلى درجة عالية من التطور إذ كان يتألف من نطاق عرضه ما بين ميلين وثلاثة أميال من الدفاعات أي ملاجىء وحصون صغيرة من الاسمنت

المسلح ومرابض وخنادق مصحنة لإطلاق النار تحمـي ذلك كله غابات من الاسلاك الشائكة وحقول ألغام عميقة وحواجز من الاسمنت المسلح مضادة للدبابات. وكان بعض هذه المرافق من نوع دقيق للغاية: تشتمل على مراحيض وحمامات ماء بارد ومهاجع تحت الأرض بالاضافة إلى كل وسائل الراحة الممكنة بما في ذلك الكهرباء وشبكة هاتفية ضخمة.

كانت سماكة جدران بعض الملاجىء لا تقل عن عشر بوصات أي كان من المتعذر أن تخترقها القذائف الأمريكية عيار ٩٠مم. ومما زاد الطين بلة ان تناوب الجليد والذوبان قد حول الأرض المعترضة إلى مستنقعات من الوحل أما الأمطار الغزيرة فقد حولت المجاري إلى سيول هادرة لكن ما من شيء أعاق تقدم الجيش الثالث. فقبيل ٢٢ شباط كان هذا الجيش قد اخترق شبكة الدفاعات على جبهته كلها واستولى على «بروم» وأصبحت «بيتبرغ» على وشك السقوط.

في الجهة الجنوبية من «الموزل» تمكن الفيلق «٢٠» من إقامة رأس جسر صغير فوق السور إلى الجنوب من مصبه في «الموزل» قرب «ترير». كان «باتون» يحمل فكرة غير طيبة في ما يتعلق بالدفاعات الثابتة. وقد كتب ذات مرة: «يحسن بمحبي السلام ان يدرسوا خطي «سيغفريد» و«ماجينو» وعليهم ان يتذكروا ان تلك الدفاعات قد اقتحمت، وان طروادة سقطت كما ان أسوار «هديان» قهرت وسور الصين العظيم لم يكن مجدياً. . . في الحرب اعتبر الدفاع الوحيد المؤكد هو الهجوم والهجوم فقط كما ان فعالية الهجوم تعتمد كل الاعتماد على الروح القتالية لمن يقودون الهجوم».

عندما أصبح في منتصف عملياته هتف له «برادلي» يسأله: «متى يستطيع ان يقف مدافعاً»، فأجاب أنه أكبر قائد في جيوش الولايات المتحدة الموجودة في أوروبا سناً وخبرة قتالية وانه إذا توجب عليه ان يقف مدافعاً فانه سيطلب إعفاءه من منصبه، عندئذ أجابه «برادلي» بلباقة أنه مدين بالكثير لجنوده لذا لا يمكنه الاقدام على ذلك وعليه ان يبقى، ثم انتهى الحديث باقتراح تقدم به «برادلي» وهو ان يقوم أركانه بزيارة إلى الجبهة كي يطلعوا على الكيفية التي كان يعيش النصف الآخر بها. واستمر الجيش الثالث في «دفاعه العدواني».

قد يتوقع البعض بسبب الظروف الجـويـة السيئة ان نسبة المرضى بالمقارنة مع نسبة الاصابات في المعركة قد ارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً لكن الحقيقة غير ذلك. فقد كان «باتون» شخصاً يقضي معظم ساعات النهار متجولاً في جبهته وفي سيارته المكشوفة ولم

يصب بالرشح مطلقاً، أما وجهه الذي لفحته الشمس نوعاً ما فلم يسبب له أية متاعب، وقد سجل بكل اعتزاز ان مرافقيه في المقعد الخلفي عانوا أكثر منه. كان دائماً في كل مكان. إنما جدير بنا أن نذكر هنا ان الرواية التي تقول إنه عبر نهر «السور» سباحة وهو في حالة فيضان بمواجهة نيران كثيفة من العدو رواية فيها الكثير من المبالغة. فالحقيقة انه عبر النهر على جسر اقتحام مغمور جزئياً بالماء دون ان يكون للجسر حواجز جانبية وتحت غطاء من الدخان.

ولدى وصوله إلى الضفة البعيدة سجل في مفكرته: «لقد سر الرجال برؤيتي». إن معرفتهم بأنه يشهد الأخطار والمتاعب التي يتحملونها ويعرض نفسه لها وانه مستعد للثناء على أعمالهم الباهرة في استخدام السلاح ثناءً رائعاً لا يضاهيه إلا مقدرته الفريدة على التوبيخ الشديد حين يقضي الأمر، هذه المعرفة هي التي كانت تقف خلف الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها جيشه في تلك المرحلة من الحرب. لقد أصبح الارتباط بينه وبين جنوده وثيقاً للغاية.

فذات يوم من أوائل آذار لاحظ أثناء سقوط رذاذ ثلجي ان وجه سائقه، وقد كان غريباً عليه ويرتدي معطفاً من طراز «آيزنهاور» فوق كنزة صوف بنية اللون، قد غدا مزرقاً. فتقدم وربت على كتفه ثم قال: أيها العريف هل تشعر بالبرد؟ فأجابه نعم. عندئذ سأله ان كان لديه كنزة تدفئه فأجاب بالنفي. وفي الحال فك «باتون» سترته وخلع كنزته ثم أعطاها للرجل. لا شك ان الاتقياء يذكرون انه في مكان غير بعيد عن ذلك المكان وفي ظروف تشبه تلك الظروف أعطى القديس «مارتين» المبارك أحد المدافعين العسكريين عن الشعب نصف عباءته واحتفظ بنصفها الآخر لنفسه.

في أواخر شباط كان الفيلق الثامن والفيلق السابع قد بلغا «كيل». الأول إلى اليسار والثاني في الوسط.

وفي ٢ آذار احتل الفيلق العشرون «ترير» واستولى على جسر فوق «الموزل» و«هوسليم» لم يمس. وهكذا باتت الساحة جاهزة لبدء حملة الجيش الثالث على «ايفل». فعلى جناحه الشمالي كان الجيش الأول قد وصل نهر «ارفت» ونصب عليه الجسور في عدة أماكن، كما أصبح الراين ضمن مدى المدفعية الامريكية. في أراضي «الراين» (راينلاند) اتصل الجيش الكندي الأول والجيش التاسع عند «غلدرن» وكانا يقصفان ويمزقان إرباً إرباً ما تبقى من جيش المظليين الأول وهو يحاول الهرب عبر النهر عند «اكسانتن».

عند ذلك أصدر «برادلس» أوامره» بشأن الحملة القصيرة المخصصة للوصول إلى «الراين» شمالي «الموزل» وجدير بالذكر ان «برادلي» ظل دائماً يتذكر تلك الحملة بفخر كبير وهو على صواب في ذلك. باختصار، كان على الجيش الأول ان يحتل «كولون» ثم يتحرك جنوباً شرقاً لملاقاة اندفاع يقوم به الجيش الثالث عبر «الايفل» مستهدفاً «كوبلنز» وفي ٥ آذار اندفع الجيشان في وقت واحد.

اندفعت الفرقة المدرعة الرابعة، ورغم الأمطار والوحول استطاعت ان تتقدم ١٦ كيلومتراً قبل حلول الظلام كما تمكنت من أسر قائد الفيلق الألماني في جبهتها، وإلى يسارها زحفت الفرقة المدرعة إلى الأمام.

بعدئذ طارت الفرقة المدرعة الرابعة بسرعة البرق مندفعة نحو «كوبلنز» مخترقة غابات «ايفل». وخلال يومين أنشأت ممراً طوله ٣٥ ميلاً يخترق مركز العدو.

وفي ٧ آذار تلاقت أرتالها مع أرتال الفرقة المدرعة «١١» على مسافة بضعة أميال من «الراين»، وبهذا فصلت أعداداً كبيرة من الألمان الذين وجدوا أنفسهم دون اي مرشد أو قائد على مرتفعات «ايفل» الوعرة. وبذلك انهارت منطقة غربي «الراين» على جبهتي الجيشين الأول والثالث وخلت من كل مقاومة منظمة. وبينما كانت الدبابات الامريكية تخترق شوارع المدن المهجورة كنت تشاهد الشراشف البيضاء علامة الاستسلام، معلقة خارج كل بيت وعلى جميع النوافذ المحطمة. وكنت تشاهد شاحنات الجيش مبعثرة على الطرق بسبب الافتقار للبترول. ومن جهة «الراين» كنت تسمع الأصوات المنبعثة عن نسف الجسور. وفي نفس اللحظة التي التقت فيها الفرقتان المدرعتان الرابعة والحادية عشرة قرب «كوبلنز» انتقلت مجموعة قتالية من الفرقة المدرعة «٩» نحو جسر سكة الحديد الواقع على الراين عند «رماغن». وجدير بالذكر ان االاستيلاء على هذا الجسر في حالة سليمة قبل ان تستطيع مجموعات التدمير تنفيذ مهمتها يعتبر انجازاً من أروع الانجازات البطولية. إنما ذلك جزء من السجلات البطولية .لجيش «هودجز» وليس «باتون». كذلك يعتبر قرار «برادلي» الفوري وبموافقة «آيزنهاور» طبعاً أن يستغل هذا النصر بشكل حماسي قراراً موفقاً، إذ انه لم يقدم البديل في حالة انهيار حملة «مونتغومري» وراء النهر في الشمال وحسب، بل قدم أيضاً، وفي الحالات كلها، طريقاً تبشر بكل خير هي طريق «فرانكفورت» و«غيسن» و«كاسل» لاكمال التطويق المزدوج لـ «لروهر». بعد ذاك لن تبقى خطة الجبهة العريضة التي وضعت في تشرين الأول من السنة الماضية على ما هي عليه فتلك الخطة التي كانت تعتبر الكتاب المقدس لأركان الامداد والتموين،

أصبحت الآن قديمة أكل الدهر عليها وشرب. وخشية ان تؤخذ من مجموعة جيوشه بعض الفرق لضمها إلى «مونتغومري» فينخفض بذلك دورا «باتون» و«هودجز» إلى مرتبة ثانوية أثناء الزحف نحو النصر النهائي، قرر «برادلي» ان يجعلها «باتون» و«هودجز» يتورطان بالانطلاق في العمق بحيث لا يمكن الانسحاب. إلى الجنوب من «الموزل»، ومن «كوبلنز» حتى «ستراسبورغ»، كان البروز الألماني الضخم الذي تشكله منطقة بالاتينيت، يمتد على شكل مثلث ضلعه ٧٥ ميلاً وقاعدته على «الراين»، وكان قسم من هذا البروز خارج حدود مجموعة جيوشه، ولكنه قرر أن لا ضير في ذلك. لقد أصبح «باتون» مسيطراً على المناطق الواقعة شمالي «الموزل» جميعاً وأصبحت الامكانية متاحة لشق هجوم باتجاه جنوبي شرقي بحيث تهاجم مؤخرة دفاعات الجدار الغربي التي تقف في وجه الجيش السابع. لم يرق هذا المشروع لـ «برادلي» فحسب إنما لـ «آيزنهاور» أيضاً. وعلى ذلك امتطى «برادلي» طيارة وانطلق إلى مقر قيادة «باتون» في «اللكسمبورغ».

كان «باتون» يحلق شعره ضمن الإطار الغريب الذي يشكله مأوى عجزة فاستدعى حلاقاً آخر ليقوم بحلاقة شعر «برادلي». أثناء قص الشعر وضعا خطة أروع وأجرأ عملية في تلك الحرب. ورغم عدم تحمس «دفرز» قائد مجموعة الجيوش السادسةوعدم تحمس هيئة أركان «شاف» بدأت الاستعدادات على قدم وساق وبالسرعة التي اعتاد عليها الجيش الثالث. في ١٣ آذار أصبح لـ «باتون» خمس فرق على خط «الموزل» من «اللكسمبورغ» إلى «الراين» وأربع فرق أخرى من الفيلق «٢٠» في المثلث الكثير الروابي شمالي شرقي «ترير»، وبالرغم من السرعة التي شنت بها العمليات فإن هجومه هذه المرة والمشاة في طليعته بدأ في الوقت المحدد. في البداية، كان التقدم على جبهة «ترير» بطيئاً وتميز بأنه جذب احتياطي العدو الرئيسي، وهو فرقة جبلية جيدة. بعدئذ استطاع الفيلق «١٢» ان يقتحم «الموزل» بكل سهولة على جبهة فرقتين، وعند الظهر كان قد نصب على النهر أربعة جسور وعندما خيم الظلام أصبح هناك ١٤ فوجاً جنوبي النهر. خشي «برادلي» ان تشكل جبال «هنسبروك» المملوءة بالغابات عقبة كأداء أمام دبابات «باتون». هنا وللمرة الوحيدة لم يقدر «برادلي» قوة هذه الدبابات وقدرة اندفاعها حق قدرها. وفي هذه المرة أيضاً قادت الزحف الفرقة المدرعة الرابعة واكتسحت كل ما كان أمامها. وخلال يومين وصلت إلى نهر «ناه» الذي يشطر «البلاتينيت» قرب «بادكروزناخ». هنا تريث «باتون» لبعض الوقت بانتظار وصول القوات الأخرى لتعزيز مركزه كي يتمكن من مواجهة هجوم مضاد عرف بحسه الفطري انه وشيك الحدوث. وعندما حدث ذلك الهجوم بالفعل انحسر متقهقراً أمام نيران الفيلق ١٢ المركزة الهائلة.

إلى اليمين كان زخف الفيلق ٢٠ من «ترير» مستمراً وخلال ستة أيام اتصلت مدرعات الفيلقين جنوبي نهر «ناه» وقد تركا المشاة لتطهير الأرض من الوحدات الألمانية التي كانا قد مرا بها. بعدئذ وجه «باتون» الفيلقين نحو سهول «هس» الواقعة ما بين «فينز» و«مانهايم» حيث ينساب «الراين» بين ضفتين عريضتين منبسطتين وعند طرفه البعيد يوفر مساراً جيداً باتجاه فرانكفورت. في غضون ذلك اتم الفيلق الثامن احتلال «كوبلنز» أما الجيش السابع فقد شق طريقه عبر حقول الغام واسعة في دفاعات «سيغفريد» المواجهة له ولم يأت ٢١ آذار حتى كانت جميع المقاومات الألمانية قد انتهت فعلاً. فقد قضي على ما تبقى من الجيشين الألمانيين السابع والأول وكان القبول بالهزيمة قد بات واضحاً تماماً لدى ضباط الوحدات أما ضباط الصف والجنود فقد كانوا غير مبالين، لذا كان الباقون يستسلمون في كل مكان، ما عدا بعض ا لمتعصبين المتحمسين الذين كانوا في حالة انهيار كامل. وحده الجيش الثالث تمكن من أسر ٧٠,٠٠٠ رجل خلال أربعة أيام. لقد اختفى كل أثر من آثار التنظيم وباتت الشرطة العسكرية تلقي القبض على الجنرالات الألمان من الطرق، وقد شاهد «باتون» نفسه خلال قيادته لسيارته في الغابات الواقعة بين «كيسر سلوترن» و«نوستادت» ما وصفه بأنه أكبر مشهد من مشاهد الدمار التي رآها في حياته. كان رتل الماني يتألف بصورة رئيسية من الجياد، كوسائط للنقل، قد وصل لتوه الطريق العام من الجهة الشمالية الغربية عندما انقضت على جناحه سرية دبابات متوسطة من الفرقة المدرعة العاشرة، وأقرأ ما كتبه «باتون»: «كان الألمان يصعدون وادياً شديد الانحدار وإلى يسارهم جرف شديد، عندما دخلت الدبابات بينهم وبين الجبل فراحت تندفع الخيول والمركبات ولمسافة تزيد على الميلين من فوق الصخور. كان بامكانك ان ترى آثار جنازير الدبابات على جوانب واكتاف الخيول كما كان بإمكانك ان ترى آثار دخان البارود على الرجال والخيول حيث سقطوا صرعى بعد أن أطلقت عليهم النار من مسافة قريبة. ورغم اعتزازي بهذا الانجاز فقد شعرت بالأسف الشديد لما حل بأولئك المساكين».

وبدون أي تريث، واصل «باتون» تقدمه إلى «الراين» كي يقطعه باقتحام مباغت سيعتبر ذروة عملية من أعظم العمليات اكتمالاً ونجاحاً في سجلات التاريخ العسكري. كانت رائحة النصر قد بدأت تملأ الجو لكن ينبغي ألا يغرب عن البال انه خلال هذه المعارك الأخيرة عمل الجيش الثالث مع سلاح الجو التكتيكي وكأنهما جيش واحد. في جميع الأوقات كان التعاون الوثيق بين الطيارين وبين الجنود على الأرض عاملاً حاسمًا. كما وان طائرات الاستطلاع كانت دعامة رئيسية في تلك العمليات المتحركة بسرعة، كما

كانت قاذفات القنابل تقوم بمهاجمة العدو دون رحمة أثناء انسحاب أرتاله وعندما كان زحف الجيش يتوقف موقتاً بسبب مقاومة عنيدة يبديها حرس المؤخرة، لم يكن الأمر يتطلب أكثر من نداء سريع للطيارين المساندين فلا يلبث الدفاع ان يتفكك ويطاح بجميع المقاومين علاوة على ذلك تمكن هذا السلاح الجوي من منع طائرات العدو من استخدام الجو منعاً باتاً. كان قائد السلاح الجوي «ويلاند» دائماً على مقربة من «باتون» الذي كان يثق به ثقة مطلقة والآن أصبح باستطاعة «ويلاند» وطياريه ان يضمنوا السيادة الجوية على «الراين» نفسه دون اي تحد.

في اليوم الحادي والعشرين وصل الفيلق ١٢ إلى «مينز» وكان يهاجم المدينة باستخدام فرقتين كما كانت الفرقتان المدرعتان الرابعة والحادية عشرة تهاجمان إلى الشمال والجنوب من «وارمز» وكانت الفرقة المدرعة ١٢ تطبق على «مانهايم». توصل «باتون» و«إدي» قائد الفيلق «١٢» إلى الاستنتاج بأن الألمان يتوقعون عبوراً عند «مينز» لذلك قررا ان يشكلا ستاراً من الدخان على النهر هناك ودون أي تريث يأمران بعبور النهر عند «اوبنهايم» على بعد حوالى ١٥ ميلاً صعدا في النهر. ولحسن الحظ كانت هذه النقطة ميناء لقوارب نقل البضائع يمكن الدخول إليها من المدينة وتتعذر رؤيتها من كلتا الضفتين. إذن يمكن هنا إنزال قوارب الاقتحام دون ان يراها العدو ثم تنسل مخترقة النهر. بالفعل كان «إدي» قد اختار هذه النقطة قبل عدة أشهر. بالإضافة إلى ذلك كان «باتون» قد قدم مفرزة بحرية تتألف من ١٢ وكيل عريف كانوا قد تمرنوا على العبور عند «تول» أما رئيس مهندسيه اللواء «كونكلين» فقد احضر على المركبات، وبعد ان بذل جهوداً جبارة، جميع الأجهزة والمواد اللازمة لإنشاء الجسور إلى المقدمة. في صباح ٢٢ آذار كان الفيلقان ١٢ و٢٠ يزحفان جنوباً: وفجأة انعطفت الفرقتان «٥» و«٩٠» نحو الشرق وفي تمام الساعة ٢٢,٠٠ من تلك الليلة انسلت إلى الماء وبكل هدوء الكتيبة ٢٣ من الفرقة الخامسة في قوارب اقتحام وعوامات ودون حماية مدفعية تمهيدية أو قصف جوي أو إنزال قوات محوقلة بحيث لم تباغت العدو وحسب بل بقية الجيش الثالث ذاته وقبل ان يبزغ فجر اليوم التالي أصبح للفرقة ٦ أفواج على الجانب الآخر وأما الخسارة فلم تتجاوز ثمانية قتلى وعشرين جريحاً.

في ذلك الصباح سطعت أشعة الشمس في الغرفة في «شاتو دي نامو» حيث كان «برادلي» يتناول طعام الفطور. فجأة استدعي إلى الهاتف فرفع السماعة وسمع الصوت ذا الرنة العالية يقول: «يا «براد» لا تقل إنني أنا على الخط... لقد تسللت إحدى فرقي في الليلة الماضية. لا تعلن هذا لأحد: أبقه سراً حتى أرى النتيجة».

وفي المساء هتف ثانية: «يا براد، بحق السماء انشر الخبر في طول البلاد وعرضها. لقد اسقطنا ٣٣ طائرة «كراوت» عندما حاولت تعطيل جسرنا العائم المدعوم بالقوارب وأنجزنا عملية العبور. أريد أن يعرف كل العالم ان الجيش الثالث قد حقق ذلك قبل ان يبدأ «مونتي» به.

في الصباح التالي ذهب «باتون» نفسه إلى «اوبنهايم» ومر من البلدة إلى ميناء «القوارب الكبيرة» ثم سار على الطريق عبر الجسر الواطىء الممتد فوق النهر. وفي منتصف الطريق توقف وقال: «حان الوقت لتوقف قصير» ثم انتصب على طرف الجسر وبال في «الراين». بعدئذ قال وهو يزرر سرواله: «طالما تطلعت شوقاً لهذه اللحظة». ثم استمر سائراً إلى الضفة البعيدة وهنا تعثر عن عمد وسقط على الأرض، كما فعل «سيبيو افريقانس» و«ويليام الفاتح» في ظروف مماثلة وقد قال إنهما يريان في أيديهما تربة أفريقيا أو انكلترا، أما «باتون» فقد شاهد بين يديه حينذاك تربة المانية، فإلى الأبد سوف يكون في صف أندِاده يفعل ما يفعلون. إذ لم يكنْ «جورج باتون» ينتقص من قدر نفسه أبداً. لقد ترك ذلك للآخرين: وكان بعضهم من أبناء وطنه إنما ليسوا من الجيش الثالث.

الفصل السابع عشر
فوق الراين ووراءه

في النهاية لا يسجل على لوحة الأهداف وعلى صفحات التاريخ إلا نتيجة الأسلوب الذي تم به لعب الأوراق أو خوض المعركة. وعلى ذلك فانني أصوت لصالح المتخصص في فن التكتيك وأفضله على الاستراتيجي، وخاصة ذلك الذي يحسن لعب الأوراق السيئة.

«المشير وافل»

يعتبر عبور «الراين» عند «اوبنهايم» قبل «مونتغموري» بأربع وعشرين ساعة أوج العظمة التي حققها «باتون». لقد قاتل آخر معركة على مستوى عال. من الآن فصاعداً سوف يشترك الجيش الثلث في زحف رائع يتصف بطبيعة السير الظافر الذي لم تقطعه إلا محاولات المانية تعصبية لم يكن لها أية جدوى أكثر مما يتصف بأنه مطاردة عدو مغلوب لم يتحطم بعد.

عقد «آيزنهاور» العزم على هزيمة الألمان غربي «الراين» ثم الاطباق على النهر وعبوره. في هذه العملية وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها إليه «ألانبروك» رئيس الأركان الملكية العامة، حقق أعلى آماله. في شباط وآذار عانت مجموعة الجيوش ٢١ من ٢٣,٠٠٠ إصابة إنما وقع في أسرها ٥٠,٠٠٠ رجل، أما مجموعة الجيوش ١٢ فقد عانت أكثر الخسائر ٤٠,٠٠٠ تقريباً إنما وقع في أسرها أكثر من ١٨٥,٠٠٠ أسير أما بالنسبة لمجموعة الجيوش السادسة فكانت الخسائر ٣٣,٠٠٠ إصابة والذين وقعوا في الأسر من الألمان ٤٧,٠٠٠ رجل. من أصل هذه الأرقام الاجمالية ساهم الجيش الثالث بخسارة مقدارها ٢٥,٠٠٠ إصابة إنما وقع في أسره حوالى ١٠٠,٠٠٠ رجل. أي تقريباً ضعف العدد الذي أسرته مجموعتا الجيوش ٢١ و٦. في مساء ٢٤ آذار حظي «آيزنهاور» برؤوس جسور حيوية وسريعة التوسع والامتداد عند «وزل» و«ريماغن» و«اوبنهايم» و«بوبارد» مع

انه كان ما يزال الألمان على الورق يملكون ٦٠ فرقة لم يعد معظمها أكثر من مجموعات قتالية تفتقر جميعها للبترول والسلاح والذخيرة. كما كان «مودل» ومعه ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ رجل يواجه تطويقاً في «الروهر» على وشك الوقوع حتماً.

وفي ايطاليا كان «الكساندر» على وشك شن هجوم أخير سينتهي بعد بضعة أسابيع باستسلام مجموعة الجيوش «س» في وادي «البو» أما على الجبهة الشرقية فقد أقام الروس رأس جسر على الأودر بمسافة لا تبعد عن برلين أكثر من ٣٠ ميلاً ولكنهم لم يحققوا إلا تقدماً ضئيلاً منذ شهر شباط. لقد سجل «آيزنهاور»نجاحاً حاسماً وقد بات واضحاً للعالم كله ان مصير المانيا قد تأكد وهلاكها أصبح حتمياً.

أما القرار الذي اتخذه حينذاك فقد أصبح موضع جدال شديد اصطبغ أكثره بصبغة الادارك المؤخر (ادراك طبيعة الحادثة بعد وقوعها) وكان الجدال باختصار يدور حول ما يلي: عندما يتم تطويق «الروهر» يعود الجيش التاسع إلى مجموعة الجيوش ١٢ حسبما كان عليه سابقاً وهكذا تصبح قوة هذه المجموعة ٤٨ فرقة وتشكل قوة الحلفاء الرئيسية تحت قيادة «برادلي» مستهدفة الزحف ليس على برلين وحسب وإنما على «درسدن» عن طريق «ليسنبرغ». هنا تتصل المجموعة مع الجيش الأحمر وهكذا تكون قد قسمت ما تبقى من الجيش الألماني إلى قسمين. كان على «مونتغومري» ان يغطي جناح «برادلي» الأيسر. وأخيراً على مجموعة جيوش «دفرز» ان تغطي ميمنة «برادلي» وان تكون مستعدة للزحف نزولاً مع «الدانوب» لتستولي على المعقل الصغير الدولي. أرسل «آيزنهاور» هذه الخطة مباشرة إلى موسكو دون استشارة الحلفاء وقد كتب على الرسالة: «شخصية، للمارشال ستالين».

إن القضايا المعقدة التي انبثقت عن قرار آيزنهاور القاضي بالتخلي عن نية الحلفاء الأصلية الرامية لتوجيه الجهد الرئيسي نحو برلين كثيراً ما تعرضت منذ ذلك الوقت للتمحيص والنقد من قبل مفكرين عسكريين يتمتعون بمستويات فكرية عالية وخبرات كبيرة وكان نقدهم يتم بطريقة موضوعية سامية تركت سمعة «آيزنهاور»، على صعيد النزاهة، سليمة تماماً كما وانها أظهرت أن هناك ما ينبغي ان يقال لصالح تبرير الاتجاه الذي قرره في ما يتعلق ببرلين. دون شك كان «آيزنهاور» يستحق إرشاداً سياسياً أفضل من الذي حصل عليه. إنما هناك إجماع قليل جداً في ما يختص بالحكمة من المهمات التي أعطيت لـ «باتون» والجيش الثالث من ذلك الحين وحتى توقف الأعمال القتالية.

ما من شيء كان باستطاعته الصمود أمام حراب الجيش الثالث أثناء اندفاعه باتجاه

شمالي شرقي على ممر «فرانكفورت ـ كاسل» الواقع في ميمنة حركة «برادلي» التطويقية للطرف الجنوبي من «الروهر». في ٢٨ آذار اتصل «باتون» مع «هوجز» عند «غيسن» وفي اليوم التالي سقطت «فرانكفورت» وفي أحد الأوقات كنت تجد على الطريق الألمانية الواسعة المزدوجة شمالي «فرانكفورت» فرقتين من فرق «باتون» المدرعة وفرقتين من فرق مشاته تزحف شمالاً نحو «كاسل» وجنباً إلى جنب مع الأسرى الألمان الذين كانوا يتدفقون كالسيل جنوباً دون حرس. ولكي يؤمن تنسيق زحف الجيش كان «باتون» يستخدم الطائرة ليؤكد اتصاله الشخصي بفيالقه الثلاثة المتقدمة ومنذ اللحظة التي انطلقت فيها الفرقة المدرعة الرابعة من رأس جسر «أوبنهايم» بدأت قيادة نقل القوات جواً رقم ٤٧ بالعمل على نطاق لم يسبق له نظير. فقد كانت «سيارات الصناديق الطائرة تنقل يومياً نصف ميلون غالون من البترول و١٥٠,٠٠٠ تعيين غذائي تقريباً أما بالنسبة للذخيرة فقد كانت الحاجة قليلة إليها. سقطت «كاسل» في ٢ نيسان وبعد ٤٨ ساعة أصبح لـ «باتون» عدة رؤوس جسور على «الويرا» أقيمت على الرغم من الهجمات غير المجدية التي قامت بها طائرات العدو. هنا تريث كي يعطي الوقت الكافي للمشاة بغية اللحاق بالمدرعات.

أما وقد أصبح «مودل» مطوقاً في منطقة الراين» تطويقاً كاملاً لا منجاة له منه فقد أضحى المجال في ١١ نيسان واسعاً أمام «آيزنهاور» كي يبدأ اندفاعه الأخير شرقاً مستخدماً مجموعات جيوشه الثلاث نحو خط «الألب المولْد» حسب الاتفاق المسبق الذي جرى مع ستالين. وفي الحال بدأت فيالق «باتون» المتقدمة تتوغل مندفعة شمالي غابة «ثورينجيان» فاكتسحت معسكرات الرعب حيث تمكنت من تحرير أسرى الحلفاء إضافة إلى الاستيلاء على كميات جسيمة من المخزونات الحربية. في الخامس عشر من نيسان وصلت هذه الفيالق إلى شمنيتز التي تبعد ٣٥ ميلاً عن «درسدن» و«روكليتز» التي تبعد ٢٠ ميلاً عن «لايبزغ»، و«هوف» التي تبعد حوالى عشرة أميال عن حدود «تشيكوسلوفاكيا». في اليوم السابع عشر منه قطعت دورياته الحدود وأرجعت معها عدداً كبيراً من الأسرى أما الروس فكانوا في اليوم السابق قد شنوا هجومهم النهائي على برلين ومما يدعو للسخرية انه كان باستطاعة الحلفاء خلال الأسابيع الثلاثة التالية ان يصلوا إلى «براغ» دون مواجهة أي جندي روسي. بيد أن «باتون» تلقى الأوامر بالتوقف وإعادة التجميع تمهيداً للمهمة النهائية بينما سيطر «برادلي» على خط نهري «الب ـ مولد» باستخدام جيشيه الآخرين واندفع «مونتغومري» نحو «لوبك». أما «باتون» فقد كان عليه ان يندفع جنوباً نازلاً في وادي «الدانوب» للقضاء على المعقل الدولي الذي كان يقال

إن فيه ما لا يقل عن ١٠٠ فرقة المانية تجمعت لمهاولة القيام بهجوم تحريري نهائي.

كان الجيش الثالث يضم في تلك الفترة أربعة فيالق تتألف من ١٢ فرقة مشاة و٦ فرق مدرعة وثلاث مجموعات خيالة مجموعها الاجمالي ٤٣٧,٠٠٠ رجل وهي أقصى قوة بلغها الجيش خلال الحرب. تمت إعادة التجميع بالسرعة التي اعتادها الجيش الثالث: وفي ٢٢ نيسان بدأ الزحف مرة أخرى. بعد ذلك كان التقدم سريعاً. لقد فشلت الاستطلاعات الدقيقة والتحريات المستمرة في الكشف عن أي أثر للمعقل الدولي أو حامياته، ذلك المعقل الذي سبق وكتب عنه «فوش» مستبعداً وجوده معتبراً ذلك نوعاً من الأسطورة وقد ثبتت الآن صحة ذلك. في ٢٥ نيسان وصل الجيش إلى كامل حدود تشيكوسلوفاكيا، في ٤ أيار مرت الفرقة المدرعة الرابعة بـ «كينز» في النمسا وهناك قابلت جيش «كلارك» الخامس قادماً من ايطاليا. في ذلك الوقت لم يكن هناك أي خطر بحدوث اشتباك بين القوات الامريكية والروسية لأن الجيش الأحمر كان يبعد عن «براغ» أكثر من سبعين ميلاً وكان ما يزال يواجه مقاومة عنيدة من الألمان. ولذلك أخبر «آيزنهاور» «برادلي» في ٤ أيار بأن يأمر «باتون» بالاستيلاء على خط «كارلسباد ـ بيلسن ـ بدجو فيس» الذي يبعد حوالى ٢٠ ميلاً إلى الداخل من حدود تشيكوسلوفاكيا» وان يستعد للزحف على «براغ». تبلغت روسيا هذا القرار في الوقت المناسب وأسفر عنه احتجاج عنيف. أما « آيزنهاور » الذي كان ما يزال تواقا لأن يبقى على وئام مع حلفائه ، فقد أمر « باتون » بإيقاف جيشه على ذلك الخط. في الصباح ثار الأنصار في «براغ» ضد الحامية الألمانية وناشدوا «آيزنهاور» ان يمد لهم يد المساعدة، مؤكدين على ضرورة إرسال اللواء التشيكي العامل في مجموعة «برادلي» إليهم في الحال. كما ناشدوا «باتون» أيضاً طالبين منه المساعدة لكن كان ذلك كله عبثاً، فرغم ان الوضع العملياتي كان يبرر التدخل الامريكي في «براغ» فقد اقتصر «آيزنهاور» على ابلاغ التشيكيين بأنه أمر بإيقاف جيش «باتون» بناء على طلب الروس وأنه على التشيكيين ان يطلبوا المساعدة مباشرة من الروس فقط.

عندما وصلت الحرب إلى ذروتها، كان لدى «آيزنهاور» أحسن جيش أمريكي جاهز يقارب عدده النصف مليون ويتمتع بأفضل التجهيزات وتسانده قوة جوية هائلة تحت قيادة أقدر وأنشط قائد غربي كما كان جميع أفراده يتحرقون شوقاً للانطلاق كي يجنوا ثمار انتصاراتهم وذلك باحتلال المركز الاستراتيجي لأوروبا. لكن للمرة الخامسة، وفي أشد اللحظات حسماً وخطورة، فشل «آيزنهاور» في اتخاذ القرار اللازم، أما ستالين، الذي سأل ذات مرة كم فرقة لدى البابا، فقد كان يفهم على الأقل قوة حجة كهذه.

منذ اقتحام «افرانش»، قدم «باتون» لـ «آيزنهاور» فرصاً كان من المحتمل ان تكون حاسمة، فتقصر مدة الحرب وتنقذ آلاف الأرواح وتترك الغرب في موقف استراتيجي أفضل بكثير مما سيصبح عليه بعد ربع قرن، نذكر منها أولاً انه في ١٣ آب صدرت الأوامر من «برادلي» وبموافقة «آيزنهاور» إلى فيلق «باتون» ١٥، وفي مقدمته الفرقة المدرعة الخامسة وفرقة لي كلرك» المدرعة الفرنسية، بأن يتخلى عن اندفاعه نحو «آرغنتان» كي يلتقي مع الجيش الكندي الأول عند «فاليز» بحيث يتم اغلاق الثغرة. لقد بقي «باتون» مقتنعاً حتى يوم وفاته بأنه لو أطلقت يده في ذلك الوقت لضمن التدمير الكامل والمباشر لجميع الجيوش الألمانية في «النورماندي». ثانياً عندما وصل إلى «السين» وقام بالعبور عند «مانت ـ غاسيكور» في ٢٠ آب، كان اقتراحه هو متابعة اندفاع فرقته المدرعة الخامسة على طول الضفة الشمالية للنهر ليغلق جميع المخارج من «روان»، ولو نفذ هذا الاقتراح لكان من المحتمل جداً ان يقضى على مجموعة الجيوش «ب» قضاءً مبرماً. وهذا هو أيضاً رأي، «سبيدل» رئيس أركان المجموعة «ب» الذي كان في تلك البقعة حينذاك.

ثالثاً لو لم يقطع «آيزنهاور» البترول عن «باتون» بعد ان وصل إلى «الموز» في آواخر شهر آب لمدة خمسة أيام بالغة الأهمية لكان هناك أشد الاحتمالات بأن يتمكن من قطع «الراين» وإقامة رأس جسر هناك قبل ان يعود «رندستدت للقيادة ويعيد نوعاً من النظام للجبهة. لقد فكر «باتون» نفسه بأنه لو لم يضطر للتوقف لاستطاع، بالتوغل في عمق ألمانيا، أن يثير موجة عارمة من الفوضى بحيث يستحيل التعافي بسببها.

رابعاً، في معركة «الآردن»، وبعد ان أنجد «باستونيو» مباشرة، اقترح ان يشكل جيشه طرف الكماشة الأيمن في هجوم مضاد ضخم يستهدف قطع نتوء «الآردن» من القاعدة بدلاً من شطره في الوسط. وإذا راجعنا ما مضى نستنتج أنه لو تحقق مثل هذا العمل على تلك الخطوط، لقلل إلى حد كبير من الآلام المبرحة وخفض كثيراً من الخسائر الأمريكية في الأرواح.

أما الحقيقة المرة فهي أن «آيزنهاور»، رغم انه كان رجلاً عظيمًا طيباً، لم يكن يشعر تماماً بما كان يجري في أطراف جبهة جيوشه. وبما أنه لم يكن قد دخل شخصياً سعير المعركة فانه كان يذعن أكثر من اللزوم لنصائح آخرين أقل كفاءة من «باتون». لقد منحه القدر قائد جيش لا يقل عبقرية عن «غودريان» أو «مانشتاين» أو «رومل» كما منحه أيضاً جيشاً من أحسن الجيوش التي أنتجتها أوروبا ـ بل المانيا وروسيا، ولكنه فشل في إدراك

إمكانيات هذا الجيش بشكل كامل. والآن من السخرية أن نذكر هنا أن ثقته الساذجة بنية الروس الطيبة منعته من استخدام ذلك الجيش الرائع وقائده الفذ كي يتما الانتصار ومما يؤسف له ان الرجال الطيبين، إذا كان قد وجد أي منهم في وقت من الأوقات، كانوا قد انقرضوا في روسيا منذ ١٩١٧.

مع ذلك فان تاريخ الحرب يعرض أمثلة قليلة عن وجود جيش بمفرده كان له مثل هذا التأثير العظيم في إقرار القضايا الرئيسية لحملة ما، فسجل الجيش الثالث لا نظير له أبداً بأي مقياس وبأدق معاني الكلمة. فعلى صعيد الإحصاءات وحدها تفوق الجيش الثالث بمراحل على ما حققه أي جيش آخر من جيوش الحلفاء، وفي ما يلي آخر تقرير عن إصابات هذا الجيش في ٨ أيار ١٩٤٥.

الجيش الثالث			العدو		
قتيل	:	٢١,٤٤١	قتيل	:	١٤٤,٥٠٠
جريح	:	٩٩,٢٢٤	جريح	:	٣٨٦,٢٠٠
مفقود	:	١٦,٢٠٠	اسير حرب	:	٩٥٦,٠٠٠
المجموع	:	١٣٦,٨٦٥	المجموع	:	١,٤٨٦,٧٠٠
إصابات لأسباب غير الحرب:		١١١,٥٦٢	إصابات لأسباب غير الحرب:		غير معروفة

الخسائر المادية

الجيش الثالث		العدو	
دبابات خفيفة	٣٠٨	دبابات متوسطة	١,٥٢٩
دبابات متوسطة	٩٤٩	دبابات بانزروتايغر	٨٥٨
مدافع	١٧٥	مدافع	٣,٤٥٤

لذا يبقى علينا البت بما كان يكمن وراء المظهر الخارجي المزخرف لقائد هذا الجيش ذلك المظهر الذي صنعه جزئياً بنفسه وصنعته جزئياً، الصحف ودجالو هوليوود وبعض معاصريه في جيوش الحلفاء.

كان «باتون» بصورةأساسية رجلاً متديناً من أتباع الكنيسة الأسقفية يقرأ الكتاب

المقدس يومياً وكان إبناً صالحاً وأباً صالحاً وزوجاً صالحاً. ولقد كان من حسن حظه أنه وجد في زوجته امرأة، كالسيدة «سبنسر تشرشل»، كبيرة إلى حد يكفي لأن تقدر رجلها حق قدره وتساعده وتحتفظ به على نحو ممتاز، فكما هو شأن كل جندي جاد، كان عليه ان يواجه باستمرار صراعاً دائماً بين المثل العليا المسيحية والعمل البغيض الذي كان عليه ان ينجزه غالباً، كان منظر الموتى في ساحة القتال والجرحى في المستشفى يحرك عواطفه حتى الصميم وكان قبل كل شيء يكره قصف المدن وينفر من رؤية آلام اللاجئين حتى ولو كانوا من الألمان كان يعرف منذ أيامه الأولى ان أفضل رجال الكنيسة جاهدوا كي يخففوا من ويلات الحرب، مع ذلك كان يدرك إدراكاً تاماً انه لا يجدر بالمسيحي ان يبقى على الحياد أمام الشر- وانه إن كان هناك شر في العالم فلا شك انه النظام النازي بكل ما يمثله. لقد آمن من صميم قلبه بكل ما كتبه في: «صلاة جندي» في ١ كانون الثاني ١٩٤٤.

«يا إله آبائنا الذي قادنا دائماً إلى النصر براً وبحراً، أتضرع إليك ان تستمر في إرشاداتك الملهمة في هذا الصراع الذي نعتبره أعظم معاركنا.

هب روحي القوة بحيث لا تجعلني الغريزة الموهنة للعزائم التي تدعو للمحافظة على النفس، تلك الغريزة التي تحاصرنا جميعاً في المعركة، أغفل واجبي نحو رجولتي ومجد مهنتي ومسؤوليتي تجاه زملائي الجنود.

امنح قواتنا المسلحة تلك البسالة النظامية والثقة المتبادلة اللتين تضمنان النجاح في الحرب.

لا تدعني أندب الرجال الذين قضوا في ساحة القتال بل دعني ابتهج لأن مثل أولئك الأبطال قد عاشوا مرة بيننا.

وان كان نصيبي ان أموت دعني أفعل ذلك يا رب ببسالة وشرف يعودان بأعظم الضرر للعدو، واتضرع إليك يا إلهي ان تحفظ وتحمي من سأترك ورائي.

أيها القدير، امنحنا الظفر»

كان «باتون» يؤمن مخلصاً أن أعظم امتياز يتباهى به المواطن هو ان يحمل السلاح تحت راية بلاده. فمنذ عهد الصبا، وربما نتيجة للتقاليد العسكرية المميزة في عائلته، لم يكن له إلا طموح واحد هو ان يصبح قائداً عظيماً في ساحة القتال بما يصحب ذلك من مجد وتملق. تلكم هي الفكرة التي بنى عليها حياته كلها. مع ذلك فقد عمل على الجمع

بين طموحه الشخصي وولاء لا يتزعزع للجيش ككل، وخدم بكل بهجة وسرور تحت رئاسة «برادلي» و«آيزنهاور» اللذين كانا أصغر منه سناً كما كان أقدم منهما في الخدمة. كان «باتون»، شأنه شأن «تشرشل»، لكنه مثل «تشرشل» أيضاً تمكن بقوة إرادته وحدها من التغلب على عيب كان خلقة: وهو، بالنسبة لـ «تشرشل» التلعثم وبالنسبة لـ «باتون» الصوت الرفيع الحاد. والواقع أنه كان قد رتب حياته، منذ نعومة أظفاره، وفق الدور الذي عرف بشكل ما انه سيلعبه ذات يوم. وشأنه شأن «ماونتباتن»، كان يشعر، أياً كانت الرياضة أو النشاط الذي يشترك به، بأن عليه ان يحقق امتيازاً فيه حتماً، سواء كان ذلك رمياً بالمسدس أو مبارزة بالسيف أو تجذيفاً بالقارب أو بولو أو صيد سمك أو صيداً عادياً أو اطلاق نار أو سباق حواجز على ظهور الخيل.

وخلافاً لكثير من الرجال المفرطين بطموحهم، الذين لا يهتمون بشيء سوى مهنتهم والذين يلقون في المناسبات الاجتماعية القتامة على سير الأعمال كانَ «باتون» يعمل على الجمع بين حماسه وغيرته الشديدة على كل ما أخذ على عاتقه من مسؤوليات وبين السحر الشخصي العظيم. كان «الكساندر» يكن له اعتباراً عظيماً وكان هو يبادله ذلك الاعتبار فابتسامته جذابة خلابة، وكان ضابط الارتباط البريطاني المرافق له في المغرب يجده مجاملاً لطيفاً دمثاً رقيق الجانب عندما لا يكون في جو العمل. أما ضباط أركانه فكانوا يعبدونه ويكنون له أعظم محبة واحترام. وعندما يعملون تحت قيادته لا يرغبون أبداً بالخدمة تحت قيادة سواه. كان «باتون» يحب الحياة والطعام الجيد والشراب الجيد كما كان يحب أيضاً المجتمع المتمدن البهيج الفرح والريف الهادىء والبحر، والمتعة الناشئة عن التمارين العنيفة إضافة إلى ولعه بالكتاب الجيد.

كذلك كان «باتون» كريماً إنما بطريقة خفية، لا تباهي فيها. في فرنسا أخبره رئيس أركانه بأن فتاة تعمل في الصليب الأحمر تواجه بعض المتاعب: كانت الفتاة حاملاً فعلاً بطريقة غير شرعية وتحتاج للنقود من أجل الولادة وكذلك من أجل العودة إلى الولايات المتحدة وبدء حياتها من جديد وبعد ان تأكد من عدم ذكر اسمه أبداً دفع ٨٠٠ دولار دون أي تعليق وطبقاً لما يقوله «سيمنز» لم يعرف هذا العمل المفعم بالعطف إلا أقل من عشرة أشخاص. على هذا الصعيد كان «باتون» يشبه «سفوروف» جنرال القيصرة العظيمة كاترين الذي كان يتمتع بنفس السمات، فبعد وفاته اكتشف بأنه كان الواهب المجهول لمبالغ كبيرة من النقود كانت تصل إلى سجن موسكو في كل عيد فصح لدفع الدّيون المستحقة على المدينين وكان «باتون» يشاركه أيضاً بنوع من حب الفكاهة والمسايرة النادرة بين الجنرالات: وقد حرم من هذه السمة كل من «كرومويل» و«نابليون»

و«فردريك الكبير» و«ستونوول جاكسون» و«هيغ». وكثيراً ما حدث ان تحولت فكاهته إلى شكل مفضوح تماماً: فعلى سبيل المثال: وضعت امرأة من وسطه الاجتماعي مولوداً وحين قالت إنها مسرورة كثيراً لأنها باتت تستطيع ان تنقلب على بطنها وتنام، أجابها، وبصوت يمكن ان يسمعه كل من في المستشفى «يا للعجب يا سيدتي الشابة! لو احتفظت بهذا الوضع منذ البداية لما وصلت إلى الوضع الأخير الذي لا تحسدين عليه». إلى جانب هذه الروح المرحة كان «باتون» يتمتع بمقدرة هائلة على التعبير على نحو قوي ومختصر.
يروي ابن اخته «آير» انه وصل مع خاله أثناء حملة «البلاتينيت» إلى رتل طوله حوالى الميل وقد توقف من أول رجل فيه إلى آخر رجل بسبب ازدحام حدث عند منعطف يقع تحت جسر سكة حديد، بحيث أصبح الرتل هدفاً سهلاً لعدو يتربص خلف مدافع من عيار ١٥٥مم وكان قائد الرتل في منتصف المسافة وقد وقع في حيرة شديدة، فدار حوار أحادي الجانب وقصير بينه وبين «باتون» الذي قال له: «أيها العقيد، باستطاعتك ان تنسف ذلك المدفع اللعين أو تدمر ذلك الجسر اللعين أو تحطم دماغك اللعين، ولا يهمني أيها تختار».
كان «باتون» قد تعلم من خبرته في الحرب العالمية الأولى كيف تكون ردود أفعال الرجال الذين يواجهون نيران العدو كما كان مقتنعاً شأنه شأن «مونتغومري»، بأن الروح المعنوية أهم عامل في الحرب ـ وهذا يبين لنا لماذا كان يبذل جهداً متواصلاً لحضور المعركة بنفسه ومشاهدتها بعينيه لا بعيون أركانه. ولم تكن تفوته فرصة للتأكيد على المسؤولية التي يتحملها ضباطه نحو جنودهم كما كان يدرك ان الطعام الساخن في المعركة مهم مثل الذخيرة، وكان يظهر أمام جنوده أكثر عدد ممكن من المرات كي يؤثر عليهم ومثل اللنبي كان قوامه الرائع يوحي بانطباع الاتخاذ السريع للقرارات والإيمان بالنظام الفولاذي، لقد كان «باتون» يؤمن إيماناً مطلقاً بالنظام وكان حسن المعاملة مع كل جندي يؤدي واجبه: أما من يخرق النظام فقد كان ينصب عليه سخطه بشكل لا يمكنه نسيانه. كذلك كان يسارع بالثناء على ما يستحق ويسارع في منح المكافآت. وكان يفهم تماماً نقاط الضعف لدى رجاله: ولم يكن أبداً ممن يعملون على خنق البهجة في النفوس بسبب حبها للمشروب وكان ينظر باحتقار شديد للسياسة الرسمية التي تدعو إلى عدم عقد أواصر المودة مع نساء وأولاد العدو المهزوم. أما الكلمات التي كان يلقيها على جنوده، تلك الكلمات المسكوبة في مفردات اعتادوا تماماً على فهمها فمن المتعذر التأكد من مغزاها في الوقت الراهن، فلا شيء يعتبر قديماً أكثر من عامية الأمس، التي ربما خدشت اسماع مثقفي ذلك الزمن. لكن يجب ألا يغرب عن البال ان مثل أولئك الرجال نادرو الوجود بين الجنود. إنهم، لدى الأكثرية، يصيبون الهدف دون شك لكن ينبغي عدم استخدام

ما يقوله الجنرالات للجنود قبل المعركة أو أثناءها كشهادة ضدهم، تماماً كما ينبغي عدم استخدام الاتصالات بين الزوج والزوجة من أجل الزواج. وبقدر ما كان الأمر يعنيه شخصياً، لم يكن قد مضى الزمن الذي يستطيع فيه الجنرالات أن يقفوا على رأس جنودهم في الشدائد والأزمات، كما فعل «نابليون» أمام جسر لودي أو «لان» عند «أولم» الذي أخذ مكانه ذات مرة في طليعة مجموعة اقتحام قادها إلى الأمام تحت وابل من نيران العدو وهو يصيح: «كنت قاذف رمانات يدوية قبل أن أصبح مارشال فرنسا». ويروي لنا «سيمز» مثالاً نموذجياً عن بسالة «باتون» الشخصية في مواجهة النار. فقد اقترح أحدهم انه ينبغي على الدبابات أن تهاجم وأبراجها مغلقة تدعمها نيران مدفعية تنفجر قنابلها في الهواء فوق الدبابات مباشرة وبذلك يبطل مفعول مشاة العدو ومدفعيته، رتب «سيمز» عرضاً لهذا الأسلوب مباشرة قبل عملية الانزال في صقلية، وقد أصابه الذهول والفزع عندما أعلن «باتون» انه سيعمل كرامي رشاش في الموجة الرئيسية ولحسن الحظ لم يقتل «باتون»، لكن الدبابات عانت كثيراً من نيران المدفعية مما أسفر عنه احتياجها إلى اصلاحات وتبديل أجزاء أساسية منها، خاصة الهوائي وموجهات البنادق التي نسفت في دبابة «باتون» الذي قضى وقتاً مدهشاً وهو يطلق المدفع من دبابته. وشأنه شأن الرجل النيوزلندي الأسطوري «فريبرغ» الذي جرح **٢٦** مرة كان «باتون» يفكر ان قليلاً من نيران القذائف تنفع كل إنسان. فنظرة واحدة إلى سجله الصحي تبين انه أصيب بعدد كبير من الكسور والإصابات المشابهة التي نتجت عن جروح من الحرب العالمية الأولى ومن الوقوع أثناء لعبة البولو وفي حقول الصيد وأثناء قفز الحواجز على الخيل. هذا، إلى حد ما قد يفسر سبب حدة مزاجه أحياناً، وكان «وافل» يعتقد ان ما أسماه «العافية والنشاط» أي المقدرة الفكرة والبدنية فيما يتعلق بالصمود طويلاً تحت الضغط الشديد الناتج عن التصرف بأرواح الرجال، شيء ضروري لكل قائد جيد. ومما لا شك فيه ان «باتون» كان يتمتع بهذه السمة. فبعد سنتين ونصف من العمل الذي كاد أن يكون متواصلاً، كان في شهر أيار من سنة **١٩٤٥** ما يزال يتمتع بقوامه ومظهره اللائقين.

قال «آيزنهاور» عن «باتون» ان نطاق عاطفته واسع جداً وهو يعيش اما على هذا الطرف منه أو على ذاك وسواء كان في هذا القول شيء من المغالاة أم لا فقد كان «باتون» رجلاً متقد العاطفة مثل «نلسون» و«سفوروف» و«تشرشل». كان مثل «تشرشل» يتمتع بعفوية هي من ميزات القرن الثامن عشر أكثر مما هي للقرن العشرين: أما تصرفاته، وهو يندفع في تصريحات يلقيها جزافاً ولا سيما أمام الصحفيين، فقد كانت أحياناً تزعج حتى المعجبين وقد أسفر عنها أخيراً دماره. كان أحياناً يتفوه بأشياء من وحي الخاطر ولكنه

كان يأسف لذلك في ما بعد، ويعتذر عنه. ومما لا شك فيه ان حادثة الصفع في صقلية أساءت إلى سمعته إساءة كبيرة وسببت ارتباكاً شديداً لـ «آيزنهاور». مع ذلك لا بد ان القوى المكبوتة داخله هي المسؤولة، إلى حد ما، عن القدرة الهائلة التي تمتع بها فيما يتعلق بالهام الرجال وبث الهمة والنشاط فيهم كي يبذلوا جهوداً كبيرة، ولا شك انها تشكل جزءاً من سر الاندفاع الهائل الذي منحه للجيش الثالث بالاضافة إلى الارادة التي لا تقهر للقضاء على العدو. فقلما تكون الانتصارات العظيمة شأنها شأن الأعمال الفنية العظيمة، من أعمال رجال غير عاطفيين. كذلك كانت نزعة التمثيل لدى «باتون»، شأنه شأن «تشرشل» و«غورينغ» أيضاً، نامية إلى حد ما. فمنذ ١٩٢٧ كان يشاهد وهو يقف أمام المرآة للتمرن على ما ما اسماه «وجهه الحربي» فكما كان شأن معظم الممثلين المعاصرين له، المحترفين منهم والهواة، كان على كل ما يفعله أن يكون أكبر من شكله في الحياة، من هنا يظهر سبب البهرجة الزائدة والألبسة الفخمة المتقنة والعظمة والأبهة التي كان يحيط بها شخصيته. كان تواقاً للهتافات ليس فقط ممن يجلس في المقاعد الأمامية بل ممن، ويا للاسف، يجلس في الشرفة العليا من المسرح، وكان يطير فرحاً عندما يقرأ تملق الصحافة. نقاط الضعف هذه هي التي تفسر لنا كرهه الشديد لـ «مونتغومري»، الذي كان يستطيع بأسلوبه الخاص الصارم ان يلهب شعور أي جمهور من الجنود البريطانيين كما كان يجب ان يكون ذائع الصيت وان تتداول اسمه الألسن. إذن ليس من المستغرب ان يسببا معظم المتاعب لـ «آيزنهاور»، متاعب هي أشبه بمتاعب رئيس جوقة موسيقية يحاول ان يدير حفلة «باليه للرقص التمثيلي» وأمامه نجمان سريعا التهيج والتقلب ويكره كل منهما جرأة الآخر ولا يحاول ان يخفي حقيقة شعوره.

يدرب القادة أنفسهم بصورة دائمة تقريباً، حين لا تتاح لهم الفرصة، في فترات السلام الطويلة، على ممارسة مهنتهم من خلال دراسة التاريخ العسكري. وقد جمع «باتون» إلى جانب الدراسة ذهناً حياً على نحو غير عادي وخيالاً واضحاً - بل واضحاً لدرجة انه كان يستطيع أحياناً ان يتصور نفسه وكأنه يعيش فعلاً في عهد قيصر أو «بليساريوس» أو «نابليون». وتشهد مكتبته التي كانت تحوي أكثر من ٥٠٠ مجلد في الأبحاث التاريخية والسير الذاتية والمذكرات العسكرية، على عمق اطلاعه وسعة نظرته الإنسانية. كان التاريخ بالنسبة له خلاصة ألف سيرة من السير العسكرية وكانت زوجته قد تعلمت في أوروبا كما كانت تتكلم الفرنسية بطلاقة تامة ولهذا السبب، ربما، كان يحب فرنسا. ففي الكثير من أعماله وأقواله يمكننا ان نلمس اصداء ما سجله «ماربو» عن حملات «نابليون» وفي فترة ما بين الحربين كان لكتاباته في «مجلة الخيالة»، دور واضح

شدد فيه على مساهمات فرنسا في الحضارة الأوروبية. وعندما حان الوقت كي يقود هو شخصياً جيشاً لتحرير فرنسا كان يعرف مواقع الأرض معرفته لظهر كفه، بالاضافة إلى معرفة جميع المشاكل التي واجهت قادة الجيوش فيها منذ عهد قيصر. وفي الساعات الطويلة التي كان يقضيها وقت السلم في المطالعة والتفكير، تلك الساعات المتواصلة التي كان يصرفها في مكتبته، يكمن جزء من تفسير السرعة في اتخاذ القرار عندما كانت تواجهه المشاكل ذاتها مرة ثانية بشكلها الجديد.

فمن هذه الخلفية العسكرية والثقافية عالج المشاكل التي ظهرت بظهور الدبابة والطيارة وعلى ضوء تقاليد الخيالة العظيمة التي يعود تاريخها إلى اختراع الركاب، أي مع بداية العصور الوسطى، ألا وهي المباغتة، السرعة، المرونة، حركات التطويق الواسعة النطاق والمطاردة التي لا هوادة فيها ولا رحمة بغض النظر عن الارهاق الذي يشعر به الإنسان والجواد، وفوق كل ذلك الرغبة الجامحة في القيام بالمغامرات، خاصة العظيمة منها، للحصول على حسم لا لبس فيه ولا إبهام. وكما قال «نابليون»: «لو كان فن الحرب يتألف من عدم القيام بالمغامرات لكان المجد تحت رحمة المواهب المتوسطة جداً». وهكذا فقد كانت لديه القاعدة التي يدرب بواسطتها الفرقة المدرعة الحديثة التكوين عندما سنحت الفرصة ١٩٤٠ والتي أضفى عليها أصالته الخاصة وميله لكل ما هو غريب. بظهور الدروع كان يرى ان فرص الهجوم الجانبي يمكن ان تتحقق بالدبابات على نحو أسرع بكثير مما يمكن تحقيقها بواسطة المشاة وذلك لأن الدبابة ليست سريعة التأثر بالأسلحة الصغيرة كالمشاة أما الجو فيمكن ان يعطي التحذير في حينه ولسوف يتضح ان «باتون» استفاد، في الوقت المناسب، من تجاربه في تونس أكثر وأسرع من البريطانيين.

أما بالنسبة لمظهره وأسلوبه لدى قيامه بالتفتيش فقد كان مديناً بالكثير لقائده السابق «بيرشينغ» فهو لم يكن يتحمل أي تصرف وقح ممن هم أدنى منه، كما كان الأمر بالنسبة له هو أمر ويجب ان ينفذ وليس منطلقاً للنقاش. من هنا أيضاً نرى سبب إصراره على مظاهر النظام الخارجية والمرئية التي يدل عليها الشكل الأنيق. مع ذلك كله كان مقر قيادته مفعماً بالسعادة: فلم يحاول مطلقاً ان يقوم بأعمال أركانه، إنما كان يكتفي بإلقاء التعليمات الواضحة عليهم ثم يتركهم وشأنهم. وخلافاً لـ «رومل» و«ووينغيت» اللامع انما المتقلب الأطوار كان أركانه مولعين به. وكان يدرك أهمية الامداد والتموين ولكنه لم يعتبر هذا الأمر عاملاً هائل الأهمية على الاطلاق، كما انه لم يكن يرحم غير الكفؤ وكان مثل «تشرشل» لا ينسى صديقاً قديماً أبداً ومن الجدير بالذكر انه ما من إنسان، بعد ان تسنح له الفرصة للخدمة بإمرته، يمكن ان يخدم بإمرة شخص آخر على الرغم من انه في

الأزمات ينتهك كل قاعدة إجرائية مرعية.

كان «باتون» بغير جدال الممثل الرائع للحرب المدرعة التي خاضها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. فعلى صعيد الدم والحديد كان «باتون» يجسد العبقرية الوطنية التي رفعت الولايات المتحدة من بداياتها المتواضعة إلى القوة العالمية التي صارتها. إنه التلهف لانتهاز الفرص واستغلالها بكاملها والسيطرة دون رحمة على المقاومة ثم محبة كل ما هو شاذ وغير تقليدي، وكل بارع وغريب بالاضافة إلى الرغبة بالفوز مهما تكن التكاليف، وبأقصر وقت ممكن وكما قال «سبيل» رئيس أركان «رومل» وفي ما بعد القائد العام لقوات المحور في أوروبا الوسطى، ان «باتون» هو الجنرال الوحيد من بين جنرالات الحلفاء الذي تجاسر على تجاوز حدود السلامة كي ينفذ قراراً «ثم أضاف أنه لم ينل إلا القليل من الشكر على مهارته كجنرال».

أين، إذن، يقف «باتون» في قائمة الشهرة؟ فهو لم يمارس القيادة بشكل مستقل مطلقاً. وإذن فانه لا يقع في لائحة القادة الذين وصلوا إلى ذروة السمو أمثال «هانيبال» و«سيبيو» و«مارلبورو» و«فردريك الأكبر» و«نابليون» وربما «ماك آرثر»، أولئك الرجال الذين كانوا يرون الحرب ككل، ويربطون بين القوة البحرية (وفي ما بعد الجوية) والقوة البرية وكذلك يربطون عملياتهم بحاجاتهم السياسية بل لقد كان ذا إحساس بالسياسة وفهم لها يقل عن إحساس «مونتغومري» وفهمه. إنما مع القادة العظام في ساحة المعركة يمكن ان نقارن «باتون» بـ«مورا» و«شرمان» و«فروست» و«ستونوول جاكسون» و«مانشتاين» و«رومل» أما صديقه المعجب به المشير «الكسآندر» الذي عاش خبرات قتالية في الحربين الأولى والثانية، وفي حالتي الظفر والهزيمة أكثر من أي جنرال آخر سواء كان أمريكياً أو بريطانياً فقد كان يتكلم عن «باتون» بأنه «الجواد الجسور والعبقري في ساحة القتال». وبعد ربع قرن يمكننا أن نؤكد أنه على صعيد العمليات المتحركة كان «باتون» يتفوق على كل معاصريه من الحلفاء بما اتصف به من تألق باهر في الخيال والأسلوب والتنفيذ.

الخاتمــــة

إن وصول الجيش الثالث إلى حدود تشيكوسلافاكيا و«النمسا» حيث توقفت الفيالق الرومانية القديمة أيضاً في ذروة عزها وقوتها، وانتهاء القتال في غربي أوروبا يشكلان نقطة الذروة في حياة «باتون» العسكرية لكن الأجيال اللاحقة سترغب في معرفة ما حدث له بعد ذلك.

حمل يوم النصر معه مسؤولية مباشرة لحكومة «بافاريا»، مهمة تتطلب أقصى درجة ممكنة من المسؤولية ومعرفة الادارة المدنية، خاصة في وقت كانت فيه الحاجة ملحة لجعل المانيا تقف على قدميها اقتصادياً. فقد كانت سياسة الحلفاء فيما يتعلق بالقضاء على النازية تقتضي عزل جميع الموظفين ذوي الميول النازية من مراكزهم، بما في ذلك إدارة السكك الحديدية ومحطات الطاقة والمستشفيات. غير أن القاء مسؤولية مثل هذه القضايا السياسية على عاتق جنود مقاتلين عظام أمر يخلو من العدل. وإذا أخذ بعين الاعتبار سجل «باتون» الماضي بما فيه من تعليقات صريحة طائشة، فإن هذا الأمر يغدو غير قابل للتبرير. ذلك أن غريزته كجندي شريف فيما يتعلق بمعاملة عدوه المهزوم بكرم وسخاء ما لبثت ان عرضته لانتقادات عدوانية من الصحافة كما ان انتقاداته المتهورة لسياسة بلاده ما لبثت ان دمرت سمعته لدرجة غير قابلة للاصلاح. وقد انتشر على وجه الخصوص موقفه العدائي الصريح من الروس انتشاراً واسعاً ثم جاءت الشعرة التي قصمت ظهر البعير في مؤتمر

صحفي في ٢٢ أيلول، ولنستخدم هنا كلماته نفسها: «لقد كلفني هذا المؤتمر قيادة الجيش الثالث، أو بالأحرى قيادة مجموعة من الجنود، معظمهم مجندون جدد، كانوا حينئذ يسرون بهذا الاسم التاريخي لكنني كنت أنوي أن أكون صريحاً لأنني كنت أعتقد انه حان الوقت الذي ينبغي فيه ان يعرف الشعب ما يجري وأعترف أن لغتي لم تكن مؤدبة، لكن علي ان أجد مع ذلك أين تصنع اللغة المؤدبة حكومة ناجحة».

لقد أنقذه صديقه «آيزنهاور» ثلاث مرات من سخط السياسيين: أما في هذه المرة فلم يستطع. لذا لم يبق أمامه إلا خيار واحد وهو ان يسلم زمام القيادة إلى «ترسكوت»، لكنه حفظ له ماء وجهه إلى حد ما بنقله إلى قيادة ما كان يسمى بالجيش الخامس عشر، وهي قيادة كانت ما تزال في المانيا إنما ليس فيها من عمل أكثر من كتابة سجل للعمليات منذ يوم «د».

يوم الأحد في ٩ كانون الأول كان برفقة «غي» الذي ما فتئ رئيس أركانه، وقد أنطلقا على طريق «فرانكفورت» - «مانهايم» ليقضيا يوماً في اصطياد طيور التدرج. كانا، كلاهما، يجلسان في المقعد الخلفي من السيارة عندما انعطفت فجأة شاحنة آتية من الجهة المقابلة، إلى اليسار ومن أمام سيارتهما كي تدخل ممراً جانبياً. فانحرفت كلتا السيارتين كي تتجنبا اصطداماً رأسياً وضربت واحدتهما بالأخرى ضربة سطحية مائلة. فانقذف «باتون» بعنف إلى الأمام بحيث اصطدم رأسه إما بمؤخرة المقعد الخلفي أو بسقف السيارة فتحطمت فقرات عموده الفقري العلوية مما أسفر عنه شلل مباشر تقريباً من العنق فنازلاً وكانت المأساة الكبرى. فـ«باتون» الذي كان يحلم بميتة مفاجئة كما يموت الجندي ظل يصارع في معركته الأخيرة، معركة المرض، عشرة أيام.

وقد دفن في مقبرة الامريكيين في « هام » قرب « اللكسمبرغ » بين رجال جيشه الثالث الذين قاتلوا وقضوا نحبهم في معركة «الآردن». وكما قال «نابليون»: «حدود عظمة الأمة تعيِّنها قبور جنودها».

ثبت المراجع

ألن س : التقدم المحظوظ ماكفان ١٩٦٥

امبروز س : القائد السامي، كاسل ١٩٧١

آيروف : قبل ان تضمحل الاعلام كاسل ١٩٦٥

بليك ر : (محرر): «أوراق دوغلاس هيغ الخاصة آير وسبوتيسوود ١٩٥٥

بلمنسون م. : انتصار «رومل» الأخير، ألن وأنوين ١٩٦٨ (كتاب نوصي بقراءته)

بلمنسون م : الاقتحام والمطاردة: دائرة الجيش ١٩٦١ (كتاب نوصي بقراءته)

بلمنسون م : (محرر) وثائق باتون ١٨٨٥- ١٩٤٠

هوغتون ميفلين: ١٩٧٢(كتاب نوصي بقراءته)

برادلي أو. ن : قصة جندي أيروسبوتيسوود ١٩٥١

بريانت : «الظفر في الغرب» «كولينز» ١٩٥٩

بريانت : «تحول المد» كولينز ١٩٥٧

بتشر هـ. سي : ثلاث سنوات مع آيزنهاور هينمان ١٩٤٦

بتكر جـ. : «مترجم» مذكرات البارون دي ماربو» لونغمانز ١٩٠٧

كارل هـ.م : «الغزاة آتون» هاراب ١٩٦٢

كارمز م. : طبرق، باتسفورد ١٩٦٤

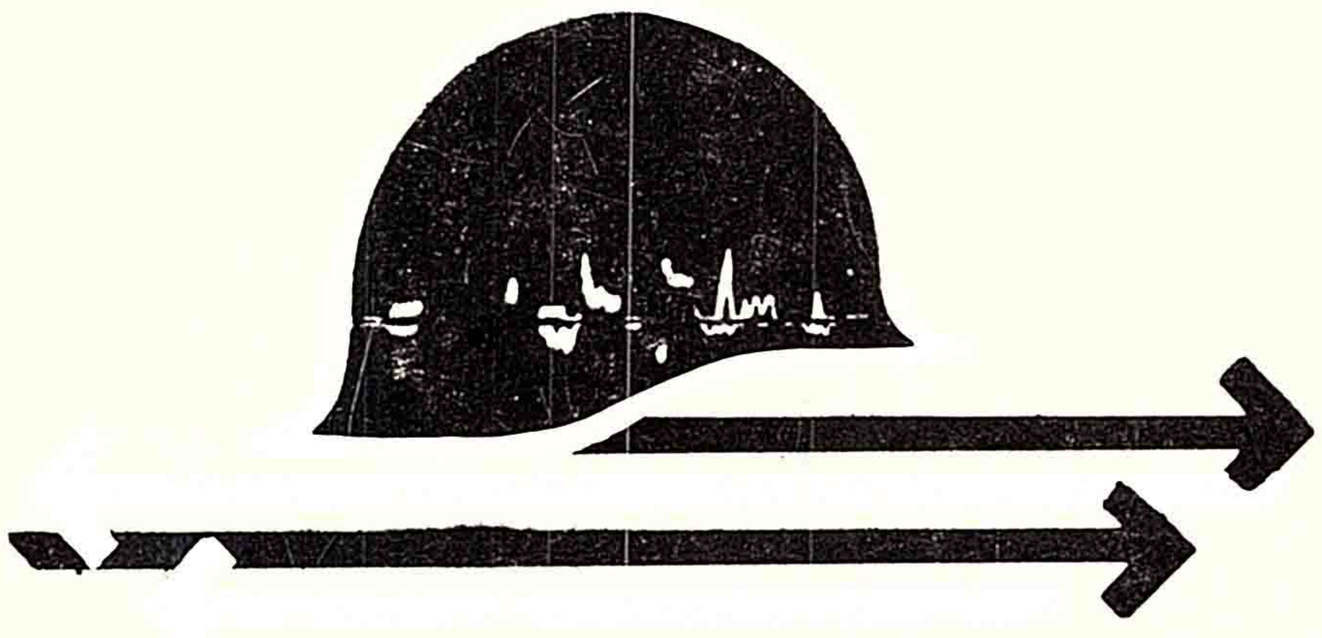
تشاندلر م. و «امبروز س» : وثائق آيزنهاور: خمسة مجلدات مطبعة جونز هوبكينز ١٩٧٠ (كتاب نوصي بقراءته)

تشرشل و. س : الحرب العالمية الثانية: المجلدان الرابع والخامس «كاسل» ١٩٥١.

«كودمان سي. ر» سق: ليتل وبراون وشركتهما: بوستون ١٩٥٧
كوفمان اي. م : الحرب التي وضعت حداً لكل الحروب
(مطبعة جامعة أكسفورد) نيويورك ١٩٦٨
كول هـ. م : «حملة اللورين» دائرة الجيش ١٩٤٩ (كتاب نوصي بقراءته)
كول هـ. م : «الآردن» دائرة الجيش ١٩٦٤ (نوصي بقراءته)
اليس. ل.ب : «الانتصار في الغرب» مجلدان (مكتبة صاحبة الجلالة الثانية)
١٩٦٢ و١٩٦٨ (نوصي بقراءته).
آيزنهاور د. ذ : حرب صليبية في أوروبا، هينمان ١٩٤٨
اسبوسيتو ف. آي: «أطلس الحد الغربي للحروب الأمريكية»
بريغر : «١٩٥٩» (نوصي بقراءته)
اسام هـ. : «معركة من أجل المانيا»، باتسفورد ١٩٦٩
اسام هـ. : «معركة من أجل أوروبا» ١٩١٨ بانسفورد ١٩٧٢
فاراغول : «محنة باتون وانتصاره» باركر ١٩٦٦ (نوصي بقراءته)
فرغسون ب : «المتاهة المائعة» كولينز ١٩٦١
غالانت ب : «الجنرال لسلي فروين» ١٩٦٩
غيلي م.هـ : «طرق الصاعقة» شركة الخدمات الاجتماعية للنشر هارسبرغ
بنسلفانيا ١٩٤٧
غرينفليد ك. ز : (محرر) قرارات القيادة ميثون ١٩٦٠ (نوصي بقراءته)
هارمون أي. ن : «قائد المعركة برنتيس - هول» ١٩٧٠
هنريكس ر. : «من سيرتي الذاتية» سكرو ووربرغ ١٩٦٩ (نوصي بقراءته)
هوروكسي ب : «حياة تامة» كولينز ١٩٦٠
جاكسون ف. : «الكساندر تونس» باتسفورد ١٩٧١
كوتش أو. و : «مخابرات من أجل باتون» آرمي تايمز ويتمور ١٩٧١
لوين ر. : «روميل - قائداً عسكرياً» باتسفورد ١٩٦٨
لوين و. : «مونتغومري» باتسفورد ١٩٧١
ليدل هارت ب. : «تاريخ الحرب الثانية» كاسل ١٩٧٠ (نوصي بقراءته)
لونغ جـ. : «ماك آرثر - قائداً عسكرياً» باتسفورد ١٩٦٤
مونتغومري ب. : «من النورماندي إلى البلطيق» هتشينسون ١٩٤٦
مونتغومري ب. : «من العلمين إلى سانغرو» هتشينسون ١٩٤٨
مونتغومري ب. : «مذكرات كولينز» ١٩٥٨

نيكولسون ن. : «الكس» ويدنفلد ونيكولسون ١٩٧٣
باتون جـ. س الابن : «الحرب كما عرفتها» هوغتون ميفلين ١٩٤٧
بارل جـ. : «الدم والبسالة ـ باتون». كتب مونارك ١٩٦١
بيرشينغ جـ. ج : «خبرتي في الحرب العالمية» هودر وستواتون ١٩٣١
رومل اي. : «العمليات الهجومية للمشاة» مطبعة القوات المقاتلة ١٩٥٦
سمز هـ. هـ : «سايكولوجية القيادة» ابلتون سشري كروفش ١٩٥٥ كروفتس (نوصي بقراءته)
سيكسميث اي. ك. جـ. : «آيزنهاور»، بارتسفورد ١٩٧٣
سبيدل هـ. : «دافعنا عن النورماندي» هربرت جنكينز ١٩٥١ (نوصي بقراءته)
سترونغ ك. : «المخابرات في القمة» كاسل ١٩٦٥
تدر أو. : «بتحيز» كاسل ١٩٦٦
وستفال ر. س : «الجيش الألماني في الغرب» كاسل ١٩٥١
وستفال ر. ت : «قرارات مصيرية» جوزف ١٩٥٦
ويلموت سي : «الصراع من أجل أوروبا» كولينز ١٩٥٢ (نوصي بقراءته)
ماكميلان هـ : «انفجار الحرب» ماكميلان ١٩٦٧

فهرس



هذا الكتاب يروي سيرة رجل كرّس نفسه للحرب، رجل ولد ليكون قائداً ومحارباً ومخططاً، رجل كان يستطيع ان يعيش في بحبوحة من الأمن والرخاء والدعة والسلام. لكنه آثر حياة الحرب، حياة المشقة والمسؤولية والتعب.

كان باتون رجلاً مولعاً بالمغامرات، مستعداً لقيادة الهجوم تلو الهجوم وفي كل حين، ليلاً أو نهاراً وهو مع كل ذلك كان رابط الجأش قاسي الفؤاد، حديد البصر، صارم النبرة، قوي البنية، راجح العقل.

من أقواله المأثورة: على الجندي ان يخاف رئيسه أكثر من خوفه عدوه، هذا إذا شاء ان يصبح جندياً جديراً بتنفيذ ما يوكل إليه من مهمات إن في الثكنة أو في ساحة النزال. ومن هنا كان جنوده أكثر الجنود انضباطاً، وأشدهم إقداماً، وأثبتهم جناناً.

وبعد، فهذه سيرة قائد كان له النصيب الأوفى في تسريع انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، تُرى أي انسان كان ذلك القائد؟